الخطابة وإعداد الخطيب

الأستاذ الدكتور

عبد الجليل عبده شلبى



دار الشروق

الخطابة وإعداد الخطيب

الأستاذ الدكتور
عبد الجليل عبده شلبى
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية "سابقًا"

دار الشروق

الخطابة وإعداد الخطيب

الطبعة الأولى

١٤٠١ ـ ١٩٨١

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني هاتف : ٧٥٤٣١٤ برقيا : شروق القاهرة - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

فاتحة الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

من أدب القرآن الكريم

الرحمٰن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان .

اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

أو من ينشأ فى الحِلْية وهو فى الخصام غير مبين .

ويوم نبعث فى كل أمة شهيدًا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدًا على هؤلاء ونَزّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

الٓر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظُّلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد .

قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا .

تبارك الذى نَزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا

من أدب النبوّة

أوتيت جوامع الكلم .. أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم أنبيائه ورسله . وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه .

وبعد : فهذه بحوث فى قواعد الخطابة وأصولها . ونماذج مختلفة فيها ، وأطراف من تاريخها وتطورها ، كتبتها لطلاب الدعوة الإسلامية ودعاة المسلمين ، وقدمت لهم فيها ما يمكن أن يكون مددًا لهم فى مواقفهم الخطابية المختلفة ، وما يمكن أن يوجههم إلى المزيد من قراءة التاريخ الإسلامى ، ويفتح أذهانهم على التفكير فى أحداثه . ويدفعهم إلى الاستكثار من معلوماتهم الأدبية عن حياة المسلمين الأوائل ، وخصوصًا عن حياة الزهاد والعباد ، وما كان لهم من مواقف مشكورة صلبة أمام الحكام ملوكًا كانوا أم ولاة أم تابعين .

وقد كان من حسنات الجامعة الأزهرية أن أنشأت كليات للدعوة الإسلامية يتخصص أبناؤها لدرس التاريخ الإسلامى ، ودرس أصول الدين الإسلامى وجوانب من تشريعه ونظمه ، ثم يدربون على تبليغ هذه الرسالة بطرق التبليغ المختلفة . وكان فى كليات أصول الدين فرع أيضًا للدعوة الإسلامية يدرس مثل هذه الدراسة بطريقة موجزة نظرًا لمشاركة المواد الأخرى مواد الدعوة فى الزمن المقرَّر لها . وقد اقتضى تطور الدراسة والعناية بهذه الأقسام . أن يخصص المنهج زمنًا معينًا لدرس الخطابة والتدرب عليها . لأنها المادة التى يعتمد عليها الداعية فى بلاغ دعوته . وأسندت إلىَّ كلية أصول الدين بالمنصورة أن أقوم بتدريس هذه المادة ، فوضعت لهم هذه المذكرات عسى أن يجدوا فيها ما يساعدهم على القيام بهذه المهمة الشاقة .

رأيت فى كثير من المواقف وكثير من البلدان ــ خصوصًا فى صعيد مصر وفى السودان ــ أن الواعظ مرجع للناس فى مختلف شئونهم . ففى مجالس الصلح بين القبائل المتعادية المتقاتلة ، وفى حفلات الأملاك الكبيرة ، وفى المناسبات العامة وفى المجتمعات

الكبرى . يدعى الواعظ ليسمع الناس منه حديثًا مناسبًا . وبعض الوعاظ بسبب إجادته الخطابه . وحسن ملاءمته بين خطبته والموقف الذى تلق فيه ؛ يكبر فى أنظار الناس وينال مكانة يقدمونه بها على حكامهم . بل ويضطر الحاكم للحصول على رضا الناس عنه وطاعتهم إياه فى رضى وإنابة ؛ أن يستعين بالواعظ . وإذا قدم على جمع أو دخل سرادقًا كبيرًا قدم الواعظ أمامه ومشى هو خلفه . وبهذا يكبر الحاكم أيضًا فى نفوس محكوميه . ورأيت وعاظ وأئمة مساجد ودعاة للإسلام يتبوأون من قلوب الناس مكانة عظيمة لا يزاحمهم فيها الحكام ذوو القوة ولا الأقارب الأدنون ذوو الوشائج القوية والصلات العاطفية . ومرجع ذلك كله إلى إجادة هؤلاء الدعاة خطبهم ومقدرتهم على التأثير فى نفوس سامعيهم .

وأذكر مع الأسف أنى شاهدت آخرين عاشوا وماتوا ولم يكونوا شيئًا مذكورًا . لا فى خطابتهم ولا فى مكانتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكنه سبحانه له فى خلقه شئون .

كنت ألاحظ دائمًا ـ وذلك أمر لا يحتاج إلى ملاحظة عميقة ـ أن نجاح الخطيب وفشله يرجع إلى أمرين رئيسيين : جودة المعلومات التى يقدمها أو ضحالتها . وحسن إلقائه أو ضعفه . فالخطيب المطلع الذى يمد الجمهور بمعلومات جديدة غير الذى يكرر معلومات يعرفها السامعون . والذى يلقى خطبته بطريقة فنية . معبرة موحية ، غير الذى يسرد المعلومات سردا . لهذا عنيت فى هذا الحديث أن أمد الواعظ أو الخطيب بقدر من المعلومات الأساسية العامة ، وأرشده إلى ما ينبغى أن يعمله لتظل معلوماته حية متجددة ، كما عنيت بشرح طريقة إلقاء الخطبة ، وكيف تكون ذات وقع فى نفوس سامعيها ، وأكثر من هذا أنى أرشدت إلى طريق تأليف الخطبة وما ينبغى أن يتجنبه الخطيب من عبارات واتجاهات ، وما ينبغى أن يسلكه فى تفكيره وتعبيره مما يخلصه من المآزق التى تواجهه وينجيه من نقد الناقدين ، وفى كل ذلك ذكرت الأمثلة العديدة ، من خطب منشأة أو منقولة . ثم عرضت جانبًا من تاريخ الخطابة فى الأدب اليونانى والرومانى والعربى ، ووقفت وقفة أطول لدى العصر الأموى ، ولكنى لم أغفل العصور الأخرى ، ذلك أن خطب العصر الأموى أغزر وأقوى ، وليس الغرض من الكتاب هو تاريخ الأدب الخطابى وإنما الغرض الأساسى هو إمداد الخطيب بما يتدرب به ويزيد معلوماته .

وفى الحديث عن الأحزاب السياسية فى صدر الإسلام قدمت عن كل حزب نبذة تاريخية يتضح بها منهج خطبائه وخطبه .

وأسأل الله تعالى أن ينفع بعملى هذا ، وأن يتقبله بقبول حسن منه وأن يمنحنى من فضله ورحمته بعض ثواب منه ورضا ومغفرة ، وهو سبحانه وليي وحسبى ، عليه توكلت وإليه أنيب .

عبد الجليل شلبى



مــــا هى الخطـــابة

عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض كثيرًا ولكن منها ما ليس جامعًا لكل أنواع الخطابة وجزئياتها . ومنها ما ليس مانعًا من دخول أشياء أخرى معها مثل الوصايا والدروس والإعلانات وهكذا . وأوضح وأدق ما عرفت به الخطابة أنها هى : «فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة» .

هذا التعريف ــ كما ترى ــ يقوم على عناصر معينة هى :

١ ــ أن يكون الحديث مخاطبة لجمهور من الناس . فإذا كان الشخص يتحدث إلى فرد أو اثنين . فإنه عادة لا يحتاج إلى لهجة خطابية . ويكفيه أن يشرح المعنى أو الفكرة التى يريدها فى صوت هادئ وطريقة مألوفة فى كل الأحاديث فهذا ليس خطبة .

٢ ــ أن يكون بطريقة إلقائية . وهذا يعنى جهارة الصوت وتكييفه باختلاف نبراته وتجسيم المعانى التى تتضمنها الخطبة . وإبداء التأثر بها . ومن مكملات هذه الطريقة أن تصحبها إشارات باليد أو بغير اليد . كما يبدى الخطيب انفعالاته بما يقول . فكل ذلك يثير السامعين ويوجه عواطفهم نحوه ويجعلهم أكثر استجابة لرأيه .

٣ ــ أن يكون الحديث مقنعًا بحيث يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التى يدعو إليها الحديث . فإذا خلت الخطبة من هذه الأدلة فإنها لا تزيد على أن تكون إبداء رأى . وهى تكون فاشلة لأنها لا تؤدى إلى الغرض الذى قيلت من أجله . والخطيب الناجح يشرح الأدلة التى يسوقها شرحًا وافيًا يكثر فيه المترادفات ويعيد بعض الجمل ويلح على تركيز معان خاصة وجزئيات وأمثلة توضح الفكرة وتثبتها فى أذهان سامعيه .

٤ ــ أن يتوفر فى الخطبة عنصر الاستمالة ــ وهذا يعنى توجيه عواطف السامعين واستجابتهم للرأى الذى تدعو إليه الخطبة . لأن السامع قد يقتنع بفكرة ما . ولكن لا يعنيه أن ينفذها أو أن تتحقق من غيره فلا يسعى لتحقيقها . هذا العنصر من أهم عناصر الخطبة لأنه هو الذى يحقق الغرض المطلوب منها . فاللصوص والوشاة والنمامون وفاقدو الأمانة فى أعمالهم وغيرهم من منحرفى السلوك يدركون فساد أعمالهم وسوئها

ولكنهم مع ذلك يمارسونها ، بل أكثر من ذلك ـ وهذا يرجع لأسباب نفسية ـ أن الشخص الكذاب قد يشرح أضرار الكذب وسوء نتيجته بأكثر مما يتحدث الواعظ والمربى وكذلك يتحدث اللصوص عن أضرار السرقات . والمهملون عن أضرار الإهمال .. وهكذا . وكل ذلك يوضح أن الإقناع وحده لا يكفى لنجاح الخطبة . بل لابد من جذب السامعين لإشباع الفكرة ، واستمالة عواطفهم نحوها ، حتى يتبع اقتناعهم عمل بما اقتنعوا به . والإلقاء ذو أثر كبير فى استمالة السامعين .

فمن الخطباء من يكون فاتر الإلقاء ضعيف التأثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباء . ومنهم من يأتى بأدلة أقل أو أضعف ولكنه يثير عواطف السامعين ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرته ويحاول كل واحد منهم أن يعمل على تحقيق شىء منها بقدر طاقته .

قد يدعو خطيب ما أبناء قريته إلى إنشاء مدرسة لتعليم ناشئيهم ، فيبين لهم مزايا هذه المدرسة وما يعود على أبنائهم من فوائدها فيسمعونه ويشكرونه ثم لا يعملون أى شىء لإنشائها ، لا يطالبون أولى الأمر بها ، ولا يتبرعون لها فتموت الفكرة مع اقتناعهم جميعًا بفوائدها . وربما تحدث آخر فى الموضوع نفسه فإذا الناس مندفعون لتحقيق دعوته ، هذا يكتب طلبًا لبناء المدرسة وهذا يبحث عن أرض صالحة لها. وهذا يبدأ قائمة التبرع لها وهكذا ، وإذن فقد نجحت الخطبة وآتت ثمرتها . ولا يرجع نجاحها إلى الإقناع بل إلى الاستمالة .

قد يكون هناك موضوع لا يدخله عنصر الاستمالة أصلاً . فإذا وقف متحدث فى جمهور يشرح نظرية علمية ، مثل تكوين الطيف من ألوان سبعة أو كيفية حدوث التمثيل الكلوروفيللى فى النبات ، أو كيف يصرع التيار الكهربى ، أو ما أشبه ذلك من النظريات .. فليس فى حديثه ما يحتاج إلى استمالة وإن كان مشتملاً على إقناع واضح وحسن استدلال ، فهذا غير داخل فى تعريف الخطبة ، وعمل المدرسين من هذا النوع ، يأتون بحقائق مجهولة لتلاميذهم فيلفتون أذهانهم نحوها ويقيمون الأدلة على صحتها ولكن عملهم ليس داخلاً فى إطار الخطابة ولا يشمله تعريفها .

وبالعكس من ذلك أعمال القصاص ، يروى الواحد منهم أحاديث نادرة لأشخاص حقيقيين أو وهميين ، فيصور بها حسن العاقبة لأعمال الخير ، وسوء المصير لأعمال الشر . وينفعل السامعون بهذا النوع من الوعظ ويتأثر به سلوكهم ، ولكن هذا العمل لا يسمى خطبة أيضًا من ناحية لأنه ينقصه عامل الإقناع الكلامى . وإن كان مقنعًا بما فيه من

أحداث ، ومن ناحية أخرى أنه ليس إلقاء خطابيًا ، بل هو حديث وعظات .

ومن ذلك أيضًا الوصايا الطويلة والحكم القصيرة التى يقدمها الحكماء والمجربون لأبنائهم ، وأصحابهم ، وكتب الأدب العربى تحفل بهذا النوع من الكلام . هذه لا تسمى خطبة لأنها تفقد كل أو معظم أركان الخطبة ، ولكن دارسى الخطابة يذكرون الوصايا والمحاورات والأجوبة .. تبعًا للخطابة ، لأنها شىء مكمل لها وإن لم تستوف أركان الخطبة ولا ينطبق عليها تعريفها .

الخطابة بين فنون الأدب

الخطابة نوع من النثر ، وبهذا التعريف الذى سبق تختلف عن الكتابة وعن النثر الفنى . إذ لا شرط هناك لوجود الإقناع أو الاستمالة وقد تكون الكتابة وصفًا لمنظر ما ، أو صفة لحالة نفسية للكاتب . ولكن الخطابة قد تحتوى عبارات كثيرة من النثر الفنى فيها جمال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق ، وقد يرفع هذا قيمة الخطبة ويجعلها أشد تأثيرًا لكن الخطبة فى جملتها ليست نثرًا فنيًا يقوم على تجويد العبارات والتأنق فى الأساليب ، وغالبًا لا يتفق هذا مع الإقناع الاستمالة .

والخطبة تختلف عن الشعر ، لا يرجع هذا الاختلاف إلى أن الشعر موزون مقفى والخطبة ليست كذلك فقط ، بل يرجع فوق هذا وأهم منه . إلى أن الخطبة تتناول المسائل الجادة الواقعية ، وتقوم على الحقائق الملموسة . بينما يقوم الشعر أساسًا على الخيال والعاطفة ، فإذا تناول أمرًا واقعيًا تناوله من جانب العاطفة أيضًا ، ولهذا قد يحلى الخطيب خطبته بشىء من الشعر لإثارة سامعيه وإيقاظ عواطفهم ، كما قد يستعمل أسلوبًا شعريًا يقوم أيضًا على الخيال والعاطفة ولكن قوام الخطبة وكيانها يقوم على الإقناع والاستمالة .

هب أن خطيبًا وشاعرًا قاما يرثيان عظيمًا من الناس فماذا يقول كل منهما ؟ ..

أما الشاعر فإنه يعمد إلى استجاشة عواطف الناس بأسلوب يشيع فيه الرقة الموسيقية ، ويعرض صورًا من حياته ومواقفه المشرفة ، وما له من ميزات وفضائل ولكن كلامه فى هذا أدنى إلى الإشارة والتلميح ، كأنه مجرد تذكرة للناس ، وربما انتقده فى رأى أو أبدى معارضته فيه ، وذلك أيضًا يكون على سبيل العرض السريع الموجز ولابد فى

كل ذلك من الجوانب الخيالية التى تثير عاطفة السامعين ، وتشعرهم بقدر الميت ومكانته على الرغم مما يذكر من نقده ومخالفته فى بعض الآراء والمواقف .

وأما الخطيب فهو بين حالتين . قد يذكر شيئًا من تاريخ الفقيد وتكوينه العلمى أو السياسى ، وميوله وطباعه ، ثم ينتهى إلى آثاره ومزاياه ، وما خسر الناس بموته من انقطاع أعماله وآثاره وفى هذه الحالة يسمى كلامه تأبينًا وليس خطبة ، لأنه مجرد سرد أخبار وتاريخ ، وليس ثمت إقناع ولا استمالة لمبدأ ما . فهو خارج عن نطاق الخطابة وتسميته خطبة عمل مجازى . وقد يضيف إلى ما سبق أن المبادئ التى كان يعمل لها ذات أهمية فى حياة قومه وأنهم لابد أن يتابعوها ويعملوا على بقائها فيكون حديثه خطبة لأنها حينئذ اشتملت على الإقناع بإحياء مبادئه والاستمالة لمتابعتها .

وسنوضح هذا أكثر عند ذكر الأسلوب الخطابى ولكنا نقدم من الأمثلة ما يزيد الأمر وضوحًا .

تمثيل للفرق بين منهج الخطيب ومنهج الشاعر

لما مات الإمام الشيخ محمد عبده كان الذين يريدون تأبينه ورثاءه كثيرين جدًّا ولكن اللجنة المختصة اختارت أربعة من أصدقائه يتحدث كل واحد منهم عن جانب من جوانب حياته ، واختارت حفنى ناصف وحافظ إبراهيم تلميذه وصديقه ليلقى كل منهما مرثية شعرية .

كان قاسم أمين أحد الأربعة المتحدثين وقد اختار أو اختير له أن يتحدث عن أخلاق الشيخ وفضائله وإمامته . وجاء فى كلمته :

« ... إن كل نفس بشرية لها نصيب من الجمال والقبح ، والكمال المطلق لا يوجد فى هذا العالم ، ولكن بعض النفوس الممتازة تقرب من الكمال أكثر من غيرها . فتنمو زهرة الجمال فيها نموًّا عجيبًا ، وتتكاثر فروعها وتمتد طولاً وعرضًا ولا تترك محلاً لسواها فيضعف ويذبل كل نبات خبيث بجانبها .

ومن هذا القسم الممتاز كانت نفس إمامنا العزيز ، نفس خلقت على أحسن شكل زينها صاحبها بالفضائل حتى صار مثلاً فى الجمال يجب أن نضعه دائمًا أمامنا لنعلم منه مقدار ما يصل الجهد فى العمل عند رجل اقترب من سن الستين ... ونتعلم منها أيضًا

مبلغ ارتقاء الخلق فى إنسان أجهد نفسه وهذبها ورباها حتى أرسلها إلى أقصى ما تصل إليه نفس بشرية من الجمال والكمال .

كان للإمام الذى فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم وأعداء كثيرون ، وهم جيش الجهل المركب من عامة الناس الذين لم ينالوا من التربية والعقل ما يؤهلهم لأن يدركوا مقاصده ويفهموا مباحثه فيقتصروا على التمسك بما وجدوا عليه آباءهم من قبل ، وعلى جانب هذا الجيش يحرض على الطعن عليه الحاسدون الذين يتألمون إذا ارتفع واحد من الناس عنهم فلا يجدون راحتهم إلا إذا أنزلوه من مكانه ووضعوه فى مستوى واحد معهم ، وفى مقدمة هذا الجيش ـ كقواد له ـ أرباب الغايات الذين يسيرون بسفينة مصالحهم من حيث تأتى الرياح .

إنه يجب علينا أن نضع يدنا على بناء الإصلاح الذى وضع الإمام أساسه ونحافظ عليه وندافع عنه إن أمكننا حتى نتركه إلى ذريتنا كميراث تنتفع منه وتزيد عليه ثم تتركه إلى من يأتى بعدها ، وهكذا ينمو الإصلاح فينا كلما مرت الأيام والأجيال كما هو الحال عند الأمم الحية » .

* * *

هذه الخطبة طويلة تزيد على خمس صفحات ، وهى تعتبر خطبة لأنها اتخذت من سيرة الإمام وأعماله وسيلة لمبادئ دعت إليها وبرهنت على ضرورتها . أى أنها اشتملت على عنصرى الإقناع والاستمالة .

واشترك حافظ إبراهيم مع قاسم أمين فى بعض العناصر التى تكونت منها خطبته ومن قصيدة حافظ :

تباركت هذا الدين دين محمد	أيترك فى الدنيا بغير حماة
تباركت هذا عالِمُ الشرق قد قضى	ولانت قناة الدين للغمزات
زرعت لنا زرعًا فأخرج شطأه	وبنت ولما نجتن الثمرات[1]
فواهًا له ألا يصيب موفقا	يشارفه والأرض غير موات[2]

---

(۱) أخرج الزرع شطأه : ظهرت له فراخ من حوله ، وهذا يعنى نموه وازدهاره .

(۲) يشارفه : يراقبه ويحميه .

مددنا إلى «الأعلام» بعدك راحنا ... فردت إلى أعطافنا صفرات[1]
وجالت بنا تبغى سواك عيوننا ... فعدن وآثرن العمى شرِقات

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا ... جهادك حتى سودوا الصفحات
رأيت الأذى فى جانب الله لذة ... ورحت ولم تهمم له بشكاة
لقد كنت فيهم كوكبا فى غياهب ... ومعرفة فى أنفس نكرات

وجاء فى مرثية حفنى ناصف :

للمسلمين إليك أكبر حاجة ... فإذا قضيت فما قضوا أوطارا
من ذا يناضل عن شريعة أحمد ... ويذود عن أكنافها الأخطارا
ويصون دين الله من شُبَهِ العِدَا ... ويرد غارة من به يتمارى

ويذَكِّرُ العلماء ألا يغمضوا ... عما اقتضاه زمانهم أبْصَارا[2]
ويظل بالإصلاح مغرى كلما ... وجد السبيل إلى صلاح سارا
حتى كأنَّ عليه عهدًا للعلا ... أو يصلح الأخلاق والأفكارا
إن كان فينا مصلح يقوى على ... ذا العبء أوسعنا لك الأعذارا
لا خير بعد محمد فى العيش إن ... كانت نفوس الخالفين صغارا[3]

والعناصر البارزة فى كلام هؤلاء الثلاثة هى أن الإمام كان شغوفًا بالإصلاح وأنه لاقى فى سبيل دعوته إيذاء وعداوات وأنه لا يوجد بعده من يسد فراغه ويتابع منهجه الإصلاحى .

وتعبير الشاعرين يختلف عن تعبير قاسم أمين ، وقد اتسع له المجال النثرى فملأ حديثه بالتحليل والتعليل ، لماذا كان له أعداء ، ولماذا كان هو مصرًّا على الاستمرار فى الإصلاح . ولكن انظر الفرق بين قوله :

---

(١) يريد بالأعلام رجال الازهر .
(٢) يريد ألا يغضوا أبصارهم عن تطورات الزمن
(٣) يريد بالخالفين الخلفاء بعده

«كان للإمام الذى فرض على نفسه إصلاح أمته خصوم .. الخ» وقول حافظ :

وآذوك فى ذات الإله وأنكروا   جهادك حتى سودوا الصفحات
لقد كنت فيهم كوكبا فى غياهب   ومعرفة فى أنفس نكرات

نجده ألم بما قاله قاسم ولكن فى إشارة فقط ودون تحليل وتعليل . وكلام ناصف لا يختلف عن هذا فهو يتساءل عمن سيقوم بعد الإمام بالإصلاحات الكثيرة التى كان يقوم بها . ويعدد جوانب هذا الإصلاح . ثم يختم حديثه بعبارة يائسه . كما قال حافظ إنهم إذ مدوا أيديهم للأعلام عادت إليهم خاوية . ولم يشأ قاسم أمين أن يجرح مشاعر الآخرين بمثل هذا لأنه ينشد استمرار حركة الإصلاح ويدعوهم لمتابعتها .

ومن هذا نرى أن لدى الخطيب فرصة التوضيح والشرح لأنه يخاطب العقول ـ ويحاول إقناعها . أما الشاعر فإنه يثير مشاعر الناس نحو أمر قد يكونون عرفوه من قبل .

وموقف آخر

نعرض هنا موقفاً آخر شبيهًا بما تقدم نريد منه فقط أن نوضح الفرق بين التعبير الشعرى والتعبير النثرى خطابة أو كتابة .

كان المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى من كبار الكتاب ومشهوريهم فى الجيل الماضى ، وكان من ميزاته الكتابية أنه تخلص من قيود السجع والحلية اللفظية ، فكان يسجع فى غير تكليف ويوازن بين جمله ويجعل لها فواصل بقدر ما يتاح له ذلك ، فكانت كتابته عذبة جميلة ، وكان الناشئون والمعلمون جميعًا يكلفون بها .

وكانت نظرته إلى المجتمع المصرى نظرة حزينة باكية . وجمع مقالاته فى كتاب كبير سماه «النظرات» . كما أخرج بضع قصص فى كتاب آخر سماه «العبرات» وترجمت له بعض قصص غربية كانت كلها مآسى أيضًا .

وتحدث الكثيرون عنه غداة وفاته كتابة وخطبًا كما رثاه شعراء زمنه وجاء فى كتابة المرحوم العقاد عنه هذه العبارات .

«لقد كان المنفلوطى أحد أولئك الأدباء القلائل الذى أدخلوا «المعنى والقصد» فى الإنشاء العربى بعد أن ذهب منه كل معنى ، وضل به الكاتبون عن كل قصد» .

«مزية المنفلوطى فى هذا الدور النافه الهزيل أنه برئ من تلك النفاهة ، ومشى بقدميه

على النهج الجديد الذى أدْخل فيه المعنى والقصد » .

« قرأت فى بعض ما رثى به المنفلوطى أنه « كاتب النفس الإنسانية » .. » .

« ولست أرى فى كل ما وصف به ... صفة هى أبعد من الحقيقة وأدل على الجهل بالنفس من هذه الصفة » .

أرى أن غزارة الدموع شىء والإحساس بمصائب النفس الإنسانية شىء آخر .

« انظر إلى أبطال المنفلوطى فى قصصه ومقالاته ، فكيف تراه يعطف عليهم ويرثى لآلام نفوسهم وأشجان ضمائرهم ؟ » .

ما ظنك بقلب لا يستدر العطف على المصاب حتى يجمع عليه بين ضنك الفاقة ـ وتبريح السقم . ويأس الحب ، ووحشة العزلة وذلة اليتم ، وسائر ما يحيط بأشتات المعذبين فى الأرض من صنوف الشقاء وضروب الهوان والحرمان ؟ وما ظنك بعين لا تجود بالدمع على السكير أو المقامر أو المنكوب حتى تخرجه من الدنيا شريدًا مسلوبًا ، أبا لأيتام يتضورون من الجوع ، وزوجا لأيم تتبلغ بثمن العفاف ؟[1] .

والعقاد يشير بهذا إلى قصص المنفلوطى فى كتاب « العبرات » وهو نقد صادق ، لأن المنفلوطى لم يكن ذا ثقافة فلسفية ولا نظرة فاحصة دقيقة فكانت قصصه ساذجة ، تجمع على البائس أنواعًا شتى من البؤس ، ثم يرد معظم البؤس وأشده إلى الفقر وقلما التفت إلى حالته النفسية[2] .

وفى رثاء شوقى للمنفلوطى تعرض لهذه الأفكار فقال عن أسلوبه :

تتخيل المنظوم فى منثوره	فتراه تحت روائع الأسجاع
لم يجحد الفصحى ولم يهجم على	أسلوبها أو يُزْر بالأوضاع
لكن جرى والعصر فى مضمارها	طلقا فأحرز غاية الإبداع

وهو يشير بهذا إلى أن أسلوب المنفلوطى يحوى سجعًا رائعًا كالشعر وأنه إذ تخلى عن طريقة الأقدمين حافظ على العربية الفصيحة ، وجارى العصر بتفوق ، ولا يحتمل هذا الأسلوب الشعرى إطالة الشرح وعمق التحليل على نحو ما جاء عند العقاد .

(١) انظر هذا المقال كاملا فى كتاب .. مراجعات ص ١٥٥

(٢) العقاد يشير الى قصة اليتيم أول قصة فى كتاب العبرات

وفى نقد طريقته فى تصوير الناس بائسين حزانى يعانون الفقر ، يقول شوقى :

يا مرسل «النظرات» فى الدنيا على ... ما كان من ضجر وضيق ذراع
ومسلسل «العبرات» تجرى رقة ... للعالم الشاكى من الأوجاع
من شوّه الدنيا إليك فلم تجد ... بالملك غير معذبين جياع
أبكل عين فيه أو وجه ترى ... لمحات دمع أو رسوم دماع
ما هكذا الدنيا ولكن نقله ... دمع القرير وعبرة الملتاع

فهو - كما ترى - يصف ضيق نظرته وقصورها ، فلم ير الجانب السعيد البهيج ولكن رأى فقط الجانب المعذب الباكى ، والسعادة والشقاء أمور تتعاور الناس فيشقون يومًا ويسعدون آخر ، وليسوا كما وصفهم أشقياء على طول ما يعيشون . وقد ربط سعادة الناس وشقاءهم بالغنى والفقر ، وليس المال مقياسًا للسعادة . بل كثيرًا ما يسعد الفقير ويشقى الغنى .

يقول شوقى :

لا البؤس بالفقراء خص ولا الغنى ... غير الحياة لهن قدر مشاع
مازال بالكوخ الوضيع بواعث منها[1] ... وبالقصر الرفيع رواع
بالقفر حيات يسيبها به ... حاوى القضاء ، وبالقصور أفاع
ولرب بؤس فى الحياة مقنع ... أربى على بؤس بغير قناع

فهذه الأبيات تشير إلى ماشرحه العقاد من جهل المنفلوطى بالنفس الإنسانية ، وإذا رجعت إلى مقال العقاد تجده تحليلا نفسيا دقيقا لايمكن أن يصاغ شعرًا .

وأيضًا هذا الأسلوب البديع الرفيع من شعر شوقى لا يمكن أن يكون خطبة .
لكل من الفنين إذن مقام ولكل منهما تعبير .

وإذا استعار الخطيب أسلوب الشاعر وطريقة تعبيره باءت خطبته بالفشل خصوصًا إذا ملأها بجوانب الخيال . فأسلوب الشعر بما فيه من وزن وقافية يثير المشاعر ويبعث فى نفوس السامعين شيئًا من الحماس ولكنه حماس ليس ناتجًا عن اقتناع . بعبارة أخرى الشعر للوجدان والخطبة للعقل ولكل تعبير خاص .

---

(١) من غِيَرِ الحياة

وقد يستعين الخطيب على استمالة سامعيه باصطناع الأسلوب الشعرى فى جملة أو جملتين - كما يستشهد ببيت أو بيتين - ولكنه لا يستطيع أن يعتمد عليه طويلاً . فإذا كان مقام الخطبة مقام تكريم أو رثاء فيجب أن تكون بعيدة عن جوانب الخيال الشعرى معتمدة على ما للشخص المتحدث عنه من مآثر وأعمال . وسرد ما له من مواقف ذات أثر فى حياة أمته كما رأينا فى حديث قاسم أمين السابق . وليحذر الخطباء فى هذه المواقف من تهويل الشعراء الخيالى البحت فإنه لا يقبل فى الخطبة ولا يتبعه إلا صغار الخطباء . وانظر هذه الأمثلة :

قال بشارة الخورى فى رثاء سعد زغلول :

نعى النعاة لنا سعدًا فروَّعنا ... أن المقطم قد مادت رواسيه
ومر بالهرمين النيل مضطرما ... كأنه الجمر فى أحشاء واديه

وقال محمود غنيم فى رثاء سعد أيضًا :

ناع نعى سعدًا فطاش صوابى ... وحسبت هذا اليوم يوم حسابى
وسألت هل وقفت بنا الأفلاك أم ... دارت منكسة على الأعقاب
وعجبت كيف أطل قرص الشمس من ... أفق السماء ونجم سعد خابى

وقال شوقى :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانثنى الشرق عليها فبكاها
ليتنى فى الركب لما أفلت ... يوشع ، همت فنادى فثناها
انظروا تُلْقَوْا عليها شفقا ... من جراحات الضحايا ودماها
وتروا بين يديها عبرة ... من شهيد يقطر الوردَ شذاها

وقال حافظ إبراهيم :

إيه يا ليل هل شهدت المصابا ... كيف ينصب فى النفوس انصبابا ؟
قُدَّ يا ليل من سوادك ثوبا ... للدّرارى وللضُّحى جلبابا
وانع للنيرات سعدًا فسعد ... كان أمضى فى الأرض منها شهابا

وهذه كلها مقدمات لقصائد واضحة المعانى وكلها خيال لا يصلح منه شىء للخطابة .

الأسلوب الخطابى

كما يختلف أسلوب الخطبة وتعبيراتها عن أسلوب الشعر وطريقته يختلف أيضًا عن أسلوب الكتابة الفنية وكتابة المقالات . فالكتابة الفنية تجنح إلى جمال العبارات ، وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية ويدخلها أيضًا شيء من خيال الشعر. وكتابة المقالات تعتمد على توضيح المعنى ولكنها غالبًا تميل إلى الإيجاز . ولا يجمل بالكاتب أن يكثر من تكرار العبارات والمترادفات ، وفى وسع القارئ أن يقرأ الجملة مرتين أو أكثر حتى يتعمق المعنى الذى يراد منها ، وهذه فرصة لا تتاح لسامع الخطبة ، لهذا تعتمد الخطبة على التوضيح والإبانة ، وقد يكرر الخطيب بعض الجمل ، أو يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، أو يذكر فى الجملة الواحدة كلمتين مترادفتين ، كل ذلك مع مراعاة الأناة وقواعد الإلقاء ، لهذا كان للأسلوب الخطابى سمات خاصة نجملها فيما يلى :

١ ـ وضوح العبارات وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذى يهدف إليه مفهومًا للسامعين ، ولهذا لا يستعمل الخطيب كلمات لغوية غامضة ، ولا تعبيرات مجازية بعيدة المعنى ، ويختلف موقف الخطيب باختلاف سامعيه فهو حين يخطب فى طلاب جامعة أو أوساط مثقفة ، يستطيع أن يستعمل العبارات البليغة والمجازات البلاغية ، وليس الأمر كذلك حين يقف بين مجموعة من عامة الناس وخطيب المسجد يستمع إليه أخلاط من الناس منهم المثقف العميق ومنهم الساذج قليل الثقافة أو عديمها ، ومنهم من هو بين بين ، وهؤلاء تختلف درجاتهم العقلية والثقافية ، وهذا فى الواقع يلقى على خطيب المسجد مشقة كبيرة ، إذ هو مسئول أن يفهم كل سامعيه بمختلف درجاتهم العقلية والثقافية ولكن يجب أن تلاحظ أن العامة وناشئة المتعلمين يفهمون المعانى الإجمالية رغم أن بعض الجمل والعبارات تخفى عليهم . ومن هنا كان التكرار والإلحاح على المعنى الواحد بعبارات مختلفة له أهميته ، فمن خفيت عليه جملة بينتها الأخرى . ولا بأس أن يستعمل الخطيب بعض الجمل العامية لتوضيح غرضه على ألا يكثر من إيرادها .

وبعض الخطباء يجعل خطبته كلها باللغة العامية ، وهذا خطأ كبير ، فاللغة الفصحى لها جمالها وتأثيرها حتى على العامة واستعمال العامية الخالصة أو الإكثار منها يفقد الخطبة هذا التأثير ثم إن بين المستمعين مثقفين ، لا يستريحون لهذا الأسلوب ، بل

يؤذى شعورهم . وكما أن الخطيب يعلم سامعيه دينًا وعلمًا هو أيضًا يعلمهم اللغة والتعبير . ويستفيد ناشئو الطلبة كثيرًا من خطباء المساجد . والخطبة الجيدة تجذبهم إلى سماعها . واللغة العامية كثيرًا ما تنفرهم .

٢ ـ تعتمد الخطبة على الجمل القصيرة . وعدم الفصل البعيد بين أجزائها . فإذا ذكر المتكلم مبتدأ . ثم أردفه بجملة أو عدة جمل معترضة . ثم جاء بعد ذلك بخبر المبتدأ فإن هذا قد يخفى على السامع وأولى أن يجعل كل جملة مستقلة بنفسها كذلك الجمل الطويلة التى تكثر فيها المتعلقات من مفعول به ومفعول له ومفعول مطلق وظروف ومجرورات . مما يشق فهمه عادة ويشتت الأذهان وهذا مما يضعف تركيب الجملة ولكنها فى حال الكتابة يمكن أن تستعاد وتفحص على مهل أما فى حال الخطابة فقد تمر بدون فهم وتذهب فائدتها نهائيًا .

٣ ـ فى مقامات التهويل والإثارة يحسن استعمال صيغ الاستفهام وصيغ التعجب لأنها تؤدى فى هذه المقامات مالا تؤديه الجمل الخبرية والاستفهام الإنكارى يكاد يكون حجة مسلمًا بها . فضلاً عما فيه من جَبْهٍ وإثارة . ولكن لا ينبغى أن يكثر الخطيب من كل هذه الصيغ إكثارًا مسئمًا . وإنما تستعمل فى الوقت المناسب . وبحيث لا تفقد تأثيرها .

٤ ـ قد يستعين الخطيب بعرض قصة أو حدث تاريخى للاستشهاد به على ما يقول وهذا مفيد وناجح فى أكثر أحيانه . ولكن يفسده طول القصة أو الإكثار من ذكرها . فهذا يجعل الخطبة درسًا . والدرس عادة للتفهيم وليس للاستمالة والقصة التى تورد فى الخطبة يراد منها الاستمالة ويكفى فيها قص حدث أو واقعة تأييدًا لما جاء فى الخطبة .

ومن الخطباء من يخصص خطبته لشرح غزوة من غزوات الرسول (ﷺ) أو الحديث عن صحابى من الصحابة ـ بلال أو صهيب أو سلمان الفارسى ـ أو غيرهم وهذا يجعل الخطبة درسًا . وقد تكون ذات فائدة . ولكنها ليست خطبة على أى حال .

لهذا يجمل بالخطيب أن يقتصر من أحداث التاريخ أو السيرة على ما يستخلص منه العبرة والعظة وأن يجعل له درسا قبل الخطبة أو بعدها ـ يشرح فيه ما يريد من أحكام الشريعة أو أحداث التاريخ .

وقد يعرض للخطيب أن يرى شيئًا لا يرضاه . شخصًا يتخطى رقاب المصلين. أو آخر يقف لتنفل أثناء الخطبة ـ أو ثالثًا يكلم صاحبه وفى هذه الحالة يقطع الخطيب خطبته لينبه على هذا الحكم الشرعى بإيجاز ـ ثم يعود لخطبته ، وهذا التنبيه ليس خطبة لكنه إذا صحبه انفعال واستدلال ودعوة كان خطبة لاستيفائه شرطى الإقناع والاستمالة .

٥ ـ تختلف ألفاظ الخطبة وعباراتها بحسب المقام الذى يقال فيه ، فخطب التهديد والوعيد ، وخطب الحرب وإخضاع المتمردين تمتاز بقوة العبارة وفخامة التعبير واستعمال الكلمات الشديدة الغليظة ، كما تجد ذلك فى معظم خطب الحجاج بين أهل العراق . وقد جاء فى خطبته الأولى :

.. « إنى والله ما يقعقع لى بالشِّنان ولا يغمز جانبى كتغماز التين ، ولقد فُرِزْت عن بصيرة وفتشت عن تجربة ، إن أمير المؤمنين نثر كنانته ثم عجم أعوادها فوجدنى أمرها عودًا وأصلبها مكسرًا فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم فى الفتنة ورقدتم فى مراقد الضلال ، أما والله لأحزمنكم حزم السَّلَمَة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل .... الخ »

ومع هذه الجمل القوية استعمل أيضًا رجزًا وشعرا من هذا القبيل منه ،

قد شمّرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وترٌ عُرُدّ مثلُ ذراع البكر أو أشد
لا بُدّ مما ليس منه بدُّ[1]

أما فى حال السلم والهدوء التى لا تعدو الخطبة فيها أن تكون نصيحة فلا داعى لهذه الشدة ويكفى استعمال الألفاظ المألوفة والرقيقة ، وأنت تجد هذا فى أسلوب القرآن حيث كانت السور التى نزلت بمكة تخاطب قومًا معاندين أشداء وكانت التى نزلت بالمدينة تخاطب قومًا طائعين مستعدين لتنفيذ ما يلقى عليهم فاختلف أسلوب كل منهما بحسب مقاماته ، فانظر إلى قوله تعالى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدًا لقد جئتم شيئًا إدًّا تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، أن دعوا للرحمن ولدًا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدًا » . وقوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس

(١) ستأتى الخطبة كاملة فى ترجمة الحجاج .

والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » . فنجد فى الأولى تهويلاً عظيمًا وشدة استنكار ونجد فى الثانية مجرد أمر وانظر أيضًا إلى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » وقوله تعالى فى السورة نفسها ... « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتًا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلّكم تذكّرون » .

فنجد فى الآية الأولى عددًا من التشديدات ، أمر بالجلد مائة مرة وعدم الرأفة وربط ذلك بالإيمان بالله ، والأمر بشهر العذاب أمام طائفة من المؤمنين ، أما الآية الثانية فهى مجرد نصيحة تبين أن بها خيرًا للمؤمنين .....

٦ ـ تختلف الخطب أيضًا طولاً وقصرًا بحسب مقاماتها ، فالخطبة التى تقال لإطفاء شغب على الوالى لعمله أمرًا لم يرضه قومه ، تكون قصيرة مقتصرة على أهم أغراضها وتستعمل مع ذلك الأسلوب القوى وتجمع بين التحذير والتبشير ، تهدد المتمردين ، وتبشر الطائعين على نحو ما يفعل القرآن الكريم . وتجد مثلاً جيدًا لهذا فى خطبة أبى جعفر المنصور بعد قتل أبى مسلم الخراسانى وكان أبو مسلم قائدًا ورئيس فرقة كبيرة وهو من مقوضى العرش الأموى وخافه أبو جعفر فقتله ، ولكى يهدئ أنصاره الغاضبين لقتله خطبهم خطبة جاء فيها :

« أيها الناس ... لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تبطنوا غش الأئمة فإنه ما أضمر أحد لإمامه سوءًا إلا أظهره الله عليه ، لإظهار دينه وإعلاء كلمته . إنه من نازعنا عروة هذا القميص جعلناه جزرًا لخبىء هذا الغمد .

وإن أبا مسلم قد بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من غدر بنا فقد أهدر دمه ، ثم غدر بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على الناس لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه » .

الخطبة موجزة حتى لا تفتح مجالاً للمناقشة ، وقائمة على منطق ، فقد جعل نفسه القائم على الدين ، وإن من خرج عليه استحق أن يقتل لخيانته خليفة يقوم على دين الله وأن الله أطلعه على ما دبر له لأنه موالٍ لربه وأردف ذلك بتهديد سامعيه ، أن من يخرج عليه فسيقتل بلا هوادة ... من نازعنا عروة هذا القميص أى من بادرنا بأدنى شغب ، جعلناه جزرًا لخبىء هذا الغمد ، يعنى تمزقه بالسيف وذبحه ، ـ ثم ألبس عمله

ثوب العدالة التى لا تحابى أحدًا مهما كانت قرابته . فهناك عهد أخذه أبو مسلم على الرعية كلها وهو واحد منها ، وقد أخل بهذا العهد ـ مع أنه من أولياء الخليفة . لكن رعاية حقه إنما هى للصداقة الشخصية أما إقامة الحد عليه بقتله فهى رعاية لحق الله وحق الله مقدم على حق الصداقة .

وبهذا أخذ على القوم أقطارهم بهذا المنطق ، ثم رمى بينهم رأس أبى مسلم مع بدر الذهب فتهافتوا على جمع الذهب ثم انصرفوا يقولون بعنا قائدنا وعدنا بثمنه .

أما الخطب التى تتعرض لشرح منهج إصلاحى أو لشرح مبادئ قانونية فإنها تطول وتمتد حسبما يقتضى الأمر وهذا كثيرًا ما تجده فى الخطب البرلمانية وكذلك الأمر فى خطب المحامين لأنها قد تتعرض لدفع تهم متعددة وإقامة براهين عديدة أيضًا ، فيدعو ذلك لإطالتها ، وقد تكون القضية هينة سهلة فلا تحتاج إلى الاستدلال القانونى .

وللعرب السابقين من ذوى العلم والدراية بوقع الكلام ومواقعه مالا يستغنى عنه الخطيب المحدث . وإذا استعرضنا أقوالهم وآراءهم بوجه عام نجد أنهم أكثر ميلاً إلى الإيجاز مالم يكن ثم سبب خاص يستدعى طولاً وقد قال عبد الله بن المقفع .... «الإيجاز هو البلاغة فأما الخطب بين السماطين وفى إصلاح ذات البين ، فالإكثار فى غير خطل والإطالة فى غير إملال ، وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك .. وسئل عما يكون إذا مل السامع الإطالة التى قال هو إنها حق ذلك الموقف؟ فقال : إذا أعطيت كل مقام حقه .... وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شىء لا تناله[1] .

وقيل لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك» .

وسئل عمرو بن عبيد أيضًا عن البلاغة فقال : «إنك أن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المؤنة على السامعين وتزيين المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ؛ كنت قد أوتيت فصل الخطاب واستحققت من الله كثير الثواب .

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ . وانظر فى هذا ص ١١٢ وما بعدها وعيون الأخبار ـ ٢/١٧١ .

وقال شبيب بن شيبة : .... فإن ابتليت بمقام لا بد لك فيه من الإطالة فقدم أحكام البلوغ فى طلب السلامة من الخطل ، قبل التقدم فى أحكام البلوغ فى شرف التجويد ، وإياك أن تعدل بالسلامة شيئًا فإن قليلاً كافيًا خير من كثير غير شاف .

وهذه الآراء والنصائح كلها قريب بعضها من بعض وهى فى جملتها لا تخرج عن نطاق القواعد التى ذكرنا .

عوامل نجاح الخطبة

يختلف الخطباء اختلافًا واسعًا فى مقدرتهم الخطابية وهذا أمر طبيعى فى الخطابة وغيرها ، إن لكل مقدرته وكفايته الخاصة ، ولكن كثيرًا ما تجد شخصًا قليل الميزات الكلامية يؤثر فى سامعيه ويفيدهم أكثر ممن هو أكثر مقدرة وأفصح لسانًا ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة نجمل أهمها فيما يلى :

١ ـ **اختيار الموضوع** . فهناك موضوعات تمس حياة الناس وحاضرهم وهم لذلك يهتمون بها ويتشوقون إلى سماعها وشرح جزئياتها بينما هناك موضوعات أخرى أصبحت بعيدة عن خواطرهم ولا يعنيهم أن يسمعوا عنها شرحًا ولا تفصيلاً : وقد يثور الخطيب وينفعل فى شرح موضوع ما ، ومستمعوه يودون أن يفرغ من كلامه وهم أثناء خطابته لا يتابعونه ولا يعنيهم أن يفهموا عنه أو لا يفهموا .

إذا تحدث خطيب مسجد عن موقف الإسلام من الرق وحكمه وآثاره وتحدث خطيب آخر عن ضرورة تنفيذ الحدود الأساسية وما يترتب عليه من آثار فى مجتمعنا تجد الناس يستمعون إلى الأول كمن يعرض شيئًا من التاريخ البعيد ، بينما يصغون إلى الثانى كمن يطب لأمراضهم . ويرتفع بمستوى حياتهم ، وهو لهذا لديه ما يثيرهم به ويستميلهم إليه .

واختيار موضوع الخطبة من الأمور الهامة والشاقة إذ ليس كل موضوع يهم الناس ، يمكن أن يتعرض له الخطيب ، ولكن الخطيب الماهر اللبق يمكن أن يواجه الموضوع الخطر أو المحظور من جوانب خلفية تثير الناس وتجعلهم من تلقاء أنفسهم يصلون الحديث بالأمر الذى يعانونه .

عندما كانت مصر تحت الحكم الإنجليزى كان هناك موضوعات من حياتنا السياسية لا يجوز التعرض إليها لا فى الصحافة ولا فى الخطب حتى المعلمين كانوا يخشون الخوض

فيها ، ولكن الرمزية والإشارات التاريخية كانت تعمل عملها فى هذا المجال . فكان الحديث عن المعذبين فى العهد السرى للدعوة الإسلامية ، وما كان يحتال به معاونوهم ـ يكاد يكون شرحًا لموقف الأمة من الإنجليز ، كذلك الحديث عن الحكومات الإسلامية ومعارضيها ، الأمويون مثلاً فى صف والخوارج والعلويون والزبيريون وأتباع الأشعث والأعاجم كل أولئك فى صف آخر ، وكان استعراض موقفهم جميعًا والمحاولات التى تبذل من كلا الجانبين مما يكاد يكون حديثًا صريحًا عن حياة المصريين يثير مشاعرهم ويمدهم بالمعلومات .

وخطيب المسجد على أى حال يجب أن يكون له تركيز على أمرين :

أن يتناول حديثه سلوك الأفراد وما يجب أن يتخلق به كل شخص فى عمله الخاص وعلاقاته بالناس طبقًا لقواعد الشريعة الإسلامية فهو مرشد ومعلم ، وهو يدرك أثر الأعمال الفردية فى حياة المجتمعات فإذا استطاع أن يترك أثرًا لدعوته فى بعض الأفراد فإن كل واحد منهم سيترك بدوره أثرًا فيمن يخالفونه ويسلم هذا إلى الأمر الثانى وهو أن يمد سامعيه بمعلومات بحيث يخرج المستمع وقد زادت معلوماته شيئًا جديدًا وهذه المعلومات ليست فى الواقع إلا حججًا للمبدأ الذى دعا إليه ، وهذه المعلومات أو هذه الحجج هى التى تجعل معانى الخطبة ومبادئها أبقى فى ذهن السامعين ، أما الخطبة التى تقوم على الإثارة وحدها فقد تنجح فى استجابة وقتية ولكنها تنسى سريعًا ولا يبقى لها أثر فعال فى نفوس السامعين .

مهمة الخطيب الأولى هى أن يبث حماسًا فى نفوس مستمعيه وأن يجعل كل واحد منهم أداة فعاله تعمل على تحقيق المبدأ الذى دعا إليه ، وإشاعته بين الناس .

ولا يقتصر هذا على خطيب المسجد ، بل هو أمر عام يشمل خطباء السياسة والدين وكل مصلح اجتماعى وهذا الأمر ملموس فى الجمعيات والأحزاب ، شباب كل حزب وكل جمعيه يدعون لمبدئهم ويودون لو استوعب الناس جميعًا وهذا يرجع إلى مبدأ الإقناع والاستمالة معًا وعليه ظلت بعض الجمعيات والأحزاب حية بعد حلها وتشتيت أتباعها .

٢ ـ **وحدة الموضوع** : يجب أن يكون لكل خطبة موضوع معين ، ويجب على كل خطيب من خطباء المساجد خصوصًا أن يسأل نفسه قبل الذهاب لخطبته ماذا يريد أن يدعو الناس إليه ، وأن يسألها بعد فراغه منها ما الذى استفاده السامعون من خطبته .

ووحدة الموضوع تعنى أن يدور حديث الخطيب حول فكرة معينة أو مبدأ خاص يمهد له أولاً ثم يشرحه ثم يظل يقيم الأدلة عليه ويستكثر من البراهين العقلية والتاريخية . وأدلة القرآن والسنة ، حتى يكون واضحًا جليًّا فى أذهان المستمعين ثم يظل باقيًا فى قلوبهم وأذهانهم . إنه بهذا يعمق الفكرة ويجعل كل سامع قادرًا على أن يزيد أدلتها وحججها وأن يدافع عنها إذا دعاه الأمر إلى ذلك .

أما الخطبة التى تتناول عددًا من الموضوعات فإنها تكون ضحلة غير عميقة والحديث عن المبدأ الثانى ينسى ما قيل عن الأول كما ينسى الثالث ما قيل عن الثانى وهكذا تنتهى الخطبة بأفكار باهتة تكون قليلة ثم تنسى سريعًا ونجد تنبيهًا على ذلك فى وصاة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه فإنه قال : « وإذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا » وهذا ينطبق على تناول الأغراض الكثيرة ولكنه لا ينطبق على إيراد الأدلة الكثيرة ، فالأدلة الكثيرة إذا نسى بعض منها بقى بعض آخر ولكن الفكرة الأساسية لا تذهب .

٣ - **أن تكون الخطبة مرتبة الأجزاء ترتيبًا منطقيًّا** - مقدمة ثم عرض ثم استدلال ثم نتيجة - وكل جزء من هذه الثلاثة مبنى على الذى قبله : المقدمة تلفت الذهن وتوجهه مبدئيًّا إلى الفكرة ، وشرح الفكرة أو موضوع الخطبة يوحى بأهمية ما يدعو إليه الخطيب والأدلة التى تساق تحفز الناس إلى هذا المبدأ أو تحرضهم على العمل ، ثم النتيجة دعوة صريحة وإلزام بالعمل .

قد يعتسف الخطيب موضوعه فيهجم عليه بدون أيَّةِ مقدمة ولكن هذا يضيع جزءًا مما دعا إليه ، لأنه لم يسترع انتباه سامعيه ولم يهيئهم إلى سماع ما يريد أن يلقى عليهم .

والبداية بالنتيجة وطلب ما يعمل كبداية المدرس بالقاعدة قبل أن يذكر الأمثلة تظل أمرًا معلقًا تعوزه الأدلة والإقناع .

وعناصر الخطبة ليست كلها سواء فى الأهمية ، فمنها ما هو حتمى ضرورى ومنها ما هو تكميلى ، وعلى الخطيب أن يختار العناصر ذات الأهمية لتكون موضع تركيز واهتمام فهو يلح عليها بالشرح والأمثلة بينما لا يفعل ذلك بالأجزاء الأخرى وكل ذلك يتوقف على تقسيم الخطبة وترتيب أقسامها .

٤ - يعين الخطيب ويجعله أقدر وأنجح ، ما يعتمد عليه من حسن الإلقاء ونبرات الصوت

وقد أفردنا للإلقاء حديثًا خاصًا . كذلك تحدثنا عن أسلوب الخطبة وأثره ، فى نجاحها ..

وجمع الجاحظ أهم عوامل نجاح الخطبة فيما نقله عن بعض علماء الهند فقال[1] : «جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ فى الدرك وأحق بالظفر» ، وقال مرة :

«جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق[2] بما التبس من المعانى أو غمض ، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر .... وزين الكلام كله وبهاؤه أن تكون الشمائل موزونة ، والألفاظ معدلة ، واللهجة نقية . فإن جامع ذلك الحسن والجمال وطول الصمت فقد تم كلّ التمام وكمل كل الكمال .

الإلقـــاء

يراد بإلقاء الخطبة طريقة التحدث بها إلى الناس ، وإنهاء المعلومات بها إلى أذهانهم وقلوبهم ، والإلقاء من أهم العوامل فى نجاح الخطبة أو فشلها فقد تكون الخطبة جيدة المعانى والأفكار ، حسنة العبارات والأساليب ، ثم لا تظفر بإلقاء جيد فتضيع فائدتها إذ لا يفهمها السامعون ولا تجتذب انتباههم ، وقد تكون أقل من ذلك فى إعدادها وتكوينها ولكن جودة إلقائها تنهى إلى السامعين كل جزئية منها فتكون فائدتهم منها أكبر وأكثر . والخطيب الموفق هو الذى يستطيع أن يشد انتباه السامعين ويربطهم به ، فيتابعون أفكاره ويشاركونه انْفِعالاَتِه وعواطفه ، وأكثر من هذا أن تكون خطبته موحية تولد فيهم أفكارًا ومعانى جديدة وتوقظ عواطفهم وتوجه مشاعرهم إلى ما يدعو إليه . ولا يكون شيء من هذا إلا مع الإلقاء الجيد المثير.

---

(١) البيان والتبيين ٨٨/١ ، ٨٩

(٢) الحيرة والتخبط

وللإلقاء الجيد قواعد من أهمها مايلى :

١ ـ جهارة الصوت وقوته ، وكان العرب يفضلون فى الرجل أن يكون واسع الأشداق ويصفون الخطيب الجيد بأنه أشدق . ، وكل متفوه ذو بيان فهو أشدق واشتهر بهذا اللقب عمرو بن سعيد الأموى[1] لأنه كان من الخطباء المشهورين ، ويتوقف الصوت القوى أيضًا على قوة الحنجرة ، وقوة الصدر والرئتين ، وهذه صفات خلقية ، ومردها كلها إلى إجادة الصوت وجهارته وحسن بيان الحروف ومخارجها . وفى الوقت الحاضر سدت مكبرات الصوت مسد هذه الصفات إلى درجة كبيرة وإن كانت لا تغنى عنها نهائيًا .

٢ ـ حسن مخارج الحروف وتمييز أجزاء الكلمة وكان العرب يكرهون من الخطيب أن يكون ألثغ ـ ينطق بالشين سينًا مثلاً ، أو بالراء غينا ، أو بالكاف تاء ، فذلك يضيع بهاء الخطبة وقد يوقع السامعين فى لبس ، أو على الأقل يكلفهم شيئًا من المشقة فى فهمه ـ فإذا تحدث خطيب عن أثر الكبر وأخلاق المتكبرين فيقول : إن الشخص قد يزهو وينتفس فلا يطيق الناس نفسه ـ وهو يريد أن الشخص ينتفش فلا يطاق نفشه ـ وينتفش بمعنى يزهو كالديك ، أو يقول : إن الشخص السيئ كالجفح المنتبغ قد يفضى انتباغه إلى ضغغ عظيم ، وهو يريد أنه كالجرح المنتبر أى المتورم المرتفع ، فيلتبس كلامه بالعبقرية والنبوغ وهو معنى بعيد جدًّا عن مراده ، ويعنى «بالضغغ» الضرر وهذا سيئ.

وقد أفرد الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين فصلاً للحروف التى تدخلها اللثغة وما حضره منها[2] فذكر أنها أربعة : القاف ، والسين ، واللام ، والراء وأورد صورًا كثيرة من المنطق بها ، وذكر بعضًا من مشهورى الخطباء الذين كان بهم شىء من هذا اللثغ وكيف كانوا يتجنبونه وينجحون فى تحاشيه .

ومنهم محمد بن شبيب وهو من رجال الكلام ، وكان ينطق الراء غينًا ولكنه كان يستطيع النطق بالراء إذا ضغط لسانه ، وكان لحسن تصرفه فى الكلام وسعة المفردات

---

(١) هو عمرو بن سعيد بن العاص الأموى . كان مروان بن الحكم وعدهُ أن يجعله ولى عهده ثم ولى ابنه عبد الملك ، فكان بينه وبين عمرو هذا عداء حتى قتله عبد الملك أخيرا .

(٢) ص ٣٤ وما بعدها جـ ١

لديه . يستبدل الكلمة بأخرى خالية من الراء ، وهذا عجيب وشاق ولكنه تأتى له بطول المران حتى وصفه بعض الشعراء بقوله .

علـيم بـإبـدال الحروف وقـامـع لكل خطيب ، يغلب الحق باطله[1]

ومن أشهر هؤلاء واصل بن عطاء[2] رأس المعتزلة ، فإنه كان ألثغ فاحش اللثغ ، وكان مخرج الراء منه فاحشاً شنيعًا ، وكانت مكانته وموقفه من خصومه الكثيرين ، وحاجته لشرح مذهبه والدفاع عنه تحوجه إلى الخطب الطوال وأنها لا بد أن تكون فصيحة بينة الألفاظ واضحة الحروف ، فعمل على إسقاط الراء من كلامه فلم يزل يكابد ذلك حتى استقام له أن يلق الخطب الطوال خالية من هذا الحرف ، وكان يعادى بشار بن برد ، وكان بشار يلبس القرط فى أذنه على طريقة العجم فكان واصل يقول عنه : هذا الأعمى المشنف يريد ذا القرط . ومن كلامه فيه : «أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكنى بأبى معاذ من يقتله أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله فى منزله وفى يوم حفله .. فتحاشى اسم بشار وكلمة الكافر ، ويبقر بطنه ، وعلى فراشه ، وفى داره .. وكان الناس يعجبون منه ومن حسن تصرفه فى الكلام لتحاشى هذا الحرف ويتوقف مثل هذا العمل على سعة العلم بالمفردات اللغوية والتراكيب ، وعلى طول التدرب والتمرين ، وسنتحدث عن واصل فيما بعد ضمن مشهورى الخطباء من المعتزلة .

٣ ـ تلوين الصوت وتكييفه ، فيجهر الخطيب مرة ويعلو صوته ، ويلين أخرى حتى يكون كلامه همسًا ، كما يسرع فى جملة ويمد صوته فى أخرى ولا بد أن يميز لهجة الاستفهام من لهجة الخبر.... وهكذا ، ويزرى بالخطبة ويذهب بتأثيرها أن يكون صاحبها رتيب الصوت مطرد النغم تجرى كل تعبيراته على وتيرة واحدة وبعض الخطباء يثير الناس بحسن إلقائه ، فإذا قرئت الخطبة بعد ذلك كانت قليلة التأثير لأن تأثيرها فى الواقع كان راجعًا إلى حسن إلقائها لا إلى حسن تأليفها ، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك وخير الخطب ما جمع بين حسن التأليف وحسن التأثير ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٥ ، ومعنى قامع متربص ، وهو يصفه بقوة الحجة وأنه لفصاحته يكسو الباطل ثوب الحق .

(٢) ولد واصل سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٨١ ، وكان يكنى أبا حذيفة ويسمى الغزال لأنه كان يكثر الجلوس فى سوق الغزالين لدى صديق له وكان بشار قبل أن يجهر بمذهبه فى الرجعه يحبه ويجله ويقدمه على أقرانه من الخطباء فلما جهر بمذهبه عاداه واصل واتصل الهجاء بينهما .

وتلوين الصوت يأتى من الدربة ومن انفعال الخطيب نفسه بخطبته ، فيكون تكييف صوته نتيجة انفعاله وتأثره ، فإذا عدم هذا الشعور كان قارئًا لا خطيبًا ، ولا يستحسن لهذا ـ أن تكون الخطبة مكتوبة ولا محفوظة ولكن على الخطيب أن يعد عناصر خطبته والأفكار التى يريد نقلها إلى الناس ثم يعبر عنها بطريقته وهذا يتوقف على مقدرة الخطيب الكلامية ومحصوله اللغوى ومحفوظاته الأدبية كما يتوقف على حسن تفكيره وقدرته على تحليل موضوعه .

٤ ـ لا بد لجودة الإلقاء من الإشارات باليد أو بغير اليد أيضًا فإن هذه الإشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره فى سامعه ، وفى هذا يقول الجاحظ : « والإشارة واللفظ شريكان . ونعم العون له ونعم الترجمان هى عنه وما أكثر ما ينوب عن اللفظ وتغنى عن الخطأ ..

« وفى الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضرة .... » .

« هذا ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت ، فهذا أيضًا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت .... »

وحسن الإشارة باليد والرأس . من تمام حسن البيان باللسان مع الذى يكون مع الإشارة من الدَّلِّ والشكل والتقتل والتثنى ، واستدعاء الشهوة وغير ذلك من الأمور . . . [1] » .

والإشارة أيضًا وليدة الانفعال والتأثر ، والخطيب الذى لا يكون متأثّرًا بكلام نفسه ، يفقد أهم صفات الخطيب المؤثرة .

ونذكر مع هذا أن من الخطباء من يسرف فى تلوين صوته وكثرة إشاراته حتى يخرج ذلك بالخطبة عما يراد منها ، بل ويفقدها نهائيًّا قيمتها ، والخطيب الموفق من يستعمل ذلك فى موضعه المناسب بغير إهمال ودون إسراف .

---

(١) البيان والتبيين ٧٨ ، ٧٩

مكونات الخطيب

الخطابة كالشعر والتمثيل من المواهب الفطرية ، فبعض الناس يخلق خطيبًا أو شاعرًا بفطرته ، وهذه الطبيعة توفر عليه جهدًا كبيرًا فى حصوله على كمال هذه الصفة ومن الناس من يحسن الكتابة وتشقيق الكلام فيما يعبر عنه من المعانى ولكنه لا يحسن إلقاءه ولا مواجهة الناس به . ومنهم من يُحْصَر ويعيى أو يُرتج عليه إذا وقف للخطابة وإذا تحدث فى مجلس أجاد الحديث ومنهم من لا يستطيع هذا ولا ذاك . وهذا النوع يتجنب الخطابة أصلاً ، أما الآخرون فيحتاجون إلى تدريب وتكوين عام حتى يحسنوا الخطابة ، والشخص الموهوب أقوى وأقدر على أى حال ولا يعنى هذا أن الخطيب الموهوب يستغنى عن مؤهلات الخطابة ومعرفة قواعدها وطرق إلقائها فهناك أمور خاصة لا يكون الخطيب خطيبًا بغيرها وليس الإلقاء الجيد كافيًا فى جعل الخطبة ناجحة مقبولة حتى يقترن به الصفات الأخرى ، ومن أهم هذه المكونات هذه الأمور التى لا يستغنى عنها خطيب .

١ ـ درس اللغة درسًا يحول بينه وبين الخطأ واللحن ، وهذا يرجع إلى درس قواعد اللغة ومتنها ، وكان بين العرب جماعة لحانون وكانوا مَضْرِبَ المثل والتندر وكان الخلفاء يحتقرون المتحدث إذا أخطأ أو لحن وكان خالد بن عبد الله القسرى من الخطباء المعروفين فقال مرة وهو فوق المنبر أطعمونى ماء فاتخذها الناس سخرية حتى قال فيه الشاعر :

بل المنابر من خوف ومن هلع ... واستطعم الماء لما جد فى الهرب

أما الخطأ النحوى فإنه أفحش وأسوأ . وأشنع من هذا أن يستعمل الخطيب اللغة العامية فى خطبته أو فى جمل كثيرة منها وإنما يسوغ له أن يستعمل كلمة أو جملة ليفسر بها شيئًا غمض على سامعيه .

٢ ـ سعة المحفوظات الأدبية من الشعر والنثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا هذا فضلاً عن حفظ القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية فهذا المحفوظ يمده بالعبارات التى يستغلها بسرعة ويمنحه قدرة على التصرف فى تعبيراته وألفاظه كما أنه يسعفه بما يستشهد به على ما يقول ، ولئن كانت المحفوظات الدينية ضرورية وحتمية للخطيب الدينى فإنها أيضًا من مكونات الخطيب أيًّا كان ونجد المحامين فى المحاكم وأعضاء البرلمانات يستعينون بالآيات القرآنية والأحاديث فى تأييد وجهة نظرهم وفى رفع أسلوبهم الخطابى وليس الغرض من هذه المحفوظات هو

الاستشهاد ولكن الغرض منها هو اللغة وسهولة التعبير ، وكما سبق يحتاج الخطيب فى كثير من المواقف أن يكرر المعنى الواحد وأن يعبر عنه بعدة عبارات مختلفة ، فإذا لم يكن لديه هذه القدرة الكلامية صعب عليه هذا التعبير.

ولا ينبغى أن يكثر الخطيب من هذه الاقتباسات فإن ذلك يفقد الخطبة أثرها وذكرها يكون دائمًا فى الوقت المناسب ، وفى المكان الذى يحسن وضعها فيه فإنها حينئذ تكون حجة ثانية مؤكدة لحجته الأولى.

٣ ـ لا غنى للخطيب عن دراسة الجوانب السلوكية فى علم النفس وبصفة خاصة دراسة الغرائز وتربيتها ومراحل نمو الطفولة وما يناسب كل مرحلة من معاملة وبدون دراسة لهذا العلم لا يستطيع الخطيب أن يفهم نفسية سامعيه وهذا يعود عليه بضرر كبير فهو من ناحية لا يعرف ما يجب أن يقدمه لهم من نصائح وعظات إذ لكل جماعة حاجة إلى نصائح خاصة ومن ناحية أخرى لا يعرف أسباب الانحراف التى تطرأ على سلوكهم ولا كيف يكون علاجها والطب لها. وعلم النفس التربوى والسلوكى يمده بينبوع فياض من المعانى ويمنحه القدرة على لمس قلوب السامعين وتحريك عواطفهم وإثارة مشاعرهم. ولكن لا يجوز أن يتخذ الخطيب ما درسه من علم النفس مادة لخطبته ، وقد سمعت مرة خطيبًا يتحدث من فوق منبر المسجد عن بعض العقد النفسية وكيف تتكون وكيف يكون أثرها فى حياة الناس ، وهذا خطأ لأنه يجعل الخطبة شرحًا لموضوع نفسى.

يكفى على سبيل المثال أن يطلب من الوالدين ألا يختلفا فى أمر ويتنازعا أمام طفلهما ، يكفى أن يطلب ألا يحرم الطفل مما تهفو إليه نفسه من المطعم والملبس والملعب فإن لم يكن ذلك ممكنًا فلا يترك بين أطفال يتمتعون وهو بينهم محروم ، وبالمثل إذا كان لأولاده ما يتمتعون به دون جيرانهم فلا يترك أطفاله يظهرون بما لديهم حتى يغيظوا به أولاد جيرانهم ، وهو واجد فى الآثار الإسلامية ما يكفى لهذا أما أن يستطرد من هذا ليشرح عقدًا نفسية .. أوديبيّة أو نرجسية أو ما إلى ذلك فهذا غير سائغ كما أنه قليل الفائدة للسامعين.

٤ ـ من مكونات الخطيب الجرأة والشجاعة والثقة بما يقول وهذه صفات لكل منها مفهومه وليست مجرد مترادفات.

فالجرأة تعنى عدم التهيب والتردد فيما يتحدث عنه الخطيب ، وهناك مواقف

يتعرض لها الخطيب قد توهن قوته وتجعله يغير مجرى خطبته أو يوجزها أو يحذف بعض عناصرها ، ولكن الخطيب الجرىء لا يتأثر بها .

قد يشرع الخطيب فى خطبته وبعد إلقاء بعض فقراتها يقوم من المجلس وربما من الصفوف الأمامية بعض الأشخاص ويخرجون ، وقد يعرض عنه بعض السامعين فينظر فى صحيفة أوكتاب . أو يتحدث إلى من بجانبه فهذا يوهن قوة الخطيب ويترك أثرًا كبيرًا من الفتور فى صوته وإلقائه ولكن ينفعه فى هذه الحالة أن يولى وجهه إلى الآخرين وألا يبدى أىّ اكتراث بما حدث ومن نصائح الأقدمين : إنك لا تتعلم الخطابة حتى تتعلم القِحَة والمراد بالقحة عدم المبالاة بأى شىء يكون معارضًا له ويرجع ذلك إلى الجراءة وقوة الجنان .

ويراد بالشجاعة قوة الخطيب على فرض رأيه على سامعيه خصوصًا حين يكونون على غير رأيه ، وربما قاطعه بعض السامعين بما هو ضد ما يقول وفى المساجد قد يصفق بعض الحاضرين . وفى هذه الحالات لا يستطيع الخطيب أن يتخلص بمجرد الانصراف بوجهه إلى الآخرين وبتجاهل من يقاطعه ولكن عليه أن يكون ثابتًا هادئًا مبديًا للناس بمظهره وثباته أن هذا ليس بشىء يهتم به ، ثم يستمر فى سرد الأدلة على رأيه مضمنًا كلامه ردًا على المعترض فى بساطة وهدوء فهذا موقف يعتمد على الشجاعة .

ويفيد الخطيب فى هذا إشارة عابرة باليد أو الرأس لإظهار عدم اكتراثه وبيان أن ما عورض به ليس بشىء ذى بال ويجدى فى هذا مجرد ابتسامة ، أو مد شفتيه مع استمراره فى حديثه . ويفشل الخطيب كل الفشل إذا انفعل أو غضب أو بدت عليه سمات الضعف فهو بهذا يخسر الموقف كله .

ولقد رأيت بنفسى خطيبًا عارضه أحد سامعيه وشرح فساد رأيه فصفق الحاضرون جميعًا لهذا المعارض ، فلما انتهى تصفيقهم وضحكهم ومظهر سخريتهم بدأ الخطيب فى هدوء تام يصيح بالحاضرين : أيها السادة ... إلى هنا صفقتم وضحكتم لأن هذا الرجل خدعكم بكلام معسول ولكن انظروا ههنا ما يستحق أن تتأملوه ... ثم بدأ يشرح رأيه من جديد فى ثبات وهدوء كان لم يعترضه أحد أو يسخر منه أحد[1] .

---

(١) كان هذا خطيبا انجليزيا يدعو لمبادئ اشتراكية فى حديقة هايد بارك . وقد لفتنا مدرس الخطابة غير مرة فى درسه إلى حسن تصرف هذا الخطيب

إنه خطيب حقًّا ، وإنه مصر على أن يكسب من السامعين عددًا قليلاً أو كثيرًا ولو أنه انهار فضعف أو انصرف لضاعت خطبته هباء .

وأما ثقة الخطيب بكلامه فتعنى إيمانه بالمبادىء التى يدعو إليها ، هذه الثقة تدفعه تلقائيًا إلى تكييف صوته وانفعاله وتلهمه الحجج والبراهين ، وتجعل الآخرين يتأثرون به ، وقديمًا قالوا : ما خرج من القلب وصل إلى القلب وما خرج من اللسان لا يجاوز الآذان «أى لا يجاوز إذن السامع إلى قلبه» ، كما قالوا : ليست النائحة المأجورة كالنائحة الثكلى . وقد يبكى الخطيب سامعيه ويحرق قلوبهم بمواعظه ولا يفعل ذلك عبرة بمن هم أبلغ منه ويرجع ذلك إلى إخلاصه وإيمانه بما يقول .

٥ ـ ويجر هذا إلى عنصر آخر يتوقف عليه نجاح الخطيب الدينى أكثر من غيره ذلك هو صلاح الخطيب حقًّا وإخلاصه لله تعالى ، وحرصه على الاستقامة التامة على تعاليم الدين والخطيب الذى تتوفر فيه هذه الصفة تكون خطبته عبادة لأنها دعوة إلى سبيل الله ، أما من لا يكون له هذه الصفة . أولا ، فهو منافق وهو أيضًا عرضة للزلل والفتيا بما يرضى الناس لا ما يرضى الدين ، وكما قال الإمام على : من نصب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه .

وقراءة تاريخ الذين صمدوا بفكرهم الدينى أمام خصومهم مثل الإمام مالك وأحمد بن حنبل وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وغيرهم تفيد الخطيب كثيرًا ، للاقتداء بهم فى مواقفهم وبيان روعتها للسامعين .

٦ ـ لا بد للخطيب مع كل هذه الصفات من التدريب العملى وإعداد نفسه لمواجهة الجماهير ، ولا بد له أيضًا أن يتوقع الفشل مرات كثيرة فشأنه فى هذا شأن كل متعلم ، يسقط مرة وينهض أخرى حتى يتم تكوينه ودربته ، وإنك واجد فى تاريخ الخطابة أشخاصًا كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولإشخاص وهميين وقد أجدى عليهم ذلك وخرجهم خطباء متفوقين ممتازين .

٧ ـ يتأثر الخطيب بمظهره وهيئته ولهذا يجب أن يكون مقبول المظهر حسن الملبس كما يحسن أن يكون بعيدًا عن الصغائر التى تحط من هيبته وأن يكون قليل المزاح بعيدًا عن مجالس العامة وأن يغضى عن بعض الكلمات التى لا تناسبه وهذا يدخل فى أدب الخطيب .

أدب الخطيب

تحدث كل من الجاحظ وأبي علي القالي والمبرد عن هيئة الخطيب وموقفه ، فذكروا له صفات ترفع قيمته وتعلي شأنه ، وأخرى تحط من قدره وتوهن من تأثيره في سامعيه ، كما ذكروا له حالات تمل سامعيه وتدل على نضوب ذهنه وفقره الكلامي .

وقد كره العرب أن يكون الرجل ذا لثغة في أي حرف من الحروف على ما ذكرنا قبل ، وذكروا منها أنواعًا كثيرة كالتأتأة وهي تردد التاء واحتباس اللسان بها كما يفعل التيس في ترديد صوته ، شبه هذا بحركة الطفل الذي يتعثر في مشيته أول ما يتعلم المشي وربما أطلق هذا على كل لجلجة وتعثر في الكلام ، ويسمى تتعتع اللسان في التاء تمتمة ويسمى صاحبها تمتاما ، ومنه قول المتنبي يصف الخيل التي تتعثر بجثث القتلى :

يتعثرن بالرءوس كما مر بتاءات نطقه التمتام

يريد أنها لا تكاد تنطلق في جريها لكثرة الجثث التي تطؤها . ومدح شاعر فصاحة رجل فقال :

ليس بفأفاء ولا تمتام ولا كثير الهُجْرِ في الكلام

ويعني بالهجر الحشو والكلام الكثير الذي لا كبير معنى له ، وأصله الفحش والكلام القبيح . ومن الأسباب التي تنشأ عنها اللجلجة والحبسة قلة ممارسة الشخص للخطابة ، وجاء في رجزهم :

كأن فيه لففا إذا نطق من طول تحبيس وهمٍّ وأرق

قالوا : وكان يزيد بن جابر قاضي جماعة الأزارقة الخوارج بعد إحدى المواقع الحربية آثر السكوت والصمت حتى ثقل عليه الكلام ، فكان لسانه يلتوي ولا يكاد يبين .

ومن أسبابه أيضا ضعف النفس وقلة الجراءة وهي أيضًا من أسباب الحصر لأن الهيبة تذهب بقدرة الشخص على التفكير وتذهب من رأسه الألفاظ وعابوا على الخطيب كثرة النحنحة ومس اللحية والعبث بأصابعه لأن هذه كلها مما يستعان به على استجلاب الكلام وهي دليل الفقر الكلامي والعي عن متابعة الخطبة ، والشأن في الخطيب أن يكون متدفقا ينتقل من فكرة إلى أخرى في ترتيب واتصال بين أفكاره ولا يعني تدفقه بسرعة إلقائه فهذا عيب آخر لأن الإسراع في الكلام يحول بين سامعيه وبين فهمه . وقد تنشأ عنه لجلجة أيضًا .

كذلك كرهوا للخطيب أن يطيل النظر فى وجوه مستمعيه وقالوا إنه من الْعِيِّ وهو فى الواقع من أسبابه ، لأن الخطيب أو المتكلم أيًّا كان حين تلتقى عينه بعين من يحدثه تضعف ذاكرته وقدرته ويعزب عنه الكلام ومن أقوالهم فى هذا : «تلخيص المعانى رفق ، والاستعانة بالقريب عجز ، والتشادق من غير أهل البادية بغض ، والنظر فى عيون الناس عيّ ، ومس اللحية هُلكٌ والخروج مما بنى عليه أول الكلام إسهاب «وقالوا فى هذا أيضًا» :

«رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه» .

والأفضل للخطيب إذا لم يكن هادىء النفس محسًّا من قريحته استجابة ومن نفسه قابلية للكلام ألا يتكلم أصلاً ، فعدم قيامه بالخطبة وتركها أولى من تعريضه نفسه للنقد وكشف ضعفه أمام الناس .

صحيفة بشر بن المعتمر

بصدد الحديث عن الخطيب وتكوينه أوثر أن أنقل هنا وصية بشر بن المعتمر التى تحوى رأيه فى تكوين الخطيب وإعداده . وبشر هذا من أعلام المعتزلة وأعلام الخطباء وسنتحدث عنه بعد ولكنا نذكر هنا وصيته كاملة ، وقد ذكرها كل من الجاحظ فى البيان والتبيين وابن عبد ربه فى العقد الفريد ... وكان بشر قد مر بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم فتيانهم الخطابة وإبراهيم خطيب كبير استمع إليه بشر أولاً ثم قال للفتيان : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم بصحيفة من تنميقه كان فيها :

«خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن نفسك تلك الساعة أكرم جوهرا . وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاستماع وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عين من لفظ شريف ومعنى بديع[1] .

---

(١) العين من الناس والأشياء الشريف الرفيع

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطوال بالكر والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة ومهما أخطأك[1] لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصدًا وخفيفًا على اللسان سهلاً وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد . والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك . ويشين ألفاظك ومن أراغ[2] معنى كريما فليلتمس له لفظًا كريمًا فإن حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله إلى أن يكون أسوأ حالاً من قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما فكن فى ثلاثة منازل :

فأول ذلك أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا ، أو فخمًا سهلاً ، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا ، وقريبًا معروفًا ، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت .

والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . «وكذلك اللفظ العامى والخاصىُّ فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك ولطف مدخلك وقدرتك فى نفسك .. أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ المتوسطة التى لا تلطف عن الدهماء .. ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام .

فقال له إبراهيم : أنا أحوج إلى تعلمى هذا الكلام من هؤلاء الغِلْمة .

صحيفة الهند فى البلاغة[3]

كان العرب يسألون الهند والفرس أحيانًا عما هى البلاغة لديهم فيجيب كل بما لديه . ولما اجتلب يحيى بن خالد البرمكى عددًا من أطباء الهند وكان بينهم بَهْلَة الهندى سأله معمر أبو الأشعث عن البلاغة عند الهند فقال عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن

---

(١) مهما يغب عنك من المعانى والتعبيرات فانك لن تخطئ هذه الأشياء . (٢) أراغ وارتاغ طلب وأراد

(٣) وردت هذه الصحيفة فى عيون الأخبار مختصرة المجلد الثانى ١٧٣ وفى كتاب الصناعتين ١٩ ونقلناها هنا عن البيان والتبيين ٢/٩٢

ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها فلما ترجمت وجد فيها :

«أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة ولا الملوك بكلام السوقة ويكون فى قوله فضل التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يهذبها غاية التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا أو فيلسوفًا عليمًا ، ومن[1] قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ . وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتظرف ، قال : واعلم أن حق المعنى أن يكون الاسم له طبقًا ، وتلك الحال وفقًا ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصرًا ولا مشتركًا ولا مضمنًا ، ويكون مع ذلك ذاكرًا لما عقد عليه أول كلامه ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه موفقًا ، ولهول تلك المقامات معاودًا ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم والحمل على أقدار منازلهم وأن تواتيه آلاته وتتصرف معه أداته ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا وفى جميع الظن مقتصدا ، فإنه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلة المظلومين وإن تجاوز الحق فى مقدار حسن الظن بها ، آمنها فأودعها تهاون الآمنين ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل .

وصية الجاحظ :

تحدث الجاحظ فى كتابه : «البيان والتبيين» عن الصمت وعمن زينوه ـ ومدحوه ثم قدم هو نصيحته لمن يستطيع الخطابة ألا يدعها فقال :

«قد سمعنا رواية القوم واحتجاجهم ، وأنا أوصيك ألا تدع التماس البيان ، والتبيين[2] أن ظننت أن لك فيهما طبيعة ، وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ، ويشاكلانك فى بعض المشاكلة ، ولا تهمل طبيعتك فيستولى الإهمال على قوة قريحتك[3] ويستبد بها سوء العادة وإن كنت ذا بيان وأحسست من نفسك بالنفوذ[4] فى الخطابة والبلاغة ،

---

(١) وحتى يصادف من تعود ذلك . (٢) توضيح ما يستحق ان يوضح للناس

(٣) يروى القريحة وهو يريد أن من ترك التدرب على الخطابة فقد ملكتها . (٤) القوة والتفوق .

وبقوة المنة يوم الحفل فلا تقصر فى التماس أعلاها سورة[1] . وأرفعها فى البيان منزلة ولا يقطعنك تهييب الجهلاء وتخويف الجبناء ، ولا تصرفنك الرايات المعدولة عن وجوهها المتأولة على أقبح مخارجها .

وكيف تطيعهم بهذه الرايات المعدولة والأخبار المدخولة[2] . وبهذا الرأى الذى ابتدعوه من قبل أنفسهم وقد سمعت الله تبارك وتعالى ذكر داود النبى صلوات الله عليه . فقال : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » . فجمع له بالحكمة[3] البراعة فى العقل والرجاحة فى الحلم . والاتساع فى العلم والصواب فى الحكم وجمع له بفصل الخطاب تفصيل المجمل ، وتلخيص الملتبس والبصر بالحز فى موضع الحز والحسم فى موضع الحسم[4] .

وذكر رسول الله (ﷺ) شعيبا النبى عليه السلام فقال : كان شعيب خطيب الأنبياء وذلك عند بعض ما حكاه الله فى كتابه[5] وجلاه لأسماع عباده .

فكيف تهاب منزلة الخطباء وداود ـ عليه السلام ـ سلفك . وشعيب إمامك مع ما تلوناه عليك ... من القرآن الحكيم والآى الكريم ؟ وهذه خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مدونة محفوظة ومخلدة مشهورة ، وهذه خطب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . رضى الله عنهم[6] .

وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم شعراء ينافحون عنه وعن أصحابه بأمره . وكان ثابت بن قيس بن الشماس الأنصارى خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لا يدفع ذلك أحد[7] .

---

(١) السورة بالضم اسم جنس جمعى لسور ـ على غير الأكثر يكون المفرد بغير التاء والجمع بالتاء نحوكم ، وكمئة يريد ما دامت لك قدرة وتسام فاطلب القمة العليا »

(٢) المصنوعة (٣) بوصف الحكمة (٤) الحز : المحاولة ، والحسم : القطع .

(٥) عند شرح بعض الآيات القرآنية المتعلقة به .

(٦) هؤلاء لم يحجموا عن الخطابة فلا تحجم عنها .

(٧) مع من حوله من الشعراء المنافحين كان المدافع عنه بلا منازعة هو هذا الخطيب . وقيس محارب شجاع ومن المبشرين بالجنة ، واستشهد فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ورآه أبو بكر فى منامه ، فأخبره بمكان فرسه وأسلحته وأوصاه بوفاء دين عليه وإعتاق رقيق له . فنفّذ الخليفة ـ وصيته ، ووجد ما أخبره به على ما هو عليه انظره فى الاصابة ٩٠٠

أركـان الخطبـة

تتكون الخطبة الكاملة من أجزاء يتبع بعضها بعضا ويرتكز كل واحد منها على سابقه ، ونحن نسميها أركانا للخطبة جريا على الغالب ، ولكنها فى الواقع ليست أركانا حتمية فى كل خطبة بحيث تكون الخطبة التى تخلو من جزء أو ركن منها مختلة ناقصة أو لاتستحق أن تسمى خطبة ، وإنما هو عمل فنى يراد به جعل الخطبة أدنى إلى الدقة والكمال ، كما يراد منه مساعدة الخطيب وإرشاده إلى ما يكمل به خطبته ويرفعها ويجعل السامعين أكثر استفادة منها وهذه الأركان قد تكون ضرورية فى الخطب الطويلة التى تتعرض لموضوعات هامة خطيرة كما هو الحال فى الخطب السياسية والبرلمانية ، وخطب الدفاع فى القضايا الكبرى .

وقد جاء تقسيم الخطبة فى محاضرات أرسطو فقسمها إلى أربعة أقسام هى - مقدمة الخطبة أو التمهيد لموضوعها ، ويليها عرض الموضوع ثم التدليل عليه ودفع ما قد يرد عليه اعتراضات ثم ختام الخطبة بتقرير النتيجة التى يريد الخطيب إقرارها فى أذهان الناس ومواقفهم عليها أو استمالتهم إليها . وجرى الذين جاءوا بعد أرسطو على تقسيمه غير أن آخرين قسموها تقسيما أكثر دقة وإن كان لا يخرج عما رسمه المعلم الأول ، جعلها هؤلاء خمسة أقسام هى المقدمة والعرض والتدليل والتفنيد والنتيجة ، وهو تقسيم لم يزد على الأول شيئا سوى أن حلل الموضوع وقسمه . وأكثر الباحثين يجعل أجزاء الخطبة ثلاثة فقط هى المقدمة والعرض والنتيجة ، والعرض يشمل عرض الفكرة وتبريرها والدفاع عنها ودحض معارضاتها . وهذه التقاسيم ، تكاد تكون متحدة وخلافاتها لا تزيد جديدا ولا تحذف شيئا .

ولنشرح كل جزء شرحا وجيزا .

المقدمـة :

مقدمة الخطبة أو بدايتها حديث يبدأ به الخطيب خطبته لشد انتباه السامعين نحوه ولتهيئتهم للإقبال عليه والسماع لما سيقوله لهم ، وهى كما قلنا ليست حتمية فى كل خطبة ، الخطبة القصيرة تستغنى عنها نهائيا ومع ذلك هى ذات أهمية وكما قال أرسطو هى أول ما يطرق سمع الناس ، فإذا كانت جذابة مشوقة أنجحت الخطيب وجعلت الناس يقبلون عليه وإقبالهم عليه يشد عزمه ويثير فيه النشاط والحمية ، وهى فى جملتها عامل

تهيئ للسامعين . والزعيم أو القائد يهتم الناس بخطابه لأنه يقرر مصاير شعبه أو توجيه جنوده فيصغى له أتباعه وأعداؤه على السواء ، وهو لذلك ليس بحاجة إلى مقدمة يهيئ بها أذهان سامعيه ولكنه مع هذا قد يكون محتاجا لها لتبرير اتجاهه نحو موضوعه أو تفكيره فيه .

فإذا رأى رئيس الوزراء فى دولة ديمقراطية أن تدخل بلاده فى معركة مع دول أخرى فجمع نواب بلاده لهذا الغرض فإن أتباعه وأعداءه مهتمون بحديثه متجهون لكل ما يقول . ولكن هذا لا يغنيه عن تقديم للموضوع الذى يريده . فلا بد أن يبدأ بذكر الأحداث التى وجهته لهذا التفكير قبل أن يعرض أمر الحرب أو المسالمة .

وحين اجتمع اعضاء الدول المصدرة للبترول للنظر فى تثبيت أسعاره أو رفعها استمع العالم الغربى والشرقى لحديثهم بكل لهفة فإذا حدث لوزير البترول أن يلقى فى هذا الجمع خطبة فإن هذا الإصغاء لا يغنيه عن مقدمة لحديثه . هذا لأن الأمر الذى سيدعو إليه له خطر وأهمية ولا يمكن الهجوم عليه بدون مقدمة . ومن الممكن أن تكون هذه بداية حديثه هكذا :

«إن البترول هو المصدر الرئيسى لحياتنا لَسْنَا أمةً صناعية ولا زراعية ولا حتى أمة تجارية تقوم حياتها على البيع والشراء . إننا نشترى كل شىء نحتاج إليه ، طعامنا وملابسنا ومشروباتنا وأيضا وسائل انتقالنا وآلات البناء التى نبنى بها مساكننا ، كلّ هذا فضلا عن استيرادنا ـ كماليات حياتنا من الدول الأخرى . هذه الدول الصناعية تدور آلاتها وتعمل مصانعها بما تأخذ من البترول الذى تخرجه أراضينا . من المصدر الوحيد الذى نعيش عليه وهم فى السنين الأخيرة رفعوا أثمان كل شىء يرد إلينا منهم رفعوا أسعار الآلات التى نخرج بها البترول وأسعار الأقمشة والأطعمة والسيارات وكل أنواع الكماليات من الثلاجات والغسالات وآلات وأنواع المذياع وغيرها ، أصبح ما نأخذه من ثمن البترول لا يكاد يكفى لربع ما كنا نشتريه من بضع سنوات ....» .

ليست هذه مقدمة لا سترعاء سمع الحاضرين وإنما هى تمهيد لما سيقدم عليه من طلب الموافقة على زيادة البترول ، وهى ليست بعيدة عن الموضوع .

ومن المواقف الداعية للمقدمة أن يكون السامعون معارضين لفكرة الخطيب وهم فى هذه الحالة ليسوا على استعداد لسماعه وربما قاطعوه أو تعمدوا عمل ما يصرف الناس عنه وقد تكون مقدمة هكذا .

...... إننى أعلم أن هذا الأمر ليس مقبولا لديكم ولكن ما الذى يمنع أن تسمعوا وجهة نظر خصومكم على الأقل لتدحضوها أو لتعرفوا ما سيقال لغيركم فتفندوه إنى أقبل بكل ارتياح معارضتكم ، ولكن لا أرضى لكم أن تقوموا بمعارضة عمياء جامحة لا تدرون لماذا عارضتم بها . أكره أن تكونوا مقلدين تندفعون فى أمر بدون أن تفحصوه وتعرفوا كل جزئياته .. أؤكد لكم أننى على أتم استعداد لأن أتخلى عن هذا الموضوع إذا لم تكن أدلتى مقبولة أو كان لديكم ما يدحضها . إننا لا نريد الا أن نصل إلى الحق والصواب ، وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، فلتستمعوا قليلا إلى وجهة النظر التى لدى فإن كان بها شىء من الخطأ فإنى أول من سيتخلى عنها ويحاربها لأننى لا أريد إلا الوصول إلى الحق وأن أكون على خير ما يجب أن نكون عليه .

ثم يبدأ بالتسلل إلى موضوعه تدريجيا .

ومثل هذا الأسلوب حدث كثيرا فى برلماننا المصرى فى عهد الأحزاب وقيام المعارضات القوية واستعداد معظم الأعضاء لرفض الرأى المعارض لحزبهم ، ولكن الخطباء كثيرًا ما كسبوا موقفهم بما لهم من لباقة وقدرة على التظاهر بأنهم غير متحزبين وإنما ينشدون صالح البلاد .

والمحامى فى المحكمة ليس بحاجة إلى شد انتباه القضاة لأنهم تلقائيا متجهون نحوه مصغون لكل ما يقول ، وهو مع هذا فى القضايا الكبيرة مضطر إلى مقدمة قد تطول والغرض منها هو التهيئة للموضوع ولبيان أنه يدافع للحق لا لأنه منوب من طرف معين . وقف أحد المحامين فى قضية كبيرة فقال :

ياحضرات المستشارين :

« نقف أمام هذه القضية موقف علماء المنطق من قضاياهم المنطقية إنهم يضعون المقدمات ثم يرتبون عليها النتائج فإذا كانت مقدمات القضية سليمة مقطوعا بصحتها كانت النتيجة المرتبة عليها صحيحة مقطوعا بصحتها .. » .

بهذه العبارات أشعر القضاة أن لديه أدلة مقطوعا بها لا تقبل أى طعن أو توهين وعقبها مباشرة أخذ فى شرح المقدمات التى كانت يريدها .

فقال :

فى سنة .... ظهرت جمعية ..... وأعلنت مبادئ طاهرة نقية استهوت قلوب الشباب ... فأسرعوا للانضمام إليها . بل وتهافتوا عليها .. وبسرعة مذهلة عجيبة وجدنا لها

فروعا ومكاتب فى أنحاء البلاد حتى فى القرى النائية الصغيرة وبينما فرح الناس بمنهج هذه الجمعية الإصلاحى حزن لها حزب ... لأنه وجد فيها منافسا يوشك أن يظفر دونه بأغلبية الشباب ... أخذ هذا الحزب منذ ذلك الحين على عاتقه محاربة هذه الجمعية فى كل مكان ونشبت المعارك بين الطائفتين فى كل مكان وجد فيه ..... من هنا ياحضرات المستشارين تنبهت الفتنة فى أنحاء قطرنا العزيز وقد كانت نائمة لعن الله من أيقظها ..... » .

وكانت المرافعة دفاعًا عن شاب من الجمعية متهم فى قتل شخص ينتمى إلى ذلك الحزب ، وهذا المحامى قد تأتى لغرضه بهذه المقدمة قبل أن يعرض القضية ويبين أدلته لبراءة المتهم ودحض الأدلة التى سبقه بها وكيل النيابة .

وخطيب المسجد يتعرض لمثل هذا الموقف كثيرًا فى المعارك التى تقوم بين أسرة وأخرى كما يحدث كثيرًا فى الصعيد ـ وفى الخلافات التى تنشب بين جمعية وأخرى وفى عرض اقتراحات ليست مقبولة كثيرًا لدى السامعين . فى هذا كله لا غنى عن استخدام مقدمة لخطبته .

وقد تكون المقدمة ذكر حادث تاريخى موجز أو قصة عابرة بها ما يمس الموضوع الذى يدعو إليه ، ينتقل منها إلى موضوعه .

من هذا نرى أهمية المقدمة وأنها فى بعض الأحيان تكون ضرورية للخطبة . أما مميزات أسلوبها وصوغها البلاغى فأهمها :

١ ـ أن تكون مشوقة ذات قدرة على شد انتباه السامعين على نحو ما سبق وقد يستطيع الخطيب بجاذبية كلامه أن يعيد إلى سماعه أشخاصًا هموا بالانصراف عنه وفى المقدمة والخطبة جميعًا يجب أن يتجنب الخطيب المبالغات وأعمال الانتباه القسرى أو الإتيان بحركات بهلوانية... فكل ذلك يعود عليه بعكس ما يريد ، يصرف الناس عنه ويجعلهم لا يهتمون به ، قد يتجهون إليه فى أول الأمر ولكنهم لا يعبأون به بعد ذلك . الخطبة الجيدة والخطيب الناجح والإلقاء الجيد تجذب السامع دون حركة بهلوانية ، انجذاب السامعين نحو الفكرة والرأى والموضوع والانجذاب فى هذه الحالة يكون دائمًا وليس وقتيًا كالذى ينتج عن انتباه قسرى بهلوانى .

٢ ـ لكى يصل الخطيب إلى هذه الدرجة يبدأ بألفاظ واضحة مفهومة ، وأفكار قريبة لا تعوز إلى تفكير ، وبعد أن يطمئن إليه الناس ويتجهوا بأذهانهم نحوه يستطيع أن

يتحدث عن الفكرة التي يريد ولكن مهارته تظهر فى مدى ما له من قدرة على تقريب المعانى البعيدة وتبسيط الآراء المعقدة .

وفى أكثر الأحيان يستوحى الخطيب مقدمته من المجتمع الذى يحيط به فيأتى بكلام أو معان تناسب هذا المجتمع . وكما سبق يتوقف هذا على مقدرته الكلامية ومحصوله الأدبى واللغوى فبغير هذه المقدرة يعجز عن التعبير عما يطرأ أمامه كما يعجز عن توليد المعانى المناسبة .

وقد تكون المقدمة قص حادث موجز غريب أو مثير ثم ينتقل منه إلى غرضه .

وقف خطيب يتحدث عن حتمية العمل بالقانون الإسلامى وإقامة الحدود الإسلامية وكان قد اطلع فى صحيفة يومية عن حادث يتضمن جريمة قتل وسرقة فكان أول ما بدأ خطبته أن قال :

نشرت جريدة ... فى هذا اليوم تفاصيل جريمة قتل وسرقة ... شاب كان يصعد السلم إلى بيته فقابله اثنان أخبره أحدهما أن صاحب البيت يريد مقابلته وقاده إلى الشقة الخاصة بالمالك فما كاد يخطو إلى داخلها حتى طعن بسكين طعنة قاتلة ... وكان اللذان قابلاه قد اقتحما شقة المالك فقتلاه وسرقا حصيلته وخشيا أن يتعرف عليهما هذا الشاب فقتلاه أيضًا ليتخلصا منه ، ونقل الشاب إلى المستشفى وبه رمق واستطاع أن يصف الشابين ... فماذا تظنون أن يكون جزاؤهما ... وهل كان يحدث هذا لو أن هناك قانونًا إسلاميًّا ؟ إن القانون الإسلامى ينص على أنه لو اشترك مائة شخص فى قتل شخص واحد لقتلوا به جميعًا .

ومن ثم استطرد يذكر آثار القصاص وما فيه من استتباب الأمن وهدوء الحياة واطمئنان الناس فكانت مقدمته دليلاً على ما يريد والمقدمة كما ترى واضحة قريبة .

٣ ـ لابد أن تكون شديدة الصلة بموضوع الخطبة ، فلا يكون بينها وبين الخطبة حين ينتقل إليها فجوة بل تكون الخطبة امتدادًا للمقدمة وهو فى هذه الحالة إذا أطال المقدمة كان طولها توضيحًا للخطبة فإذا كان مضمون المقدمة بعيدًا عن موضوع الخطبة كانت عديمة الفائدة لأن الحديث يكون عن موضوعين ـ كل مستقل عن الآخر ولا يجوز أن تكون المقدمة ذات موضوع أصلاً بل هى تمهيد وتوطئة للموضوع ـ يراد منها تهيئة الأذهان إليه .

٤ ـ من ناحية طول المقدمة أو قصرها يجب أن تكون غير مسرفة فى أى من الجانبين لأنها

إذا كانت موجزة جدًّا لم يكن ثم مقدمة وإذا كانت طويلة جدًّا ذهبت فائدتها أيضًا لأنها تستنفد قوة الخطيب فإذا انتقل إلى الموضوع كان قد أجهد وقلت حميته وفتر حماسه ، كما أن المستمع أيضًا يكون قد اكتفى وذهب تشوقه نحو السماع ، ولهذا يختار الخطيب مقدمة مناسبة فى طولها وفكرتها ويبدؤها بصوت متئد غير صارخ فإذا انتقل إلى الموضوع كانت الأفكار التى يعرضها هى الجانب الأهم فى حديثه ولها الجانب الأكبر من نشاطه وطاقته والمعانى التى يتعرض لها هى التى تكيف صوته وإلقاءه على نحو ما ذكرنا من قبل .

هذه الإرشادات والتعاليم الخطابية نجدها فى كتب النقد الأدبى كثيرًا ونجد الخلفاء والولاة ومشهورى القواد والأثرياء العرب كانوا يؤاخذون الشعراء بمقتضاها فينفرون من ألفاظهم النابية فى أول قصائدهم ويحاسبونهم على طول مقدماتهم وعلى غموض تراكيبهم وهذا كثير جدًّا فى أدبنا العربى ، مدح شاعر نصر بن سيار فأطال فى غزله أول القصيدة فلما انتقل إلى مدحه انتقده نصر بأنه استنفد طاقته فى شىء يخصه هو وغضب هشام بن عبد الملك على أبى النجم لأنه قال :

والشمس قد كادت ولما تفعل كأنها فى الأفق عين الأحول

وكان هشام أحول فساءه هذا التشبيه ونقد آخر كلمة «بوزع» فى قول مادح له بدأ شعره بغزل جاء فيه .

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزأت بغيرنا يا بوزع

فاختار لحبيبته إسم بوزع وهو إسم ناب منفر .

وهكذا نجد أن ما ذكرناه من قواعد خطابية مرده إلى الذوق .

الموضوع :

نعنى بالموضوع جريًا على مذهب الأغلبية ما يشمل الفكرة التى يدعو إليها الخطيب والتدليل عليها ودفع ما عسى أن تقابل به من نقد واعتراضات . وهذا الجزء ـ كما هو واضح ـ أهم أجزاء الخطبة أو هو عمودها الفقرى وكيانها ، فالأجزاء الأخرى يمكن الاستغناء عنها أما هذا الجزء فهو الأساس وبقية الأجزاء جىء بها من أجله ، ومهمتها هى إنجاحه وتثبيت آثاره .

حين يصل الخطيب إلى هذا الجزء وذلك بعد فراغه من المقدمة إن كان ثم مقدمة يلخص موضوعه بإعطاء فكرة موجزة عنه أو شرحه إن كان يحتاج إلى شرح ثم يأخذ فى عرض الأدلة التى يراها مؤيدة له .

وقد يسبق الخطيب خطباء يوضحون الموضوع ويعرفون السامعين به ، وفى هذه الحالة يكفيه أن يذكر عنوان الموضوع فقط كما يوجز مقدمته ثم ينتقل إلى أدلته .

وتتوقف جودة هذا العرض على أمور أهمها :

١ ـ وحدة الموضوع : بحيث تتركز الخطبة فى أمر واحد يدور الكلام كله حوله وتتجمع الأدلة لتأييده وتقويته وقد تكون الأدلة قياسًا منطقيًا أو احتجاجًا بحادث تاريخى أو عمل لشخص ذى شهرة ولكنها كلها على أى حال ، تنتهى إلى غرض واحد ، وتصب كلها فى بؤرة واحدة . وعمل الخطيب حينئذ هو تعميق الفكرة وتثبيتها لأن هذا يثير انفعال السامعين ويدفعهم إلى العمل بما يدعو إليه الخطيب .

ويخطىء الخطيب ويفشل إذا حشا خطبته بعدة موضوعات فإنها كلها تكون سطحية باهتة فى أذهان السامعين ومن السهل أن تزول كلها بعد زمن قليل أو بعد فراغ الخطيب من خطبته .

وقد يدعو خطيب المسجد فى خطبته إلى قيام الليل وقراءة القرآن وصلاة النوافل وبذل الصدقة ... ويستريح السامعون لأنهم يسمعون دائمًا جديدًا ولكنهم قطعًا لا ينفعلون بما سمعوا انفعالاً كافيًا وكان الأولى أن يقصر خطبته على أمر واحد يكثر سوق الأدلة عليه والاستشهاد له ، ويتلو فى صلاة الجمعة آية من الآيات التى استشهد بها فى خطبته فكل ذلك يثبت الفكرة فى نفوس السامعين[1] .

٢ ـ ترتيب الكلام وترتيب الأفكار يبدأ أولاً بالفكرة البسيطة ثم يتدرج حتى يصل إلى قمة ما يريده وفى القمة يبدو انفعاله وقوة صوته وقوة عباراته جميعًا وعلى سبيل المثال :

أراد خطيب مسجد أن يدعو المصلين إلى التبرع لمساعدة ملجأ خيرى به أيتام ، وفقراء فكيف يوجه خطبته ويعرض موضوعه .

(أ) قد يأتى بمقدمة وجيزة تبين أن الإسلام دين التعاون وأن المسلمين أمة واحدة

---

(١) سبق أن ذكرنا هذا وشرحناه

يجمعهم شعور الإخاء ويؤذيهم أن يكون بينهم جائع أو عار أو محتاج ، وأن الدين يأمرهم بتحاشي وجود شيء من ذلك بينهم .

(ب) ينتقل بعد هذا إلى التعريف بحال الملجأ الذى يدعو لمساعدته ويصف ما يقدمه للأيتام والفقراء الذين به (وهذا هو العرض) .

(جـ) ينتقل من هذا إلى دعوتهم للتبرع (وهذا هو النتيجة) .

(د) يعينه فى هذا أمور كثيرة تتوقف على مهارته وثقافته وعمق تفكيره إن هؤلاء المساكين قد ينشىء منهم الملجأ نفوسًا صالحة وأشخاصًا نافعين لمجتمعهم وإذا لم يُعِنْهم الملجأ كانوا جراثيم فساد وضررًا على الناس . من هؤلاء من أخنى عليهم الدهر وكانوا قبل ذلك أبناء تجار أثرياء أو زراع موسرين أو عباد صالحين . إن أى واحد من السامعين مهما كان ثريًا أو صحيحًا لا يأمن أن يصير أولاده إلى هذا المصير وقد يلح على ذويه المرض والفقر أو يطرأ عليهم سوء السلوك المدمر فكما يود أن يجد من يعين أولاده عليه أن يساعد هؤلاء .

هذه النقطة الأخيرة هى قمة الخطبة والتى ينبغى أن يتخير لها العبارات المثيرة وفيها يعلو صوته ويبدو انفعاله وأسفه وتحزُّنه ، وهو بهذا قد سار فى خطبته سيرًا مرتبًا انتقل فيه من عنصر إلى آخر انتقالاً طبيعيًا .

٣ـ إذا انتقل الخطيب من الفكرة الأساسية إلى الأدلة التى يريد الاستناد إليها يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضه فى موضوعه وليس من المحتم أن تكون أدلته منطقية من أنواع أقيسة المنطق ، فالدليل المنطقى أقوى وألزم للخصم بالتسليم ولكن من الجائز للخطيب ـ وهذا هو الأكثر أن يستعمل أدلة ظنية بمعنى أن مقدماتها أمور ظنية ، وهذه الأدلة كافية فى المواقف الخطابية وتسمى أيضًا أدلة خطابية . بمعنى أنها غير مقطوع بها ولكنها تثير الحمية وتبعث حماس السامعين .

وليعلم الخطيب أن الحديث إلى الجماهير يعتمد على المشاركة الوجدانية وإثارة العاطفة أكثر مما يعتمد على براهين المنطق وأقيسته وهو لهذا قد يثير حماس سامعيه ويهيجهم نحو عمل ما من غير أن تكون الفكرة قد درست فى نفوسهم درسًا منطقيًا سليمًا ، وفى هذا المقام قد يورد حادثًا مشابهًا للحادث الذى يتحدث عنه أو موقفًا لرجل من الحكماء ، والمشهورين فتنفعل نفس الناس به ، وأنت تشاهد الصحافة تلجأ لمثل هذا التأثير الوجدانى . فتكتب العناوين الكبيرة لبعض الأحداث لتجتذب الأنظار إليها ، وتستعمل

الألفاظ الضخمة الطنانة مثل مأثرة عظيمة، جموع حاشدة. ثورة على الجهل. قضاء حاسم نهائى على الفقر والجهل، وأمثال ذلك، كما تستعمل الرسوم والكاريكاتيرات للإيحاء

ولابد أن يلتفت الخطيب إلى الأفكار المعارضة لفكرته ليردها ويدحضها فإذا كان هناك خطيب قد تقدمه معارض لرأيه ، استعرض أدلته فنقضها ، والمزايا التى قالها لرأيه فهون منها وذكر بجانبها مزايا الفكرة التى يدعو هو إليها . وفى هذا المقام تفيد السخرية العابرة والنكته المضحكة على ألا يسرف فى ذلك ويخطئ الخطيب ويسقط نفسه إذا تناول خصمه بالشتم أو طعن فى شخصيته، وسلوكه أو رماه بالغباء .

وفى أدبنا العربى شواهد كثيرة لهذا كان جرير وهو يناقض الفرزدق لا يجد من مفاخر آبائه وأجداده ما يجد خصمه فالفرزدق ذو نسب لآبائه مآثر كثيرة وكان جرير يعدل عن هذا الجانب ليضحك الناس منه ويلفتهم عن مناقشة مناظرتها بالمنطق وهو يستعمل فى ذلك الشعر السهل الرقيق فيكون أسهل على الناس وأشيع على لسانهم وكذلك كأن شأنه مع كل خصومه وما كان أكثرهم ولكنه غلبهم بهذا الأسلوب كقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يا مربع

ومربع هو زاوية جرير ، وكقوله فى هجاء تيم :

تهيأت تيم لى جهلا لتقتلنى كما تهيأ لاست الخارىء الحجر

وفى هجاء النميرى :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وكانت هذه الأبيات تشيع على ألسن الناس وينكسر بها خصوم جرير وهى مجرد سخرية لا منطق فيها ولا برهان عقليًّا .

وإذا رجعت إلى النقد الذى كان يوجهه عباس العقاد إلى شوقى نجده يلجأ أيضًا إلى مثل هذا كان يستعرض أروع أبياته الشعرية وأجملها فيعرضها معرض السخرية ويقول وأى شيء فى هذا البيت سوى حلية اللفظ. وكذلك فعل بأبيات رائعة مثل قول شوقى :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

على الأخلاق شدوا الملك وابنوا فليس وراءها للملك ركن

وكقوله فى «كارنارفون» واستكشافه مقبرة توت عنخ آمون :

أفضى إلى ختم الزمان ففضّه ومشى إلى التاريخ فى محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى فرعون بين طعامه وشرابه

وهى أبيات غاية فى الروعة والجمال ولم يكن نقدها بأكثر من عرضها معرض السخرية والتهاون فيوهم قراءه أنها ليست بشىء سوى ألفاظ جميلة .

وتفنيد الرأى المعارض لرأى الخطيب أمر هام فى الخطبة فإذا كان الخصم سيتكلم بعده ذكر ما يتوقع أن سيستدل به وإذا وقع فعلاً على الأدلة التى كان خصمه أعدها نال تفنيدها من الخصم وفتر عزيمته أثناء سردها ثم يكون أثرها فى نفس السامعين قليلاً . ولهذا يقابل المتكلم الثانى كلام صاحبه بالمثل فلا يكتفى بعرض الدليل الذى نقض بل يهون ما سبق من اعتراض عليه وربما تظاهر الخطيب الثانى بأن هذا الدليل لم يكن لديه ولا هو أعدّه ولكن صاحبه ذكره به ثم يعجب من تهوينه منه وعدم إدراكه مغزاه ولهجة الكلام وتكييف الصوت والابتسامة الخفيفة تفيد فى هذا كثيرًا أمام الجماهير .

وربما لا يكون هناك خصم ولا معارض ولكن الخطيب يعرض رأيًا ، وفى هذه الحالة يستعرض الأضرار التى تنشأ عن إهمال هذا الرأى والمتاعب والمشقات التى قد تواجه من ينفذ فكرته ، ولكنه يهونها ويبين أنها لا شىء بجانب الثمرة المرجوة من مشروعه . أو يتوقع رأيًا معارضًا فى أذهان السامعين فيرده ـ كأن يقول : قد يظن بعض الناس أن هذا العمل شاق أو يقول قائل ... الخ وأنت تجد هذا كثيرًا فى كتب الأزهريين مثل فإن قيل كذا أو فإذا قال قائل كذا .

على أى حال عرض الموضوع لابد له من نوعين من الأدلة ـ أدلة تؤيده وأدلة تدفع ما يعارضه أو ما عسى أن يرد عليه من اعتراض .

والذى يطلب من الخطيب هو الوضوح والاتجاه دائمًا نحو الموضوع .

الخاتمة والنتيجة

بعد أن يفرغ الخطيب من عرض موضوعه وسوق أدلته عليه ، ينتهى إلى الغرض الذى أعد الخطبة من أجله ـ مثل طلب براءة المتهم ، أو الحكم عليه بأقسى عقوبة أو طلب انتخاب مرشح معين ، أو الاستعداد للمشروع الذى يدعو إليه ... الخ وقبل أن

ينتهى إلى هذا الطلب عليه أن يثير انتباه الناس أكثر . وأن يركز اهتمامهم على مطلبه . حتى لا يورد طلبه على فكر مشتت وذهن خال أو شبيه بالخالى من الأسباب ، وهذا ما يسمى خاتمة الخطبة فما طريق نجاحها .

أكثر الخطباء يعودون بتلخيص لعناصر الخطبة وأهم أفكارها . وفى هذه الحالة يسرف الخطيب فى التلخيص لأنه حينئذ يمل وتأتى بعكس ما أراد . وأيضاً لا يستعمل العبارات التى سبقت بعينها ، وإنما يأتى بتعبير آخر جامع واضح ذى تأثير وقد يجنح إلى التركيز والتشديد على الاستجابة لرأيه ، ولكنه لا يستعمل الأمر المجرد الجاف وإنما يبين أهمية رأيه ويشير إلى التحذير من إهماله . كأن يقول :

ها أنتم أولاء ترون مدى ما فى هذا الرأى من صلاح وفائدة وأعيذكم بالله أن تند منكم مزاياه أو يغيب عن أذهانكم قدره ومرجو فوائده .

فإذا كان خطيباً دينياً حذر من مخالفة الله أو البعد عن سنة نبيه ، وقد يختم كلامه بآية قرآنية أو حديث نبوى قصير . فإذا كان يدعو إلى التبرع بمال لعمل ما كان من المناسب أن تكون خاتمته هكذا :

« هأنذا قد بينت لكم ما فى هذا العمل من فائدة ودعوتكم للتبرع له ، ولكل أن يتبرع بما شاء ، ومن سخا سخا الله له ، وما لكم إنما هو مال الله ، فأنفقوا من مال الله الذى آتاكم ، اللهم أعط منفقًا خلفًا وأعط ممسكًا تلفًا ، ووفقنا جميعًا لما فيه رضاك وثوابك .

وقد يجدى أن يقول :

أيها القوم ... تبين لكم الآن أنكم مسئولون عن هذا العمل ومحاسبون على تركه أمام الله ومهما أنفقتم فى سبيله فهو قليل بجانب فائدته وقد برئت إلى الله وبلغت عنه وعن نبيه : ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .

وقد يلجأ الخطيب إلى تلخيص أفكاره أولاً ثم يرتب عليها طلبه فيجمع بين الأمرين وبأى طريق يختم خطبته عليه أن يختار العبارات الواضحة القوية بقدر ما يستطيع .

وأهم شروط الخاتمة ما يلى :

١ ـ ألا تكون بعيدة عن الموضوع ولا مجددة لأدلة أو آراء جديدة لإنها حينئذ لا تكون خاتمة وإنما تكون جزءًا من الخطبة وامتدادًا ومهمة الخاتمة هى تركيز معانى الخطبة واستمالة الناس أكثر نحوها .

٢ ـ أن تكون قوية فى تعبيرها وأيضًا فى إلقائها ـ لأنها آخر ما يطرق سمع الناس ويبقى فى أذهانهم ، وربما كانت الخاتمة ضعيفة فى تركيبها أو فاترة فى إلقائها فتذهب فائدة الخطبة كلها ، والخطيب الناجح يلقى خاتمة خطبته فى حماس واقتناع وثقة ، مشعرًا جمهوره بأنه انتهى إلى رأى لا يحتمل جدلاً ولا يحسن أن يغضى عنه .

وفى أول خطبة خطبها أبو عبد الله السفاح أول خلفاء بنى العباس ذكر أولاً قرابتهم من رسول الله وحقهم فى الخلافة بعده ، وذكر رأى أهل الشام أنصار بنى أمية وسفهه ، وبين أن الله أملى للأمويين حتى آسفوه فانتقم منهم ونصر بنى العباس ، ونصرُهم خيرٌ سيق إلى أهل الكوفة ، ورَجَا ألا يأتيهم الجور من حيث جاءهم الخير وهو تحذير عن مخالفتهم له ، ثم ختم خطبته بهذه العبارات :

ياأهل الكوفة .... أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ... أنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدت فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح (١) .

فهذا ختام لم يخرج عن جو الخطبة وقد ختم بالوعد المغرى والوعيد المخيف وهو آخر ما يبقى فى ذهن سامعيه . زدت فى أعطياتكم فاستعدوا فإنى سفاح للدماء منيح لمن أسطو عليه ، وهذا ما يحتاجه خطيب يؤسس دولة ويخشى الثورة عليه والتفرق عنه .

وقد كان السفاح يومئذ موعوكًا ، وكان عمه داود بن علىٍّ على درجة من المنبر أدنى منه فوقف وألقى خطبه أخرى .

حَمِدَ الله أن أهلك عدوهم ورد إليهم ميراثهم من رسول الله ثم ذكر أنهم لم يثوروا لغرض لهم .. ولكن كانت أموركم تُرْمِضُنا (٢) ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ووعد أن يلزموا كتاب الله وسنة نبيه ثم أنحى على بنى أمية باللائمة وبين سوء

---

(١) تروى الثائر المبير أى المهلك ، وظاهر العبارة التهديد ، وتأولها بعض المحدثين بأن السفاح المنيح الجواد كثير العطاء وبهذا تكون خاتمة الخطبة وعدا وأمانىّ ولا وعيد بها .

(٢) تحرقنا وتوجعنا أى كنا فى ألم لما تعانونه

فعلهم . ثم تحدث عن السفاح وأثنى عليه واعتذر عن مرضه وبين أن بنى العباس لما يستردوا حقهم بعد ثم كان ختام خطبته هكذا :

...... فخذوا ما آتاكم الله بشكر وألزموا طاعتنا ولا تَخْدَعُنَّ أنفسكم فإن الأمر أمركم .... ألا وإنه ما صعد منبركم هذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد «وأشار إلى أبى العباس بيده» — فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم ... والحمد لله على ما أبلانا وأولانا .

هذه خطبة جيدة وختام جيد .

أهل الكوفة شيعة على ، ولكن العباسيين لا يريدون إثارة عداوتهم فقال داود فإن لكل أهل بيت مصرا وإنكم مصرنا وفى الختام ذكر عليا ثم أكد لهم بقاء الخلافة فى أيديهم .

الخاتمة متصلة بالخطبة اتصالاً قويّا لأن الخطبة كلها دارت على أن الخلافة حق لهم والخاتمة أكدت بقاءها فيهم حتى تقوم الساعة .

وهكذا تجد خطبًا إسلامية كثيرة مرتبة ترتيبًا فنيّا .

٣ — وآخر ما نذكر من صفات الخاتمة أن تكون قصيرة على نحو ما رأينا وحاسمة ومشوقة .
هذه هى أجزاء الخطبة الفنية الكاملة والخطب الطويلة تقوم عليها جميعًا ولا يغنى هذا الشرح عن الرجوع إلى مطولات الخطب وتحليلها وتبين مدى تكامل هذه الأجزاء بها .

أما من ناحية التدرب على الإلقاء فلا بد لمن يعد نفسه لهذه المهمة أن يمارسها مرات عديدة وأن يمرن نفسه عليها فى وحدته وبين رفاقه المتدربين حتى يحرز فيها تقدمًا .

هذا وقدمنا لك أنه لا بد من التكوين الأدبى بكثرة المحفوظات الأدبية خطبًا وشعرًا وكتابة مع الدرس التاريخى والتثقيف العام والقراءة المستمرة حتى لا يكون ذهن الخطيب راكدًا وهذا يفيد الخطيب فى الحالات التى يتعرض فيها للارتجال .

إعداد الخطبة وارتجالها

الخطبة قد تكون معدة وقد تكون مرتجلة .

والخطبة المعدة موضوع إنشائى يستدعى من الخطيب أن يفكر فيه تفكيرًا مناسبًا للحادث الذى تلقى فيه الخطبة . يفكر فى عناصره واحدًا بعد واحد ثم يعمل على ترتيبها أيها يبدأ به وأيها ينهى به كلامه ، ولا يكفى التفكير فى المعانى بل عليه أن يفكر أيضًا فى العبارات التى يعبر بها وفى طريقة مواجهة الجماهير بها وكيفية بداية الخطبة وفى موضوعها وأدلتها لا يكفى مجرد التفكير الشخصى بل لا بد من الرجوع إلى المصادر التى تفيد فى صنع الخطبة وحقًا ما يفيده الخطيب من اطلاعه الخاص وقراءته السابقة يمده بمعان وأدلة ولكن لا بد خصوصًا للمبتدئين من مراجعة المصادر التى تمد بقوى أكثر وكلما كثرت مواجهة الخطيب للجماهير وطالت ممارسة الخطابة كان الإعداد أسهل عليه ، والذى يقع فيه الكثيرون من الأخطاء هو أن يغتر الخطيب بثناء الناس عليه فى موقف ما يكون قد تعود الخطابة فيكتفى بذلك ويقطع مداومة قراءته واطلاعه حينئذ يكون مضطرًا أن يكرر نفسه وأن يعيد فى مسجد أو مجتمع ما قاله من قبل فى آخر وهذا يسقطه فى نظر سامعيه من جهة – ثم يقضى على حماسه ونشاطه من ناحية أخرى فيصير إلقاؤه فاترًا لإن تأثيره أيضًا أصبح فاترًا ، وربما اغتر خطيب مشهور بإقبال الناس عليه فاكتفى بما عنده ولكنه لا يلبث أن يفقد شهرته . وكبار الخطباء ومشهوروهم فى الشرق والغرب كانوا يقضون وقتًا فى إعداد خطبهم قبل أن يخرجوا بها إلى الناس . هذا مع قدرتهم البالغة على الكلام . سعد زغلول ، وتشرشل ، ومصطفى كامل ، وتوفيق دياب ، وأحمد حسين ، وغيرهم كانوا يعدون خطبهم إعدادًا جيدًا وتنال خطبهم لهذا إقبالاً كبيرًا من الناس وما زال الناشئون يحفظون من كلام سعد زغلول نماذج أدبية لا يمكن أن تكون عفو الخاطر . ذلك أنه تعلم فى الأزهر وكان يجيد التعبير الأدبى ويحرص على قواعد النحو ، فكانت خطبه خليقة أن تحفظ وتدرس . وكان كلٌّ من توفيق دياب وعلى الجارم ومنصور فهمى يتكلف انفعالاً أثناء خطابته فيثير سامعيه أكثر مما يثير قارئيه .

أما الخطبة المرتجلة فهى صدى للخطبة المعدة .

قد يفاجأ الخطيب بأنه مطلوب منه أن يتحدث فى مناسبة ما لساعة ولم يكن لديه علم أنه سيواجه هذا الموقف فماذا عسى أن يكون موقفه ؟

بعض الناس يَضْطرب ويتلعثم ، فإما ألا يجد ما يقوله أو يقول كلمات عابرة يعرفها جميع الناس ، وهذا فى الواقع ليس خطيبًا وإن كان قد حل الموقف بطريقة ما . وبعض الناس يقف بثبات ثم يجتر من ذاكرته ويستوحى من الموقف بضع جمل وعبارات تعجب السامعين وهو فى هذه الحالة قد ألقى حقًا خطبة وإن كانت قصيرة .

الخطبة المرتجلة على أى حال تكون قصيرة والسامعون لا يتوقعون من قائلها أن يطيل ولكن يعجبهم أن يقول شيئًا ثمينًا .

والخطيب المطلع ذو الدربة والممارسة يجد من خطبه الماضية مددًا لخطبته المرتجلة ـ ولهذا قلنا إن هذه صدى لتلك وسعة الاطلاع على أى حال هى ذخيرة الخطيب ، وربما طلب من خطيب أن يرتجل خطبة طويلة ذات موضوع . وهذا كثيرًا ما يحدث فلا يسعفه إلا ماله من سعة الاطلاع .

هبك ذهبت إلى حفل أو مسجد أو مجتمع كبير لتستمع إلى متكلم سيخطب الناس أو يحاضرهم ثم علم الحاضرون أن المتكلم قد عاقه حادث عن الحضور وأنه لن يحضر أصلاً ، ثم كيلا ينصرف الجمع الكبير خائبًا ـ طلب إليك أن تقوم بالخطبة وأصبحت أمام أمر واقع فكيف يكون موقفك ؟

ليس من الجائز هنا أن تلقى بضع جمل أو كلمات عادية ، ولكن لا ينقذ الخطيب فى هذا الموقف إلا مالديه من مكونات ثقافية ومعلومات واسعة وربما تحدث الخطيب المرتجل فأجاد وأحسن مما كان يتوقع من الخطيب الأصلى . هذا لأنه مكون فكريا وأدبيًا .

ولا يجمل بالخطيب المرتجل أن يتعرض لآراء جديدة أو نظريات غير مدروسة لديه لأن هذه لا تكون إلا نتيجة تفكير طويل وفحص واستعراض للموضوع من كل جوانبه وهذا مالا يستطيع له وقت المرتجل فأولى به أن يتحاشاه .

والخطباء ... وخصوصًا المحامين ـ يحتاجون إلى حضور البديهة ، وسرعة الخاطر وربما سنحت للمحامى كلمة من خصمه لم يكن يتوقعها ولكنه يتصيدها بسرعة ويبنى عليها مرافعته ولا تستغنى البديهة الحادة عن ذخيرة الثقافة والمحصول الأدبى .

ذهب شخص إلى حفل زفاف به جمع من الناس وعدد من الكبراء فطلب إليه أن يتحدث وأن يهنئ العروسين فارتبك واحمر وجهه ولكنه لم يستطع التخلص من الموقف فقال .... اننى مسرور جدًا بهذا الزفاف لأنه ربط بين أسرتين كريمتين ولأنى أعلم أن العروسين من ذوى المميزات الإنسانية وأسأل الله أن يأتى منهما نسل كريم ينفع الأمة

كلها . وإنى أقدم لها ولأسرتيهما خالص التهنئة وأطيب الأمانى بمستقبل زاهر وحياة سعيدة رافهة فبالرفاء والبنين وبارك الله زواجكما ومستقبلكما ....

هذا كلام ليس بالضعيف ولكنه غير كاف ولا جديد فيه .

وواجه آخر مثل هذا الموقف فقال :

إننى مع ابتهاجى وسرورى لاقتران عروسينا وأسرتيهما أود أن نقدر هذا الموقف قدره وأن ندرك معنى الزواج وسمّوه .

ليس الزواج مجرد متعه جسدية ولا عملية نتاج بشرى ، وإنما هو موقف قداسة وطهارة يشهده الناس على الأرض وتشهده الملائكة فى السماء ، إنه نوع من عبادة الله والانقياد لتعاليم دينه ، تعاون قبل كل شىء على السعادة وإخلاص روحين إخلاصًا يؤدى إلى الامتزاج فى كل شىء فى الأرواح والعواطف والميول والأمزجة ، ومن هنا لا ينشأ مجرد نسل وإنما بداية أمة لها مميزاتها وخصائصها وهل وجودنا فى هذا الكون إلا نتيجة قران بين آدم وحواء ؟

انظر الكون وقل فى وصفه   كل هذا أصله من أبوين

إنه سر الخلود وامتداد الجنس وبقاء النوع ، إنه الفطرة المنبثة فى هذا الكون الطيور والأشجار وكل الحيوانات والنباتات لها مثل هذه الرابطة فليست مجرد عاطفة ولالقاء جنسى عابر ولكنها سر البقاء والخلود وهذا سر قداسة الزواج وسموه وجلاله .

إن الواحد منا يغار على ابنته أو قريبته وتثور غيرته وغضبه حين يلمسها شخص أجنبى أو حتى يخاطبها بكلمة نابية ، وكثيرًا ما قامت الخصومات والعداوات لأمر بسيط كهذا ، ولكنه حين يعقد قرانها تذهب غيرته ويسلمها لقرينها بل يصير زوجها أقرب إليها من جميع ذويها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زوج فاطمة : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

إننا الآن نحتفى بآدم وحواء جديدين وأنه توفيق من الله أن جمعهما فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ... باركوا جميعًا هذا الزفاف وادعوا للزوجين بأطيب وأثمن ما تتمنون من الله تعالى .

وهذا الخطيب استطاع أن يكسو حديثه ثوبًا فلسفيًا رفع به قيمة خطبته ومرجع ذلك إلى ثقافته ومحفوظاته الأدبية جميعًا .

وقد كان الخطباء فى عصور الخطابة القوية المزدهرة وهم ذوو القدرة على الكلام والدراية به يستعدون لخطبهم ويتخوفون اللحن فيها ونقد السامعين لهم ، وربما اعترت الواحد منهم هيبة يعزب بها الكلام عن ذهنه ويرتج عليه وكان عبد الملك بن مروان يقول : شيبنى ارتقاء المنابر وتوقع اللحن ، وقيل له يومًا قد عجل الشيب عليك فقال كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين[1]

ويجدر بنا بعد هذا الذى شرحناه أن نستعرض أمثلة لبعض الخطب الشهيرة المتكاملة .



(١) العقد الفريد ٤/٢٣٣

أمثلة للخطب المتكاملة

١ ـ خطبة للإمام على

.... أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة[١] فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء وديِّث بالصغار والقماءة[٢] وضرب على قلبه بالإسداد[٣] وأديل الحق منه بتضييع الجهاد[٤] وسيم الخسف ومنع النصف[٥] .

ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهارًا وسرًّا وإعلانا وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم فى عقردارهم[٦] الاذلوا . فتواكلتم وتخاذلتم[٧] حتى شنت الغارات عليكم[٨] وملكت عليكم الأوطان وهذا أخو غامد[٩] قد وردت خيله الأنبار[١٠] وقد قتل حسان بن حسان البكرى وأزال خيلكم عن مسالحها[١١] .

ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها[١٢] وقلائدها ورعاثها[١٣] ، ما تمنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام[١٤]

---

(١) الجنة : الوقاية (٢) ديِّث : وصم وأهين والقماءة الحقارة والمهانة

(٣) السدود والأغطية والمراد قسوة القلب وجموده . واداله الحق منه صارت الدولة والقوة للحق عليه .

(٤) سيم الخسف : حمل المشقة والذلة يقال سيم العذاب وسيم الخسف .

(٥) النصف العدل أى يصب عليه الظلم .

(٦) وسط دارهم والمراد هجم عليهم فى بلادهم .

(٧) التواكل التهاون والتراضى . والتخاذل التقاعد وعدم الاتحاد فى الرأى .

(٨) شن الغارة شمولها وتغطيتها القوم . (٩) سفيان بن عوف الغامدى قائد جيش معاوية .

(١٠) بلد على نهر الفرات . (١١) جمع مسلحة المكان الذى يعد به السلاح والجند المسلح .

(١٢) سوارها والقلائد جمع قلادة مايلبس فى العنق .

(١٣) القرط الواحد رعثة .

(١٤) يريد بالتذلل وطلب الرحمه . ووافرين أى لم يخسروا شيئا ولا أصيبوا .

ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كلم [١] ولا أريق لهم دم . فلو أن امرأ مسلمًا مات من بعد هذا آسفًا ما كان به ملومًا ، بل كان به عندى جديرًا . فيا عجبًا ، عجباً والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم . فقبحًا لكم وترحًا [٢] لقد صرتم غرضًا يرمى . يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون . ويعصى الله وترضون [٣] . فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : هذه حمارة [٤] القيظ . أمهلنا ينسلخ [٥] عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء قلتم : هذه صبارة القر [٦] أمهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فرارًا من الحر والقر فأنتم والله من السيف أفر .

يا أشباه الرجال ولا رجال . حلوم الأطفال [٧] وعقول ربّات الحجال [٨] لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم ! ! معرفة والله جرت ندمًا وأعقبت سدمًا [٩] قاتلكم الله ، لقد ملأتم قلبى قيحًا [١٠] وشحنتم صدرى غيظًا ، وجرعتمونى نغب التهمام [١١] أنفاسًا وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحروب ، لله أبوهم [١٢] وهل أحد منهم أشد لها مراسًا وأقدم فيها مقامًا منى ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين . وهأنذا قد ذرّفت على الستين [١٣] ولكن لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع ، لا رأى لمن لا يطاع [١٤] .

---

(١) جرح
(٢) الهم والفاقة
(٣) تسكتون على عمل ما يغضب الله .
(٤) شدة الحر
(٥) ينتهى ويذهب
(٦) شدة البرد
(٧) عقول الأطفال جمع حلم
(٨) جمع حجلة قبة المرأة والعروس
(٩) السدم الهم والأسف والغيظ
(١٠) جروحا ، يعنى أنهم آسفوه
(١١) جمع نغبة كجرعة والتهمام الهم
(١٢) كلمة تعجب
(١٣) زدت على الستين
(١٤) يريد أن الرأى الصائب إذا لم ينفذ صار عديم الفائدة وهو ذو رأى ولكن رأيه يخالف .

تحليل هذه الخطبة

الجو الذى قيلت فيه :

بايع المسلمون عليًّا بالخلافة بعد عثمان عدا معاوية الذى كان والى الشام ، ولما نشبت الحرب بينهما ، كان جيش معاوية ذا طاعة عمياء لا يسأل لماذا قام ولا لماذا قعد ، وكان جيش على يناقشه فى كل عمل وتبدو منه اقتراحات كثيرة وكان على يقترح الرأى الصائب فيعارضه أصحابه فإذا أذعن لجماعة غضبت الأخرى . ولم يكن ذا حزم وشدة ، ولا ذا دهاء ومكر . واستطاع معاوية أن يضم إليه ولايات أخرى فكان ملكه يتسع وملك على يضيق حتى لم يبق له إلا العراق وأخيرًا غزا معاوية العراق وقتل جيشه والى الأنبار من قبل على . وهو حسان البكرى وفى هذه المناسبة قال على هذه الخطبة .

هدف الخطبة :

هدف الخطبة الأساسى هو تحريض أهل الكوفة على الغزو والانتصار من عدوهم .

أجزاء الخطبة :

تشتمل الخطبة على مقدمة وهى بيان فضل الجهاد . وماله من أثر فى عزة المجاهدين وما لتركه من آثار تجر الذلة والهوان وهى مقدمة وثيقة الصلة بموضوع الخطبة .

انتقل من المقدمة إلى توبيخ قومه على تقاعدهم عن الجهاد ، وعدم استجابتهم لدعوته أن يحاربوا ، ثم أخبرهم بنتيجة ذلك وهى قتل حسان ودخول الأنبار وتلا ذلك توبيخ آخر واستحثاث على القيام للغزو .

وختم الخطبة بتأكيد أنه ذو رأى وعلم بالحروب ولكنهم يفسدون رأيه بعدم طاعته .

وهذه هى أجزاء الخطبة وأهمها هو الموضوع ، فكيف واجَههُ وما هى المعانى التى استثار بها الإمام أصحابه !

حمل قبل كل شىء أصحابه مسئولية هذا الحادث لأنه دعاهم لطرد عدوهم بكل ما يمكن أن يدعو به قائد فتباطأوا ، ثم استثار حميتهم بما أهين به النساء مسلمات وذميات وكيف كانت المرأة تمتهن كرامتها وتسلب حليها فلا تجد رجالاً يحمونها وإنما تلجأ إلى طلب الرحمة من ممتهنيها ، وقد غنموا ما غنموا ولم يخسروا شيئًا ، وبين أن هذا يبعث الحزن القاتل ، وهو يريد بها أن يثير حماسهم ويشعرهم بأنهم يحتملون لومًا لا يطيق

مثله غيرهم ، ثم أزكى هذه الروح بذكره أن القوم انتصروا على باطلهم وأن قومه خذلوا الحق فتحملوا مسئولية مضاعفة وبلغت الخطبة قمتها فى موضعين : فى ذكره أنهم يتقاعدون عن الحرب متعللين بالحر تارة والبرد أخرى ، وبوصفهم أن لهم سمات الرجال وعقول النساء والأطفال ثم بتمنيه أنه لم يكن عرفهم .

الخطبة تدرجت تدرجًا منطقيًّا كل مرحلة أسلمت للتى تليها وكل فكرة كانت مقدمة لما بعدها .

الجهاد طاعة وعزة وهم بتقاعدهم سدوا على أنفسهم أبواب الجنة وجلبوا على أنفسهم الذلة ، قتل واليهم وأهين نساؤهم ، إن الرجل الكريم لا يحتمل هذا الهوان ، فهؤلاء إذن ليسوا رجالاً ، والإمام محارب له تاريخه الحربى ما كان يحتمل هذه الهزيمة لو كان له جيش مطيع ، ولهذا ندم على تعرفه بهم لقد جروا عليه التهم الكاذبة حتى اتهامه أنه ليس محاربًا .

ثم جاءت خاتمة الخطبة وثيقة الصلة بأولها ، لأنه وبخهم على عدم طاعته وفى أولها قال إنه دعاهم مرارًا للحرب فلم يطيعوا .

الخطبة كلها مصبوبة فى قالب متماسك وألفاظها قوية وجملها قصيرة ذات إيحاء مؤدية غرضها من إثارة الشجاعة والحماس .

٢ ـ خطبة زياد البتراء

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء[١] والضلالة العمياء[٢] والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم . ويشتمل عليه حلماؤكم[٣] من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب العظيم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى[٤] الذى لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات[٥] واختار الفانية

---

(١) الجهالة الشديدة مثل ليلة ليلاء (٢) التى تتخبط على غير هدى

(٣) السفيه السيئ الخلق وضعيف العقل ، واشتمال الحلماء عليه يعنى أن الكبار ـ العقلاء لم يتركوه

(٤) الزمن الدائم (٥) يريد شغلت الدنيا حبها حواسهم فلا ينظرون لغيرها ولا يحسون بشىء سوى ما يشتهون

على الباقية ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير المنصوبة[1] ؟ والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر ، والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل[2] وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على المختلس[3] كل امرىء منكم يذب عن سيفه صنيع من لا يخاف عاقبة ولا يرجو معادًا ، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم[4] حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم أطرقوا وراءكم كنوسًا فى مكانس الريب[5] حرام على الطعام والشراب حتى أسوّيها بالأرض هدمًا وإحراقًا ، إنى رأيت هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف .

وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى[6] والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح بالسقيم[7] حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد[8] أو تستقيم قناتكم[9] إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ[10] واعلموا أن عندى أمثالها .

من نقب منكم عليه[11] فأنا ضامن لما ذهب من ماله . فإياى ودلج الليل[12] فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه[13] وقد أجّلتكم فى ذلك بمقدار مايأتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم[14] إياى ودعوى الجاهلية[15] فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه .

---

(١) جمع ما خور وهو بيت الفحش ويطلق على الخمارة

(٢) دلج الليل السير فى ظلمته للتلصص والفتك وهو يعنى كان يجب ان يكون بينكم نهاة عنه

(٣) المختلس السارق وغض عليه وعنه أغضى وتركه . (٤) دفاعكم عنهم .

(٥) أطرقوا وراءكم : استتروا بكم وكنوس جمع كانس وهو الظبى يستتر فى كناسة وهو مأواه ومنه الجوارى الكنس ومكانس الريب أماكنها .

(٦) أخذ السيد بذنب عبده . (٧) يريد أنه يعاقب لأدنى سبب .

(٨) مثل يضرب لتتابع الشر وأصله أن أخوين بهذين الاسمين خرجا للصيد فعاد سعد وفقد سعيد .

(٩) حتى تستقيموا كالرمح . (١٠) عدوها على غميزة وموطن عيب .

(١١) من سرق ماله بنقب بيته .

(١٢) يريد إياكم والتلصص ليلا ولا يستعمل التحذير للمتكلم إلا قليلا . (١٣) أرقته .

(١٤) لا يمضى على المدلج زمن إلا بقدر ما أعلم به وأحضره .

(١٥) التناصر عصبية وجهالة وسفها .

وقد أحدثتم أحداثًا لم تكن وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قومًا أغرقناه ، ومن أحرق قومًا أحرقناه ، ومن نقب بيتًا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبرًا دفناه فيه حيًا ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولسانى ، ولا تظهر من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه وقد كانت بيني وبين أقوامٍ إحن [١] فجعلت ذلك دبر أذنى [٢] وتحت قدمى ، فمن كان منكم محسنًا فليزدد إحسانًا ، ومن كان منكم مسيئًا فلينزع عن إساءته ، إنى لو علمت لو أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعًا ولم أهتك له سترًا حتى يبدى لى صفحته [٣] . فإذا فعل ذلك لم أناظره [٤] فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور سيبتئس .

أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم زادة [٥] نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء [٦] الله الذى خولنا [٧] فلنا عليكم السمع والطاعة فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيأنا بمناصحتكم لنا [٨] واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث :

لست محتجبًا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقًا بليل . ولا حابسًا عطاء ورزقًا عن إبّانه [٩] ولا مجمرًا [١٠] لكم بعثا فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون لكم [١١] وكهفكم [١٢] الذى إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا [١٣] حاجتكم مع إنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرّا لكم ، أسأل الله أن يعين كلا على كل .

---

(١) ضغائن وأحقاد . (٢) أهملته ولم أحفل به . (٣) حتى يكشف هو عن عدائه لى .

(٤) لا أجادله بل أقتله بلا مناقشة . (٥) مدافعون .

(٦) الفىء الخراج ومال القسمة .

(٧) أعطانا ومنحنا يريد ندافع عنكم من هذا المال الذى جعلنا الله قيمين عليه .

(٨) بصراحتكم ومكاشفتكم ، أى لا تبطنوا لناغشًا . (٩) وقته المحدد له .

(١٠) تجمير الجيش ابقاؤه فى أرض العدو والبعث ما يبعث مددا للجيش .

(١١) الساسة جمع سائس يريد تقوم بسياستكم والحفاظ عليكم .

(١٢) إنكم تحتمون بهم كما يحتمى الشخص فى بيته أى أنهم يدافعون عنهم ويحمونهم .

(١٣) يريد بهذا أن يؤكد لهم ثبات الدولة وأن أعمالهم العدائية وأحقادهم تعود عليهم مضرّاتها وأردف أنهم خير لهم من غيرهم .

وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على أذلاله[١] وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة[٢] ، فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى .

الجـو الذى قيلت فيـه الخطبة

(زياد بن أبيه وستأتى ترجمته كان أحد دهاة العرب وكان ذكيًا هُمامًا يجيد الخطابة وامتاز بسداد الرأى والكياسة ولكنه كان صارمًا عنيفًا ، وكان من أنصار على بن أبى طالب ضد معاوية ولما تم الأمر لمعاوية بعد مقتل على استلحق زيادًا وقال إنه أخوه ابن أبى سفيان ، وأن أباه كان قد وقع على سمية فى الجاهلية ، وقبل زياد هذا الاستلحاق فانضم للحزب الأموى وكان من رجال الدولة المعدودين حتى مات سنة ٥٣ هـ وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له البحرين والسند وعمان ، ثم ضم إليه الكوفة فصار واليًا للعراقين وهو أول من جمع له بينهما .

كان العراق من حزب على ، وأهله يكرهون الشام وبنى أمية ، وكان موقف زياد بينهم واليًا لمعاوية شاذًا غريبًا لأنه كان قبل ذلك يقف ضده بجانب على ، ولكن زيادًا سد باب النقد والاعتراض عليه باستعماله شدته المألوفة وحزمه الصارم ، وخطبته هذه تسمى البتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة ولا بحمد الله . (وقيل لغير ذلك) وكان أهل العراق قد أدركوا بعد تهاونهم فى نصر على أنهم ارتكبوا إثمًا كبيرًا فأظهروا تمردًا على معاوية وارتكبوا أمورًا كثيرة منكرة ذكر زياد بعضًا منها فى خطبته وحذر منها وبين لهم أنهم — خير لهم من غيرهم . وبكل هذا التهديد استطاع زياد أن يثبت نفسه ويثبت موقفه الحرج .

تحليـل الخطبة

غرض الخطبة الأساسى هو القضاء على ما كان بالعراق من شغب وتهدئة الجو للدولة وقد رأى أن يصل إلى مأربه بهذا التهديد الرهيب ونجح فيما أراد . ولم يستقم العراق بعد عمر بن الخطاب إلا لزياد والحجاج . ولكن زيادًا كان ذا كياسة وحذق فلم يجعل خطبته كلها تهديدًا ووعيدًا بل وعد المستقيمين خيرًا وجعل لهم الحق فى محاسبته على

---

(١) على طرقته ووجوهه .

(٢) يهدد بأنه سينتقم ممن يخرج عليه .

كذبه . وأعلن أنه لن يحتجب عن ذوى الحاجات ولن يحبس العطاء أو يحجز البعث وبهذا كانت له أمنيات بجانب تهديده .

أجـزاء الخطبـة

فاجأ زياد سامعيه بأنهم ينغمسون فى أمور لا يقرها الإسلام وهو عمل لا يقدم عليه مسلم يؤمن بحساب الآخرة . وإنما يعمله من أخلد إلى الدنيا . وأيد حديثه بأنه يحرص على تعاليم الإسلام وهم قد خرجوا عنها وعادوا إلى عادات الجاهلية ومهدوا للمفسدين طرق الفساد ... وهذه هى مقدمة الخطبة لأنه للآن لم يصل لغرضه وموضوعه .

انتقل من هذه المقدمة إلى التهديد الذى يخضعهم ولكنه جعله عملاً إسلاميًا فقال إن آخر هذا الأمر ـ وهو الوقت الذى كان فيه لا يصلح إلا بما صلح به فى أوله وهو وقت قيام الإسلام . وبهذا جعل كل ما هدد به من عمل الإسلام ولخدمة الإسلام . وانتقل من هذا إلى ذكر برنامجه . وهو الأخذ بالظنة ومحاسبة الجانى والمتسبب حتى يتمنى الناس السلامة ثم أخذ يعدد لهم ما فشا فيهم من سيئات . وذكر أنه سيعاقب عليها بعنف وهذه العقوبات ليست خارجة عن الإسلام فجزاء السيئة سيئة بمثلها . وفى هذه المساوىء التى ذكرها والعقوبات التى أعدها بلغت الخطبة قمتها . ونحن نتمثل الناس وقد ملئت قلوبهم بالرعب من تهديده وفى خلال هذا كله يلوح بين فقرة وأخرى أنه لن يتجنى ولن يظلم حتى أعداءه وخصومه . وانتهى من هذا إلى أنه حاكم شرعى له عليهم السمع والطاعة .

وختم الخطبة بطلب دعائهم للحكومة بالصلاح وبإخلاصهم لها ولزوم طاعتها لا لأنها فى حاجة إليهم بل لأنهم سيكونون عرضة للهلاك .

الخطبة بكل أجزائها محكمة الربط وتجرى على وتيرة واحدة من الوعد والوعيد وتظهر قدرة الخطيب فى أنه أظهرهم مدينين مرتكبين يستحقون العقوبة لخروجهم على تعاليم الإسلام .

أما عبارات الخطبة فجاءت صلبة مناسبة للمقام الذى قيلت فيه . وصورت ما قد يحل بهم من عقابه تصويرًا قويًا مفزعًا . وبطبيعة الحال ليست الخطبة مرتجلة ولكنها أعدت إعدادًا فنيًا محكمًا . وهذا الإعداد واضح فى معانيها وعبارتها .

٣ - خطبة (أبي حمزة الخارجي الشاري)

يأهل المدينة قد بلغتني مقالتكم في أصحابي ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم لأحسنت أدبكم. ويحكم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكتاب وبين له فيه السنن وشرع له فيه الشرائع[١] وبين له فيه ما يأتي ويذر[٢] فلم يكن يتقدم إلا بأمر ولا يحجم إلا عن أمر الله حتى قبضه الله إليه «صلى الله عليه وسلم» وقد أدى الذى عليه - لم يدعكم من أمركم في شبه. ثم قام من بعده أبو بكر فأخذ بسنته وقاتل أهل الردة وشمر في أمر الله حتى قبضه الله إليه والأمة عنه راضون[٣] رحمة الله عليه ومغفرته - ثم ولى بعده عمر فأخذ بسنة صاحبيه وجند الأجناد ومصر الأمصار وجبى الفيء فقسمه بين أهله[٤] وشمر عن ساقه وحسر عن ذراعه[٥] وضرب في الخمر ثمانين وقام في شهر رمضان[٦] وغزا العدو في بلادهم وفتح المدائن والحصون حتى قبضه الله والأمة عنه راضون رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته. ثم ولى بعده عثمان بن عفان فعمل في ست سنين بسنة صاحبيه. ثم أحدث أحداثا أبطل آخر منها أولا - واضطرب حبل الدين بعدها فطلبها كل امرئ لنفسه وأسر كل رجل منهم سريرة أبداها الله عنه[٧] حتى مضوا على ذلك[٨] ثم ولى على بن أبي طالب - فلم يبلغ من الحق قصدًا - ولم يرفع له منارا ومضى .. ثم ولى معاوية ابن أبي سفيان لعين رسول الله وابن لعينه[٩] وجلف من الأعراب وبعثة من الأحزاب[١٠] مؤلف طليق[١١] فسفك الدم الحرام واتخذ عباد الله

---

(١) أحكام الدين الاسلامي لا يعني الديانات :

(٢) ما يفعل وما يترك.

(٣) كلمة الأمة مفردة اللفظ ومعناها الجماعة الكبيرة من الناس وقد أعاد عليها ضمير جماعة الذكور مراعاة لمعناها.

(٤) بين مستحقيه.

(٥) يقال شمر عن ساقه إذا اشتد لأمر وجاهد في سبيله بقوة وتستعمل الكلمة للأمور الشديدة كما في قوله تعالى يوم يكشف عن ساق - أى يشتد الأمر وحسر بمعنى كشف أيضا.

(٦) عمر هو الذى حدد عقوبة الخمر وجعل القيام في رمضان عشرين ركعة وهو الذى وسع حدود الدولة في بلاد الروم وفارس.

(٧) كشفها الله.

(٨) استمروا عليه وألفوه.

(٩) كانا من أعداء النبي حتى فتح مكة.

(١٠) الذين حاربوا - رسول الله.

(١١) من المؤلفة قلوبهم الطلقاء يوم الفتح.

خولا[١] ومال الله دولا[٢] - وبغى دينه عوجا ودغلا[٣] وأحل الفرج الحرام[٤] وعمل بما يشتهيه حتى مضى لسبيله . فعل الله به وفعل ثم ولى بعده ابنه يزيد . يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد القرود[٥] . فخالف القرآن واتبع الكهان ونادم القرد وعمل بما يشتهيه حتى مضى على ذلك . لعنه الله وفعل به وفعل . ثم ولى مروان ابن الحكم طريد ولعين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وآله وابن لعينه[٦] . فاسق فى بطنه وفرجه[٧] فالعنوه والعنوا آباءه ثم تداولها بنومروان بعد . بيت اللعنة طرداء رسول الله صلى الله عليه وسلم واله . وقوم من الطلقاء ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا التابعين بإحسان فأكلوا مال الله أكلا ولعبوا بدين الله لعبا واتخذوا عباد الله عبيدا ويورث ذلك الأكبر منهم الأصغر . فيالها أمة ما أضيعها وأضيعها ! والحمد لله رب العالمين ثم مضوا على ذلك من أعمالهم واستخفافهم بكتاب الله تعالى وقد نبذوه وراء ظهورهم لعنهم الله فالعنوهم كما يستحقون وقد ولى عمر بن عبد العزيز فبلغ ولم يكد وعجز عن الذى أظهره حتى مضى لسبيله (ولم يذكره بخير ولا شر) .

ثم ولى يزيد بن عبد الملك غلام ضعيف سفيه غير مأمون على شىء من أمور المسلمين لم يبلغ أشده ولم يؤنس رشده وقد قال الله عز وجل فان آنستم منهم رشدًا فادفعوا إليهم أموالهم[٨] فأمر أمة محمد فى أحكامها ودمائها أعظم من ذلك كله . وإن كان ذلك عند الله عظيما مأبون فى بطنه وفرجه يشرب الحرام ويأكل الحرام ويلبس الحرام يلبس بردتين قد حيكتا له وقومتا على أهلها بألف دينار وأكثر وأقل وقد أخذت من غير حلها وصرفت فى غير وجهها بعد أن ضربت فيها الأبشار[٩] وحلقت فيها الأشعار[١٠] واستحل فيها ما لم

---

(١) خدمًا اتباعا . (٢) تصرف فيه على هواه . (٣) حقدًا .

(٤) جمع فرجة أى المنافذ المحرمة .

(٥) يتهم يزيد بالشراب واللعب بهذه الحيوانات للصيد وغيره .

(٦) كان رسول الله (ﷺ) قد نفى الحكم الى الطائف ، فتشفع له عثمان ، فقال له فيما يروى اذا انتهى الأمر إليك فأعده فلما ولى الخلافة ـ أعاده إلى المدينة ومروان هو كاتب عثمان الذى زور عليه أهم اسباب الثورة عليه .

(٧) يريد أن أكله حرام وهو غير عفيف .

(٨) كان يزيد ماجنا متلافا محبا للغناء والشراب ، وله مع حبابة وسلامة أحاديث سيئة والاستشهاد بالآية يعنى ان مال اليتيم الخاص به لا يدفع إليه إلا إذا أنس منه ـ الرشد ، وهذا لم يؤنس منه رشد ودفعت إليه الأمة كلها .

(٩) جمع بشرة أى الجلود ، يريد جلد الناس حتى دفعوها .

(١٠) من عقوبة الشخص أن يحلق شعره

يحل الله لعبد صالح ولا لنبي مرسل . ثم يجلس حبابة عن يمينه وسلامة عن شماله تغنيانه بمزامر الشيطان ويشرب ....

واعلموا يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا أشرا ولا بطرا[١] ولا عبثا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل[٢] بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله[٣] ... « ومن لم يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض » .. فأقبلنا من قبائل شتى[٤] ونحن قليل مستضعفون . فى الأرض فآوانا (الله) وأيدنا بنصره فأصبحنا بنعمته إخوانا . ثم لقينا رجالكم (بقديد)[٥] فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فدعونا إلى طاعة الشيطان وحكم بنى مروان فشتان لعمر الله ما بين الغى والرشد ثم أقبلوا يهرعون وقد ضرب الشيطان فيهم بجرانه . وغلت بدمائهم مراجله[٦] وصدق عليهم ظنه . وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق . فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب به المبطلون . وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين[٧] .

يا أهل المدينة أولكم خير أول . وآخركم شر آخر[٨] يا أهل المدينة .. أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل فى كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له فيها سهم فأخذها لنفسه مكابرا محاربا ربه[٩] .

---

(١) تكبرا وإعجابا .

(٢) أوذى .

(٣) يريد امام الخوارج .

(٤) كان الخوارج يتألفون من قبائل متباينة من البدو لا يربطهم إلا مبدؤهم .

(٥) مكان قريب من المدينة قتل فيه جيش حمزة عددًا كبيرًا جدًّا من قريش وللشعراء فى رثاء قتلى قريش مراثى كثيرة لكثرة القتلى .

(٦) الجران : الكلكل تحت صدر الجمل والمرجل الإناء الضخم . يريد أن الشيطان استهواهم وغلبهم غيه .

(٧) يريد بهذا تهديدهم وحملهم على الطاعة والسكون .

(٨) أولهم إيواء رسول الله صلى الله عليه وسلم وحماية الاسلام وآخرهم طاعة بنى مروان .

(٩) هذه الأسهم هى مصارف الزكاة ويريد بالتاسع الحاكم الأموى الذى شارك هؤلاء وهو ليس منهم ومع هذا أخذ معظم المال لنفسه .

يشرب الخمر الصراح المحرمة نصا بعينها[1] حتى إذا أخذت مأخذها فيه وخالطت روحه ولحمه ودمه وغلبت سورتها على عقله مزق حليته ثم التفت إليهما فقال : أتأذنان لى أن أطير ؟ نعم فطر إلى النار[2] إلى لعنة الله حيث لا يردك الله ....

أصابوا إمرة ضائعة[3] وقوما طغاة جهالا لا يقومون لله بحق ولا يفرقون بين الضلالة والهدى . ويرون أن بنى أميه أرباب لهم فملكوا الأمر وتسلطوا فيه تسلط ربوبية بطشهم بطش الجبابرة . يحكمون بالهوى ويقتلون على الغضب[4] ويأخذون بالظن ويعطلون الحدود بالشفعات[5] ويؤمنون الخونة ويقصفون ذوى الأمانة . ويأخذون الصدقة على غير فرضها ويضعونها فى غير موضعها فتلك الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله فالعنوهم لعنهم الله .

وأما اخواننا من هذه الشيعة فليسو بإخواننا فى الدين ولكن سمعت الله عز وجل قال فى كتابه « ... إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا .. » شيعة تظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن ولا عقل بالغ فى الفقه ولا تفتيش عن حقيقه الصواب . قد قلدوا أمرهم أهواءهم وجعلوا دينهم عصبية لحزب لزموه وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم غيًّا كان أو رشدًا أو ضلالة أو هدى ينتظرون الدولة فى رجعة الموتى[6] ويؤمنون بالبعث قبل الساعة[7] ويدّعون[8] علم الغيب لمخلوقين لا يعلم أحدهم ما فى داخل بيته بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه . ينقمون المعاصى على أهلها ويعملون إذا ظهروا بها ولا يعرفون المخرج منها جفاة فى الدين قليلة عقولهم قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم[9] وزعموا أن موالاتهم لهم تغفيهم من الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة . قاتلهم الله أنى يؤفكون .

فأى هؤلاء الفرق ياأهل المدينة تتبعون ؟ أو بأى مذاهبهم تقتدون ؟ يا أهل المدينة ..

---

(١) يريد الخمر الحقيقية وليس مجرد النبيذ .

(٢) دعاء عليه .

(٣) إمارة وملكا ليس له من يحفظه ويحميه .

(٤) لغضبهم لا للحق .

(٥) لا يسوون بين الجناة . بل يعفون عمن يريدون أى يعطلون حدود الله .

(٦) يشير إلى مذهب الشيعة فى رجعة الإمام المنتظر . وأن هناك ائمة مستترين .

(٧) أى بعث الإمام فى هذه الدنيا والموتى لا بعث لهم قبل يوم القيامة .

(٨) ما يصف به الشيعة أئمتهم من علمهم الغيب ـ وهم لا يعلمون ظواهر حياتهم .

(٩) تركوا شئون دينهم لآل البيت العلوى .

قد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى . قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة . ويحكم ! وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون فى الخير إلا أحداثا شبابا ؟ هم شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أرجلهم أنضاء عبادة وأطلاح سهر قد نظر الله اليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية بها ذكر الجنة بكي شوقا إليها وإذا مر بآية بها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين عينيه موصول كلالهم بكلالهم . كلال الليل بكلال النهار . مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام . يوفون بعهد الله منجزون لوعده . قد شروا[1] أنفسهم . أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله[2] حتى إذا التقت الكتيبتان ورأوا السهام قد فوقت . والرمّاح قد أشرعت والسيوف قد انتطيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت .. استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ومضى الشاب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه وعفر بالثرى جبينه فأسرعت إليه سباع الأرض[3] وانحطت عليه طير السماء فكم من عين فى منقار طير طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . وكم من كف زالت معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله . وكم من وجه رقيق وجبين عتيق قد فلق بعمد الحديد .. آه على فراق الاخوان[4] رحمة الله على تلك الأبدان : أدخل الله أرواحهم الجنان .

لمحة تاريخية

لكى نلم بالجو العام الذى أحاط بهذه الخطبة ولكى نتعرف على أبى حمزة الشارى نذكر لمحة تاريخيه عابرة توضح على وجازتها . وإجمالها ـ موقفه وبدايته وخاتمة مطافه .

والخوارج كما هو معروف فرقة إسلامية لها أثر كبير فى الفكر الإسلامى وفى سياسته وعقائده .. ولهم بجانب ذلك أثر كبير أيضا فى الأدب الإسلامى والبلاغة العربية .

---

(١) باعوها .

(٢) هذا الوصف ليس مجرد مبالغة فقد كان الخوارج عبادا حقا شجعانا حقا وقد قابلهم ابن عباس فى النهروان فرأى لهم جباها قرحة لطول السجود وايديا كثفنات الابل . عليهم قمص مُرحضة . وهم يبرأون من الكذابين ومرتكبي المعاصى وهذا وصف عبادتهم تلاه وصف جهادهم .

(٣) يروى أيضا تمزقته سباع الأرض وهو يريد بهذا إثارة العواطف نحوهم .

(٤) عند هذه الكلمات بكى أبو حمزة على فراق أصحابه .

ظهرت هذه الفرقة عند ما قبل على بن أبي طالب مبدأ التحكيم عقب هزيمته معاوية فى صفين ولكنها مع طول الزمن انقسمت فرقا بلغت العشرين . وسموا الخوارج لخروجهم على على وصحبه لأنهم كونوا جماعة اختارت لها أميرًا ويقال أيضا إن اسمهم مأخوذ من الآية الكريمة « ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله . » . وسموا أيضا الشراة لأنهم باعوا أنفسهم لله تعالى وفضلوا الموت جهادًا فى سبيله على الحياة مع شريعة منقوصة وهواسم مشتق من شرى بمعنى باع ـ كما فى الآية « وشروه بثمن بخس »[1] وهم ألصق بالآية : « ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله » أى يبيعها . وكان أكثر الذين انضموا اليهم عربا بدوا . والبدو أعرف باللغة وأوسع حفظا لمفرداتها[3] يمتاز كلامهم بالقوة والدقة واشتهر الخوارج بأمرين : قوة حجتهم وفصاحة خطبهم ثم تشددهم فى العبادة وقوتهم على أنفسهم فى سهر الليل تهجدا وصيام النهار نافلة . وخطبة أبى حمزة توضح ذلك . وقد استنفدوا جزءا كبيرا من طاقة علىّ فى حربهم ثم قتلوه وظلوا بعده شوكة دامية فى جانب الدولة الأموية . واستهلكوا أيضا جوانب من طاقتها فى حروبهم وفى أواخر أيامها حين بدا فيها الضعف بدأ للخوارج نشاط جديد .

وفى عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قام عبد الله بن يحيى الحضرمى الذى عرف باسم طالب الحق فأعلن خلع مروان . وولى أبا حمزة واسمه « بلج بن عقبة » من الأزد فطلع على الناس فى موقفهم بعرفة سنة ١٢٩ هـ بأعلام وعمائم سود على أسنة الرماح ولكنه لم يشن حربه إلا بعد انتهاء الحج ضنا بعبادته وعبادة الناس أن تفسد . وعقب الحج استولى على مكة بدون قتال . وفى سنة ١٣٠ هـ دخل المدينة واستولى عليها ولكن إقامته بها لم تدم إلا نحو ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال مروان وقال لأهل المدينة : إنا خارجون لقتال مروان فإن نظفر نعدل فى إخوانكم ونحملكم على سنة نبيكم وإن يكن ما تتمنون ـ فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ـ وقد انهزم أبو حمزة فرجع إلى المدينة ببقية جيشه فكان من القتلى بها وكانت هذه نهايته ولكن لم ينته الخوارج ولا مذهبهم .

---

(١) سورة يوسف .

(٢) سورة البقرة .

(٣) أفراد ابن عبد ربه فى كتابه . « العقد الفريد » فصولا لكلام الأعراب ومواعظهم فارجع إليه إن شئت تجد نماذج من البلاغة العربية القوية .

جو الخطبة

لم يكن أهل المدينة راضين عن أبي حمزة ولا عن الخوارج بل أذْعَنُوا له كرها وخوفا . ولأبي حمزة فى أهل المدينة أكثر من خطبة تهدف إلى تهدئتهم وتثبيت قدم الخوارج . وكلها تدور حول أفكار خاصة أهمها بيان المساوئ التى اتسم بها العهد الأموى . وبيان ما يتسم به الخوارج من صلاح وتقوى وحرص على قوانين الله . والخوارج بوجه عام يقرون خلافة أبي بكر وعمر ويقرون خلافة عثمان فى الست السنوات الأولى منها فقط . ويقرون خلافة على حتى قبوله التحكيم . بينما كان أهل المدينة يقبلون خلافة هؤلاء جميعا بل قبلوا أيضا خلافة الأمويين . هذا لأن جمهور أهل المدينة كانوا يرون أنه إذا ولى الخليفة وجبت طاعته ، ولهذا يتهمهم أبو حمزة بقلة الفهم وضعف العقل . ولوكانوا من أهل الرأى الناضج والعقل القوى ما قبلوا خلافة هؤلاء . وكان مما نفر أهل المدينة منه أن أصحابه كانوا من الشبان الناشئين . ومهمة الخطبة قبل كل شيء هى الدفاع عن هؤلاء الشبان بوجه خاص ثم تأييد مذهب الخوارج وتثبيته بوجه عام . وقد جاء هذا أيضا فى خطبة أخرى . وهذه الخطبة أطول مما ذكرنا ورواياتها ليست متفقه ولكن ما وصف به أصحابه فيها أوضح مما وصفهم به فى غيرها وهى مثل جيد فى البلاغة وحسن التصوير.

أجزاء الخطبة

مهد أبو حمزة لحديثة بمقدمة بينت فضل الإسلام وفضل رسول الله (ﷺ) وأنه أخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور التوحيد وتركهم على المحجة البيضاء وهذه مقدمة لا يجادل فيها أحد من سامعيه . ثم انتقل إلى الثناء على الخليفتين الأولين ولهما بلا ريب مكانتهما فى نفوس الناس ثم أيد عثمان للسنوات الأولى من خلافته وهى سنوات لم تكن ظهرت له فيها عيوب ولا ترك لبنى أميه العنان أن يخرجوا عن حدود السنة وذكر خلافة علىّ الصحيحة قبل التحكيم . ثم أنحى على بنى أمية باللوم والتجريح فأفاض فى هذا إفاضة كبيرة لم نذكرها جميعها . وهذا من عرض موضوعه لا من مقدماته لأن أبا حمزة جاء فى آخر هذه الدولة والنيل منها إنما هو تثبيت لدعوة الخوارج التى تقوم على السنة المحكمة والعدل الإسلامى الصحيح . وقد جاء فى حديثه أن هشام بن عبد الملك لما أصابت ثمارهم جائحة وضع الخراج عنهم نهائيًّا وهذا خطأ لأنه زاد الغنى غنى بتوفير

الخراج ولا جزاه خيرًا ! وعطف كذلك على الشيعة فسفه مذهبهم وبهذا قضى على أعدائه . ثم دخل فى موضوعه الأساسى فذكر أن الخوارج لم يثوروا طلبا للملك ولا رغبة فى الانتقام وإنما خرجوا لإقامة العدل وإعلاء حكم الله :

لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت . وعُنِّف القائل بالحق وقُتِل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت ثم برر معركته مع جندهم .

إلى هنا برر أبو حمزة كل أعمال الخوارج وزكاها فانتقل إلى النقطة الأخيرة وهى أهم شىء فى الخطبة لأنها الغرض الذى من أجله قيلت : ذلك هو دفاعه عن أصحابه من الشباب . احتج أولا بأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قامت على أيديهم الدعوة الإسلامية كانوا شبابا . وإذن فدعوته صدى لدعوة نبى الإسلام وأصحابه صورة من أصحاب الرسول . ثم أخذ فى وصفهم فأبدع أيما إبداع . وصفهم بالنسك والعبادة وطول التهجد . وصيام النهار . والكف عن جميع المحرمات . ثم وصف ما أصابهم من بنى أمية . هذه الأيدى التى تلمس الأرض فى ركوعها والتى لم ترتكب محرما قط . تقطع ظلما وهذه الأعين التى تبيت باكية من خشية الله . والتى تغض عن كل محرم تصبح قطعا فى مناقير الطير . وهذه الأجسام الطاهرة العابدة تصبح طعام الوحوش . كل هذا والمجرمون العصاة منعمون رافهون . خليقة أن تنفذ إلى قلوب سامعيها . وتحرك عواطفهم . وقد جاءت ختاما للخطبة كلها وهى إشعار بما هم عليه من التمسك بالسنة النبوية وعمل رسول الله ثم جعل غرضه الأساسى آخر شىء يسمع فذلك يجعله أبقى فى الأذهان وأعلق بقلوب السامعين .

فهذا مثال للخطبة الجيدة الناجحة ولكن لا يرجع نجاحها إلى هذا الترتيب بقدر ما يرجع إلى قوة تعبيرها وصدق تصويرها وحسن اختيار ألفاظها وأنت تراه يجنح إلى صيغ التعجب . وآيات قرآنية مناسبة وهو لا يتملق أهل المدينة ويسترضيهم . بل يهجم عليهم ويوبخهم . ذلك أن أدب الخوارج يمتاز بالقوة والعنف والشجاعة المتهورة . وليس إلى السياسة والمداهنة شأن بنى أمية .

وفى الحديث عن تاريخ الخطابة وأدب الخوارج نشرح ذلك إن شاء الله ونذكر ترجمة لبعض خطباء الخوارج الآخرين .

أنـــواع الخطـــابة

أنــواع الخطابــة

يعتمد الباحثون فى فن الخطابة وتاريخها على تقسيم أرسطاطاليس . باعتباره أقدم باحث فى قواعد العلوم وتقنينها ، وهو قد نظر فى تقسيمه الى الزمن ، فجعل من الخطب مايختص بالماضى كالخطب القضائية ، إذ يطلب فيها من المحكمين قضاء فى حدث قد وجد بالفعل وانتهى زمنه ويراد منهم الحكم ببراءة المتهم أو عقوبته فموضوع الخطبة يدور حول حدث قد انتهى . ومن الخطب ما يختص بالحاضر كخطب التكريم والدعوة إلى مشروع معين فالخطيب يعنيه فى المقام الأول أن يثبت فى أذهان سامعيه حقيقة واقعة وحادثة فى الوقت الذى يتكلم فيه ، وهناك خطب تختص بالأمور المستقبلة كالخطب التى يطلب بها تقرير قانون أو إنشاء شىء جديد فالخطيب حينئذ يستحث الناس على عمل لم يحدث بعد ، فالخطب إذن ثلاثة أقسام فى نظر أرسطو تبعا لأجزاء الزمن . لكنّ هناك تقسيما آخر للخطبة باعتبار موضوعاتها العامة ، وهذا التقسيم ليس دقيقا كل الدقة بل يتداخل بعض أقسامه فى بعض والنظر والتسمية من جهة الجوانب الغالبة .

وهذه الأقسام هى : الخطبة السياسية ، والخطبة القضائية ، وخطب التكريم والخطب الدينية والخطب الاجتماعية . فهى إذن خمسة أقسام ووجه تداخلها أن الخطبة الاجتماعية والسياسية والقانونية والخطبة الدينية تشمل كل تلك الأنواع بما فيها الخطبة القضائية لأن القانون من الدين وهكذا لا تجد هذا التقسيم دقيقا دقة تقسيم أرسطو ولكنه يتناول حقيقه الخطبة لا زمنها ، والتقسيم الزمنى ليس بذى فائدة فنية ، ونحن نعنى هنا بالخطبة الدينية لأنها هى النوع الذى نريد التدرب عليه وإجادته ولكننا نتحدث عن كل قسم من الأقسام الأخرى بما يوضحه ويجلوه فى أذهاننا وإجادة الخطبة الدينية وجودة التدريب عليها تبعث على الإجادة فى الأنواع الأخرى .

الخطبة السياسية

يعنى بالخطبة السياسية الخطبة التى توجه حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء فى علاقاتها الخارجية أو أعمالها الداخلية وقد كان هذا موضوع هذه الخطبة عند اليونان يستعرضون فى خطبهم أحوال الدولة وما يجب أن تعمله للنهوض بأبنائها ورفاهيتهم وكذا ما يجب أن تنتهجه إزاء إعلان حرب على دولة أخرى أو تحاشى الاشتباك معها أو عقد صلح بين الدولتين أو زيادة عدد جيشها أو إنقاصه وهكذا .. والخطب البرلمانية من أهم الخطب السياسية لأن الخطيب البرلمانى من حقه بل ومن وظيفته أن يقترح على حكومته وأن يشرع لها وأن ينقدها فيما تخطئ فيه وهو لهذا يتمتع بحصانة برلمانية تتيح له الحرية الكافية فى أن يقول ما يشاء ، ومن الخطب السياسية خطب الدعايات الانتخابية إذ فيها يوضح العضو المرشح جوانب السياسة التى يريد أن ينهجها ويبين عيوب السياسة التى يعارضها ومنها خطب المؤتمرات السياسية فهى بطبيعة الحال خطب رسمية خاصة بسياسة الدولة .

هذا النوع من الخطب نال نشاطا وازدهارا فى عهد الأحزاب السياسية فى مصر وانتقل من الخطابة إلى الكتابة الصحفية وكتابة المنشورات ، فكان تيار الخطابة والكتابة يجريان معا فى طلق واحد ، ولكن مع الصحف اليومية وغير اليومية كانت تعقد المجتمعات الكبيرة لحزب ما أو رئيس حزب أو لعضو بارز فيه ليتحدث عن سياسته وربما استغرقت خطبته ساعة أو اكثر نجد المستمعين خلالها صامتين مصغين كل الإصغاء قد تعلقت أعينهم بالخطب وتموجت أجسامهم بتموج حركاته . وكانت هذه فى الواقع نهضة خطابية عظيمة ، فضلا عن أنها أمدت الشباب بروح خطابى وأمدت الشعب أيضا بثقافة سياسية ، وفتحت أذهان الناس لأفكار حية ومبادئ هامة تستحق الدرس والتفكير .

وفى كل أمة دستورية يتمتع نوابها بحرية كافية ويمنح أبناؤها حرية الإدلاء بآرائهم ينضج هذا النوع من الخطابة وحسبك أن تطلع على كتاب من الكتب التى تترجم لكبار السياسيين لترى خطبهم المختلفة وما تحتوى من آراء توجيهية أو نقد للحزب ، المعارض ولعل أوضح الأمثلة فى هذا خطب الزعيم الانجليزى ونستون تشرشل ، فهى بجانب بلاغتها وقوتها تتسم بالديمقراطية والنزاهة الرائعة وقد هجم تشرشل على تشمبرلين رئيس الوزراء أول قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ هذا مع أنهما من حزب واحد ، وأروع من هذا أنه عندما تنحى تشمبرلين عن رئاسة الوزارة وتولاها تشرشل كان تشمبرلين من أكبر معاونيه ومشجعيه مما دل على أن عملهما كان خالصا للوطن ، ولا أثر فيه أصلا

للجانب الشخصى ولم تكن الأحزاب المصرية حين قيامها وتعددها على حظ من المثالية بل كانت تعمل لصالح ذويها والهجوم على خصومها بكثير من التحامل - ولكنها خلقت نهضة خطابية على أى حال .

وإذا رجعنا إلى نشأة هذا النوع من الخطابة نجد بدايته عند اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد فاليونان مهد الديمقراطية ، وهى أيضا منشأ كثير من جوانب الفكر البشرى والثقافات العامة وفى كل هذه الفروع نرجع للبحث عن بدايتها إلى اليونان - وهى أول بلاد عرفت الديمقراطية السياسية ومنحت شعبها حرية الرأى وإعلانه ؟

ولما جاءت الدولة الرومانية لم يخفت هذا النوع من الخطابة - بل نما وازدهر - حتى عندما كانت الدولة تحكم بقواد عسكريين - ولعل ما يحفظه التاريخ من محاورات حول موقف يوليوس قيصر - واتصاله بالملكة المصرية كليوباترة ، وتأييد بعض الخطباء مسلكه وهجوم آخرين عليه مما يوضح مدى قوة الخطابة السياسية وشدة تأثيرها لدى هؤلاء القوم ، وسنعرض لشىء من هذا عند الحديث عن تاريخ الخطابة .

واستنامت الخطابة فى العصر الوسيط فى البلاد الأوربية بينما كانت ناهضة قوية جدًّا فى الأمة العربية ويرجع ذلك إلى الفرق الواسع بين نظام الحكم هنا وهناك - وفى العصر الحديث عصر البرلمانات والحياة النيابية نضجت الخطابة السياسية كثيرًا وتهذبت أيضا - وكانت فرنسا إبان الثورة الفرنسية أسبق الدول فى هذا الميدان ، وما أثر عن خطبائها - أمثال «ميرابو» ولا مرتين ، وروبسبير ، وكونستانت - يوضح مدى نجاح الدولة فى هذا النوع . ثم نمت الخطابة السياسية فى البلاد - الأوربية جميعا .

ولم تقف دائرة الخطب السياسية عند الأحزاب والبرلمانات ، بل تعدت ذلك الى المحيط الدولى ذلك أن السياسات الخارجية وعلاقات الدول بعضها ببعض ، أصبحت أكثر اشتباكا وأشد تعقيدًا - وقد أنشئت عصبة الأمم عقب الحرب العالمية الأولى فضمت أنماطا من الأمم والشعوب فى صعيد واحد ، وحلت محلها هيئة الأمم بعد الحرب الثانية ، وفى كلتا الدارين تبودلت خطب سياسية هى بلا ريب أوسع وأهم من خطب الأحزاب والبرلمانات . وفى محيطنا العربى أنشئت أيضا « الوحدة العربية » التى حولت إلى جامعة الدول العربية ، وكانت بدورها ميدانًا للخطب السياسية .

ويرجع فجر هذه الخطب السياسية فى مصر إلى الخطب التى كان يلقيها مصطفى كامل ضد الإنجليز خصوصًا فى فرنسا عقب حادث دنشواى . ثم كانت خطب سعد زغلول

التى تمتاز ببلاغتها وقوة أسلوبها العربى ، وجمع مكرم عبيد خطبه فى كتاب سماه «المكرميات» به كثير من التعابير البليغة القوية ، ولكن خطبه وخطب النحاس كانت أقل كثيرا من خطب سعد لضعف تكوينها الأدبى وقلة درسهما اللغة العربية ، ثم لحرصهما على السجع حرصا هبط بخطبهما فى كثير من الأحيان إلى الركاكة والتهافت ، ثم كان مكرم بالذات غير مهذب الألفاظ ويكثر من العبارات النابية السوقية بجانب العبارات البليغة الرصينة .

وبعد ذلك هبطت الخطابة البرلمانية والسياسية فمن ناحية ذهبت الأحزاب ومن ناحية أخرى عمر البرلمان بغير المثقفين من العمال والفلاحين الذين لا يجيدون الخطابة بل ولا يعرفونها ، ثم جنح السياسيون إلى استعمال اللغة العامية فضاعت الخطابة السياسية نهائيا .

مكونات الخطبة السياسية :

ليس كل خطبة سياسية مما ينال نجاحا وقبولا لدى السامعين وكثيرا ما ينصت السامعون احتراما للخطيب ، ولكنهم غير مقتنعين برأيه ، ونجاح الخطبة يقوم على الإقناع والاستمالة . وهى بوجه عام تعتمد على عملين : تأييد رأى الخطيب وهدم الآراء المعارضة ذلك لأن الخطيب إذ يزين رأيه لا يدع مجالا للرأى الآخر أن يبرز فى ذهن سامعيه بل ينفرهم منه ويطرده عنهم وأهم قواعد الجانبين ما يلى :

١ ـ على الخطيب أن يدرس الموضوع الذى يريد أن يتخذه موضوع خطابته ، ويتعمق معانيه ليمكن أن يقدم لمستمعه شيئًا جديدًا مقنعا ، ثم إن هذه الدراسة تمكنه من الرد على معارضيه وتفجؤهم بمبادئ ومعان لم تخطر ببالهم فلا يجدون قدرة على ردها والاعتراض عليها ، ويجب أن يعد الخطيب بجانب هذه الدراسة عبارات خطبته التى يوضح بها الأفكار التى درسها .

٢ ـ يجب أن يكون مقتنعا بالمبدأ الذى يدعو إليه فهذا الاقتناع يمنحه حرارة وقوة فى خطابه ويمده أيضا بمعان جديدة ، ثم عليه أن يقدم للناس نفس الأسباب التى اقتنع هو بها ، وأن يجمع فى خطابه شأن الخطابة عامة بين الأسباب المقنعة والأخرى المثيرة للعاطفة ، لأنه بها يستميل مشاعرهم ، ولكن مخاطبة الجماهير التى تحتاج إلى هذه الإثارة لا تستغنى عن المنطق الذى تعتمد عليه ، وبغير ذلك يتحمس الناس

للخطيب أثناء خطابته ، فإذا انصرفوا من موقفه لا يجدون فى أذهانهم ما يغذى عاطفتهم فتكون الخطبة ضعيفة الأثر.

٣ ـ عليه أيضا أن يدرس آراء معارضيه ليفندها ويضعف تأثيرها . وهو فى هذا يوازن بين مذهبه ومذهب الآخرين المعارضين ويبين ما لمذهبه من مزايا ومنافع عامة للناس وما للمذهب الآخر من أضرار وقلة جدوى.

ويغتفر للخطيب فى هذا أن يستعمل سخريةً قليلة عارضة أو يرسل نكتة عابرة للنيل من خصومه . فهذا يكسبه شجاعة فى موقفه وإيهام الناس أن المذهب المعارض مفروغ من دحضه وقلة نفعه ولكن لا يجوز له أن يتناول خصومه من الجوانب الشخصية أو أن يبحث عن مغامز فى سلوكهم أو تاريخهم فهذا إسفاف يزرى بالخطيب نفسه وقد ينتج عكس ما يريد.

٤ ـ الخطيب السياسى فى أكثر مواقفه كالمناظر قلما يسلم من معارضين وقد يفاجأ بمن يقاطعه فى حديثه أو يبدى عليه اعتراضا . ولهذا يجب أن يكون رابط الجأش ثابت القلب حاضر الذهن فلا يتزعزع لهذه المقاطعة بل يجد إجابة حاضرة عليها ، وقد يستعمل فى هذا الموقف شيئا من السخرية والاستهانة وهى فى الغالب تمنحه فرصة من الوقت ليفكر تفكيرا جديدا أو ليستخرج ردًّا ما على خصمه والخطيب الشجاع الجرىء لا يتزعزع لهذه المقاطعة وربما عدل إلى جانب آخر من الحديث وترك اعتراض صاحبه أو رد عليه ردًّا غير كاف ليشغل الناس بحديثه الجديد وبعبارة أخرى يقابل الهجوم عليه بهجوم آخر. وهذا النوع قد يكفى فى الخطابة السياسية ولكنه لا ينجح فى الخطب القضائية.

وتختلف الخطبة السياسية عن الكتابة السياسية فى أن الخطبة تبادل آراء والكتابة إلقاء آراء فالكاتب يوضح مايريد وهو منفرد مستقل يستطيع تفادى بعض الوجهات المعارضة ثم لديه فسحة فى إعداد خطبته بدقة . واختيار الألفاظ الجيدة وكل ذلك لا يتأتى للخطيب.

ومن الخطب السياسية الجيدة خطبة لسعد زغلول التى قالها فى موضوع التفاوض مع الإنجليز . وكان للأحزاب الأخرى مواقف متضاربة والنزاع بينهم شديدًا وهو يؤكد لمستمعيه أنه لن يفرط فى شىء من حقوق البلاد. ومنها :

« ... إن الثقة التى شرفتنى الأمة بها لا يمكن أن تنعدم ـ كما قلت لوفدكم بالأمس ـ

إلا فى واحدة من حالتين : إحداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحماية . وإنى أعيذها من هذا الخيال . والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبدأها[1] فبدلا من أن يسعى للاستقلال سعى فى غيره وعمل لسواه ، وفى هذه الحالة لا يصلح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالإعدام ، ويكون حكمها من أعدل الأحكام ، وإنى أبيح دمى إذا رأيتم منى انحرافا عن قصدكم ، أو تسامحا فى حقوقكم ، أو خروجا عن حدود المهمة التى عاهدتكم على القيام بها ،وما عدلت ولن أعدل عنها ــ وما دام فىّ عرق ينبض ، أو نفس يتردد . وإنى أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات فى طريقها ، مهما كانت رابطته معنا ، وحاله من الصداقة لنا ولقد قاطعت كثيرا من أصدقائى لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصا على التمسك بحقوق الأمة ، فكل من رأيت فيه تهاونا فى السعى ، وتواكلا فى العمل ، أو تسامحا فى الحق ، وأعيتنى الحيلة فى إصلاح شأنه قطعت بينى وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها ... أفعل ذلك غير آسف لأن حقوق الأمة لاتقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب ... »

الخطبة تدور حول تأكيد حرصه على مصالح بلاده وقد قدم الأدلة الكافية من غير أن يجرح أحدًا من خصومه . ولكنه وضح أنه يضحى بحياته فى سبيل وطنه كما يضحى بكل صديق عزيز عليه لأن حقوق الأمة لا تقبل المجاملة ، ووظيفته هى العمل لها لا للأصدقاء .

وخطب سعد بوجه عام كانت قوية الأسلوب قوية التعبير قوية الحجة وترجع قوة أسلوبه وسلامة لغته إلى نشأته الأزهرية ، وإلى تكوينه الأدبى فى الأزهر ، وقد كانت خطب مصطفى كامل أكثر من خطب سعد حرارة وأملأ بالعاطفة ، ولكنها كانت لينة الأسلوب سهلة العبارة لا تكاد تفترق عن الكلام المألوف .

ومن خطبة له رحمه الله يشجع فيها المصريين ويشد عزائمهم كيلا ييأسوا من نيل استقلالهم أو تفتر عزائمهم عن المطالبة به :

... «إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ، ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة وسيكون كذلك لا محالة فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق شروق وبعد الغروب غروب

(١) يعنى بموضع ثقة الأمة هو نفسه . يريد أن الأمة وضعت كل ثقتها فيه فهذا هجوم آخر .

فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبدا : لقد طال الانتظار إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت اليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، وأعلى مطلب إليه فى مستقبلها فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا[1] . ولا الشتائم تؤثر فينا . ولا الخيانات تزعجنا . ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

ولا يفوتنا أن نذكر خطيب الثورة العرابية عبد الله النديم وهو لم يكن واسع الثقافة ولكنه كان حاد الذكاء تواتيه الألفاظ والمعانى بغزارة فتمكنه من إقناع سامعيه واستمالتهم إلى ما يدعو إليه . وكان السيد عبد الله النديم إلى جانب خطابته الفصيحة زجالا لا يبالى أن يبارى أحد « الأدباتية » لمدة طويلة . ولا ترجع شهرته إلى بلاغة عباراته وإنما ترجع إلى حضور ذهنه وما أوتيه من بديهة تستجيب لكل موقف ، كان يواجه الموقف الطارئ — فيرتجل الخطبة التى تناسبه ولا يحمله ارتجاله على الإيجاز ، بل يمتد به الحديث ويمتد وكلما تحدث انفسح له مجال القول وتدفق لسانه به ، حتى يكون فى آخره أسهل عليه من أوله لهذا لقبوه خطيب الثورة وبالغوا فقالوا خطيب الشرق . وترجع هذه الصفة إلى ما كان له من ثبات الجنان وقلة التهيب ومواتاة العبارات ، فهو يبدأ الخطبة بقول ما يطرأ على كل ذهن ولكنه يعمل فكره فى المعانى الأخرى ، فيكون لديه ينبوع من الحديث غير منقطع وبه تطول الخطبة ولا يحتاج إلى تكرار . ولعل التمهل فى الإلقاء مما كان يتيح له فرصه التفكير كما أنه يحول دون الإجهاد الذى يكل الذهن . ويؤثر عن النديم أنه خطب فى حفل لجمعية المقاصد الخيرية خمس مرات فى يوم واحد وهو يطيل فى كل خطبة ولكنه لا يعيد شيئا مما قاله من قبل .

وبذكر ثبات النفس فى المواقف المتأزمة الحرجة نعود ثانيا إلى ذكر ونستون تشرشل - ففى أول الحرب العالمية الثانية أحرزت ألمانيا سلسلة من الانتصارات — جعلت الناس يوقنون لها بالنصر المحتوم وكان تشرشل وزير بحرية فجاء فى خطبة له :

« إن بعض الدول الصغيرة يهولها ما فى قوة ألمانيا العسكرية من بطش ودقة فيبهرها هذا البريق اللماح ، وتأخذها الأحداث المؤقتة ، بينما تعمى عن قوة الشعوب العريقة القوية التى تتصدى لألمانيا ، وعن مقدرتها على مجالدة المحن وتحمل الأخطاء وخيبة السعى وسوء التدبير ، ولكن فى وسعها أن تجدد قوتها وتمضى فى كفايتها إلى غايتها بعزيمة لا تفلها

(١) الفعل وقف الثلاثى متعد بنفسه .

خسارة موقف بل هى لا غاية لها فى مواجهة الصعاب حتى يتحقق لها النصر فى أعظم قضية حاربت الإنسانية فى سبيلها

ومن خطبة لمصطفى كامل بالإسكندرية ١٨٩٧

كل اجتماع وطنى تذكر فيه مصر ويطالب بحقوقها ، ويعلن أبناؤها إخلاصهم لها هو فى الحقيقة مرهم لجراحها ، ودواء لدائها . فاذكروها ما استطعتم ، فإن فى ذكراها ذكرى آلامها ، وذكرى الآلام تجرّ حتمًا إلى ذكر عوامل الشفاء اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة ، وهى على سرير المرض والعناء ، اذكروها بآلامها ، وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفعة شأنها ، اذكروها فإنكم مادمتم مقدرين لمصائبها عارفين بحقيقة آلامها فالأمل وطيد فى سلامتها . اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار فى داره ، والداء فى شخص أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء ، ومن المستحيل أن يكون الوطن فى خطر ونحن نيام ، وأن يعمل الأجنبى لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا ، بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل لنا ولا حراك .

القوا ـ أيها السادة ـ بأنظاركم قليلاً إلى الأمم الحرة تجدوا كل فرد فيها يدافع عن وطنه ، ويذود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمه . بل هو يرضاهما ضحية للوطن ، ويرضى نفسه قبلهما قربانًا يقدمها لإعلاء شأن بلاده ، ويعد الموت من أجل الوطن حياة دونها حياة البشرية ، ووجودًا دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصرى على هذا الطراز ووطنه أجمل الأوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة الطاهرة .

والخطبة ـ وخطبه الوطنية كلها ـ على هذا النسق ، تبدو فيها العاطفة كما تبدو فيها قوة المعانى ، وفيها تأثير واضح على السامع والقارىء ، ولكنها كما ذكرنا ليست قوية التركيب البلاغى ، ولا دقيقة التعبير ، وفى هذه القطعة التى اخترناها تجد فيها ذلك كله ، تمثيل قوى وإثارة للعواطف ، وترغيب فى التضحية من أجل الوطن ، فإذا بحثت ألفاظها وجدتها أسلوبًا سهلاً دارجًا ، بل يبدو التهاون فى بعض عباراتها ، فلو أنه قال : اذكروا مصر كما يذكر الولد البار أمه الحنون ، لكان أدق ، لأن الحنان صفة الأم والبر من واجبات الأولاد ، ولو أنه ذكر أن الأجنبى يعمل لاستعبادنا واسترقاقنا ، بل للقضاء علينا وسلب حياتنا لكان أدق ، لأنه ترق من الاستعباد إلى الإهلاك ، وسعد زغلول أقوى منه تعبيرًا ولا ريب .

الخطبة القضائية

الخطبة القضائية هى التى تلقى فى ساحة المحاكم أمام القضاء طلبًا للحكم فى أمر مَا ، وهى تختلف باختلاف المحاكم التى تلقى بها ، فقد تكون فى أمر جناية أو أمرٍ مدنى أو حالة من الأحوال الشخصية ، وموقف الخطيب ـ المحامى أو وكيل النيابة يختلف باختلاف القضية التى يتكلم من حيث نوعها وأهميتها والأحداث التى بنيت عليها .

هذا النوع من الخطابة قديم يرجع قواعده وأهم أصوله إلى اليونان ، ثم إلى الرومان ، وكان موجودًا عند العرب قبل الإسلام ، نجده فى مجتمعاتهم التى يقررون فيها شئون الديات والقصاص والمغارم ، وقد بين رسول الله (ﷺ) أهمية هذا النوع فى قوله لنفر من الأنصار اختصموا إليه : «إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إليّ وقد يكون بعضكم ألحن[1] بحجته من الآخر فأحكم له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإنما أقتطع له قطعة من نار وبين هذا الحديث أن المحامى اللبق يستطيع أن يخدع القاضى وأن يلبس الباطل ثوب الحق والحديث يلجأ إلى إيقاظ الضمائر وتحذير الناس من الحَيْدِ عن الحق . وليس هذا متبعًا الآن لأن المحامى يعنيه أن يكسب موقفه وأن يتغلب على خصمه وهو على استعداد للتحدث عن أى من الخصمين يلجأ إليه ، والقضاة الأذكياء يحرصون على ألا يخدعوا ببلاغة الخطيب وأن يبحثوا القضايا التى أمامهم من الوجهة القانونية البحتة ، والخطيب القضائى رغم هذا لا يستغنى عن إثارة عواطف القضاة ، وبعبارة أخرى أمام هذا الخطيب لنجاحه أمران : الأمر الأول والأهم هو البحث القانونى وتطبيق قضيته عليه ، الأمر الثانى وهو أمر مساعد هو جذب عواطف القضاة نحو ما يدعو إليه . وهذا الأمر الأخير وإن كان محدود الأثر لا يخلو من أهمية ، لأن القانون ذو مرونة ومرونته متروكة للقضاة ، فمثلاً نجد العقوبة فى جريمة ما غرامة لا تقل عن خمسين جنيهًا وسجن شهر أو إحدى العقوبتين فالغرامة قد تؤخذ فى أضيق حدودها وقد يكتفى بها وحدها وقد تزيد عن حدها الأدنى ويضم إليها السجن ومن هنا نجد أن عاطفة القاضى لها أثر .

وليس من إثارة العاطفة القضائية إن يقول المحامى أن الجانى رجل فقير ويعول أسرة كبيرة ولا كاسب لها غيره . فهذا بعيد عن العدالة التى تحتم أن يلقى جزاءه ، ولكن هذا

---

(١) أفصح وأبين .

الاستعطاف يأتى من ناحية توهين المستند ، والتحذير من عقوبة شخص برىء أو هو أقرب إلى البراءة وأن القانون يفضل براءة الجانى أو عشرات الجناة على أن يُعَاقَبَ شخصٌ برىء بأدنى عقوبة ، ومهمة الخطيب القضائى أن يضع صورة للجريمة التى ينظر القضاء فيها أولاً ، ثم يعرض المواد القانونية التى وضعت لها وهنا يختلف الموقف فوكيل النيابة يعمل على تثبيت الجريمة ويطالب بأقسى ما ينص عليه القانون من عقوبة ، أما المحامى المدافع فإنه يعمل على نفى تعمد الجريمة ، ثم يحاول تجريح الشهود ، وأخيرًا يلجأ إلى الجوانب القانونية التى تخفف العقوبة ولابد لكل من الخطيبين أن يفند آراء خصمه وأن يوهنها بأدلة منطقية وقانونية .

وأهم ما تعتمد عليه الخطبة القضائية :

١ ـ درس القضية درسًا عميقًا شاملاً بحيث لا يغيب عن الخطيب أدنى جزئية منها .

٢ ـ وضعها فى الصورة القانونية الملائمة بحيث ينجح طلبه بأقصى ما يستطيع ويبحث اقتناع القاضى أنه يعتمد على القانون لا على التهريج والإثارة .

٣ ـ أن تصاغ الخطبة فى صورة منطقية متسلسلة تسلم كل نقطة إلى تاليتها بدون أن يشعر السامع بفجوة أو انقطاع ، فهذا يوهن الخطبة وينبئ عن عجز صاحبها .

٤ ـ جودة الأسلوب وقوة التعبير مما له أثر كبير فى إنجاح الخطبة القضائية وكبار المحامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد إلقاءها ويستفيد منها المحامون الآخرون والخطباء .

٥ ـ قد يجد القاضى أن القانون العام ليس مسعفًا ولا واضح التطبيق فى قضيته ولهذا يلجأ إلى القوانين الخاصة التى وضعها القانونيون شرحًا للقانون العام ومالهم فيها من آراء فرعية كما يلجأ المحامى فى الأحوال الشخصية إلى أقوال فقهاء من المذاهب الفقهية الكثيرة التى ترد فى القانون .

والخطبة القضائية مصدر ثقافة قانونية وفى قليل من الأحيان تجد المحامى باحثًا عن الحق داعيًا إلى طرق العدالة متعاونًا مع القاضى فى إحقاق الحق ودفع الظلم وربما لا يوجد هذا إلا مع محامى الحكومة ، فالحكومة كما يقولون خصم شريف ، أما المحامون المأجورون فإنهم لا يعنيهم إلا نَجَاحُهُم ولهذا يلجأ الواحد منهم أولَ ما يلجأ إلى تجريح الشاهد أو التماس فارق بسيط بين أقوال الشهود ثم يطيل فى خطبته لإقناع موكله أنه بذل جهدًا ، ولم تشرع المحاماة لهذا العمل .

ولا يعنينا أن نقف طويلاً لدى الخطبة القضائية فلها مدارسها ورجالها وليست مما يمس أعمال الدعاة إلى درجة كبيرة وأهميتها أنها خطبة مستحدثة تمثل روح العصر أكثر مما تمثل التاريخ فهى لم تنشأ فى بلادنا إلا منذ اتخذت المحاكم المصرية نظامًا أوروبيًّا وهى لم تظهر فى الأدب الأوروبى إلا منذ عصر النهضة ولهذا نجد لهذه الخطبة أمثلة فى الأدب العربى القديم ، وقد كان المتخاصمون يقفون أمام القضاة فيدلى كل برأيه وحجته ثم يناقشهم القاضى قبل أن يصدر حكمه ، كما فعل بعض الأنصار أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا يبين مدى تأثير الخطيب القضائى ببلاغته على القضاة .

ومن الأمثلة العربية فى هذا مخاصمة أبى الأسود الدؤلى وزوجته أمام زياد ابن أبيه فى ابن كان لهما وأراد أبو الأسود أن يأخذه . فقالت الزوجة :

«أصلح الله الأمير هذا ابنى كان بطنى وعاءه وحجرى فناءه وثديى سقاءه ـ أكلؤه[1] إذا نام وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام حتى إذا استوفى فصاله[2] وكملت خصاله واستوعكت[3] أوصاله وأمَّلْتُ نفعَه ورجوت دَفْعه[4] أراد أن يأخذه منى كرهًا فآدِنِى[5] أيُّها الأمير؟ فقد رام قهرى وأراد قسرى[6] .

فقال أبو الأسود : أصلحك الله هذا ابنى حملته قبل أن تحمله ووضعته قبل أن تضعه وأنا أقوم عليه فى أدبه وأنظر فى أَوَدِهِ[7] وامنحه علمى وألهمه حلمى حتى يكمل عقله ويستحكم[8] فتله .

فقالت الزوجة : صدق ـ أصلحك الله ـ حمله خفا وحملته ثقلا . ووضعه شهوة ووضعته كرها .

فقال له زياد : اردد على المرأة ولدها فهى أحق به منك ودعنى من سجعك[9] وكان الورعون من المسلمين يكرهون منصب القضاء خوفًا أن يحيفوا .

---

(١) أحفظه وأرعاه .

(٢) بلغ حد الوفاء . والفصال الفطام والاستغناء عن الرضاعة .

(٣) اشتدت وصلبت .

(٤) دفاعه عنى .

(٥) قونى وأعنى من الأيد والآد . أى القوة .

(٦) إجبارى وكرهى .

(٧) اعوجاجه .

(٨) تبلغ قوته الجسدية تمامها . والفتل الإحكام .

(٩) ارجع إلى هذه المحاكمة فى أمالى القالى جـ ١٥/٢ .

ولعل مما يتصل بهذا من قرب وصية عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعرى حين ولاه القضاء وهى رسالة مشهورة مذكورة فى أكثر كتب الأدب والتاريخ ويجب ألا يغفلها دارسٌ للأدب القضائى سواء كان محاميًا أو قاضيًا أو خطيبًا .

خطـب الصـلح

يتصل بالخطب القضائية خطب الصلح بين المتخاصمين . والغرض الأساسى منها هو إصلاح ذات بينهم وإزالة ما بينهم من إحن وضغائن . وهى من الخطب القضائية لأن مجلس المصالحة العرفى أو الوسيط بينَ الخصوم قد يحكم على أحد الطرفين بدفع غرامةٍ ماليَّةٍ أو عُقوبةٍ أدَبيَّة . والفرق بين هذا الموقف وموقف المنافرة أن المتنافرين ليس لأحدهما حق على الآخر ولكن كل يدعى أنه أرفع منه وأشرف . وخطبة الصلح فى الواقع عمل قضائى يحاول به الوسيط أو الوسطاء إحلال المودة مكان الخصام . وهذا العمل والخطب التى تقال فيه ليس شيئًا متسحدثًا ولكنه معروف منذ العصر الجاهلى ففى أعقاب الحروب يتوسط بعض الكبراء أو يتحملون ديات القتلى كما فعل هرم بن سنان والحارث ابن عوف فى حرب داحس والغبراء . واستمرت هذه الخطب فى العصر الإسلامى والأموى . لأن الإسلام يؤثر الصلح على القضاء لما فيه من إزالة الشحناء . وكان رسول الله (ﷺ) متفائلاً مبتهجًا بالحسن بن على ويقول إن الله سيصلح به بين فئتين من المسلمين . ومع كل هذا ليس لدينا مأثورات واسعة من خطب الصلح والذى وصل إلينا ليس جاريًا على شريطة شراح الخطب ومؤرخيها من حيث طوله . فقد ذكر أبو هلال العسكرى أن الناس كانوا إذا خطبوا فى الصلح بين العشائر أطالوا(١) ولم ترد إلينا خطبة مطولة من هذا النوع . وكان الخطيب فى خطب الصلح يخطب واقفًا . بينما يكون جالسًا فى خطب الأملاك .

ولا نَزَالُ فى وقتنا الحاضر نحتاج إلى هذا النوع من الخطب ونستعمله خصوصًا فى المنازعات التى تحدث فى الريف وبين القبائل فى صعيد مصر . وقد يجعل الواعظ خطبته للإصلاح موضوعًا عامًّا لخطبة الجمعة حيث يسمعها الكثيرون وقد تعقد لها مجالس خاصة

---

(١) انظر الصناعتين ١٩٢ .

يحضرها بعض الكبراء وبعض رجال الحكومة فيتداول الرأى وتبحث الأحداث أولاً ثم يأتى دور الواعظ ليلقى نصائحه مدعمة بالأدلة الدينية والعقلية .

والاتجاه العام فى خطبة الصلح أنها تدعو إلى التسامح والعفو وترغب فى الصفح وعدم الانتقام ، كما تنفر من المعارك ومن إراقة الدماء ، وقد يذكر الواعظ فى هذا المقام عفو رسول الله (ﷺ) عمن أساءوا إليه من قومه حتى الذين حاربوه وهموا مرارًا بقتله ، وهو يوم الفتح سأل عن عتبة ومعتب ابنى أبى لهب الذى كان شديد الإيذاء له كما يذكر مسامحة ابن حنبل كلا من المعتصم العباسى والواثق بعد ما ناله من تعذيبهما وسجنهما له مدة طويلة ، وقد يذكر أن الشخص حين ينتقم من خصمه يشعر بغبطة وقتية ثم يؤنبه ضميره ويلومه على ما فعل ، ودراسة علم النفس كثيرة النفع فى هذه المواقف . كما يذكر أن توريث المحبة والوئام بين الناشئين والذرية البريئة خير من توريث الشحناء والمطالبة بالثارات . وحياة الأمن والدعة خير من حياة الحروب وطول النضال ، ثم لابد مع هذا من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة .

ونورد فى هذا المقام خطبة للأحنف بن قيس قالها بعد فتنة نشبت بين قبائل العرب فى البصرة واشتركت فيها تميم ضد الأزد ، والأحنف تميمى فقال فى هذا :

«يا معشر الأزد وربيعة : أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصهر ، وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار ، ويدنا على العدو . واللهِ لأَزْدُ البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام . فإن استشرى شنآنكم وأبى حسك[1] صدوركم ففى أموالنا وأحلامنا سعة لكم» .

هذا ما أورده كل من صاحب العقد وصاحب البيان والتبيين من هذه الخطبة فإذا كان هذا كل ما قال فقد أوجز جدًّا ، ولكن تأتيه لموقفه وتدرجه لما يريد من الصلح غاية فى الجودة والبلاغة .

وهذه خطبة أخرى لمرثد الخير نوردها أيضًا نموذجًا من دعوات الصلح ، ومرثد قَيْلٌ من أقيال حمير[2] ، وقد حدث فى عهده أن تنازع سبيع بن الحرث أخوذى جدن وميثم ابن مثوب بن ذى رعين ، شَرفَ قومهما كل يطلب لنفسه سيادة القبيلة فتشاحنا حتى خيف أن يقع الشربين حييهما ويفنى فيه الجذمان جميعًا فدعاهما مرثد ليصلح بينهما وخطبهما خطبة جاء فيها :

---

(١) الحسك الشوك . يريد الحقد .

(٢) القيل الرئيس والملك .

إن التخبط[1] وامتطاء الهجاج[2] واستحقاب اللجاج[3] سيقفكما[4] على شفا هوة فى توردها بوار الأصيلة[5] وانقطاع الوسيلة فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد[6] وانحلال العقد وتشتت الألفة وتباين السهمة به وأنتما فى نسجة[7] رافهة وقدم واطدة[8] والمودة مثرية والبقيا معرضة[9] فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب من عصى النصيح وخالف الرشيد وأصغى إلى التقاطع ورأيتم ما آلت إليه عواقب سوء سعيهم وكيف كان صيور[10] أمورهم فتلافوا القرحة[11] قبل تفاقم الثاى[12] واستفحال الداء واعواز الدواء فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء وإذا استحكمت الشحناء تقبضت عرى الإبقاء وشمل البلاء» .

وهذه الخطبة على قصرها كافيه فى ردع الرجلين عن الشر لأنه حذرهم من سوء العاقبة عليهما معًا ، وبين أنه إذا وقعت حرب وسفكت الدماء فإنه يعز بعد ذلك أن تصفو النفوس أو تنقطع الثارات فيعم البلاء الموجودين ومن سيوجدون .

الخطب الإجتماعية

نعنى بالخطبة الاجتماعية تلك الخطبة التى تلقى فى موضوع يهم المجتمع ويعود عليه ببعض الفوائد ، ومن أمثلة ذلك : أن يدعو خطيب القرية لإنشاء مدرسة أو ناد بها أو يقترح شق ترعة أو إقامة جسر ، أو يدعو شخص فى مجتمع ما لإنشاء دار أمومة تساعد المرأة الموظفة أو مدرسة لتربية الحاضنات وتدريبهن أو إنشاء دار لرعاية المسنين أو إنشاء ناد رياضى يشغل وقت الشباب ويربى أجسامهم وغرائزهم . أو تكوين شركة لإنتاج

---

(١) التخبط والسير على غير هدى أو معرفة بالطريق .
(٢) الامتطاء الركوب والهجاج الاندفاع بدون تفكير .
(٣) استحقب الشىء اصطحبه واللجاج التمادى فى الخصومة .
(٤) سيجعلكما تقفان على حافة حفرة .
(٥) فى ورودها والسقوط فيها هلاك الأصل وانقطاع الصلات .
(٦) قبل أن تقطع العلاقات .
(٧) القرابة . (٨) ثابتة . (٩) الإبقاء على الصداقة ممكن .
(١٠) مصير وعاقبة . (١١) الجرح . (١٢) استشراء الفساد .

شيء يرى أن مجتمعه فى حاجة إليه أو لزراعة رقعة من الأرض ... وهكذا ... وهكذا ... وكل هذه إصلاحات اجتماعية وهذه الأعمال كثيرة ونشيطة جدًّا فى البلاد الراقية وقد كان لها أيضا نشاط فى مصر ولكن قيدها النظام الاشتراكى الذى وضع كل شيء فى يد الحكومة .

وخطيب المشروع الاجتماعى كأى خطيب آخر لابد له من درس موضوعه درسا عميقا يجعله يدرك غايته وفوائده ويدرك ما يستدعيه نظامه وقيامه من مشاق . وبهذا يستطيع أن يدفع آراء معارضيه وهذه الخطبة من حيث ما تجلبه من منافع تتصل بالخطبة الدينية :

ولكى ينجح الخطيب فى موقفه هذا يتبع هذه الخطوات :

١ ـ يقدم لمشروعه بمقدمة مناسبة .

٢ ـ يعرض مزايا مشروعه وفوائده . وعليه أن يتوسع فى هذا الجانب ويستقصيه ليرى أن نفعه يعم الفقراء والأغنياء جميعا ويرفع مستوى مجتمعه ويسد نقصا فيه ـ فهذا هو موضوع الخطبة الذى هو أهم أجزائها .

٣ ـ عليه أن يذكر أمثلة لهذا المشروع ونظائر له من مشروعات أخرى كانت رغم ما كلفت من مشقة وجهد ذات نفع عظيم تنسى ثمرته كل ما بذل من مشقات .

٤ ـ إعداد العبارات وتنسيق الأسلوب والاستشهاد بالأحداث والأحاديث وآيات القرآن وأبيات الشعر ، مما يثير عواطف السامعين ويهيئهم للإقبال على ما يدعو له الخطيب ولكن فى جانب الاستشهاد بالشعر لا يجوز الإسراف والإكثار عكس الآيات القرآنية والأحاديث لأن إدخال الموضوع الاجتماعى فى الدين يجعل المشارك فيه متطلعا إلى مثوبة الله وإلى درج نفسه فى سلسلة الصالحين ورجال الإصلاح .

٥ ـ من المفيد جدًّا أن يستأنس الخطيب بأعمال العظماء والمشهورين فى ميدان الإصلاح الاجتماعى وما أنشأوا من مشروعات كانت فى بدايتها صغيرة ثم نمت وصارت ذات نفع عظيم . وبقيت تحمل ذكراهم وتذكر الناس بأياديهم . موضوع الخطبة الاجتماعية لصيق بالخطبة الدينية ، ومما يجب أن يهتم به الواعظ الإسلامى ، وهو فى جملته موضوع إنشائى يحتاج إلى البحث عن عناصر جيدة وترتيبها ترتيبا مناسبا يفضى إلى نتائجها ـ ومن أمثلة ذلك :

إذا أراد خطيب اجتماعى أن يدعو مستمعيه للتبرع لملجأ أيتام . فماذا يقول وكيف يواجه موضوعه ؟

يبدأ أولا بالحديث عن الملجأ الذى يريد التحدث عنه . فيصف مبناه ولون التعليم الذى يقدم فيه . ويصف حال الأطفال الصحية . والأدب الخلق والسلوكى الذى هم عليه . ثم يوازن بينهم وبين الآخرين الذين تجرفهم تيارات الفساد ، فتسوء صحتهم وأخلاقهم ... ثم ينتهى من هذا إلى طلب معاونة الملجأ ، وفى حال المعونة لابد أن يشعر الخطيب سامعيه بما يعود عليهم من الفوائد العامة والخاصة أيضا كأن يذكرهم بأن هؤلاء الأيتام ربما كانوا أبناء قوم صالحين وربما كان آباؤهم من ميسورى الحال ولكن الزمن أخنى عليهم وكل واحد منا عرضة لهذه الحال ولا يضمن أحد مصير أولاده فليساعد هؤلاء ليحفظ الله أولاده ويرعاهم ـ وهذه النقطة الأخيرة يمكن التوسع فيها فتكون أكثر مساسا بمشاعر السامعين .

فى مثل هذه المواقف بوجه عام يوجه الخطيب انتباه سامعيه إلى أثر الأعمال التى يقوم بها الأهلون . ولا تعتمد على معونات الحكومة .

إن الغربيين يبنون حضارتهم وأعمالهم الهامة بأيدى الشعوب بينما يعيش الشرقيون عالة على حكوماتهم ، إن الشعب الحى الناضج يسبق حكومته ويقودها ، أما الشعب المتأخر فإنه يرهق حكومته بتواكله ، ويشغلها بما يطلب منها عن أعمالها الأخرى .

لقد تقدمت مصر فى بعض المواقف . إذ اعتمدت على جهود الشعب فنجحت نجاحا كبيرًا ولكنها ما لبثت أن تركت عملها للحكومة . كانت جامعة القاهرة أول جامعة أنشئت فى الشرق الأوسط . وكانت تسمى الجامعة المصرية ، وقد نشأت جامعةً أهلية . لا علاقة للحكومة بها وأدت رسالة التعليم الجامعى على وجه مشكور ثم سلمت للحكومة وقام طلعت حرب بانشاء بنك مصر . وبفروعه العديدة وشركاته القيمة النافعة ثم سلم كل ذلك للحكومة فدل ذلك وأمثاله على فقر فى عزائمنا وقلوبنا ، وهذا لا يحدث فى البلاد الأوروبية ، ولقد أثمرت هذه الجهود الشعبية على أى حال ، ولا يليق بنا أن نتراخى أو نتوانى فى أعمالنا النافعة أو نستهين بها . فإن وراء العمل الصغير نفعا كبيرًا كانت الجمعية الخيرية الإسلامية جمعية متواضعة ثم أنشأت من المدارس النافعة ذات المناهج الإسلامية ما كان مثالا يحتذى ومنها اشتقت جمعية العروة الوثقى وأقامت عددا من المدارس وقامت بأعمال ثقافية ودينية نفعها لا يخفى .

خطب المحافل

وهى ما يلقى فى حفلات التكريم لبعض الأشخاص ، وقد تكون بسبب انتقال موظف كبير من عمل إلى آخر أو من بلد لآخر ، أو بسبب تقاعده ، أو قيامه بعمل خطير أو استقباله قادما من سفر أو وافدًا كضيف ، وهكذا ..... ويدخل فى خطب المحافل تكريم الموتى بتأبينهم عند موتهم أو بإحياء ذكراهم ، وفى أدبنا الحديث أمثلة كثيرة من هذا .

هذا النوع الخطابى يختلف عن المراثى الشعرية ، لأن قصائد الشعر وطبيعة الشعر تحتمل المبالغة والتجوز . أما الخطبة فتسقط إذا جنحت إلى المبالغة ويسقط الشاعر أيضا إذا أسرف فى مبالغته .

ومن الأساليب التى رثت وبليت أن يقف الخطيب فيقول : وددت لو أن لى بلاغة سحبان أو أنى أوتيت الحكمة وفصل الخطاب لأوفى فلانا ما يستحق من التقدير والثناء ، ولو أننى نظمت الكواكب عقودا وجمعت الورد أكاليل ثناء ، ما أدت قليلا مما يجب .

مثل هذا الأسلوب أصبح ممقوتا ، وهو مما يثير اشمئزاز السامعين ولا يعود عليهم بفائدة .

ولكن من المفيد المقبول أن يمر الخطيب سريعا بصور من حياة المحتفى به ـ حيًّا أو ميتا ـ لا ليعرض تاريخ حياته ولكن ليقف عند أعماله ومواقفه التى تستحق الذكرى والتمجيد . وإذا كان الخطباء عديدين فإن الخطيب الأول هو الذى يمكن أن يفعل ذلك أو يذكر تاريخ حياته بإيجاز ، ثم لا يكون هناك مساغ لإعادة هذا التاريخ .

والخطابة الناجحة فى هذا الموقف تتبع طرقا معينة أهمها ما يلى :

١ ـ أن يتخذ الخطيب من عمل خاص للمحتفى به محورا لخطبته فيبين أثر هذا العمل ويدعو الناس إلى محاكاته أو إكماله أو ابتداع شيء مثله فهو بهذا يكرم مبدأ أو عملا ويحفز السامعين لعمل مثله . وإذا كان للشخص المكرّم عدد من الأعمال الجليلة مر بها الخطيب سريعا أو سردها بإجمال ثم وقف لدى عمل واحد أو اثنين لتحليلهما وبيان آثارهما :

ارجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الشيخ محمد عبده وانظر الاتجاهات العديدة التى سلكها من رثوه واقرأ أيضا قصيدة حافظ ابراهيم وقد حدثناك عن هذا من قبل .

وقف جماعة من الخطباء يرثون المرحوم الشيخ محمود شلتوت فتحدث واحد منهم عن كتابه .. « الاسلام عقيدة وشريعة » وشرح منهجه فيه وطريقة عرضه وفهمه الأحكام الفقهية ، وتحدث آخر عن فتاواه وبين ما له فيها من آراء جديدة وكيف تهدى إلى أدلتها ، وعرض بعضا منها فقال إنه لا يوافقه على ما استدل به ، ولا ما انتهى إليه فيها ، وهذا لا يضر أبدا ، فلا يعنى تكريم الشخص حيًّا أو ميتًا أننا نوافقه على كل رأى له ، والثناء على الشخص فى هذه الحالة أو تكريمه يرجع إلى ما بذل من جهد وما كان له من ذكاء وصفات علمية وتحليل منهج الشخص الفكرى هو نفسه تكريم وإن لم نوافقه عليه .

وذكر ثالث تفسيره ، ورابع درسه الفقه المقارن ، وهكذا وكل ذلك حسن وجميل ، ومنه يخرج السامعون بفائدة وتبقى بسببه لمن يكرم ذكرى .

ووقف خطيب وعالم كبير يؤبن ملكا عربيًّا فقال :

إننى أخالف الذين سبقونى بالحديث عن ... لقد أراقوا الدموع الغزيرة وتوهموا أن الموت يخطىء العظماء ، لا ، إن الموت نتيجة محتومة لكل حى ، وإنما يبكى على الذين يقطعون عمرهم ولا يتركون وراءهم آثارا تخلد ذكراهم ، يبكى على الذين عاشوا لأنفسهم ولم يقدموا لغيرهم شيئا . يبكى على الذين استفادوا من أوطانهم كثيرا ولم يفيدوها كثيرًا ولا قليلا .

أما ... فقد ترك آثارا وأفاد الناس وأعطى وطنه أكثر مما أخذ ، ثم أخذ يعدد أعماله النافعة وسياسته الموفقه .. وانتهى إلى الدعوة للاقتداء به ونهب الأعمار قبل أن تفنى فلمثل هذا يعمل العاملون .

هذا المنهج بوجه عام أنجح الطرق وأكثرها ملاءمة وتوفيقا .

٢ ـ أن يكون لدى الخطيب معلومات خاصة عن المحتفى به ، ودراية بأعمال قيمة له فيكشفها أو يكشف ما يجوز التحدث عنه منها ، فهذا اذ يرفع قدر المحتفى به يوجه الناس إلى محاكاته أيضا . وربما اشتمل الحديث على أحداث لم تكن .

وقف خطيب يكرم مدرسا منقولا ، فقال :

« إن من الأعمال الهينة مالا يلتفت إليه الناس ويغيب عن خاطرهم ، وهو إذا التفتوا إليه ذو قدر كبير ..

لقد عاش (فلان) بيننا ما عاش فى حياة سليمة رفيقة ، لم ينشب بينه وبين أى واحد منا مشادة أو خلاف ، ومرد ذلك أنه يعطى أكثر مما يأخذ ويتنازل عن كثير من حقوقه ولكنه لا يهمل ما عليه من واجبات - وهذا هو خلق المعلم الذى يرشد إلى الأخلاق الكريمة والذى يفيد بعمله كما يفيد بلسانه ، ويجعل من سلوكه قدوة ، حسنة للآخرين ...

كثيرا ما خرجت من درسى وأنا مرهق كليل أتهالك على مقعدى ملتمسا شيئا من الراحة - ثم أنظر إلى ... بجانبى منهمكا فى تحضير درسه أو تصحيح كراسات أمامه فيبعث فى نفسى نشاطا وحفزا على العمل - وربما تراخيت عند بدء الدرس لكننى أجده حريصا على أن يدخل فصله فى الوقت المعين فأستحى أن اكون دونه .... الخ .

ترى كانت هذه الصفات حقا أم مبالغة واختلاقا ؟

إن كانت الأولى فقد صادفت الخطبة نجاحا لأنها دعت إلى مبادىء قويمة للمعلمين وإن كانت الثانية فقد أهان الخطيب نفسه أمام رفاقه وأمام المدرس المحتفى به - لأنه قال شيئا غير الواقع وأشعرهم أنه على استعداد أن يكذب .

٣ ـ قد يجنح الخطيب إلى الحديث عن الوظيفة التى شغلها المحتفى به وأنه حقق كثيرا منها أو قام بكذا وكذا وينتظر من خلفه أن يحقق ما بقى .

٤ ـ قد يبدأ الخطيب بإلقاء عدد من الأسئلة التمهيدية كأن يسأل لماذا نحتفى بهذا الشخص وما هى الأعمال التى جعلته موضع تقدير وإجلال - ثم يبدأ فيعرض أعماله .

وفى تأبين الموتى الذين بَعُدَ زمنُ موتهم يلجأ الخطباء إلى تحليل أعمالهم وتعليل حدوثها والظروف التى لابستها ، وكثيرًا ما ينقدون لهم أعمالا وآراء ويخالفونهم فى اتجاهاتهم ... ولكن هذا لا يناسب فى رثاء ميت يوم موته أو عقب موته بقليل فالناس فى هذا يذكرون المزايا ولكن لا يبالغون وسنتحدث بعد عن خطب الرثاء .

بقى شىء آخر لابد منه وهو أسلوب هذه الخطابة إنها موقف ألصق بالأدب ، وفى كثير من الأحيان يقع الخطيب فى حرج فلا ينقذه إلا اطلاعه الأدبى وثقافته الخاصة ، وهذا التكوين يفيد أيضا عند المفاجأة وعندما يكون الخطيب خالى الذهن عن الشخص أو لا يجد له ما يستحق أن يكرم عليه حيًّا أو ميتا .

دخل واعظ قرية أو مجتمعا فوجد الناس يكرمون أحد النواب البرلمانيين لنجاحه فى الانتخاب وهو ليس لديه معلومات وافية عنه ولا كان فى ذهنه أن يخطب ولكنه وجد

اسمه يعلن من البوق والمكان يفسح له. فوق منصة الخطابة فماذا يفعل أو ماذا فعل ؟

مما يناسب هذا الموقف على سبيل المثال أن يقول :

إن المنصب النيابي ، وتبوأ أى شخص مقعدا فى البرلمان ليس أمرًا هينا إنه أمر خطير حقًّا ، لا ترجع خطورته إلى ما يبذل المرشحون من جهد وعرق ومال . لا ، ولا ترجع إلى أنه منصب خطير يعطى صاحبه حق استجواب الوزراء والكبراء ، إنه أمر فوق هذا كله . إنه منصب شرف وتكريم أكثر مما هو موقف مادة أيا كان نوع المادة ، يكفى من ينجح فى هذه الانتخابات أنه أحرز الثقة من أبناء دائرته ، يكفى أنهم رأوه وحده دون الآخرين موضع ثقتهم وائتمانهم وأنه الجدير أن يلقوا بين يديه أمانيهم ومستقبلهم . لقد وثقوا فى عقله وتفكيره . كما وثقوا فى أمانته وضميره . وفى جرأته ومثابرته وعطفه عليهم وحبه لهم .. هذه الثقة الغالية هى نفسها تكريم وتقدير .

وبقدر ما نولى نوابنا من ثقة نبنى عليهم الآمال ، ونتقدم لهم بكل مطالبنا ونحن واثقون مطمئنون ، ليس هذا المنصب تكريما فقط ولكنه أيضا مسئولية وجهاد وكفاح لصالح الوطن والأمة جميعا .

سيدى النائب المحترم ، إننا من قبلنا نصبناك قائدًا لنا وإماما رفعناك وتواضعنا . قدمناك وتراجعنا ، بقى أن نطلب منك ما أملنا ، وأعتقد أننا وفقنا فيما اخترنا واهتدينا إلى الحق فى اختيارنا ونسأل الله أن يوفقك فى النهوض بما يلقى عليك من أعباء .

بهذا يخلص الخطيب نفسه من مسئولية الثناء على ما لم يعلم وقد تحدث عن المنصب أكثر مما تحدث عن شاغله وكلامه مقبول وخطبته ناجحة .

ووفد واعظ آخر ـ أو خطيب ما ـ على بلد أول ما وفد فوجد سرادق عزاء كبير والناس يتناوبون الخطابة وهو لا يعرف عن المتوفى شيئا .

فماذا يقول : ... يمكن أن يقول :

ان الموت لغز سيظل الناس فى حيرة منه ، ما هذا الروح الذى ينسل من جسم الإنسان فإذا هو جثة هامدة لا تفكر ولا تتحرك ولا تعمل شيئا ، يقف المفكر أو الفيلسوف أو المخترع فيكشف من خبايا الكون وأسرار النفس ، وغوامض القوى ما يحير العقول ويظل كل يوم يأتى بجديد فاذا داهمه الموت وفارقت روحه جسده ذهب كل هذا التفكير وانمحت كل تلك القوى وما لم نسرع إلى مواراة هذا الجسد تحت التراب أسرع

إليه البلى وهدده الفناء كل هذا بسبب فراقه الروح وهى أمر خفى لا نعرف عنه شيئا : «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» .

ثم ماذا يحدث لو أن الناس لا يموتون ؟ ترى هل تتسع الأرض لكل هذه الأجيال من عهد آدم إلى اليوم ؟ إن الموت سنة طبيعية والموتى يفسحون لمن يأتى بعدهم من الأجيال الوافدة التى لا ينقطع سيلها .

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها منعنا بها من جيئة وذهوب

ونحن ننظر إلى مقابر الموتى من حولنا فإذا هى تزاحم مساكن الأحياء . وهم موتانا الذين لم يمض عليهم إلا زمن محدود فأين ترى قبور آبائنا من آدم إلى اليوم ؟ ليخيل إلىّ أنه لا توجد ذرة من تراب الأرض إلا وهى من رفات أجدادنا وأجسام آبائنا السابقين :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ـب فأين القبور من عهد عاد ؟

وقد نستحيى أن نطأ الأرض بأقدامنا ، ونحن نشعر أنها من أجسام الذين سبقونا ولكننا لا نستطيع أن نطير فى الجو فلا أقل من أن نرفق بهؤلاء الأجداد حين نمشى على رفاتهم :

خفف الوطء ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد
طر إن اسطعت فى الهواء رويدا لا اختيالا على رفات العباد

وقد نرثى للآنية الفخارية التى نستعملها نأكل فيها ونشرب ، وهى ليست إلا عجينة من أجسامنا وترى فى أى بلد عجن هذا التراب ومن كان صاحبه ؟

لعل إناء منك يصنع مرة فيأكل فيه من يشاء ويشرب .
وينقل من أرض لأخرى وما درى فواها له بعد البلى يتغرب

هذه حياتنا ما أرخصها ما أقصرها إنها لا تغلو ولا تطول إلا بالأعمال فأين هم الذين يدركون رخص الحياة وقسوتها وهوانها ؟

وتخلص هذا أيضًا من موقفه ، والفضل فى كلتا الحالتين للأدب سواء فى ذلك سعة القراءة أو سعة المحفوظات أو سعة التفكير .

وأخيرًا إذا فوجئت بموقف خطابى من مواقف التكريم فحذار أن تتردى فى هوة المبالغة المقيتة . وأن تضفى على الممدوح كل ما تعرف من صفات المدح والثناء فهذا

يسقطك خطيبًا ويسئم الناس مما تقول . تذكر دائمًا أن خطبة المدح والرثاء مصدر ثقافة وتعليم .

ومن المفيد للخطيب فى هذا الموقف أن يلتفت إلى أحداث التاريخ الماضية ففى خطب التكريم أذكر ما حيا به رسول الله (ﷺ) أصحابه فى مواقفهم المختلفة وفى حفلات الرثاء تذكر وفاة إبراهيم وما اعترى والده من حزن وكآبة وما تحلى به من صبر جميل ، وفى موقف الزفاف اذكر زفاف فاطمة بعلى . ولا تقف الأحداث عند رسول الله (ﷺ) فقط ، اذكر ما فعل أبو جعفر حين فقد ابنه وما فعل المأمون عندما فقد أخاه يعقوب ، اذكر زفاف بوران وقطر الندى ومقتل على وعمر وعثمان . وهكذا نجد فى أحداث التاريخ مددًا مشوقًا ومفيدًا .

وكان الأقدمون من الخطباء والشعراء يفعلون ذلك فارجع إلى القصيدة المشهورة التى قالها أبو العلاء المعرى فى رثاء فقيه حنفى تجد أنه لم يخصص للميت منها إلا أبياتًا معدودة بينما صرفها كلها لرثاء الإنسانية كلها وهذا سر خلود هذه القصيدة وولع الناس بها وقد اقتطفنا منها ونؤثر أن نقدم منها أكثر لما فيها من المعانى العميقة المثيرة وفيها وفى ما نذكره بعدها مدد أدبى للخطيب .

قال أبو العلاء المعرى :

غير مجد فى ملتى واعتقادى ... نوح باك ولا ترنم شاد[1]
أبكت تلكم الحمامة أم غنـ ... ـت على فرع غصنها المياد[2]
وشبيه صوت البشير إذا قيـ ... ـس بصوت النعى فى كل واد[3]
إن حزنا فى ساعة المو ... ت أضعاف سرور فى ساعة الميلاد
صاح هذى قبورنا تملأ الرحـ ... ـب فأين القبور من عهد عاد[4]
خفف الوطء ما أظن أديم الـ ... أرض إلا من هذه الأجساد[5]
وقبيح بنا وإن قدم العهـ ... ـد هوان الآباء والأجداد

---

(١) لا فائدة وراء بكاء المحزون ، أو بهجة الفرح السعيد .
(٢) المياد : المهتز .
(٣) النعى : الناعى .
(٤) الرُّحب بضم الراء جمع الرَّحب بفتحها ، وسكنت الحاء تخفيفا وأصلها الضم .
(٥) أديم الأرض وجهها يريد التراب الذى نمشى عليه .

طر إن اسطعت فى الهواء رويدا ... لا اختيالا على رفات العباد
رب لحد قد صار لحدًا مرارًا ... ضاحك من تزاحم الأضداد[1]
ودفين على بقايا دفين ... فى قديم العصور والآباد
تعب كلها الحياة فما أعـ ... ـجب إلا من راغب فى ازدياد

وللمعرى قصيدة أخرى مشهورة أيضًا فى الرثاء أولها :

أحسن بالواجد من وجده ... صبر يعيد النار فى زنده[2]
ومن أبى فى الرزء غير الأسى ... كان بكاه منتهى جهده[3]

ومنها :

يا دهر يا منجز إبعاده ... ومخلف المأمول من وعده[4]
أى جديد لك لم تبله ... وأى أقرانك لم تردِه[5]
تستأسر العقبان فى جوها ... وتنزل الأعصم من فنده[6]
أرى ذوى الفضل وأضدادهم ... يجمعهم سيلك فى مده[7]
تجربة الدنيا وأثقالها ... حثت الزهد على زهده
والقلب من أهوانه عابد ... ما يعبد الكافر من بده[8]
لو عرف الإنسان مقداره ... لم يفخر المولى على عبده
أمس الذى مر على قربه ... يعجز أهل الأرض عن رده
أضحى الذى أجل فى سنه ... مثل الذى عوجل فى مهده[9]

---

(١) يجتمع فى اللحد الواحد صالح وطالح وطفل وعجوز ، ورجل وأنثى وكأن القبر يعجب لهذا الحشد العجيب .

(٢) الواجد المحزون والزند الزناد الذى يضرب به الحجر ليقدح النار يقول إنه الأفضل للواجد المحزون أن يتصبر فالصبر يعيد إليه قوته ونشاطه .

(٣) من أصر على الحزن فإنه لا يعمل شيئا غير البكاء .

(٤) الإيعاد التهديد والوعيد والوعد يكون فى الخير يقول : الزمن يمضى وعيده ويخلف وعده .

(٥) كل جديد يبلى مع الزمن والأقران جمع قرن ، وهو الند والخصم المحارب وأرداه : أهلكه وقتله ، يريد أنه جبار قوى لا يغلب .

(٦) تستأسر : تتخذ أسيرا ، والعقبان جمع عقاب كغراب ، والأعصم : الوعل يسكن ، أعالى الجبال فنده : القطعة من الجبل .

(٧) الدهر لا يبقى على شريف أو خسيس ، فهم يستوون أمام الموت .

(٨) البد الصنم. (٩) صار المعمر كمن مات صغيرا .

ولا يبالى الميت فى قبره بذمه شيع أم حمده
والواحد المفرد فى حتفه كالحاشد المكثر من حشده
وحالة الباكى لآبائه كحالة الباكى على ولده [1]
ما رغبة الحى بأبنائه عما جنى الموت على جده [2]
تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تناهى القلب فى وده
يسر إن مد بقاء له وكل ما يكره فى مده [3]
أفضل ما فى النفس يغتالها فنستعيذ الله من جنده [4]
كم صامت عن قبلة خده سلطت الأرض على خده
وحامل ثقل الثرى جيده وكان يشكو الضعف من عقده
ورب ظمآن إلى مورد والموت لو يعلم فى ورده

وجرى المتنبى فى هذا المنطلق حين رثى فهو يقول فى رثاء أخت سيف الدولة :

ولذيذ الحياة أنفس فى النفوس وأشهى من أن يُمَلَّ وأحلى
وإذا الشيخ قال أف فما مل حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب فإذا ولَّيا عن المرء ولّى
أبدا تسترد ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بخلا
وهى معشوقة على الندر لا تحـ ـفظ عهدًا ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدرى لذا أنث اسمها الناس أم لا [5]

وفى موقف آخر يتجه هذا الاتجاه الفلسفى فيقول :

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بُدَّ من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هُنّ من كسبه
فهذه الأنفاس من جوه وهذه الأجساد من تربه
يموت راعى الضأن فى جهله ميتة جالينوس فى طبه

---

(١) أولاده .

(٢) لماذا يرغب بأبنائه عن الموت الذى أتى على أجداده .

(٣) يتمنى طول عمره ، وطول العمر يأتيه بما يكره .

(٤) أفضل ما فيها طول العمر وهو موت .

(٥) الدنيا تغدر كما تغدر النساء وربما أنث اسمها لهذا السبب .

وإنك واجد فى الأدب العربى قديمه وحديثه مثلا كثيرة من هذا وفيها ما يلهمك ويمدك بالمعانى الغزيرة إذا فوجئت بموقف يطلب منك أن تتحدث فيه .

ولا يقف هذا المدد عند مواقف الرثاء وحدها بل تجد فيه مددًا غزيرًا للمواقف تكريمًا ورثاء وغيرهما . وقد قدمنا لك نماذج شعرية لسهولة حفظها وارجع إلى ما جمعه صاحب العقد الفريد من خطب الخلفاء وغير الخلفاء وادرس ما تستطيع درسه منها لترى كيف اختار هؤلاء الخطباء معانيهم وألفاظهم وكيف واجهوا المواقف الحرجة واستطاعوا النفاذ من مضايقها .

وأنت على أى حال كخطيب دينى لا غنى لك عن قراءة ودرس التراث الخطابى الهائل ولا غنى لك عن اقتناء كتب مثل . جمهرة خطب العرب ، العقد الفريد ، والبيان والتبيين . وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد فضلاً عن نهج البلاغة نفسه .

خطب الرثاء

خطب الرثاء تدخل فى خطب المحافل . ولكنا نفردها بحديث موجز نبين فيه الفرق بين التأبين وخطب التعزية . والرثاء نوع من التأبين وقد قدمنا أمثلة له . والفرق بين النوعين أن التأبين يتناول الحديث عن الميت . والتعزية فيه توجه إلى آله وذويه .

والترتيب العام لخطبة التأبين أن يذكر المتكلم الميت فيصف صفاته الحميدة ومناقبه بين الناس وينتقل منها إلى ما خسره مجتمعه أو العالم كله وطلب المغفرة له والرحمة .

ويفرق بين خطبة التأبين التى تلقى يوم وفاة الميت أو أثناء أيام العزاء فيه وبين الأخرى التى تلقى يوم الأربعين من وفاته كما هى العادة الجارية . ثم الخطب التى تلقى فى مجتمعات العزاء وعقب وفاة الشخص لا يجوز أن يوجه أى نقد له أو ذكر أى عيب من عيوبه . وتكون هذه الخطب عادة مختصرة لأن الحديث الذى يقتصر على ذكر المحاسن إذا طال كان مدعاة للمبالغة والتزيد وذلك مما يزرى بالخطيب نفسه وقد ذكرنا لك أن المخلص من هذا هو صرف الحديث إلى الموت نفسه وذكر أنه يأتى على كل شىء لا يفرق بين شخص وآخر أو أنه يختار كرام الناس فيعجل بهم .

وهذا النوع قديم فى الجاهلية وفى الإسلام ولكنه فى الشعر أكثر وأغلب وهناك قصائد خاصة اشتهرت فى هذا النوع فإذا رجع الخطيب إليها استفاد من معانيها واستعملها نثرًا فترفع قيمة خطبته . وقد ذكروا أن أبا جعفر المنصور الخليفة العباسى مات له ولد فعاد من دفنه حزينًا فطلب من ذويه من يحفظ قصيدة أبى ذؤيب الهزلى فى رثاء أبنائه فلما لم يجد من يحفظها قال : لمصيبتى فى آلى إذ ليس بينهم من يحفظ هذه القصيدة أشد على من مصيبتى فى ولدى[1] .

وكذلك مرثية لبيد بن ربيعة لأخيه أربد . وفى أمالى القالى أمثلة كثيرة من هذا ومن خطب العزاء الشهيرة ما عزى به وفود العرب سلامة ذا فائش وهو من أجواد العرب وذوى المكانة بينهم . وكان له ابن يرجو أن يكون خليفته فى سيادة قومه . كان الولد بادى النجابة واللسن تدل مخايله على أنه أهل لما يرشحه له أبوه ولكنه صادف أن ركب جوادًا أرنا[2] فوقصه[3] ونال الجزع عليه من أبيه حتى امتنع عن الطعام وعن مقابلة الناس وقدمت وفود العرب ليعزوه فلم يخرج حتى لامه بعض أصدقائه لإفراطه فى جزعه فخرج إليهم وأخذ خطيب كل وفد يلقى بما لديه مما يناسب هذا الموقف وأورد صاحب الأمالى خطبتين أولاهما للملبب بن عوف الجعفى والثانية لجعادة ابن الأفلح بن الحارث . وهو جد الجراح بن عبد الله الحكمى صاحب خراسان . وهاتان الخطبتان[4] :

١ ـ خطب الملبب بن عوف

أيها الملك إن الدنيا تجود لتسلب . وتعطى لتأخذ وتجمع لتشتت وتحلى لتمر[5] وتزرع الأحزان فى القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب . وكل مصيبة تخطتك جلل[6] وألم تدن الأجل وتقطع الأمل وإن حادثًا ألم بك فاستبد[7] بأقلك وصفح عن أكثرك لمن

---

(١) انظر هذه القصيدة فى ديوان الهزليين أول قصيدة به فى المفضليات وأولها :

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع .

(٢) جموحا .

(٣) وقص عنقه : كسره .

(٤) انظر الأمالى جـ ٢/٩٩ وما بعدها .

(٥) تجعل الشىء حلوًا ليصير مرًا .

(٦) الجلل العظيم والحقير ـ والمراد بها هنا الهين الحقير .

(٧) استخلص لنفسه .

أجل النعم عليك وقد تناهت إليك أنباء من رزئ فصبر وأصيب فاغتفر [١] إذ كان شوى [٢] فيما يرتقب ويحذر . فاستشعر اليأس مما فات إذا كان ارتجاعه ممتنعًا ، ومرامه مستصعبًا . فلشيء [٣] ما ضربت الأسى . وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء .

فى هذه الخطبة الموجزة أربعة عناصر بارزة :

١ ـ إن طبيعة الدنيا أن تسترد ما جادت به على الناس وبهذا تكون عاقبة الفرح حزنا .

٢ ـ إن حياته هو وسلامته كنز يغني عن كل ما ذهب .

٣ ـ إنه يعلم بحال كثيرين أصيبوا فصبروا وما يتوقع من حدثان الدهر أكبر مما يحدث فعلاً .

٤ ـ إشعار النفس بأن ما فات لن يرجع مما يسبب الصبر والسلوان .

وإذا رجعت إلى ما قدمناه من الأمثلة وإلى محفوظاتك الأدبية تجد أن الشعراء والخطباء يتداولون هذه المعاني وفى شعر المتنبي وأبى العلا الذى سبق معان وأفكار من هذه الخطبة وفى العنصر الثانى يقول أحد الشعراء .

لعمرك ما الرزية فقد مال ... ولا فرس يموت ولا بعير

ولكن الرزية فقد حرٍّ ... يموت بموته خلق كثير

وهو عكس المعنى الذى جاء به الملبب . ويقول آخر :

لا تجزعى إن منفسا أهلكته ... فإذا هلكت فعند ذلك فاجزعى

ويشبهون الوالد دائمًا برأس المال الذى ينتج عنه العوض عما فات .

٢ ـ خطبة جعادة بن أفلح

... أيها الملك .

لا تشعر قلبك الجزع على مافات فيغفل ذهنك عن الاستعداد لما يأتى . وناضل [٤] عوارض [٥] الحزن بالأنفة عن مضاهاة [٦] أفعال أهل وهى [٧] العقول . فإن العزاء

---

(١) تناسى .

(٢) الشوى : القليل الهين .

(٣) لسبب من الأسباب .

(٤) دافع وحارب .

(٥) طوارئ .

(٦) مشاكلة ومشابهة .

(٧) ضعف .

لحزماء[1] الرجال والجزع لربات الحجال . ولو كان الجزع يرد فائتا . أو يحيى تالفا لكان فعلا دنيئا . فكيف وهو مجانب لأخلاق ذوى الألباب فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت عليه الأرذلون . وحين قدرك عما يركبه المخسوسون . وكن على ثقة أن طمعك فيما استبدت به الأيام ضلة[2] كأحلام النيام» .

دعا جعادة الى مكافحة الحزن باتجاه أن يترفع المحزون عن الظهور بمظهر الواهن الضعيف لأن هذا المظهر يناسب النساء لما فيهن من ضعف وقلة عزيمة ومظهر الجزع اذا فرض أنه يفيد لا يناسب كبار الرجال فكيف وهو لا فائدة وراءه لهذا لا يليق برجل عظيم مثل سلامة ذى فائش أن يبدو فى أخلاق النساء .

وواضح أن الخطبة مدروسة أعدت على تمهل وبصيرة وقد استطاع الخطيب أن ينفذ إلى قلب الرجل لأنه واجهه بما يناسب مكانته وأخلاقه فهو رجل شجاع كريم ذو شهامة وكبرياء وتربأ نفسه عن صفات الأرذلين الأخساء .

تعزية أكثم بن صيفى

ومن التعزيات المشهورة أيضا تعزية أكثم بن صيفى لعمرو بن هند عن أخيه وفيها :

« ... إن أهل هذه الدار سفر[3] لا يحلون عقد الرجال إلا فى غيرها وقد أتاك ماليس بمردود عنك وارتحل عنك ما ليس براجع إليك وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك .

واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام . فأمس عظة وشاهد عدل فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته طالت عليك غيبته وستسرع عنك رحلته وغد لا تدرى من أهله وسيأتيك إن وجدك فما أحسن الشكر للمنعم والتسليم للقادر وقد مضت لنا أصول نحن فروعها . فما بقاء الفروع بعد أصولها واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلق منها وخير من الخير معطيه وشر من الشر فاعله .

وقد تكون هذه الخطبة مصنوعة نسبت لأكثم . ولكن الذى يعنينا هو الناحية ـ الفنية ، وهى تجرى على نسق الخطب السابقة من التهوين من شأن الدنيا والتذكير بأن الناس عنها راحلون وبعض عباراتها مذكور فى خطب أخرى .

---

(١) ذوى الحزم ـ يقال حازم وحزيم ، وحزم وحزماء .

(٢) ضلال وبعد عن الحق .　　　(٣) مسافرون كركب .

وقد يجيب المعزى بخطبة أيضا أو يكتفى بجملة أو بعض جمل لا تصل أن تكون خطبة .

خطبة هند بنت المهلب

ومن الخطب التى أجاب بها من عزوا فى أشخاص فقدوهم . هند بنت المهلب ابن أبى صفرة لما قتل أخوها المفضل بن المهلب . دخل عليها والناس حولها ثابت قطنة [١] وكان من خلصاء أخيها يزيد فعزاها بقصيدة رصينة فقالت :

« اجلس يا ثابت ! فقد قضيت الحق وما من المنية من بد وكم من ميتة ميت أشرف من حياة حى وليست المصيبة فى قتل من استشهد ذابا عن دينه مطيعا لربه . وإنما المصيبة فيمن قلت نصرته وخمل ذكره بعد موته وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا فما كان مقامه فى طاعته خاملا » .

فيقال إنه ما عزى يومئذ بأحسن من كلامها .

ولما مات شبيب بن شيبة جاء صالح المدى فى بعض من جاءوا للتعزية فقال :

« رحمة الله على أديب الملوك وجليس الفقراء وأخى المساكين [٢] فجمع له فى هذه الجمل الثلاث أجمل ما يوسم به من الصفات .

أما فى خطب التأبين التى تلقى عقب دفن الميت فقد قلنا انه يقتصر فيها على ذكر مناقبه فإذا كانت حفلة ذكرى لكبير من الكبراء أو شاعر أو زعيم ... كان ثم مجال التحليل للميت وبيان مآثره وما يؤخذ عليه وقد سبقت أمثلة لذلك . وقد تكون هذه الخطبة من أحد أولاد الميت أو ذويه . فتبدو فيها عاطفة الحزن عليه والإكبار له . وفى صدر الإسلام وعصر الدولة الأموية لم يكن الخطباء يبالغون أو يظهرون كثيرا من التفجع على الميت وتباريح الحزن بهم لكن ذلك ظهر فى العصر العباسى واشتد وكثر فى العصور الأولى وهذا هو الأمر السائغ الذى يجرى عليه المثقفون والفارق بين الحالتين هو الأسلوب

---

(١) ثابت قطنة شاعر فارس من شعراء الدولة الأموية وخطبائها كان فى صحبة يزيد بن المهلب وجليسه وكان يوليه بعض أعمال الثغور فيحمد كفايته وشجاعته وسمى ثابت قطنة لأن سهما أصاب عينه فى حرب الترك فذهب بها فكان يجعل عليها قطنة تسمى بها وله أشعار وخطب بليغة . انظر الأغانى ٢٦٣/١٤ ط دار الكتب .

(٢) البيان والتبيين ١١٣/١ .

فهو هناك رصين قوى متساوى الجمل والعبارات بينما هو فى هذا العصر من الكلام الجارى الذى لا تكلف فيه .

وينسب للسيدة عائشة أم المؤمنين خطبة أبنت فيها والدها أبا بكر رضى الله تعالى عنه ويقال إنها وقفت على قبره بعد دفنه وألقتها وهو قد دفن فى بيتها . ولكن لا نظن أن أم المؤمنين ألقتها بين جميع المسلمين الذين دفنوا أباها وربما كان ذلك بين النساء وفى هذه الخطبة :

« ... . نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فقد كنت للدنيا مذلاً بإدبارك عنها وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأكبر الأحداث بعده فقدك إن كتاب الله ليعدنا بحسن الصبر عنك حسن العوض منك وأنا متنجزة من الله وعده فيك بالصبر عنك ـ ومستعينة كثرة الاستغفار بك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على قضاء الله فيك .

وابنه على بن أبى طالب إذ وقف ببابه يوم وفاته وقال :

« رحمك الله أبا بكر : كنت والله أول القوم إسلاما . وأخلصهم إيمانا وأشدهم يقينا وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى عليه وسلم ـ وأحدبهم على الإسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وسمتا .

فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيرًا . صدقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا . وقمت معه حين قعدوا وسمّاك الله فى كتابه صديقا فقال : « والذى جاء بالصدق وصدق به » ـ كنت والله للإسلام حصنا وللكافرين ناكبا لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك .... كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ضعيفا فى بدنك قويا فى دينك ، متواضعا فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى الأرض كبيرًا عند المؤمنين ....

ورثى الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ولده فقال :

« رحمك الله يابنى . فقد كنت برًّا بأبيك . والله مازلت منذ وهبك الله لى بك مسرورًا ولا والله ماكنت أشد سرورا بك . ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى الموضع الذى صيرك الله إليه ! ـ فغفر الله لك ذنبك وجازاك بأحسن عمله وتجاوز عن سيئاتك ورحم الله كل شاهد يشهد لك بخير .

ومات ابن الحجاج محمد وأخوه محمد باليمن فوافاه نعى ابنه صباح اليوم ونعى أخيه مساءه وقد فرح أهل العراق وقالوا هيض جناحه . فخرج إلى الناس ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« .... أيها الناس محمدان فى يوم واحد : أما والله ماكنت أحب أنهما معى ، فى الحياة الدنيا . لما أرجو لهما من ثواب الآخرة وأيم الله ليوشكن الباقى منى ومنكم أن يموت وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا كما مشينا على ظهرها وأكلنا من ثمارها ، وشربنا من مائها ثم تكون كما قال تعالى « ونفخ فى الصور فاذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون » .

ومثل هذا رثا عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا ورثا الحسين بن على وأخوه محمد أخاهما الحسن وأمثال هذه كثيرة .... ونجد هذه الخطب كلها تدور فى فلك واحد . وتعمر بمعانى مستمدة ومتقاربة . ـ ويحسن بدارس الخطابة وممارسها أن يرجع إلى الأمثلة الأخرى فى مراجعها .

الخطبة الدينية

الخطبة الدينية هى التى تعتمد على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه فهى تشمل الخطبة المنبرية التى تلقى فى الجمع والأعياد ويوم الحج الأكبر وعند صلاة الاستسقاء تلك الأمور التى بين الدين أن لها خطبة كما تشمل المواعظ والخطب التى تلقى فى المجتمعات الدينية أيا كانت ففى الجمعيات الدينية وسرادقات العزاء ومجالس الصلح ... وما إليها تلقى خطب تستند فى معانيها وأغراضها إلى الدين ويستشهد الخطيب لما يطلب فيها بآيات القرآن الكريم والحديث الشريف فهذه كلها خطب دينية ـ وأهمها جميعا هى خطبة الجمعة لتكررها ولأنها فرض لا تصح الصلاة إلا بها .

والخطبة الدينية أشق أنواع الخطب جميعا فاذا استهان بها الخطيب وجعلها أمر تقليديًّا هانت وسقطت وأصبحت عديمة الفائدة نهائيًّا .

ولا تزدهر الخطبة الدينية وتثمر إلا فى عصور الحرية شأنها فى ذلك شأن الصحافة فمهمة الخطيب الدينى تتوقف على جانبين ـ بيان حكم الشرع فى أمر من الأمور هل هو

جائز أو ممنوع ثم تطبيق هذا الأمر على حياة الناس وأوضاع المجتمع الذى يعيش فيه . وكلا الجانبين كثيرًا ما يكون مضادًّا لما يريد الحاكم فيحجم الخطيب عن شرحه أو طلب تطبيقه وهذا سبب تأخر الخطابة فى عصور الاحتلال الأجنبى والاضطهاد .

ومجال الخطبة الإسلامية أوسع من مجال الخطبة فى الديانات الأخرى ـ لأن الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة وكل عمل صالح أيًّا كان نوعه مما يدعو له الإسلام ويحث عليه . وكل عمل ضار ينهى عنه الإسلام ويحذر من الوقوع فيه ، وهذا مما وسع موضوعات الخطبة الإسلامية وفى البلاد الأوربية يتمتع الخطيب الدينى بحرية واسعة جدًّا ولكن الكنائس مع عدم كثرتها كثرة فاشية قلما تمتلئ مقاعدها أو تزدحم بروادها ، وفى لندن يزدحم الناس حول الخطباء فى الركن المخصص لهم فى حديقة «هايد بارك» ولكن لا يظفر القسيس إلا بعدد قليل جدًّا من المستمعين ويرجع ذلك إلى أن خطابتهم لا تعدو أن تكون أحاديث عن حياة المسيح مأخوذه من الأناجيل أو عرض قراءات من أعمال الرسل أو العهد القديم ، وكل ذلك مما هو معروف وسمع مرارًا فهو لذلك لا يهز مشاعر السامعين ورجل الدين ـ مع هذا ـ فى كل البلاد الأوروبية يظفر بإجلال واحترام لا يظفر به سواه . والخطيب الإسلامى الموفق فى بلادنا الشرقية يظفر بمثل هذا التوقير وأكثر . كل ذلك لأنه لما فطرت عليه النفوس من حب الدين واللجوء الى الله تعالى فى الشدائد ولا يخلو إنسان من شدائد والفطرة الإنسانية تتجه إلى الخير وتحبه وتجل الحق وتكبره[1] حتى مرتكبى الذنوب والآثام يجلون أهل الخير ويقدرونهم ، ويدركون أنهم أقل رتبة من الأطهار بسبب تلوثهم بالمعصية .

ولا يجولن بخاطرك أن قراءة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو شرح آية قرآنية أو ذكر حادث تاريخى ذى مغزى يمر على سامعيه من غير أن يترك فى نفوسهم أثرًا ما ، ولكن هذا الأثر يختلف بين شخص وآخر .

والخطابة الدينية دائما ذات مغزى شريف وأغراض سامية نبيلة لأنها دائما تلفت الذهن إلى الجزاء الأخروى وتحذر من الحساب على الأعمال ، وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى فهى بهذا ترفع الإنسان عن الأغراض المادية وتتسامى به إلى المعنويات . والخطبة السياسية تدور حول أعمال مادية بحتة من إنشاء مشروعات مثمرة أو تنمية الزراعة وتنشيط

---

(١) هناك خلافات وجدل واسع بين الفلاسفة وعلماء الأخلاق حول الفطرة الانسانية ـ فارجع إليه إن شئت ـ ولكن الرأى السائد هو أن الفطرة الإنسانية خيرة طاهرة والشر والدنس يأتيان من البيئة وسوء التربية .

التجارة وما إلى ذلك والخطبة القضائية تدور حول تبرئة شخص أو عقوبته وقل مثل ذلك فى الخطب الأخرى فهى جميعا تدور حول أمور دنيوية ، أما الخطبة الدينية فتشمل ذلك كله ولكنها تربطه بجزاء أخروى من الله تعالى وهذا ما عبر عنه الشراح بقولهم : الخطبة الدينية تتجه بالإنسان إلى السماء حيث تربطه الخطب الأخرى إلى الأرض ، وتسمو به إلى المعنويات حين تهبط به الخطب الأخرى إلى الماديات والغرض بين الاتجاهين بعيد وواسع جدًّا .

ومع نبل الخطبة الدينية وأهميتها نجد أكثر الخطباء الدينيين لا يدركون النجاح المنشود ولا تترك خطبهم فى نفوس السامعين أثرًا عميقا . ومستمعو الخطيب الدينى يأتون إليه تلقائيا لأنهم مجبورون على أداء الصلاة طاعة لله تعالى . ولكن لضعف الخطبة وقلة الاستفادة منها تجد معظم المصلين لا يحضرون إلى المسجد إلا بعد بداية الخطبة والخطيب ـ وليس المصلون ـ هو المسئول عن هذا ولذلك تجد مساجد معينة يهرع إليها السامعون فى وقت مبكر ومن أماكن بعيدة ثم لا يسأمون سماع الخطبة حتى ولو طالت :

- **أسباب ضعف الخطبة الدينية :**

نجمل أسباب ضعف الخطبة المنبرية فى هذه الأسباب :

١ ـ بعد الخطبة عن حياة الناس وواقعهم ، فخطيب المسجد يدور فى محيط ضيق هو الحديث عن الجنة والنار وقد يحدث الناس عن أشياء بعيدة جدًّا عن حياتهم ولا يتوقع أن يواجهوها .

سمعت مرة خطيبا فى قرية ريفية يتحدث عن مضار الخمور وعما ينشأ عنها من مضار وكيف تدرج الإسلام فى تحريمها هذا وسكان القرية لا خمور لديهم ولا يجدون أثمان طعامهم . وكان أولى لو نهى عن التدخين وشرح أضراره وخطيب آخر فى إحدى قرى الصعيد اختار لحديث الجمعة أخطار الرحلات إلى البلاد الأوروبية وما ينزلق فيه زوارها من فساد وأعمال لا يقرها الإسلام وليس بين مستمعيه من يرحل إلى « بندر » المحافظة ومن حضر منهم مرة إلى القاهرة يعتبر نفسه رحالة واسع التجول ، والخطبة بهذه الطريقة مضيعة للوقت بغير فائدة ولا يجبر الناس على سماعها إلا الواجب الدينى .

وسكان الريف تشيع بينهم عادات سيئة جدًّا ولقلة ثقافتهم تفشو بينهم الأحقاد وكثيرا ما يسعى الواحد منهم لإفساد زراعة جاره حتى لا يسبقه فى ميدانها وقد يقتل ماشيته أو يساعد على سرقتها وقد يظلمه فى نصيبه من ماء الرى وكل ذلك يصلح أن يكون مجالا

لخطبة الجمعة هناك ومن الناحية الإيجابية يجد الخطيب أمامه الحث على الزراعة وإجادتها والإرشاد عن طرقها . والدعوة إلى الإخلاص فى العمل وإجادة العمل الزراعى سواء كان الزارع أجيرا أو يزرع فى أرضه .

وفى المدن يستطيع الخطيب أن يتابع الأحداث العامة ويبين رأى الدين فيها فيربط مستمعيه بحاضرهم وواقعهم ولكن لا يجوز أن يسرف فى ذلك إسرافا يجعل الخطبة سياسية فهذا فى الواقع هروب من الخطبة الدينية . وإنما وظيفة الخطيب الدينى أن يكيف الأحداث تكييفا دينيا وأن يوازن بينها وبين ما يشابهها من أحداث التاريخ الإسلامى خصوصا ماكان فى حياة رسول الله .

٢ ـ تعدد أغراض الخطبة . وهذا شائع وفاش فى أكثر المساجد تجد الخطيب يتحدث عن صلة الرحم وبر الوالدين والرفق بالضعاف ومساعدة الفقراء وحسن تربية الأطفال وهكذا تكتظ الخطبة بعديد من الأغراض وقليل من البحث والتحليل ومثل هذه الخطبة تذهب من أذهان السامعين فور مغادرتهم المسجد وربما شغل السامعين تنقل الخطيب من فكرة إلى أخرى لكنهم لا يحصلون على فائدة ثقافية ولا تستقر فى ضمائرهم عظة تهدى إلى الخير وتحول دون اعوجاج السلوك بعبارة أخرى إن الفائدة المنشودة من الخطبة قد ضاعت هباء .

٣ ـ تكرار الموضوعات فالخطيب يذكر معانى واحدة معادة يذكرها فى كل خطبة وأكثرها يدور حول موضوعات معروفة للكثيرين وهذا التكرار يذهب بأثر الآيات والأحاديث والنصائح فلا تمس قلوب السامعين ولا تحرك مشاعرهم ولو أن الخطيب يتبع ما ذكرنا من متابعة الأحداث الجارية لوجد جديدًا يهز مشاعر السامعين . وأيضا موالاة القراءة والبحث فى تفسير القرآن والحديث والسيرة النبوية فى كتبها المختلفة وفى كتب التاريخ الإسلامى مايفتح ذهن الخطيب ويمده بموضوعات كثيرة جديدة فإن لم تمس حياة الناس من طريق مباشر مدتهم بلون جديد من الثقافة .

٤ ـ سوء إلقاء الخطبة وقد تحدثنا من قبل عن طرق الإلقاء السليمة وأنت لا تزال تجد بين خطباء المساجد من يلقون الخطبة بطريقة منغمة ومن يلقيها بأسلوب رتيب يستوى فيه صيغ الاستفهام والتعجب والإخبار ..... فهذا مما يصرف ذهن السامع عن متابعة الخطيب ويضعف تأثير العظة فى نفسه وبوجه عام لا تزال خطبة المسجد تنهج منهجا تقليديًّا ، ولا يزال خطيب المسجد بحاجة إلى استنارة واسعة . والخطبة الدينية

فى غير المسجد أنجح وأفيد فبين الجماعات الدينية تحررت الخطبة من النهج التقليدى وواجهت موضوعات أشد مساسا بحياة الناس .

وسائل النهوض بخطبة المسجد :

خطيب المسجد الحديث مطالب بإحياء الخطبة الدينية ويوجد الآن فراغ واسع فى هذا الميدان وتعطش كبير إلى سماع العظات والإرشادات الدينية ، ولكى يسد الخطيب الحديث هذا الفراغ ، عليه قبل كل شيء أن يتخلص من العيوب التى ذكرنا فيحصر خطبته فى موضوع واحد ولا يقصر حديثه على الدار الآخرة وما بها من ثواب وعقاب بل لابد أن يزاوج بين جزائى الدنيا والآخرة فنفوس الناس تتعلق بالنفع العاجل وتخشى كوارث هذه الحياة وهناك آيات وأحاديث تتوعد العصاة بعقوبات دنيوية وفى قصص الأنبياء والجزاء الذى نال مخالفيهم ما يرهب النفوس ويردها عن المعاصى . كما فى قوله تعالى حكاية عن هؤلاء : «فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» .

وكقوله سبحانه :

« وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدًا وعذبناها عذابا نُكْرًا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرًا . أعد الله لهم عذابا شديدًا فاتقوا الله يا أولى الألباب .... » .

ولا تكون الخطبة كلها دائرة على النفع والضرر الدنيوى فهى بهذا تكون أقرب إلى المادية وإنما تربط الأعمال دائما بطاعة الله وحب القربى إليه حتى تأخذ صورة العبادة .

والثقافة الحديثة خصوصا درس علم النفس مما يحتاج إليه الخطيب الحديث لتجديد خطبته وجعلها ذات مساس بقلوب سامعيه .

والذى نلاحظه فى خطباء المساجد بوجه عام هو فقرهم البين فى درس السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، وعجزهم عن شرح النصوص القرآنية والأحاديث عجزا يصمهم بالنقص الفاضح . وفى استطاعة الخطيب أن يتخذ من الآية الواحدة موضوعا لخطبة طويلة شائقة مؤثرة لكن لا يفعل هذا إلا بثقافته ودرسه الواسع واطلاعه على كتب التفسير ومعرفته بأحداث التاريخ وهكذا .

والخطيب البادئ يحتاج إلى مجهود كبير فى هذا الإعداد ولكنه لا يتم تكوينه خطيبا إلا بهذا المسلك وبعض الخطباء يرون أنفسهم قد نجحوا غير مرة فى خطبهم فيعتمدون على شهرتهم ويقصرون فى إعداد خطبتهم فيسقطون وينصرف عنهم السامعون .

وليلاحظ الخطيب أن مجهوده فى بناء نفسه أول أمره مهما شق أسهل من مجهوده فى إعادة بنائه إذا سقط ومعنى هذا أنه يجب أن يكون حذرا من السقوط مهما كانت شهرته .

إن خطيب المسجد لابد أن يتعرف على نفسيات جمهوره حتى يقف منهم موقف المعلم الحاذق يعرف كيف يوجههم إلى عمل أو يردهم عن آخر بماله من كياسة ودراية بتربية الغرائز ومعالجة الميول الجامحة .

وخطيب المسجد لابد أن يكون دائبا على القراءة وأن يقرأ تفسير القرآن مثلا فى أكثر من كتاب وأكثر من مذهب تفسيرى وأن يطلع على الكتب الدينية الحديثه والمقالات الصحفية التى تتعرض للشئون الدينية ..... وهكذا وبغير هذا الاطلاع يصير الخطيب كالماء الآجن يعيد نفسه ويمل الناس سماعه والخطباء الآخرون السياسيون والمحامون وخطباء المحافل.... تتجدد موضوعاتهم تلقائيا أما خطيب المسجد فهو المسئول عن اختيار موضوعه كما هو مسئول عن طريقة إعداده ومعالجته وككل خطيب آخر لا ينهض خطيب المسجد بدون غذاء أدبى ومدد من المحفوظات يستعين به فى تفكيره وتعبيره جميعا .

هذا ولا نزال نرى بيننا خطباء مساجد يؤمهم مستمعون كثيرون جدًّا ولكنهم لم ينجحوا فى بث ثقافة دينية فى نفوس مستمعيهم ذلك لأن خطبهم تقوم على الإثارة والنقد الهدام . دون أن تقدم غذاء علميا وفكريًّا ودون أن تقدم منهجا بناء من السنة النبوية وقوانين الإسلام .

وبعد ـ فليعلم خطباء المساجد أن حياتنا العامة تواجه فراغا روحيًّا واسعا . وأن هناك تعطشا كبيرًا نحو المعلومات الدينية وقد بدأ الناس يسأمون أكثر فأكثر تيارات الفكر المادى وعلى رجال الدين ـ وفى مقدمتهم خطباء المساجد ـ أن يقدموا من الغذاء الروحى ما يشبع هذا النهج ويسد هذا الفراغ وقد نشط فى هذا الميدان رجال الأديان الأخرى مع أن الإسلام أغنى وأقنع وأفيد .

خطب النكاح

من أنواع الخطب ما يقال عند عقود القران وهو نوع لا يزال مستعملا فى أيامنا وأكثر ما نستعمله نحن الآن بعد أن يتم عقد القران ليكون تهنئة للزوجين ولأسرتيهما وكانوا قديما يستعملونه قبل إجراء العقد يجعلونه إعلانا من الزوج وآله ، ورغبة فى الإصهار إلى آل الزوجة وكان هذا الموقف متأثرا بعاداتهم من وصف الزوجة بالتمنع وعدم الرغبة فى الزواج على نحو ما نجد فى قصائدهم الغزلية ولهذا كانت العادة الجارية أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب من آل الزوجة . والخاطب أو من ينوب عنه هو الذى يبدأ ثم يجيب آل الخطيبة أولا يجيبون . وخطبة النكاح فى أيامنا هذه لا مشقة فيها ولا تفترق عن أى خطبة من خطب المناسبات الأخرى وقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : «ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى[1] خطبة النكاح» وسئل عبد الله بن المقفع عن هذا القول فقال : «ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الحداق من أجواف الحداق[2] » . ولأنه إذا كان جالسا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء فإذا علا المنبر صاروا كأنهم سوقة ورعية ـ قال الجاحظ : «وقد ذهب ذاهبون إلى أن تأويل قول عمر يرجع إلى أن الخطيب لا يجد بدًّا من تزكية الخاطب فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورا وغر القوم من صاحبه» ولم يرض الجاحظ هذا التعليل لأن عمر وأمثاله لم يكونوا ليمتدحوا شخصا إلا بما هو فيه ، ولم يكونوا ليتكلفوا ذلك . وبهذا يكون الجاحظ قد قبل قول ابن المقفع ، ولكن عمر وأمثاله أيضا لم يكن يرهقهم نظر الحدق من أجواف الحداق ، ولا الخطبة من جلوس فيمن يساوونهم .

ومن المعروف لدى العرب أنه يعرض للخطيب فى خطب الاملاك من الحصر مالا يعرض لصاحب المنبر ومدح أحد الشعراء خطيبا برجز جاء فيه :

لله درُّ عـــامـــر إذا نـــطـق ... فى حفل أملاك وفى تلك الحِلَق
لـيس كقوم يعرفون بالسرق[3] ... من خطب الناس ومما فى الورق

---

(١) تشق على . انظر البيان والتبيين ص ١١٧ - ١٣٤ . جـ ١ .

(٢) قرب أعين الخطيب من أعين الناظرين إليه .

(٣) بالسرقة .

يـلـفقون القول تلفيق الخلق[1] من كل نضاح الدفارى[2] بالعرق
إذا رمته الخطباء بالحدق

وكانت خطبة الأملاك تلقى من جلوس ، فتشبه المحادثة والكلام المعتاد ولعل ذلك مما يقلل نشاط المتحدث وانفعاله ولا يجعله يستعمل الإشاره والحركة فيقلل ذلك نشاطه ويفتر همته ، وربما كان ذلك من أسباب صعوبتها . أما فى الوقت الحاضر فإنها تلقى من وقوف ولا تفترق عن الخطب الأخرى .

وأنجح طريق للخطيب فى عقود القران أن يجنح كثيرا إلى الحديث عن الزواج وأثره فى الربط بين أسرة وأخرى وفى إنجاب النسل الصالح وتشابه الفروع بالأصول وما إلى ذلك . وقد خطب عبد الله بن الزبير مرة أمام عثمان بن عفان فى جمع فأعجبه فقال : «أيها الناس انكحوا النساء على آبائهن وإخواتهن فإنى لم أر لأبى بكر الصديق ولدا أشبه به من هذا[3] يريد أن عبد الله شبيه بجده أبى بكر ، وأن نسب الزبير لأبى بكر أنجب له عبد الله فى هذه الفصاحة .

ومن خطب الأملاك المشهورة خطبة أبى طالب عم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عند زواج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من السيدة خديجة رضى الله عنها ــ وفيها يقول :

«الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع[4] إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجًا وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلا وكرما وعقلا ومجدًا ونبلا[5] وإن كان فى المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية[6] مسترجعة وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحببتم من الصداق فعلى .

ومن المعروف أن اتفاق الزوجين .. رسول الله وأول أم للمؤمنين كان قد سبق وكان

---

(١) الثياب البالية .

(٢) الدفرى ماوراء أذن البعير . ولكل بعير ذفريان وأراد بالذفارى هنا أجزاء بدن الخطيب ، يعيب الخطباء الذين تأخذهم الرهبة فيسيل العرق من جسمهم ، والحدق جمع حدقة أى لا يتهيب إذا حدق الناس فيه بأعينهم .

(٣) البيان والتبيين ٤٠٦/١ .

(٤) يريد من سلالته .

(٥) ذكاء ونجابة .

(٦) بتشديد الياء الشىء المعار .

معروفا لذويهما وقد قال فيه (ﷺ) والدُ خديجة : « ذلك الفحل لا يجدع أنفه[1] » يريد أنه خطيب لا يرفض وقد زكاه أبو طالب وأثنى عليه بما لا ينكره عليه أحد .

وأكثر ما انتهى إلينا من خطب الزواج كان موجزا قصيرا وقليل منه كان مطولا . ومن طريف ما جاء فى هذا أن شبيب بن شبية الخطيب الخارجى المعروف زوج ابنه بنت سوار القاضى ـ وهو خطيب معروف أيضا فقال القوم اليوم يعب عباب الخطابة فلما اكتمل الجمع قام شبيب فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم قال :

« ... أما بعد فإن المعرفة منا ومنكم بنا وبكم تمنعنا من الإكثار وإن فلانا ذكر فلانة . »

ولم يزد على ذلك فانتحل سببا وجيها لإيجازه

وكان الحسن البصرى يجنح على نحو ما ذكرنا إلى الحديث عن الزواج وكان يقول بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة والأنساب المتفرقة وجعل ذلك فى سنة من دينه ومنهاج واضح من أمره وقد خطب إليكم فلان وعليه من الله نعمة وهو يبذل من الصداق كذا . فاستخيروا الله وردوا خيرًا يرحمكم الله .

وحين يتكلم آل الخطيبة قد يذكرون أن الزوج كفء وأنهم لهذا زوجوه وقد يوصونه بالزوجة ويطلبون إليه أن يبرها .

ومن أمثلة النوع الأول أن محمد بن الوليد بن عقبة بن أبى سفيان خطب إلى عمر ابن عبد العزيز أخته فألقى خطبة أطالها فلما أجابه عمر قال :

« الحمد لله ذى الكبرياء وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء .

أما بعد فان الرغبة منك دعتك إلينا . والرغبة فيك أجابتك منا . وقد أحسن بك ظنا من أودعك كريمته واختارك ولم يختر عليك وقد زوجتكها على كتاب الله . إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان[2] .

---

(١) إذا أراد الفحل أن ينزو على أنثاه وهم يريدون دفعه عنها ضربوه على أنفه فيسكن ويرجع .

(٢) هذه رواية العقد الفريد جـ ٢٣٤/٤ وفى البيان والتبيين ٤٠٤/١ : اما بعد فقد أحسنا بك ظنا .... وقد زوجناك على ما فى كتاب الله ...

ومن أمثلة النوع الثانى أن عثمان بن عقبة بن أبى سفيان خطب إلى عمه عتبة بن أبى سفيان ابنته وكان عثمان حدثا فأجلسه عتبة على فخذه وقال :

« .. أقرب قريب خطب أحب حبيب لا أستطيع له ردا ولا أجد من إسعافه بدًّا وقد زوجتكها وأنت أعز على منها وهى ألصق بقلبى منك . فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ولا تهنها فيصغر عندى قدرك وقد قربتك مع قربك فلا تبعد قلبى من قلبك .

وهذه الخطبة أقوى وأجمل من سابقتها فهى تعبر عن حقيقة مع ما يشيع فيها من العاطفة وروح المودة أما خطبة عمر فقد شوهها بذكره التسريح فإن هذا لا يجمل فى مثل هذا الموقف .

فكاهات فى خطب الزواج :

تذكر كتب الأدب فكاهات حدثت فى خطب الاملاك قد يكون منشؤها العى والحصر وقد يكون منشؤها المبالغة . أو الميل إلى الدعابة وإشاعة السرور . ويختلف ذلك بين موقف وآخر فهذه الدعابات لا تكون إلا فى الحفلات التى يحضرها كبارُ الناس .

١ ـ من ذلك ما رووا أن خطيبا حضر عقد قران فاستفتح خطبته بحمد الله والصلاة على نبيه . ثم ذكر بدء الخليقة وخلق السموات والأرض . ومضى يسرد أخبار القرون الماضية والأمم البائدة حتى ضجر الناس وهو لا يشعر فلما فرغ من خطبته أراد أن يذكر اسم الخاطب فسأله عنه فأجاب : قد والله نسيت اسمى من طول خطبتك وهى والله طالق إن تزوجتها بهذه الخطبة .

فضحك القوم وهيأوا مجلسا آخر ليعقدوا له فيه بغير هذه الخطبة[١] .

٢ ـ ومن ذلك ما ذكروا أن عبدًا لخالد بن صفوان طلب أن يزوجه من أمة له فأجابه فقال له العبد : لو دعوت الناس وخطبت ! قال خالد ادعهم انت وكان خالد خطيبا فلما تكامل الجمع قال :

« إن الله أعظم وأجل من أن يذكر فى نكاح هذين الكلبين وأنا أشهدكم أنى زوجت هذه الزانية من هذا ... ابن الزانية ... »[٢] .

---

(١) زهر الآداب ١٤٤/٢ .

(٢) العقد الفريد ٢٣٥/٤ .

٣ ـ ومن الخطب المضحكة فى حفلات الزواج خطبة مصعب بن حبان ، فقد تهيأ لإلقاء خطبة فحصر ولم يجد شيئا يقوله فقال : «لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله» فقالت له أم الفتاة : عجل الله موتك ألهذا دعوناك ؟ [١] .

٤ ـ ومن ذلك أن شابا طلب من أحد الشيوخ أن يخطب له بنت صديق له . فقال له الرجل إذا كنت فى مجلسهم غدا فأت إلينا . فلما رآه الشاب معهم اتجه إليهم فقال الشيخ : انظروا إلى هذا الشاب القادم . ما أحسن والله ما مشى لا أسرع ولا أبطأ ، فلما جاء وسلم عليهم قال ما أحسن والله ما سلم لا أطال ولا اختصر ، ثم جلس فقال الرجل ما أحسن والله ما جلس لا دنا ولا أبعد ، ثم تكلم فقال : ما أحسن والله ما نطق لا رفع صوته ولا خفضه . ثم ضرط فقال الرجل : ما أحسن والله ما ضرط لا أغنها ولا أرنها فضحك القوم وقالوا حسبك والله لو سلح لزوجناه .

٥ ـ وأهدت أعرابية ابنتها إلى زوجها فقالت لها : [٢]

اقلعى زج رمحه ، فإن أقر فاقلعى سنانه ، فإن أقر فاكسرى العظام بسيفه ، فإن أقر فاقطعى اللحم على ترسه فإن أقر فضعى الإكاف على ظهره فإنما هو حمار .



(١) البيان والتبيين ٢/٢٥٠ .

(٢) عيون الأخبار ٤/٧٧ . وزج الرمح كعبه والحديدة أسفله ، وسنانة الحديدة المدببة أعلاه وهى العالية ـ وبقية الوصية تعنى أنها تستعمل أدوات حربه أدوات للمنزل .

خطـب رسـول الله [ﷺ]

نورد بعض الأمثلة لخطب رسول الله (ﷺ) للاستفتاح والتبرك . ومع أنه (ﷺ) استقى بلاغته من معين القرآن والوحى الإلهى ، وكلامه مما تزين به الخطب وتستشرف إليه كل نفس ، وكل خطيب يتطلع إلى بلاغته العليا . مع هذا كله كانت معظم خطبه قصارا ، ولم يكن يطيل خطبه إلا للمناسبات الداعية إلى الإطالة . وأثبتنا فيما سيأتى خطبة الوداع ، وتعتبر من الخطب الطويلة ، وجاء عنه (ﷺ) أيضا أنه خطب مرة بعد العصر ، ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال : «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

وقد أورد الباقلانى هذه الخطبة فى كتابه إعجاز القرآن ، ولكن لم يذكر منها إلا كلمات قليلة هى :

«ألا إن الدنيا خضرة حلوة . ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا مخافةُ الناس أن يقول الحق إذا علمه ..» .

ومن أمثلة خطبه القصيرة :

١ ـ أول خطبة دعا بها قومه بمكة

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتُبْعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا ، وإنها للجنة أبدا ، أو النار أبدا» .

فانظر إلى هذه الكلمات الوجيزة كيف رتبت واتصلت حلقاتها حتى انتهت إلى الغرض الذى تريد ، وليس بها تكرار ولا حشو . بدأت بأن الرائد ـ أيا كان لا يكذب ، وهو نفسه معروف بالصدق والأمانة فقد اجتمع له ما يزيد صدقه تأكيدا ، ثم أكّد ذلك ثانيا

بأنه لو جاز أن يكذب فإنه لا يجوز له أن يكذب عليهم ، لأنهم أهله وعشيرته ، ثم زاد ذلك كله بقسم ليصدقوه إنه مرسل من الله ، وهو مرسل لهم خاصة لأنهم أهلِه يحمونه ويشرفون برسالته ، ورسول إلى الناس جميعا فهى رسالة عامة . ثم حدثهم عن البعث بعد الموت والحساب على الأعمال ـ وهذا مفتاح الرسالة الإسلامية ـ فمن آمن بذلك سعى لمعرفة ما ينجيه ويرفع درجته .

٢ ـ خطبة أخرى له (ﷺ)

« .. أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم[١] ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم[٢] ، إن المسلم بين مخافتين . بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . فو الذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب[٣] ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار .

٣ ـ خطبة أخرى

أيها الناس . كأن الموت على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سَفْرٌ[٤] عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم[٥] ، ونأكل تراثهم ، كأنا مخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت[٦] وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن انفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضلَ من قوله ، ووسعته السُّنَّةُ ، ولم تستهوه البدعة .

---

(١) جمع مَعْلَم ، مايستدل به كالعلامة .
(٢) تذكروا أنكم ستموتون .
(٣) عتاب ـ مصدر ميمى .
(٤) كشرب وركب بمعنى مسافرون .
(٥) جمع جدث وهو القبر .
(٦) طهرت .

٤ ـ وأول خطبة له (ﷺ) بالمدينة

أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم . تعلمن[١] والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبلغك ؟ ، وآتيتك مالا . وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ . فلينظرنَّ يميناً وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإنما تُجْزَى[٢] ـ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف[٣] . والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمته وبركاته .

٥ ـ خطبته ﷺ في الاستسقاء

جاء أعرابي إلى رسول الله (ﷺ) وآله في عام جدب فوقف أمامه وقال : أتيناك يا رسول الله ـ ولم يبق لنا صبي يرتضع ولا شارف[٤] تجتر ، ثم أنشد :

أتيناك والعذراء يدمى لَبَانُها ... وقد شغلت أم الرضيع عن الطفل[٥]
وألقى بكفيه الفتى لاستكانةٍ ... من الجوع حتى ما يمر ولا يحلى[٦]
ولا شيء مما يأكل الناس عندنا ... سوى الحنظل العاميّ ، والعلهز الغَسْل[٧]
وليس لنا إلا إليك فرارنا ... واين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام النبي (ﷺ) يجر رداءه حتى صعد المنبر ، فحمد الله واثنى عليه ثم قال :

---

(١) بفتح العين وتشديد اللام بمعنى تعلموا واعلموا .

(٢) بالبناء للمفعول .

(٣) الضعف المثل ، ويقولون أيضا : لك ضعف هذا أى لك مثلاه .

(٤) الشارف الناقة المسنة الهرمة ، ويقال شارفة ، والجملتان كناية عن الجوع والأنعام تجتر ما في بطنها ، فاذا خلا بطنها فلا اجترار .

(٥) اللبان ـ بفتح اللام الصدر ـ وهو يدمى لأن الصبية امتهنت بالعمل لعدم قدرتها على استئجار خادم . فهى كناية عن الفاقة والفقر . وشغل أم الرضيع عنه من هذا لأنها تعمل ولا تستطيع التفرغ له

(٦) ألقى بكفيه أى استسلم وعجز عجزا تاما ، وما يمر ولا يحلى ، أى لا يستطيع أن يعمل ما يضر أو ينفع .

(٧) العَاميّ الذى أتى عليه عام ، والحنظل مر المزاق ، والعلهز طعام من الدم والوبر كانوا يأكلونه فى الجاهلية أيام المجاعة وقد أكلته قريش حين دعا عليهم رسول الله أن يجدوا سنين كسني يوسف ، والغسل الردىء .

«اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا[1] هنيئا مَرِيعًا[2] سَحًّا سجالا[3] غدقا[4] طبقا[5] ديما[6] دِرَرًا[7] ، تحيي به الأرض وتنبت به الزرع ، وتدر به الضرع ، واجعله سُقْيًا نافعة ، عاجلا غير رائث[8] .

فما رد رسول الله (ﷺ) يده إلى نحره حتى ألقت السماء أرواقها[9] . وجاء الناس يَضجُّونَ : الغرق الغرق يا رسول الله فقال : .«اللهم حَوَالَيْنا ولا علينا» . فانجاب[10] السحاب عن المدينة حتى استدار حولها كالإكليل . فضحك رسول الله (ﷺ) حتى بدت نواجذه[11]

قبس من البلاغة النبوية

بجانب ما ذكرنا من خطبه (ﷺ) القصيرة ، نذكر بعضا من أحاديثه البليغة الموجزة ، ففيها بجانب التبرك بكلامه مدد للخطيب ، ونماذج بلاغية تحتذى ، وبعض هذه الأحاديث يمكن ان يكون وحده موضوع خطبة . وليحاول دارسو الخطابة أن يتخذوا بعضا منها موضوعا للتدرُّب ، ومحاولة لإنشاء خطبة محورها بعض هذه الأحاديث .

١ ـ قال صلى الله عليه وسلم للأنصار :

«إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع

يريد أنهم كانوا يأتون كثرا عند النداء للحرب ، وحين اشتداد المعركة ولكنهم عند توزيع الغنائم كانوا يبدون العفة فلا يحضر إلا القليل . فالمراد بالفزع حالة الحرب . والفزع فى الأصل الخوف والرهبة .

---

(١) المغيث المنقذ ، والمرىء : السائغ .

(٢) خصبا ، أى يكسب الأرض خصوبة .

(٣) السجل النصيب والدلو المملوءة العظيمة . فالسجال العظيم والتداول الذى ينال كل بلد منه نصيب . كما يقال حرب سجال أى ينال كل من صاحبه مرة ويهزم أخرى .

(٤) الغزير الكثير .

(٥) يطبق الأرض ويملؤها .

(٦) أى يدوم حتى يروى .

(٧) جمع دِرة بكسر الدال ، من در السحاب ، ودرته انصبابه واندفاقه .

(٨) غير مبطئ .

(٩) صبت مطرها غزيرا .

(١٠) تكشف وتزحزح .

(١١) النواجذ أقصى الأضراس .

٢ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

«خير المال سِكَّةٌ مأبورة . وفرس مأمورة

ومعناه أفضل ما يملك الشخص نخيل مثمر وفرس نتوج ـ فكلاهما يأتى بالخير الكثير على الجهد القليل . ولا يشغل وقت صاحبه . والسكة هى الصف الممتد من النخل . والمأبور الملقح بطلع الذكر . يقولون أبر النخل وأبّره . والمراد النخيل الصالح للإثمار . والفرس المأمورة الكثيرة النتاج من أمر الله مال الرجل وآمره بمعنى نماه وزاد فيه .

٣ ـ وقريب من هذا الحديث قوله ـ صلى الله عليه وسلم :

نعمت العمة لكم النخلة تغرس فى أرض خوارة ، وتشرب من عين خرارة .

فالنخل من أوفر الأشجار ثمرا . وهو شجر صحراوى تمتد جذوره فى الأرض ويمتص الماء من بعد ويصبر عليه . والأرض الخوارة الرخوة السهلة ، والعين الخرارة التى يجرى ماؤها أو ينطف ـ والجملتان للدلالة على أنها لا تكلف جهدا ، وسميت النخلة عمة لأنها ذات فضل تستحق به أن تكرم وجاء فيها أيضًا : أَكْرِمُوا عمتكم النخلة ،

وفى حديث عبد الله بن عمر :

إن من الشجر شجرة تشبه المؤمن وإنها لا يسقط منها أُبْلُمة .

والأبلمة الورقة ـ خوصة النخلة . أى أنها كثيرة النفع لا يذهب منها شىء بغير فائدة . ينتفع بجذعها وسعفها وخوصها وعذقها وبلحها . ، وقال عن النخيل أيضًا : المطعمات فى المحل الراسخات فى الوحل ،

أى أن بلح النخيل يصلح طعامًا وغذاء ، فى أوقات الجدب ، وقلة الطعام ومع ذلك تمتد جذوره فى التراب لا يكلف صاحبه إصلاح أرض ولا إمدادا بماء .

٤ ـ وقال صلى الله عليه وسلم :

«نهيتكم عن عقوق الأمهات ، ووأد البنات ومنع وهات

ويروى الحديث أيضًا : إن الله كره لكم عقوق الأمهات ، والمنع يراد به منع ما يعطى عادة من الصدقة والمساعدة ، وكلمة «هات» تعنى الطلب ، أى كره

لكم أن تمنعوا عونكم وتطلبوا عون الآخرين ، فهذا مناف للمروءة .

٥ ـ ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

لو أن لابن آدم واديين من ذهب لتمنى الثالث ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب .

وهو تصوير لشره الناس على جمع المال ، حتى لو كان للشخص واديان مليئان بالذهب ما قنع ولا اكتفى ، ولا تزال عينه تتطلع إلى مزيد حتى يموت ويدفن ، ويروى أيضًا : ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب .

٦ ـ وقال عليه الصلاة والسلام .

ما قل وكفى خير مما كثر وألهى

وهو تأديب وتربية للغرائز البشرية ، فالمال القليل الذى يكفى حاجة الإنسان ولا يبطره خير من الكثير الذى ينسيه واجبه نحو الله .

٧ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله ، يتقون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

والمراد بالعلم هنا علم الدين والسنة ، يقوم عليه فى كل جيل قوم ذوو عدل وفهم وخشية من الله ، فيوضحون معانيه الحقيقية ، ويبعدون تأويل المتأولين . والخلف ـ بفتح اللام ـ الجيل والقوم يأتون بعد سابقهم ـ وبسكون اللام ـ يكون للجيل السيىء الفاسد ـ كما فى قوله تعالى : فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ واتَّبَعُوا الشَّهوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » .

وفى كل عصر تجد مشاكل وتظهر تيارات فكرية كثيرًا ما يلجأ الناس إلى تأويل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لتتسع لها . كما نجد فى وقتنا كثيرين يحلون فائدة الأموال التى بالبنوك أو صناديق التوفير أو التأمين على الحياة ، ويتأولون لذلك عللاً كثيرة ، إما علوًا منهم أو جهلاً أو تعمدا لعمل الباطل . ولكن توجد قلة تصمد للدفاع عن الحق .

٨ ـ وقال صلى الله عليه وسلم :

لا يوردَنَّ مُجْرِبٌ على مُصِحٍّ

والمجرب صاحب الإبل الجربى . يقولون أجرب فلان أى ظهر الجرب فى إبله . والمصح ذو الابل الصحيحة . أى لا يخلط إبله الجربى بالأخرى فتعديها ، ومثله من الحديث أيضاً : إذا نزل الوباء بأرض فلا تدخلوه ، وإذا كان أحدكم به فلا يخرج إلى غيره . وهذا من نصائحه (ﷺ) اتقاء العدوى .

٩ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة .

ويروى الحديث كالإبل مائة لا تجد فيها ، ويروى كإبل مائة لا تجد فيها ، أى أن خيار الناس قليلون ، وأراذلهم هم الكثرة الفاشية ، والراحلة من الإبل البعير النجيب التام الخَلْق الجلد القوى على الأسفار . و «أل» فى الإبل للجنس ، فما بعدها صفة ـ أى هم كالإبل التى بهذه الصفة .

١٠ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

إياكم والمشارّة فإنها تميت الفُرَّة ، وتحيي العُرَّة

والمشارّة : المخاصمة والمجادلة ، والفرّة المنقبه والصفات الحسنة ، والعرة المثلبة التى تجلب العار ، فمخاصمة الشخصين تدعو كل واحد منهما أن يذكر معايب صاحبه ، ويغفل ماله من مأثرة ، فأحرى بعقلاء الناس إلا يشارُّوا ، ولا يخاصموا ، ولما دخل السائب بن صيفى على رسول الله (ﷺ) قال : أتعرفنى ؟ قال (ﷺ) : كيف لا أعرف شريكى الذى كان لا يشارينى ولا يمارينى ؟[١] .

١١ ـ وقال صلى الله عليه وسلم :

دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم . الحسد والبغضاء والبغضاء هى الحالقة ، حالقة الدين لا أقول حالقة الشعر ، والذى نفس محمد بيده لا تؤمنون حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ ، أفشوا السلام وصلوا الأرحام .

---

(١) كان السائب شريك رسول الله (ﷺ) فى الجاهلية . ولا يشارى ـ أى لا يشارر ويأتى بشر ولا يمارى لا يخاصم ويجادل .

والحسد أن يستكثر الشخص نعمة أنعمها الله على غيره ، فتود نفسه لو أنها زالت عنه ، وهى تسبب الكراهية ، وهذا الخلق يعارض تعاليم الدين ويجتثها من نفس صاحبه ، كما تحلق الآلة الشعر ، وهو داء قضى على الأمم السابقة ومعنى دب فيكم يوشك أن يدب بينكم ، كما فى قوله تعالى : أتى أمر الله .

١٢ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

لو تكاشفتم ما تدافنتم .

ويفسر بوجهين ، قيل لو كشفتم ما تكتمونه فى أنفسكم ، وأبديتم سرائركم ما استطعتم بعد ذلك أن تخفوا سرا وتدفنوه . فهو نهى عن إنشاء الأسرار وإذاعتها ، وقيل : لو علم بعضكم ما يكنه له الآخر وما تخفى سريرته له ، لثقل عليه أن يشيع جنازته ، وأن يوسده قبره . ومعنى هذا أننا لا ينبغى أن نكلف الناس شيئًا فوق طاقاتهم ، ولا أن نحاول التعرف على ما يكنون لنا . بل نصحبهم على علاتهم .

١٣ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

إنى لأعطى رجالاً وأدع من هو أحب إلىّ منهم لا أعطيه شيئًا مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم .

وهذا يبين مدى حرصه (ﷺ) على هداية أمته ونجاتها من النار . فهو يعطى ضعيف الإيمان يتألف قلبه حتى يتمكن الإيمان من نفسه ، ويمنع غيره وهو أحب إليه لأنه وكله إلى إيمانه ودينه ، ولو منع ضعيف الإيمان لأبعد عن الإسلام ومات كافرًا فيكبه الله فى النار . يقال كبه بمعنى ألقاه فى النار ، فأكب هو أى هوى وسقط .

١٤ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

إنى لم أبعث لعانا ، وإنما بعثت رحمة .

قيل لرسول الله (ﷺ) ادع على المشركين ، وقيل : قيلَ له ادع على بنى عامر لأنهم آذوه ، وكانوا مشركين ، فذكر هذا الحديث .

هذا تأديب منه (ﷺ) ، لا يشتم حتى أعداءه الذين آذوه . ولهذا جاء فى

الحديث أيضًا : لا ينبغي للمؤمن أن يكون لعّانا ، وجاء : ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء » .

١٥ ـ وقال عليه الصلاة والسلام :

إن الله لا ينزع العلم انتزاعا ينتزعه من الصدور ، ولكن ينتزع العلم بنزع العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس علماء جهّالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلّوا ، وأضلّوا .

وهذا حديث ذو أهمية للداعية الإسلامى ، لأنه يحتم عليه التثبت من علمه والاستزادة منه .

١٦ ـ وقال عليه الصلاة والسلام .

الإيمان قيْدُ الفتك ، لا يفتك مؤمنٌ

والمراد بالفتك الاعتداء والخيانة ، والإسلام يقيد المسلم أن يفتك بغيره ، فهو مانع منه كما يمنع القيد الدابة أن تذهب أو تمرح فى مرعى غيرها ، ولا «يفتك» برفع الفعل المضارع ـ أى إنّ شأن المؤمن أنه لا يفعل ذلك .

ومن قوله (ﷺ) : عن جواد سابق : ما هو إلا بحر ، وقيل إنه قال : إن وجدناه لبحرًا ، أى هو يموج فى جريه بسهولة كما يندفع ماء البحر ، وقد كان رسول الله (ﷺ) يحب الخيل فجاء فرس له سابقًا ، فقال هذا الحديث ، وفيه قال عمر بن الخطاب : كذب الحطيئة حيث يقول :

وإن جياد الخيل لا تستفزنا ولا جاعلات العاج فوق المعاصم

وقال بعض العلماء لم يستفز رسول الله (ﷺ) سبق فرسه ، ولكنه أراد إظهار حب الخيل وتعظيم شأنها .

١ ـ خطبة لمعاوية بن أبي سفيان

خطب معاوية خطبة الجمعة في يوم صائف شديد الحر . فحمد الله وأثنى عليه . وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

«إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم . ووعظكم فلم يهملكم . فقال : «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون»

قوموا إلى صلاتكم

هذه خطبة قصيرة جدًّا . وهي كافية من الوجهة الشرعية لتؤدى بها صلاة الجمعة . وبعض المذاهب الفقهية يرى أن الخطبة تكون مجزية إذا اشتملت على أمر ونهي . نحو «اتقوا الله فيما أمر . وانتهو عما عنه نهى وزجر» فإذا قالها وجلس ثم وقف فأعادها أجزأ ذلك في خطبتي الجمعة . ولكن الأداء الشرعي المجرد . أو العمل الرسمي أيًّا كان . يتخذ صورة الشكلية ولا يؤدى الغرض المطلوب . فالمفروض أن الخطبة تقال لغرض إفادة السامعين وتوجيههم . ولإيقاظ مشاعرهم الدينية وعواطفهم النبيلة . فإذا قصرت إلى هذا الحد . أدت الجانب الشكلي ولم تؤد الجانب الروحي وهو الجانب الأهم . ولكن الظروف قد تدعو إلى مثل هذا الإيجاز .

٢ ـ خطبة معاوية بن يزيد

معاوية هذا حفيد معاوية بن أبي سفيان . استخلف في شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ بعد أبيه يزيد . وكان حدثا . قيل كان في الحادية والعشرين من عمره . وقيل كان دون ذلك[١] . وكان تقيا ورعا . ولكن مدة حكمة كانت قصيرة جدًّا . قيل كانت ثلاثة أشهر . وقيل كانت أربعين يومًا . وهذه الخطبة أول خطبة وآخرها .

أمر فنودى في أهل دمشق : الصلاةَ جامعةً . فلما تكامل جمعهم صعد المنبر . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) قال ابن قتيبة كان ابن ثلاث عشرة سنة وهو رأى غير وجيه . لأن خالدا أخاه كان أصغر منه وكان يتطلع إلى الخلافة . وقيل كان ابن ثماني عشرة سنة .

«أما بعد : فإنى قد نظرت فيما صار إلىّ من أمركم . وقُلِّدْتُه مِنْ وِلايتكم . فوجدت ذلك لا يسعنى فيما بينى وبين ربى أن أتقدم على قوم فيهم من هو خير منى . وأحقهم بذلك وأقوى على ما قلدته . فاختاروا منى إحدى خصلتين إما أن أخرج منها وأستخلف عليكم مَنْ أراه لكم رضى ومقنعًا . ولكم الله علىَّ لا آلوكم نصحا فى الدين والدنيا . وإما أن تختاروا لأنفسكم وتخرجونى منها» .

فأنف الناس من ذلك . وخشى الأمويون ذهاب الخلافة فقالوا أمهلنا . فلم يلبثوا إلا أيامًا حتى طعن . فقالوا له استخلف من تراه رضى . فقال : عند الموت تريدون ذلك ؟ لا والله لا أتزودها . ما سعدت بحلاوتها فكيف أشقى بمرارتها .

وهذه الرواية التى ذكرناها هى رواية ابن قُتيبة ــ وهى فى نظرنا مرجوحة وقد جاءت الخطبة فى الطبرى ومروج الذهب والفخرى بما يخالف ذلك . وهى ليست بالنص نفسه فيها جميعًا . وفى بعض رواياتها كمايلى :

فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه . فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده . فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجد فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم . فما كنت لأتزودها ميتا . وما استمتعت بها حيًّا .

ولا تبدو هذه الرواية قوية أيضًا . لأنه ترك عليًّا فلم يذكره مع أنه نشد مثل الستة أهل الشورى فلم يجد . وعلى كان واحدًا منهم .

وفى بعض الروايات ماذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها . وتتحلون أنتم حلاوتها وأتعجل مرارتها . اللهم إنى برىء منها مُتَخَلٍّ عنها .

وندع اختلاف الروايات فى هذه الخطبة وفى تحقيق نصها . وقد فكرناها مثالاً للخطبة القصيرة . وقد أدت معنى هامًا وغرضًا قيمًا . وهو انخلاعه من الخلافة وفى أى من الروايات أعلن سبب تخليه . وسبب عدم استخلافه . فهو فى بعض روايات الخطبة أضعف من أن يحمل عبئها . وفى بعض آخر يرى من الإثم أن يتقلدها وهناك من هو أقدر منه عليها وأجدر بها ــ ثم اعتذاره عن تقليدها غيره مخافة أن يضل هذا الخليفة فيحمل هو وزر استخلافه . وهو بهذا عدل عن طريقة أبيه وجده فى الاستخلاف . ويقال إنه دس له السم ــ ولعل ذلك أقرب من أنه طعن .

٣ ـ خطبة لعبد الملك

لعبد الملك بن مروان عدد من الخطب القصيرة ـ كان فى معظمها يريد تهديد الناس ، فيجنح إلى إيجاز الكلام حتى لا يفتح باب المناقشة والجدل من ناحية : وحتى يشعر الناس أنه جادّ فيما هدّد به فلا يظنوا أنه يكثر من الوعيد كى يطيعوه وليس ثمة عقوبة وراء تهديده . وهذه سياسة يجنح إليها الحكام فى مواقف الصرامة وبث الهيبة فى نفوس الرعية ، على نحو ما مرَّ بنا من خطبة أبى جعفر المنصور حين قتل أبا مسلم الخراسانى . وهذه خطبة له أخرى :

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أيها الناس :

إن الله حَدَّ حدُودًا ، وفرض فروضًا . فمازلتم تزدادون فى الذنب . وتزدادون فى العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف .

خطبة موجزة جدًّا وواضحة جدًّا ـ إنهم خرجوا عن حدود الله وبالغوا فى الخروج فلم يكن بد من قتالهم ، فهم المسئولون عما عسى أن ينزل بهم من عقابه .

خطبة له بمكة

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه :

«أيها الناس :

والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون ، فمن قال برأسه كذا قلنا له بسيفنا كذا» .

كان عبد الملك يعرف جيدًا أن أهل الحجاز لا يحبون بنى أمية . ولا يرى أنه يمكن أن يتملقهم أو يستميلهم بالكلام ، فجنح إلى تهديدهم . وأشار إلى ضعف عثمان ، ومداهنة معاوية وحمق يزيد ابنه . ونفى كل ذلك عن نفسه . وصرح بأنه معد سيفه لمن تبدو منه إشارة عابرة .

٤ - خطبة أعرابى

وردت هذه الخطبة عن بعض الأعراب :

حمد الله تعالى وصلى على نبيه وجميع الأنبياء ثم قال :

«ما أقبح بمثلى أن ينهى عن أمر ويرتكبه ، ويأمر بشىء ويجتنبه ، وقد قال الأول :

فدع ما لمت صاحبه عليه فذم أن يلومك من تلوم

ألهمنا الله وإياكم تقواه ، والعمل برضاه

من أقصر هذه الخطب خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه أن عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق . وهى بعد حمد الله والثناء عليه :

«إن أبا ذِبّان قتل لطيم الشيطان» . «وكذلك نولى بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون» .

وأبو ذِبَّان لقب عبد الملك لأنه كان أبخر يموت الذباب حين يدنو من فمه ، وقيل : كان فى لثته فساد يجعلها تدمى فيقع عليها الذباب بكثرة .

ولطيم الشيطان هو عمرو بن سعيد ، كان فى فمه ميل ، فسمى بذلك ، وقيل إنما سمى الأشدق لتشادقه فى الكلام . وكان معاوية قد دعا به فى غلمة من قريشٍ فاستنطقه فأعجبه كلامه ، فقال : إن ابن سعيد لأشدق[1] .

---

(١) انظر البيان والتبيين ٣١٥/١ .

مواقف خطابية أخرى

الخطبة القصيرة ـ العي والحصر

الخطبة القصيرة

المناظرات ، الجدل البرلمانى

قلنا إن الخطبة لا تستكمل كل أجزائها فى جميع مواقفها ، لأن الموضوع المعلوم للسامعين لا يحتاج إلى مقدمة . وفى المواقف الضيقة والمفاجآت الطارئة يعرض الخطيب لموضوعه مباشرة . ويختصر خطبته اضطرارا لمجاراة الموقف ،

والخطبة القصيرة تحتاج إلى درس للموضوع كى يركز الخطيب كلامه على الجوانب الهامة وحدها . ويحتاج فى هذا لوضوح أكثر ولاختيار عبارات أشد تأثيرًا وأكثر دقة .

وقد يكون المجلس شورى . يتبادل المجتمعون فيه الرأى لإقرار أمر من الأمور أو رفضه . أو الهدى لطريق يسلكونه . ويكون هذا فى المجتمعات العامة فى الجمعيات وفى مجالس الأحزاب والجامعات ونحوها . وفى هذه الحالات قد يقاطع الخطيب فجأة ، وقد يحاول معارضوه التغلب عليه برفع الصوت ، أو عدم السماح له بالاستمرار فى حديثه ، وإكمال حججه .

وواجب الخطيب حينئذ أن ينقطع عن الكلام ، وألاَّ يبدأ كلامه من جديد إلا بعد استيثاق من عدم المقاطعة . وقد يحدث هذا فى المحاكم الصغيرة ، والمحامى الذى يقاطع يطلب الحماية من المحكمة . أو يهدد بالانسحاب ، حتى يقهر خصمه على عدم مقاطعته ، أما فى المحاكم الكبيرة . فإن كل محام يأخذ دوره حتى يفرغ نهائيا من كلامه ، ثم يتكلم الطراف الآخر . فاذا أراد المتكلم الأول أن يتكلم ثانيا استأذن المحكمة فى الرد على ما أثاره خصمه أو فى تدارك ما فاته أن يقوله ، وقد يطلب القاضى من كل منهما أن يكتب دفاعه فى مذكرة خاصة ويقدمه للمحكمة فى زمن معين .

وفى كل هذه الحالات يجب على الخطيب أن يستوفى موضوعه درسا حتى لا يدع لخصمه شيئا يتداركه عليه .

والجدل البرلمانى لا يدخل فيه شىء من هذا ، لأن الخطيب يطلب الكلمة ولا يسمح له بالكلام حتى يأتى دوره ، ولهذا قد يرد على شخص تكلم قبله بمدة طويلة ، وتحدث بينهما عدد من الخطباء ، ولا يستطيع الخطيب الأول أن يرد عليه مباشرة ، بل يطلب هو الكلمة من جديد ، وقد لا يعطى حق الكلام مرة ثانية ، وهذا يحتم مع المتكلم استيفاء موضوعه من كل جوانبه .

أما المناظرات فمنها ما سبق ، ومنها ما يكون منظما بحيث يتكلم كل مناظر مرة واحدة ، وهذه الأخيرة لا يراد منها إلا تدريب الناشئين على الكلام ، وتعويدهم على درس الموضوعات درسا مستوفى ، وحسن الدفاع عن الآراء التى يتبنونها .

وفى مجال الخطب القصيرة نذكر خطب رسول الله (ﷺ) وبعض أصحابه ومحاوراتهم ولكن نرجىء المحاورات إلى موضعها من الأدب الإسلامى ونكتفى ببعض الأمثلة هنا .

العىّ والحصر

العى العجز والضعف عن الشىء ، ويقال لمن لا يحسن إبانة الكلام وشرح ما يريد عيى ، والحصر الحبس ، ويقال حصر الرجل ــ كفرح ــ فهو حصر ، إذ عى عن الكلام وضاق به ــ ومنه الآية الكريمة : «أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم . أى ضاقت صدورهم عن احتمال أى من العملين . فالعىّ والحصر متقاربا المعنى .

وقد يعرض للخطيب أو المتحدث أن يعجز عن الكلام إما لأنه لا يستطيع شرح ما فى صدره ، أو لا يجد فى ذهنه شيئا يقوله . وقد يرجع ذلك إلى نقص مادة الكلام أو نقص المعلومات ، وقد يرجع إلى الهيبة والخوف من موقف الخطابة أو الكلام ، والشخص فقير المادة قد يستعين بشد لحيته وعقد أصابعه أو إظهار التأفف أو نحو ذلك ، ومثل هذا يضجر السامعين ، وخير له أن يقطع كلامه ، وألا يواجه هذا الموقف حتى يتهيأ له ويعد ما يقدمه لسامعيه . ولكن من الخطباء الذين يجيدون الخطابة ولهم دربة ودراية بمواجهة الجماهير من ينقطع عن الخطبة ويرتج عليه فلا يجد ما يقول .

وأمثال هؤلاء كثيرون . ويرجع انقطاعهم والإرتاج عليهم إلى حالات نفسية تعتريهم قد تكون هيبة طارئة وقد تكون كلا لا جسميا . وقد تكون بسبب شغل الذهن بأشياء أخرى . والذى ينبغى أن يفعله الشخص فى هذه الحالة هو أن يصرف الكلام إلى جهة أخرى ، كأن يقرأ أى آية قرآنية تمر بذهنه أو يذكر حديثا فيقول إنه يعرضه على سبيل التبرك ثم يعد أنه سيتكلم فى موقف آخر إذا كان سيظل بين من يتحدث إليهم . أما إذا كان زائرا . فإنه يبين أن الكلام لا داعى له ، أو يتواضع فيذكر أنه ليس أعلم منهم . وليس ذلك إلا عملا يخفى ارتباكه ويستر موقفه.

وفى التاريخ خطباء كثيرون أرتج عليهم وتخلصوا بطرق مختلفة . ومن أمثلة هذه المواقف ما يلى :

١ ـ عبد الله بن عامر [١]

ولاه عثمان ـ رضى الله عنه ـ البصرة ، فوقف يخطب يوم عيد الضحية ، فأرتج عليه ، فمكث ساعة لا يتكلم ثم قال : لا أجمع عليكم عيا ولؤما ، من أخذ شاة من السوق فهى له وثمنها على.

٢ ـ خالد بن عبد الله القسرى

كان من الفصحاء . وكان إذا تكلم ظن الناس أنه يعد كلامه . ووقف مرة يخطب فسقطت جرادة على ثوبه فقال : «سبحان من الجرادة من خلقه . أدمج قوائمها ، وطوقها جناحها ، وسلطها على ما هو أعظم منها» فأعجب الناس ارتجاله . ولكنه وقف

---

(١) هو عبد الله بن عامر بن كريز . جده الأعلى عبد شمس بن عبد مناف ، وهو ابن خال عثمان بن عفان ، لأن أم عثمان هى أروى بنت كريز ، أحضر لرسول الله (ﷺ) وليدا ، فقال : هذا شبيهنا ، وعوّذه فابتلع ريق رسول الله (ﷺ) . كان عبد الله شجاعا ميمونا جوادًا ، ولاه عثمان البصرة سنة ٢٩ هـ . ثم ضم إليه فارس فافتتح خراسان كلها وأطراف فارس وسجستان وكرمان وغيرها ، وفى إمارته قتل يزدجرد آخر ملوك فارس ، وهو أول من اتخذ الحياض بعرفة وأجرى إليها العين ، قتل عثمان وهو بالبصرة ، فسار بما كان معه من الأموال إلى مكة وشهد موقعة الجمل مع طلحة والزبير ، ولم يحضر صفين ، وولاه معاوية البصرة ثلاث سنين بعد اجتماع الناس عليه ، ثم صرفه عنها فأقام بالمدينه ، ومات سنة ٥٩ هـ ـ (الإصابة ٦١٧٨) .

مرة أخرى على المنبر فارتج عليه ووقف مدة فوق المنبر لا يتكلم ـ ثم تهيأت له مندوحة فقال :

«.. إن الكلام يجيء ، أحيانا ويعزب أحيانا ، فيسح عند مجيئه سيبه[1] ، ويعز عند عزوبه طلبه ، ولربما كوبر فأبى ، وعولج فنأى ، فالتأنى لمجيئه خير من التعاطى لأبيه ، وتركه عند تنكره[2] أفضل من طلبه عند تعذره ، وقد يرتج على البليغ لسانه ، ويختلج من الجرىء جنانه وسأعود فأقول إن شاء الله . »[3] .

هذا الاعتذار الذى ذكره من أصدق وأبلغ ما يعتذر به ، ولهذا قالوا : مارئى حَصِرٌ أبلغ منه ، وحديثه يَنِمُّ عن تجربة لأن الكلام يتبع حالات الشخص النفسية والجسدية ، شأنه شأن كثير من حالات الشخص كالضحك والمزاح وانقباض من النفس وانبساطها .

٣ـ معاوية بن أبى سفيان

لما ولى معاوية صعد المنبر ليخطب فَحَصِرَ ، فقال :

«أيها الناس . إنى كنت أعددت مقالا أقوم به فحجبت عنه ، فإن الله يحول بين المرء وقلبه ـ كما قال فى كتابه ، وأنتم إلى إمام عدل أحوج منكم إلى إمام خطيب ، وإنى آمركم بما أمر الله به ورسوله ، وأنهاكم عما نهى الله عنه ورسوله ، واستغفر الله لى ولكم » .

والذى أنقذ معاوية فى موقفه هذا هو صراحته ، وإعلانه الناس بحقيقة أمره ، كما أسعفه ذكر الآية القرآنية . وإذا كان أهم ما يحصر به الخطيب هو الهيبة فإن ما أنقذ معاوية هو شجاعته الطبيعية ، فليس كل شخص ذا جرأة ليعلن حقيقة نفسه كما فعل ، وكان معاوية ذا جرأة كبيرة ، ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنه دون الخلافة ، ولعل هذا ما حصر من أجله .

---

(١) فيضه وكثرته .

(٢) غيابه وعدم طواعيته .

(٣) هذه رواية العقد الفريد وفى أمالى القالى : يجىء أحيانا فيسيب سيبه ، ويعزب أحيانا فيعز مطلبه ، وربما طولب فأبى وكوبر فعصى ، والتأنى لمجيه أصوب من التعاطى لأبيه ، ثم نزل .

٤ ـ عثمان بن عفان

أرتج على هذا الخليفة فى أول خطبة خطبها عقب استخلافه . فقال :

«أيها الناس إن أول كل مركب صعب . وإن أعش تأتكم الخطب على وجهها . وسيجعل الله بعد غسر يسرا إن شاء الله ..»

وهذا أيضا اعتذار صادق . وقد كان عثمان رضى الله عنه حييا ذا ضعف . لهذا تهب أول خطبة . وخطبته بوصفه خليفة ذات معنى غير خطبته بوصف آخر ، ولهذا عزب عنه لبه وارتبك ـ وفى رواية أخرى للخطبة : إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا . وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم الى إمام خطيب . وستأتيكم الخطب على وجهها وتعلمون إن شاء الله .[١]

٥ ـ يزيد بن أبى سفيان

ولى أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يزيد بن أبى سفيان الشام . فلما وقف يخطب الناس أول خطبة له حمد الله تعالى . فأرتج عليه . فسكت ثم عاد الى الحمد فأرتج عليه ثم عاد إلى الحمد .... فلما طال الموقف قال :

يا أهل الشام ! عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرًا . وبعد عى بيانا . وأنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال[٢] . ثم نزل . وبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه وقال : هن مخرجاتى من الشام . يريد خطب الأمويين البليغة..

٦ ـ ثـابت قطنـة

صعد ثابت قطنة منبر سجستان فقال : الحمد لله ثم ارتج عليه . فنزل وهو يقول :

فإن لا أكن فيهم خطيبًا فإننى ... بسيفى إذا جدّ الوغى لخطيب

فقيل له : لو قلتها وأنت فوق المنبر لكنت أخطب الناس .

---

(١) الرواية من العقد وانظر البيان والتبيين ١/٣٤٥ .

(٢) رواية العقد : امام فاعل .. خطيب قائل . وتقدمت ترجمة ثابت .

٧ ـ أشتات ممن أرتج عليهم

وقف رجل على المنبر يوم الجمعة فمر فى خطبته إلى «أما بعد» فأخذ يعيدها ولا يجد ما يقوله ثم قال : أشهدكم أن امرأتى طالق ثلاثا . لم أكن أريد أن أجمع اليوم فمنعتنى [١]

وخطب آخر فلما بلغ أما بعد بهت وظل ساكنا . ونظر فاذا شخص ينظر إليه فقال : لعنك الله . ترى ما أنا فيه وتلمحنى ببصرك أيضا .

وأرتج على معن بن زائدة . فضرب المنبر برجله وقال : فتى حروب لافتى منابر .

وكان عبد ربه اليشكرى عاملا لعيسى بن موسى على المدائن . فارتج عليه يوم جمعة فسكت طويلا ثم قال : والله إنى لأكون فى بيتى فتجىء على لسانى ألف كلمة . فإذا قمت مقامى هذا جاء الشيطان فمحاها من صدرى . لقد كان يوم الجمعة أحب الأيام إلى . فصرت وما فى الأيام يوم أبغض إلى منه . وماذاك إلا لخطبتكم هذه .

مقاطعة الخطيب

ذكرنا من صفات الخطيب أن يكون رابط الجأش . فلذلك لا ينبهر ولا ينقطع إذا فاجأه بعض السامعين بما يقطع كلامه . أو وجه إليه كلمة نابية . أو عارضه فى رأيه الذى يذكره . فإنه إذا انبهر وتلعثم خسر موقفه وضاعت خطبته . والخطباء الذين مرنوا على هذه المواقف يسلكون طرقا عديدة للتخلص من مثل هذه المحرجات . فأحيانا يستمر الخطيب فى حديثه كأن لم يوجه إليه أحد كلاما . وأحيانا يوجه إليه إشارة استهانة وسخرية وأحيانا يزجره . وأحيانا يجيبه إجابة صريحة مستفيضة . وهذا يكون مفيدًا جدًّا إذا كان فى هذه الإجابة ما يزيد الموضوع الذى يتناوله الخطيب شرحا وإبانة .

وهذه المقاطعة قلما تحدث فى خطب الجمع والأعياد لمقام الدين فى النفوس . ولكنها تحدث فى خطب الجمعيات والأندية . وتحدث أكثر فى الخطب الاجتماعية . وربما تحولت الخطبة إلى مناقشة أو ما هو قريب من المناقشة . وعلى الخطيب أن يكون دائما

---

(١) لم يكن يريد صلاة الجمعة فمنعته زوجه مما أراد .

مستعدا . وموطنا نفسه على مثل هذه المقاطعات كيلا يدهش أو يحار إذا فوجئ بها .

وبعض هذه المقاطعات يدخل فى باب المحاورة . وذلك حين لا يريد من يقاطع الخطيب أن يعترض عليه . ولكن يريد مزيدا من التوضيح أو سؤالا عن شيء غامض . وعندما خطب رسول الله (ﷺ) فقال : إن الله كتب عليكم الحج فحجوا . قام رجل فقال : أكل عام يارسول الله ؟ . وقصة هذا الحوار معروفة . وقد أسرف السائل حتى أغضب رسول الله (ﷺ)[1] . واعترض رجل عمر وهو فوق المنبر لأنه كان يلبس قميصين وقد أعطى كلا من الآخرين قميصًا واحدا . فلما تبين له أن ابنه عبد الله أعطاه قميصه . قال لعمر الآن قل نسمع . وخطب على بن أبى طالب فقال : انظروا إلى هذه الحكومة فمن دعا إليها فاقتلوه وإن كان تحت عمامتى هذه ! فقال له عدى بن حاتم : قلت لنا أمس : من أبى عنها فاقتلوه . وتقول لنا اليوم : من دعا إليها فاقتلوه . والله ما ندرى مانصنع بك . وقام إليه رجل من أهل العراق فقال : أمرت بها أمس وتنهى عنها اليوم فأنت كما قال الأول : آكلك وأنا أعلم ما أنت . فقال على : ألى يقال هذا ؟

أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به . ونهيتكم عما نهيتكم عنه . حملتكم على المكروه الذى جعل الله عاقبته خيرا لكانت الوثق[2] التى لا تقلع ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أداوَى بكم وأنتم دائى !!

وخاطر[3] رجل أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو فى الخطبة فيسأله عن أمه . فقام إليه وقال : أيها الأمير من أمك ؟ ففطن عمرو إلى أنها مراهنة فقال له : هى النابغة بنت عبد الله . أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ . اشتراها عبد الله بن جدعان فوهبها للعاص بن وائل . فولدت فأنجبت . فإن كانوا جعلوا لك شيئا فخذه .

ومثل هذا ما حدث لآخر إذ قام عن مخاطرة (رهان) . فوضع يده على عجيزة معاوية وهو ساجد . فقال : ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند ! ففطن معاويه إلى أنها مخاطرة أيضًا . فلما سلم من صلاته قال له : يا ابن أخى إن أبا سفيان كان إلى ذلك

---

(١) راجع تفسير الآية : «يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم فى تفسير الطبرى أو أى تفسير مطول .

(٢) القوية المتينة . أى لكانت الحالة الحسنى .

(٣) راهن .

أميل ، فخذ ما جعلوا لك » وأغرى حلم معاوية هذا الرجل فخاطر ثانيا على أن يسأل زياد ابن أبيه ، فقال له وهو فوق المنبر :

أيها الأمير من أبوك .

قال زياد ــ وأشار إلى صاحب الشرطة هذا يخبرك . فقدمه فضرب عنقه ، فلما بلغ ذلك معاوية قال : ما قتله غيرى ، لو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية .

والذين كانوا يحلمون على مقاطعيهم ، كانوا بين اثنين : « رجل دين يعنيه أن يشرح موقفه ويعلم الناس ، ورجل سياسة يدرك غاية السائل ويرغب بحلمه عنه أن يكسب لنفسه سمعة حسنة » والكثيرون كانوا يضيقون بمن يقاطعهم . وكان الحكام يعاقبونهم . أو يهددون من يفعل مثلها . والذى يعنينا من هذا كله ألا يرتج على الخطيب أو يتلعثم ويرتبك .

وقد خطب أبو جعفر المنصور مرة ، فقال بعد افتتاح خطبته : أيها الناس اتقوا الله . فقاطعه أحد مستمعيه قائلا : أذكرك الله الذى ذكرتنا به يا أمير المؤمنين .

فأجابه أبو جعفر : سمعا لمن ذكّر بالله ، وأعوذ بالله أن أُذكّر به وأنساه فتأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ، وأما أنت فوا الله ما أردت بها وجه الله ، ولكن ليقال : قال فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت . وأنا أحذركم أيها الناس أختها . فإن الموعظة علينا نزلت ، ومنا أخذت ــ ثم رجع إلى موضعه من خطبته .

وجلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة ــ وكان يخطب جالسا [1] ــ فأطال حتى اصفرت الشمس ، فقام إليه رجل فقال : ياأمير المؤمنين إن الوقت لا ينتظرك ، وان الرب لا يعذرك ! قال صدقت ، ومن قال مثل مقالتك فلا ينبغى له أن يقوم مثل مقامك ، من ههنا من الحرس يضرب عنقه ؟ [2]

وخطب الحجاج مرة فشكا سوء الطاعة من أهل العراق . فقام إليه جامع المحاربى فقال : أما أنهم لو أحبوك لأطاعوك ، على أنهم ما شنئوك لنسبك ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع ما يباعدهم منك إلى ما يقربهم إليك ، والتمس العافية فيمن دونك تعطها

---

(١) هو أول من سن ذلك . وكان آخرون من بنى أمية يخطبون جلوسا . لأن معاوية أول من اتخذ منبرا عاليا . فكان ارتفاع المنبر يغنى عن الوقوف .

(٢) ينسب هذا الحادث للحجاج أيضا وهو به أليق .

ممن فوقك . وليكن إيقاعك[1] بعد وعيدك . ووعيدك بعد وعدك ـ فقال الحجاج : والله ما أرانى أرد بنى اللكيعة[2] إلى طاعتى إلا بالسيف ، ـ فقال : أيها الأمير : إن السيف إذا لاقى السيف ذهب الخيار . قال الحجاج : الخيار يومئذ لله . قال : أجل . ولكنك لا تدرى لمن يجعله الله . فقال : ياهناه[3] إنك من محارب . فقال جامع :

وللحرب سمينا وكنا محاربا ... إذا ماالقنا أمسى من الطعن أحمرا

فقال الحجاج : والله لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب به وجهك . فقال له : ياحجاج : إن صدقناك أغضبناك ، وإن كذبناك أغضبنا الله ، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله[4] .

***

(١) إنزال العقوبة .

(٢) اللكيعة الأمة اللئيمة . ويقال للرجل الدنىء والأحمق لكع ولكيع وألكع .

(٣) كلمة يكنى بها عن اسم الإنسان ـ والأصل أن يقال ياهنُ لمن لا يعرف اسمه . فاذا زيد الألف والهاء ـ بنى على ضم الهاء . وقد تكسر لا لتقاء الساكنين .

(٤) عيون الأخبار ٢١٢/٥ ـ وهى فى العقد الفريد وكثير من كتب الأدب مع اختلاف يسير .

تاريخ الخطابة قبل العرب

الخطـابة عبـر العصـور

الخطابة العربية هى التى تعنينا فى المقام الأول من هذا الحديث ، ولكن لا يكمل الحديث عنها إلا بالإلمام بفكرة عابرة عن الخطابة لدى الأمتين القديمتين أمة اليونان وأمة الرومان ، ذلك أن الثقافة الأدبية لهاتين الأمتين كانت هى الأساس الذى قامت عليه النهضة الحديثه فى أوروبا ، وشاعت عناصرها فى ثقافات البلاد الأوروبية كلها ، وانبثت فى برامج جامعاتها ـ انجليزية وفرنسية وألمانية ، وايطالية وغيرها ، ثم قيض لها أن تترك آثارًا كبيرة فى الشرق .

أما الثقافة اليونانية فكانت ولا تزال أساس الفكر الإنسانى فى مختلف جوانبه ، وقد بلغت ذروتها فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وظلت الثقافات كلها تتفرغ منها بالامتداد والتوليد والمعارضة ، حتى إن البحوث الذرية المستحدثة تجد لها جذورًا فى الفكر اليونانى ، وأما العهد الرومانى فكان امتدادا وتقليدًا للعهد اليونانى ، والتجديد فيه قليل جدا ، وكانت اللغة اليونانية تستعمل لغة رسمية فى كثير من البلاد فى العهد الرومانى ، ذلك أن الإسكندر المقدونى حين مد فتوحاته فى الشرق نشر معها فكر اليونان ولغتهم ، وكان يصحبه أستاذه أرسطو يلقى محاضراته ويمليها على طلابه وأنشأ الإسكندر عددا من المدن تحمل اسمه وتنسب إليه ، بقيت منها اسكندرية مصر . فلما حلت روما محل اليونان لم يكن من الهين عليها ولا فى اتجاهها أن تمحو اللغة اليونانية أو تزيل ثقافتها ، بل إن الفكر الرومانى لم يكن إلا صورة من الفكر اليونانى . ولكن حكم الرومان شمل مساحات من الأرض أوسع بكثير مما شمل حكم اليونان ، وامتد أيضا إلى زمن أطول ، وظهر فيه فلاسفة وكتاب وخطباء وساسة لا تزال أسماؤهم بارزة ولامعة فى التاريخ الإنسانى العام ، وكان فى ذلك كله مد للفكر اليونانى .

لهذا يعنى دارسو الأدب بدرس الفكر اليونانى والرومانى ، ونحن نعرض هنا معلومات عامة عارضة لاستكمال الحديث عن الخطابة .

الخطـابة عند اليونان

توطئة

قضت البلاد اليونانية ردحا طويلا من الزمن وهى قبائل مفككة تكاد كل قبيلة أو جماعة منها تكون مستقلة عن الأخرى ، وبينها تنافس وسباق على أسباب العيش ووسائل الحياة ، ولم تكن هذه القبائل ترجع إلى أصل واحد ، ولكنها أجناس شتى نزحت إلى هذه الجزر ولم يربط بينها إلا المجاورة واشتراك الأعمال . وخلال عدد من القرون ظلت هذه القبائل تتقارب ثم تتعاون وتتحد على نحو ما تصف إلياذة هوميروس . والإلياذة على ما يكسوها من خيال وتصورات وتعبيرات شعرية هى كتاب اليونان المقدس ، وكما يقوم العهد القديم بتسجيل تاريخ الإسرائيليين ، تقوم الإلياذه بتسجيل تاريخ اليونان .

ومن أحداث تاريخهم البارزة قيام التنافس بين أثينا وإسبرطة ، وقد اشتد هذا التنافس حتى أدى إلى حروب لم تنته إلا سنة ٤٠٤ ق م ، وكانت نهايتها هى استسلام أثينا وزعامة إسبرطة على البلاد اليونانية كلها . ولكنها لم تعمر طويلا فقامت مدينة طيبة مقامها سنة ٣٧١ ق م ، وهذه أيضا لم تعمر طويلا فانتهت سنة ٣٦٢ ق م . وكان ذلك بظهور فيليب المقدونى والد الاسكندر الأكبر ، فقد شن حربا على كل من طيبة وأثينا وهزمهما ، فانتقلت الزعامة إلى مقدونيا ، ولكنه مات سنة ٣٣٦ حين كان يستعد لغزو الفرس ، فقام ابنه الاسكندر بتحقيق كل ما كان لأبيه من آمال .

جال الاسكندر الأكبر فى أطراف الشرق الأوسط ما بين مصر وحدود الهند ، ثم مات فى بابل عام ٣٢٣ ق م ، وكان عمره ٣٣ عاما ، أى أنه حقق كل هذه الفتوحات فى نحو ثلاث عشرة سنة ، إذ هو تولى الحكم وعمره عشرون سنة .

من هذا نجد أمرين ظاهرين فى حياة اليونان : أولهما أن هذه البلاد وهى مهد العبقريات ومشرق الفلسفات ومنبت الفكر الإنسانى فى أنحاء العالم كله ، فشلت فى جانب سياسى عظيم ، وهو توحيد بلادها وجمع ولاياتها تحت تاج واحد . وثانيهما أنها تبعا لهذا الفشل قضت نحو ستة قرون فى حروب محلية بين قبائلها المختلفة ، ولم تحقق فى هذا المدى الطويل ما حققه الاسكندر فى زمن قصير.

والخطابة تنضج وتقوى عادة فى أيام الحروب والمشادات ، وقد اعتمدت الحروب اليونانية فى شتى مواقفها على الخطابة ، ولهذا ظهر هناك خطباء لن ينساهم التاريخ . من

هؤلاء «سولون» الأثيني ، وهو شريف وتاجر ثرى . ظهرت مهارته الخطابية فى حرب قامت بين «أثينا» و «مجارا» بسبب تنازعهما على امتلاك «سلاميس» . فقام هذا الرجل يستنفر قومه بالخطابة وبالشعر . فاستولى على قلوبهم وأثار حميتهم . وقد أحبه الشعب وأسلس له القياد ، وكان يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها . وهو إلى جانب خطابته الحربية مشرّع وصاحب منهج إصلاح . وقد توج أعماله بتنازله عن سلطاته الحكومية عندما تمت مشروعاته الإصلاحية . ولا تزال صور من خطبه محفوظة فى الآثار اليونانية . وهى تمتاز ببلاغتها وقوة تعبيرها وعمق معانيها .

ولما قام فيليب المقدونى بحركته السياسية . كان يريد أنَ يتحالف مع الأثينيين وأن يربط له بهم صداقة . ولكن الخطيب الشهير «ديموستثيس» كان ضد هذا الرأى . وضد فيليب . فشن بخطبه عليه حروبا لم تكن أقل من حرب الجيوش المسلحة . وخطبه هذه فى نظر المؤرخين من أبلغ ما خلف الإغريق من خطب ، كما أنها اتخذت نماذج يحتذيها الخطباء .

واذا نحن رجعنا إلى الإلياذة نجد الخطابة اتخذت فيها مكانة قوية . فهى ميزة من ميزات أبطالها . وهى التى أبرزت مشاعرهم وصورت أحاسيسهم . كما نجد الفلاسفة والمؤرخين اعتمدوا عليها فى إقناع الجماهير . مما يدل على أن الخطابة كانت ذات مكانة فى حياة اليونانيين وأخلاقهم .

وعندما سادت الديمقراطية بلاد اليونان . وشاعت الحرية السياسية . وأبيح لكل فرد أن يعلن رأيه ويدافع عنه . وأن يقترح على الحكومة ما يشاء نشطت الخطابة وشعر الأفراد بحاجتهم إليها . ونشأ بينهم معلمون يعلمون الخطابة والجدل ويدربون على حسن الحديث ومحاولة كسب الجولة فى تأييد رأيه . وظهرت طائفة السوفسطائيين يدربون على الجدل والمغالطة . وكان لعملهم لونان مختلفان أولهما إفساد المنطق والجنوح إلى إقناع الناس والحكام بأدلة كثيرا ما تكون مضللة ولكنها تستهوى السامعين . وثانى اللونين لعملهم أنهم شجعوا الخطابة وأشاعوها وجعلوها فنا مستقلا له قواعده وأصوله . وكان سقراط ــ والد الفلسفة ــ أول أمره واحدًا من السوفسطائيين ولكنه أنف من طريقتهم وأبغضها فأخذ على عاتقه أن يعلم الشباب المنطق وأن يربط بين النّتائج والمقدمات . واعتمد سقراط فى عمله على الحوار الهادىء وإلقاء الأسئلة الساذجة ، ثم اعتراضه على الإجابة ، حتى يهتدى الذى يحاوره إلى الإجابة السليمة ، وكان هذا الحوار نوعا آخر من الخطابة ، أثارها بين أتباعه وأتباع السوفسطائيين .

وخلال مائة عام أو من نحو سنة ٤٢٠ – إلى سنة ٣٢٠ ق م كانت الخطابة اليونانية فى قمة ازدهارها رواجًا وسموًّا وإتقانا . وتميزت بوضوح الأقسام الثلاثة التى سبقت وهى خطب المحافل . وأشهر أصحابها هو جورجياس الذى برع فى عدد من أنواعها . والخطب القضائية . وكان على محترفيها أن يجيدوا إعدادها وأن يلقنوها أصحابها من المتقاضين ، فكان هذا تعليما وإتقانا للخطابة . وأشهر القائمين بهذا العمل هو لوسياس الذى سنذكر ترجمة له .

وازدهرت الخطابة السياسية ازدهارًا أوسع إبَّان الصراع بين أثينا ومقدونيا . إذ انقسم الأثينيون على أنفسهم قسمين . قسما يؤيد قيام فيليب واعتباره يونانيا . وقسما يعارض استسلام أثينا لحكومته .

وهكذا سجّلت الخطابة اليونانية صور الحياة فى اليونان واتجاههم الفكرى كما سجلت بلاغتهم وسموّ أساليبهم .

أسباب رقى الخطابة اليونانية

نجمل أسباب رقى الخطابة وتقدمها عند اليونان فى الأسباب الآتية :

١ – ما ذكرناه من اتصال الحروب والمناوشات . وهى حالات تدعو إلى تأييد رأى وتفنيد رأى ، وتشجيع المحاربين وإثارة الجماهير ... وهكذا فهى مواقف تقوم على الخطابة وتعتمد عليها ، وكل ذلك يدعو إلى تجويد الخطابة وظهور الخطباء

٢ – فى الوقت الذى كانت أثينا فيه تعد نفسها إعدادا عسكريًّا بحتا . كانت إسبرطة مركزًا فنيًّا عامًّا . نشطت فيه التمثيليات والفنون والخطابة والأدب . والتمثيليات والمسارح ليست إلا منابر للخطابة – فكان فى كلتا المدينتين نهضة خطابية وتدريب على حسن الإلقاء

٣ – كان نظام اليونان السياسى مشجعا أيضا على الخطابة . فكانوا إذا عرض أمامهم رأى من الآراء قام صاحبه أو مؤيدوه بتقديم حججهم . وتوضيح الأسباب التى تدعو إلى تشريعه أو رفضه . فإذا انتهى الخطباء المؤيدون والمعارضون من خطبهم طلب من الحاضرين أن يعلنوا رأيهم . والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججه المنطقية ، فكان الخطباء يتبارون فى تنميق عباراتهم واختيار أساليبهم المجازية . وألفاظهم المؤثرة الجذابة كى يجتذبوا مشاعر الجماهير ويستميلوهم إليهم .

٤ ـ كان النظام القضائى يؤدى مثل ذلك أيضا . فقد كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيدون على المائة ، وبلغ أيضا عند الرومان نحو أربعمائة ـ وهذا العدد الكبير يجعل القضاة جمهورا ، ويجعل المحامين يسلكون سبيل التأثير فى عواطف القضاة ، ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية فكان ذلك مدعاة إلى نهضة الخطابة ، لأنها هى التى تحقق للمتقاضين ما يريدون .

يضاف إلى ذلك أن القضاة كانوا حكاما ومشرعين ، وليسوا فقط مطبقين للقانون الموضوع ، فإذا استمالهم المحامى باسم العدالة العامة والشفقة إلى شىء يخالف القانون عدلوا عن نص القانون ، ووضعوا تشريعا جديدًا ، أو سببا عامًّا للحكم الذى يريدون .

٥ ـ كان النظام اليونانى يقضى أن يدافع كل شخص عن نفسه ، ولم يكن لديهم نظام توكيل محام يقوم بمهمة المرافعة ، وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها ، وكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة وطرق التأثير فى عواطف السامعين والاستيلاء على مشاعرهم ، وكان الشبان يتعلمون الخطابة ويتدربون عليها استعدادا لما عسى أن يواجههم من مواقف السياسة والقضاء ، ونشأ عن هذا جماعة السوفسطائية الذين برعوا فى تغيير حقائق الأشياء ، وتحويل أذهان الناس إلى ما يريدون لا إلى ما تتطلب الحقائق ، وهؤلاء هم الذين حاربهم سقراط ، وعمل على تعليم الشباب المنطق والبحث عن حقائق الأشياء من أجلهم

هذا النظام كما هو واضح نظام سيئ فى جانبيه السياسى والقضائى . ولكنه شجع على تعلم الخطابة ورواجها . ومن خطباء اليونان الخالدين سولون الذى ذكرناه من قبل . ثم بريكليس ، وديموستنيس ، ونذكر كلمة عن كل منهما .

بريكليس Pericles

ولد بريكليس فى أثينا سنة ٤٩٠ ق م ، أو نحوها ، من أب سياسى مشهور له مواقف وطنية مشرفة . وتلقى ثقافته على مشهورى عصره . علمه زينون البلاغة ودربه على قوة الجدل وإدارة الحوار والتغلب على مناظريه ، كما تلقى الفلسفة عن الفيلسوف الكبير أناكسا جوراس ، كما أخذ بحظ كبير من الموسيقى والفنون الجميلة ، ونشأ بريكليس هادىء الطبع ميالا إلى التفكير العميق محبا للديمقراطية ، وذلك فيما يبدو من أثر درسه الفسلفة .

وقد شهد فى صباه ذلك الصراع العنيف بين أثينا وإسبرطه . كل تريد انتزاع زعامة البلاد لنفسها ، وبرز فى أثينا اتجاهان متضاربان أحدهما يدعو إلى مسالمة البلدين وتجنب الخصام ، وتزعم الدعوة لهذا الرأى خطيب سياسى يدعى سيمون "Cimon" أو كيمون ، وفريق آخر اعتنق الاتجاه المضاد ، وهو احتفاظ أثينا بالزعامة ولو أدى ذلك إلى إعلان الحرب والانغماس فيها ، وكان على رأس هذا الحزب تموستوكليس وفى عام ٤٧١ ق م هزم هذا الزعيم ، واقتضت هزيمته أن يبعد عن أثينا ، وقام مقامه بريكليس ، وأخذ يدعو إلى مبادىء حزبه ـ الحزب الديمقراطى ، فبهر الناس بخطابته وشعر سيمون رئيس الحزب الأرستوقراطى أنه أمام خصم أقوى من سابقه ، ومازال بريكليس يترقى فى حزبه حتى آلت إليه زعامته ، والتف الجمهور الأثينى حوله ، فصمد لخصمه عشرة أعوام أبعد كيمون بعدها عن أثينا أيضا .

امتدت زعامة بريكليس نحو ثلاثين عاما من ٤٦٠ ـ ٤٣٠ ق م ، وتعتبر هذه المدة من العصور الزاهية الجميلة فى أثينا ، لأن بريكليس متعها بنظم ديمقراطية مبتكرة كما أنهض الفنون الجميلة وبنى الأبنية الفخمة ، ومنها مبنى الأكروبوليس الذى لا يزال له آثار باقية إلى الآن ـ وهو معبد البار ثينون الذى زينه الفنان فيدياس برسومه الرائعة ، والمعبد على رأس جبل يؤمه الآن السياح ، وقد أقاموا خارجه تمثالا للآلهة أثينا وضعُوه على ارتفاع سبعين قدما ، وعلى مقربة من الأكروبوليس بنى مسرح كبير يسع ثلاثين ألف مشاهد . وفيه مثلت الروايات التى أبدعها مشهوروالشعراء اليونان مثل أسخيلوس ، وسوفوكليس وأريستوفان وغيرهم ممن لا يزال الأدب العالمى يحفل بأعمالهم . وهو مسرح ديونيسيوس ، أو الأوديون .

كان عصر بريكليس عصر فن وديمقراطية ، وكانت أسبرطه إذ ذاك تعد نفسها إعدادًا عسكريًّا ، فلما مات بريكليس انفرجت مسافة الخلف بين البلدين وجثت أثينا تحت أقدام خصومها . وكانت حياته بسبب قوته الشخصية والتفاف الناس حوله ستارًا يخفى حقيقة أثينا ، وكان له اهتمام بالبحرية ، وكان أسطوله الكبير يتجول فى بحر إيجه فيبهر سكان الجزر ويزيدهم تعلقا به ، ولكن يبدو أن أعماله البحرية كانت أيضا من نوع الفن والجمال ، دربت الشبان على السباحة والأعمال البحرية ، ولكن لم تكتسب مجدا حربيا .

ومهما يكن الأمر فقد كانت بلاغة بريكليس وقوته الخطابية من أهم أسباب نجاحه ، وقد أدت ديمقراطيته إلى ظهور خصوم مناوئين له ، فكانوا يطعنون جهارا فى سياسته ويتهمونه بتبديد أموال الأمة ، وكان هو بدوره يبادلهم الحجج ويناطحهم بالخطب

الطنانة التى كان يلقيها ، فيسحر بها سامعيه ويستهوى قلوبهم .

وتوجد الآن باللغة الانجليزية مجموعة من خطب بريكليس ، ولابد أن يكون فى اللغات الأخرى صور منها ، أو مجموعات غيرها ، وهى فى ترجمتها لا يمكن أن تنقل روح البلاغة الأصلية التى كتبت بها ، ولكنها تعكس جدلا منطقيا وروحا فلسفية تعتمد على المنطق وإقامة الدليل .

ومات بريكليس سنة ٤٢٩ ق م فى طاعون تفشى فى البلاد ، وذهب بعدد كبير من سكانها ، وذهب فيمن ذهب أخت لبريكليس وابناه ، ثم قضى عليه أيضا ـ وأحدث موته فراغا واسعا فى سياسة أثينا ، وانحطت درجة الخطابة بعده ، وقام مقامه عدد من صغار الخطباء والسياسيين أثبتت الأحداث فشلهم وضعفهم الفكرى والخطابى والسياسى .

ديموستنيس Demosthenes

ولد هذا الزعيم العظيم فى أثينا سنة ٣٨٤ ق م ، ومات سنة ٣٢٢ ق م . وهو من رجال السياسة والكفاح من أجل أثينا ، وساعده فى كل أعماله ما له من مقدرة خطابية ، وما امتاز به من لسن وبلاغة .

نشأ ديموستنيس يتيما ، ولكن يظهر أن يتمه ومعاناته منذ صغره . ووقوعه تحت ظلم أقاربه مما أنضج عوده ، ودربه على الاعتماد على نفسه أولا ثم حبه للكفاح والمعارك ثانيا ، وقد ترك له أبوه ثروة كبيرة اغتال أوصياؤه جانبا منها ، فلمّا شب وأدرك قاضى هؤلاء الأوصياء ليسترد حقوقه المغصوبة ، وظهرت براعته فى ميدان المحاماة كما ظهرت فى الميادين الأخرى .

مالت نفسه منذ صباه إلى الخطابة ، فأخذ يعد نفسه لها رغم ما كان به من عيب خلقى يحول دون نبوغه فيها ، فقد كان ألثغ ثقيل اللسان لا يكاد يبين حروفه ، وكان الناس يضحكون منه ويسخرون من خطابته ولكنه بذل جهدا كبيرا جدا فى تعويد لسانه على النطق والإبانة ، ومن محاولاته أنه كان يحبس نفسه الأيام والساعات الطويلة ، وهو يقرأ بصوت جهير ولهجة خطابية تصحبها الإشارات والانفعالات كأنه يخاطب جمهورا ، ونحا فى هذا منحى العرب ، فقد كان من يعتزم حفظ القرآن مثلا يقيد نفسه بالحديد

ويعتزل الناس ، وكان ديموستنيس يحلق نصف رأسه فلا يستطيع أن يبرز للناس فى هذه الحالة ، ومن محاولاته أيضا أنه كان يذهب إلى البحر ويضع فى فمه حصاة ، ثم يقف ليخطب محاولا إبراز حروفه وتجويد كلماتها رغم وجود الحصاة فى فمه ، وبهذا قاوم ما به من عيب خلقى ، وكان يتخيل الأمواج جموعا حاشدة تستمع إليه ، فيظل يخاطبها ويهيب بها أن تفعل كذا أو كذا ، وكل هذه المحاولات خلقت منه خطيبا كبيرا .

وهو فى فاتحة حياته درس القانون ودرس الخطابة . واتخذ منهما معا عونا له فى مقاضاة خصومه ، والدعوة إلى مذهبه السياسى .

وكان مذهبه السياسى يقوم على الدعوة أن تكون أثينا زعيمة البلاد اليونانية ، وأن تقوم زعامتها على العمل لنفع اليونانيين جميعا . ومرجع هذه النزعة لديه ولدى من سلكوا هذا المسلك قبله ترجع إلى التعصب للعنصر الأيونى الذى ينتمى إليه أهل أثينا ، بينما ينتمى أهل إسبرطه إلى الدوريين . وكانت أثينا بحق مهدا للديمقراطيه بينما كانت إسبرطة تتسم بالأرستقراطيه . أما سائر البلاد والجزر فكان سكانها من جنسيات أخرى ، وكانوا فى أغلب الأوقات مستقلين . وأحيانا ينضمون إلى إحدى المدينتين الكبيرتين ، ولكن لم يستهوهم أحد ما استواهم ديموستنيس .

عاصر ديموستنيس قيام فيليب المقدونى والد الإسكندر . وقد قدمنا أن فيليب كان يريد تحاشى الحروب . لكن ديموستنيس كان يرى أنه حاكم مستبد وأنه يريد فرض سلطانه على اليونانيين . كما يرى أن حكم المقدونيين حكم عنيف بعيد عن الديمقراطية والعدالة . وأن حكم اليونان هو الحكم الإنسانى العادل . وقد اعتمد كل من الرجلين فيما اعتمد على الخطابة . وكانت خطبهما أشبه بالنقائض . كل يدعو لفكرة ضد فكرة صاحبه . وكل يدعم رأيه بالأدلة ويدحض رأى صاحبه . وكان ديموستنيس يحرص على فيليب ويحذر من وقوع أثينا تحت يده . وتنازعا معا مدينة ثيبة كل يسعى لضمها إليه . فلما ذهب إليها ديموستنيس وجد أعوان فيليب قد سبقوه إليها ولفتوا أذهان الناس إليهم بخطبهم . ولكنه أظهر مهارة خطابية رائعة ردت سكان ثيبة إليه . ونجح فى مسعاه إذ انضمت لمدينة إلى أثينا . وأيد نصره الخطابى نصر آخر حربى هزم فيه فيليب وجيشه .

وخطبه فى كل هذه المحاولات تعرف باسم الخطب الفيليبية .

ولما تولى الاسكندر الأكبر مركز أبيه لم يثبت اليونان أمامه . فاختار ثمانية من الخطباء لقتلهم كان ديموستنيس أحدهم . وأظهر الإسكندر نبلا عظيما إذ عفا عنهم جميعا .

لكن ديموستنيس ظل على رأيه فى عداء الحكم المقدونى فلما مات الإسكندر قام هذا يدعو من جديد إلى معاداة المقدونيين . ولكن سياسته فشلت . وفقد مكانته فحكم عليه بالإعدام . ورأى هو أن يفلت من هذه العقوبة فتجرع السم ومات سنة ٣٢٢ ، ولكن خلدته آثاره الخطابية .

يعتبر ديموستنيس خطيب اليونان . كما يعتبر هو ميروس شاعرها ، وشخصية هوميروس غير مقطوع بوجودها . ولكن ديموستنيس مقطوع بوجوده . وأعماله حقائق تاريخية .

كان خطيبا سياسيًّا واجتماعيًّا . وخطيبا قضائيًّا ومعلم خطابة . وكان لخطبه ميزة خاصة هى فخامة الأسلوب واختيار الألفاظ مع بساطة الموضوعات والفكرة ، ولا تزال له آثار باقية . وتعتبر خطبه نماذج يحتذيها من يريدون إجادة الخطابة .

نهـاية ديموستنيـس

كان ديموستنيس شديد الاعتداد بوطنه . شديد التمسك بوطنيته . وعقب موت الإسكندر ، قام يحث المدن الإغريقيه على الاتحاد والتماسك . ثم حرب الفيليبين للتخلص من حكمهم ، واستطاع أن يثير شعور مواطنيه وهو فى غربته ، ولما عاد إلى أثينا استقبل استقبالا رائعا . وحفه موكب كبير من الميناء إلى المدينة . وقامت بذلك حرب تعرف بالحرب اللامية . فلاقت نجاحا أول أمرها ولكن القائد الفيليبي انتيباتر Antipaten أباد القوات الاغريقية فى موقعة كرانون Cranon وصدر أمر بقتل ديموستنيس . ولكنه هرب إلى معبد بوسيدون Posidon فى بعض الجزر ، وتابعه رسول من انتيباتر ليرده . فأخذ الرسول ــ وكان من الممثلين المسرحيين فأخذ يغريه ويمنيه . لكن ديموستنيس قال له : «إن وعودك لا يوثق بها» فعاد يهدده ، فأصر ديموستنيس على موقفه لأنه يدرك عاقبة استسلامه أسيرا لاعدائه ، فطلب من الرسول أن يمهله حتى يكتب بضعة سطور . ثم غافله وامتص سما كان فى طرف قلمه ، وأراح رأسه على يديه كما لو كان يفكر ــ ولما استحثه الرسول على النهوض معه قال له : لقد آن وقتك لتلعب دور كريون ــ Creon لترمى بجسدى دون أن تدفنه ، ثم أخذ يخاطب بوسيديون :

«أيها المعبود بوسيديون . اترك معبدك وأنا على قيد الحياة ولكن انتيباتر واتباعه

المقدونيين لم يتركوا حتى معبدك بدون تدنيس» ثم نهض ليقوم فسقط جثة هامدة على سلم المذبح وهكذا كانت الخطابة آخر ما فعل

آثاره الخطـــابية

ذهبت معظم آثاره الخطابية ، ولم يبق منها إلا أقل مما كان ينتظر ، وقد تضاربت الآراء فى مكانته الخطابية بين معاصريه ، وكان له معاصرون ينافسونه ويتفوقون عليه فى بعض الجوانب ، ويقاربون مكانته الخطابية العامة ، من أشهرهم فوكيون ، واسخينيس ، وكان لكل ميزته كما أن ديونوسيوس كانت له كتابات أشد نقاء وأبلغ تعبيرا من كتابات ديموستنيس ، وكان فوكيون أكثر تأثيرا ولكن تأثيره يرجع إلى شخصيته ومهابته ، وله قدرة على الإيجاز والتعبير على المعنى الواحد بطرق مختلفة عديدة ، وكان ديماسيس يرتجل خطبه ويؤدى بها تأثيرا أكثر منه وعلى أى حال حكم السابقون بأنه أمير الخطابة اليونانية ، وأثنى عليه الخطيب الرومانى شيشرون . وكل هؤلاء رأوا من آثاره الخطابية أصح وأكثر مما وصلنا .

هذا من ناحية مكانته ، أما من ناحية أمثلتها فهاك مثالا لإحدى خطبه المحرضة على فيليب ، وقد قالها فى موقف حرج كان الأثينيون فيه قد يئسوا من الحرب وركنوا إلى ملامسة هذا المحارب العنيف ومنها[1] :

«سادتى يجب علينا بادىء ذى بدء ألا نيأس من حالة شئوننا الحالية ، ولو أنها فى خطر ، لأن عظم ضعفنا فى الماضى سيكون قوتنا فى المستقبل

ماذا أعنى ؟

أعنى أنكم الآن فى متاعب ، لأنكم لم تظهروا عزيمة لعمل واجبكم ، وإذا ظلت الأمور كما هى – رغم ما يجب عليكم القيام به من مجهود شاق – فلا أمل فى التَّحسُّن ، أود أن تفكروا فى القوة التى كانت لإسبرطة منذ أمد بعيد ، والتى يتذكرها بعضكم ويسمع عنها بعضكم الآخر ، ومع ذلك فقد قمتم فى وجه تلك القوة بشرف ونبل ، ولم تحطوا من قدر مجد وطنكم ، فواجهتم الحرب غير هيابين ولا مترددين . لعدالة غرضكم ...

---

(١) ملخص من كتاب خطباء اليونان ترجمة د . أمين سلامة .

لو ظن أحدكم أن فيليب لا يقهر ، ناظرا إلى ضخامة القوات التى تحت تصرفه وإلى أن مدينتنا قد فقدت كل تلك الأماكن لكان محقا فى ظنه ، وكان اعتقاده يستند إلى أساس ، ولكن لينظر ذلك الشخص إلى أننا فى وقت ما كنا نملك «بودنا وميثونى و ...» وسائر تلك المقاطعة ، وأن كثيرا من القبائل الخاضعة له الآن كانت حرة مستقلة ، وكانت تفضل أن تكون تابعة لنا لا إلى مقدونيا .

لو أن فيليب كان قد شعر كما تشعرون .. أن محاربة أثينا أمر جليل ، لأنها تملك كثيرا من الحصون التى تشرف على مملكته ، عندما لم يكن له حلفاء ، لما فاز بأى انتصار ، ولما وصل إلى تلك القوة العظيمة التى ترتجفون منها الآن ، ولكنه رأى بوضوح أن هذه الأماكن ما هى إلا جوائز الحرب التى تمنح فى مسابقة حرة ، وأن أملاك من يتغيب عن سوق الوغى تذهب طبيعيا لمن يتقدم إلى الحرب طالبا أن يحصل عليها ، وأن من يرغب فى العمل بجد وفى المجازفة قد يحل محل من يهمل الفرص .

لا تظنوا أن فيليب إله آمن فى ممتلكاته إلى الأبد ، إن هناك رجالا يبغضونه ويخافونه ويحسدونه ، حتى بين أقرب خاصته ، وإنهم ليخفون هذا الشعور الآن لأنهم لا يجدون منفذا فى تباطئكم وإهمالكم ، فاخلعوا عنكم هذه العادة إذا ما سألت . متى تهبون من سباتكم وتقومون بواجبكم ، تقولون : سيكون ذلك عندما يحين وقت الضرورة ! ، وماذا تظنون فى الأزمة الحالية ؟ أعتقد أن أمة حرة لن تكون فى أعظم من الوقت الذى يكون سلوكها فيه مخجلا وعارا عليها .

خبّرونى ياسادة .. أتريدون أن تمضوا وقتكم فى ذرع الطريق يسأل بعضكم بعضا : هل هناك خبر جديد اليوم ؟ وأى خبر أخطر من أن أحد المقدونيين يسحق أثينا الآن ، ويملى سياسته على اليونانيين ، يقول أحدكم : فيليب ميت ، ويقول آخر : لا بل هو مريض ، وما الفرق بين الحالتين لكم ؟ إنه لو مات فيليب فإنكم سرعان ما تطلبون وجود فيليب آخر .. ليست قوته هى التى رفعته بقدر ما رفعه جمودكم .

هذا النموذج من خطب ديموستنيس يعكس مظهر حماسه وغيرته الوطنية ، ومن ناحية الصوغ الفنى للخطبة نجده قد بدأ يدعو قومه إلى عدم اليأس من إصلاح ما تعانيه البلاد من سوء . وهو بهذه البداية شجعهم واستمالهم إلى الاستماع إليه ثم انتقل فذكر الحال السيئة التى يعانونها ، ولم يشأ أن يطيل فى تصويرها لأنهم يحسونها ، وغرضه الأساسى من الخطبة هو إثارتهم وتشجيعهم على حرب فيليب ، وقد استبد هذا العنصر بالخطبة وسلك له عدة مسالك .

ذكرهم بما كان تحت أيديهم من مدن اليونان وقراها ، حملهم مسئولية ما حل ببلادهم ، وذكر أن تواكلهم وتوانيهم هو الذى هيأ لفيليب تقدمه ، ولبعث الأمل فى نفوسهم ذكرهم بانتصاراتهم على إسبرطة ، وهذا يعنى أنهم إذا هبوا فى وجه فيليب فإنهم سينالون هذا الانتصار ، ثم وازن بين إقدامه وتراخى اليونانيين ، وأنه لو كان على مثل شعورهم لتوانى وناله الكسل ، ولكن تكاسلهم شجعه فكانت هذه الممتلكات التى تحت يده جوائز شجاعته ، ثم نحا منحى آخر فأشعرهم أنه يعانى محاربة الأعداء وانقسام الأتباع ، مما يسهل مهمتهم ، ولكنهم لن يحققوا شيئا وهم متخاذلون ـ إن تقاعدهم هو الذى أسلم بلادهم لفيليب ، ولو لم يكن فيليب هو الذى امتلكهم لظهر شخص آخر مكانه لأن الأرض التى لا حامى لها يطمع فيها كل مالك .

والخطبة مليئة بتوبيخ الأثينيين ولكنها أيضا مليئة بصور التشجيع والإغراء .

لوســياس Lysias

فى بداية القرن الرابع قبل الميلاد كانت الخطابة اليونانية قد بلغت حد النضج ومهر خطباؤها ـ بفضل تعاليم السوفسطائية ـ إلى درجة بالغة فى التأثير ، ومقدرة رائعة على تصوير الحق فى صورة الباطل وإظهار الباطل فى صورة الحق . وقصة كوراكس مع تلميذه تبسياس مما يعطى صورة واضحة عن هذه السفسطة .

كان إيسوكرانيس قد كون لنفسه شهرة خطابية ، وأخذ التلاميذ يلجأون إليه يتعلمون منه ، والمتقاضون يطلبون منه إعداد خطب لهم ، بينما كان اندوكيس يؤلف أيضا خطبا لمن يطلب ، ولتبقى لاستعمالها فى الوقت المناسب ، وكان ايسيوس Lsaevs قد حبا إلى الشهرة ، وكان صغار الخطباء يتعلمون ممن فوقهم ويعلمون من دونهم . لهذا كانت سوق الخطابة أروج سوق وأنفقه .

فى هذا الجو نشأ لوسياس ، وتاريخ ميلاده بالضبط غير متفق عليه . ولكن اشتهر أنه ولد سنة ٤٥٩ ق م ، وعمر أكثر من ثمانين عاما . ولد فى أثينا ولكنه من أصل سيراكوزى ، وانتقل أبوه باغراء بريكليس إلى أثينا .

ونشأة لوسياس فى هذا العهد حببت إليه الديمقراطية ، وقد درس الخطابة والبلاغة على تسياس ـ أحد البلغاء البارزين ـ فتفوق فيما تعلمه ثم استعمل لسانه وخطبه فى نصر

الديمقراطية ، وقد عانى فى سبيل مبادئه كثيرا . حتى حكم عليه بالإعدام لكنه هرب . وفى منفاه عمل على تشجيع رفاقه دعاة الديمقراطية ، وعاش فترة طويلة يعد الخطب وأحيانا يلقيها ، فكان سياسيا وأديبا ، ولكن معظم خطبه بها فتور عظيم لأنها كانت تكتب ولم تكن ملقاة .

كانت خطبه بسيطة الأسلوب والتركيب ، وأكثرها تمثل فى عناصر أربعة المقدمة والعرض والبرهان والخاتمة ، وكما رأينا من قبل كان العرض والبرهان لديه يندمجان حتى يعسر أحيانا أن نفصل بينهما . لأن عرضه القضية لم يكن مجرد سرد ، بل كان يحوى تعليقات توضيحية قد تغنى عن الأدلة .

أما مقدمته فكانت عبارات موجزة تمت بصلة قوية إلى موضوعه . وكان الخطباء فى عصره يستعملون جملا خاصة لافتتاح الخطب ربما كررت فى العديد من خطبهم لكن لوسياس لم يكن كذلك ، فقد أثر عنه نحو مائتى خطبة ليس فيها مقدمة مكررة وكذلك كان شأنه فى ختام خطبه ، يلخص موضوعه ولا يعيد شيئا من ألفاظه مما يبرز مقدرته الكلامية ، وينسب إليه أربعمائة وخمس وعشرون خطبة ، ولكنها ليس مقطوعا بأنها كلها من عمله . ولكنها تدل على أنه من أثرى خطباء اليونان خطبا .

أما أسلوبه الخطابى فكان بسيطا مرنا كثير التلون أحيانا يستعمل عبارات مسجوعة وجملا متوازنة ، وأحيانا يستعمل كلاما مرسلا ، وربما أكثر من ذكر الجمل المعترضة . كل ذلك حسب الموضوعات التى يتعرض لها والجزئيات التى تعالجها خطبته ، ونظرا لأن مدار المرافعة فى هذا الوقت كان يتوقف على استمالة القضاة والتأثير فى مشاعرهم ، كان الأسلوب ذا أثر كبير فى نجاح الخطبة .

وقد ترك لوسياس خطبا مُنوعة توضح أسلوبه ومرونته ، وطرق مواجهته المواقف المتباينة ، ففى مرافعة أعدها للدفاع عن شاب أثينىّ عريق النسب حسن التربية ، يعترف بطموحه وبأنه ذو عاطفة مهذبة ، نجد لوسياس يجنح إلى جوانب فرعية ربما ليست وثيقة الصلة بموضوعه ، وهى حديثه عن أسرة الشاب وما لها من مآثر على الوطن العزيز ومنها :

فمن مثل هذه البيانات يجب إنصاف الرجل الطموح فى حد الاعتدال فى حياته العامة ، فلا ينبغى أن تمقتوا رجلا لأنه يصفف شعره على طراز حديث ، هذه عادات شخصية بحتة لا تؤذى أى فرد ، ولا تسبب أى ضرر للمجتمع ، كما أنكم تستفيدون ممن

يواجهون أعداءكم بمحض إرادتهم ، إنه ليس من العدل فى شيء أن تحبوا أو تكرهوا شخصا ما بسبب مظاهره الخارجية ، وإنما يحكم عليه بأعماله ، فكم من أشخاص قليلى الكلام كانوا مصدر متاعب وأضرار ، بينما كانت هناك فئات أخرى على عكس تلك السجايا قامت بخدمات جليلة للمجتمع .

كذلك هناك من حنقوا علىّ لأنى تجرأت على الحديث أمام الجمهور ، كنت فى نظرهم لا أزال غض الإهاب ، ولكننى أجبرت على الكلام عن أمور تخصنى ، وفوق ذلك فإنى بفطرتى طموح لدرجة كبيرة .

إن أجدادى لم يكفوا أبدًا عن خدمة الدولة ـ وصراحة أرى أن مثل هؤلاء وحدهم يجب أن يكونوا موضع تقديركم ، وطالما كانت هذه عقيدتكم فمن الذى يجرؤ على الدفاع عن الدولة بالقول والعمل ؟ ولم تغضبون على من يعمل ذلك ، وليس لأحد سواكم أن يحكم عليهم ، فأنتم وحدكم تملكون هذا الحق .

ومن خطب لوسياس الشهيرة خطبة أعدها للدفاع عن شاب مقعد كان يحصل على معونة من الحكومة ثم اتهم بأنه كان يدعى ادعاءات كاذبة للحصول على هذه المعونة . وفى هذه الخطبة تبدو روح السخرية والتهكم . ومنها :

«... شكرا للمدعى على تقديمى لهذه المحاكمة ، لم أكن حتى هذه الساعة أجد سببا به أتحدث عن حياتى ، وقد أتاح المدعى لى هذا السبب ، وسأبين فى حديثى مدى خطئه وكذب تهمته ، وأوضح لكم بالأدلة القاطعة أن حياتى تستحق كل عطف وثناء وإعجاب بدلا من الغيرة والأحقاد . لا أعتقد أن هناك سببا دفعه إلى تقديمى للمحاكمة إلا هذا السبب . سبب الحقد والحسد ، فما ظنكم بالخسة والحقارة التى يهوِى إليها من يحسد شخصا يشفق عليه ويرثى لحاله الناس جميعا .

طبيعى أنه لم يقم بالتبليغ عنى ليجنى من وراء ذلك أموالا ، وهو أيضا لا يقصد معاقبة عدوٍّ يريد أن ينتقم منه ، وإنما دفعه إلى ذلك سوء خلقه ، إذ لم يسبق أية معاملة معه .

واضح لكم من هذا أيها السادة أنه يغار منى فإننى على الرغم من عاهتى هذه ، مواطن شريف أحْسَنُ منه ، إن المرء المنكوب المصاب يعمل دائما كى يعوض عن نكباته الجسدية بسجايا عقلية حميدة ، ولو أبديت عقلية تتناسب وجسدى المنكوب الحظ .

وضعت حياتي تبعا لذلك لكنت شخصا سيئا مثله .. [وقد اتخذ من ركوبي ذريعة لاتهامي] .

وليس لدى كثير أقوله عن ركوبي الذى تجرأ على ذكره غير متخوف من الدهر ولا محترم لكم . فإني أعلم أن الذين يعملون تحت أى ضغط أو يتحملون أعمالا فوق طاقتهم يضطرون لتلمس لحظات للاستجمام ، ويتخيرون أحسن سبل التمتع بالراحة من عناء ما يتحملون . إنني واحد من هؤلاء ، وقد وجدت فى الركوب لأى مسافة شيئا من الراحة ، ولو كنت ميسور الحال لنشدت راحتى فى ركوب بغل بدلا من استعارة جواد . ولكن ما حيلتى وليس لدى ما اشترى به دابة ؟ فأنا مضطر دائما إلى استعارة جواد .

إني لأعجب من هذا الاتهام . يرانى استعمل عصوين وغيرى من العرج والأصحاء يمشي وبيده عصا واحدة ، فلا يرثى لى ولكن يتهمني بالترف والإسراف ، لأن الاغنياء وحدهم هم الذين يستطيعون شراء عصوين !!

وهكذا تمضي الخطبة تستعرض التهم واحدة بعد أخرى لتفندها وتردها . وتطلعنا هذه الخطبة على جانب من أخلاق الشعب الأثيني . ونوع القضايا التى كانت تقدم لهيئات التحكيم .

وهناك مثال آخر من خطبه يبدو فيه الأسلوب القصصى ، وهو حديث عن مقتل شخص ، وفيه يتحدث زوج عن تصرفات لزوجته :

وهكذا أيها السادة سارت الأمور حتى رجعت يوما من الريف على غير انتظار . وبعد تناولى غذائى كان الطفل يصرخ ويتململ . وكان الخادم يعاكسه قصدا كى يصرخ ويصيح لأن ـ إيراتوسنيس Eratosthenes كان بالمنزل ، ولم أعرف كل ذلك إلا فيما بعد ـ وقد طلبت من زوجتى ـ إذ ذاك ـ أن تذهب إلى الطفل لتطعمه وتمنعه من البكاء . ولكنها تباطأت متعللة باغتباطها بعودتى بعد غياب طويل ، ولما انتهرتها ثانيا محتما أن تقوم لمراعاة الطفل قالت : نعم ، سأذهب ، وسأدعك أنت والخادم وحدكما . لأنى أذكر ما حدث منك ذات ليلة وأنت سكران ! فضحكت .

وقامت زوجتى وهى تتظاهر بالمزاح فى إغلاقها الباب . ثم أوصدته من الخارج .

لم أكن أفكر فى شيء . ولم تدر أى شكوك بخاطرى ، بل سررت وذهبت إلى مضجعى ناشدا للراحة بعد العمل المضنى فى الريف طوال ذلك اليوم .

وفى الصباح الباكر عادت وفتحت الباب . ولما سألتها عن سبب إصادها الأبواب طوال الليل أجابت بأن المصباح المجاور لسرير الطفل انطفأ . فخرجت تبحث عن مصباح عند جارتها .

لم أجادلها لأنى كنت أظن كلامها عين الحقيقة . ولكنى أتذكر جيدا أن وجهها كان عليه مساحيق رغم موت أخيها من أقل من شهر . لم أسألها عن ذلك أيضا . ثم غادرت المنزل واتجهت إلى عملى» .

وهذه الخطبة ترينا جوانب من حياة اليونان فى ذلك الوقت . وعن شىء من زينة المرأة ومتى يجوز ذلك ومتى لا يجوز .

الخطـابة فى العهـد الرومـانى

لمحة تاريخية :

ترتبط حال الخطابة الرومانية بحال الحكم فى تلك البلاد . وقد نشأت الحكومة الرومانية فى روما ملكية مطلقة تستمد سلطانها من السماء . ومنذ سنة ٥٠٠ ق م تحولت إلى جمهورية . ولكن لم يكن لها امبراطور واحد . بل كان الشعب يختار حاكمين معًا . يحمل كل واحد منهما اسم القنصل . ومدة حكمهما لا تتجاوز العام الواحد . وكان يعاونهما مجلس من النبلاء والأشراف ذوى المناصب العالية فى الدولة . ويبلغ عدد هؤلاء نحو السبعين . ثم سمح بوجود ممثلين من الشعب أطلق على الواحد منهم اسم تربيون trileune . ولكن هؤلاء لم يزيدوا على عشرة أشخاص . ولما بدأت روما تتوسع فى فتوحاتها وتغزو الممتلكات اليونانية برز قائد كبير هو بومبى . الذى قضى على قراصنة البحر الأبيض المتوسط الذين كانوا يهددون تجارة روما . فاختاره الشعب ليكون الرئيس على البحر المتوسط وحيث أثبت نجاحًا وكفاية اختير رئيسًا على آسيا الصغرى . فمد فتوحاته إلى الفرات شرقًا . واستولى على سوريا فأخضع القسيس الأكبر فى القدس إلى سلطان روما . وكان ذلك نصرًا عظيمًا جدًّا . فاختاره الشعب رئيسًا على روما كلها وسمى الرئيس الأعظم .

وفى هذه الأيام ظهر ثرى موهوب هو يوليوس قيصر . كان ماهرًا فى قيادة الجيش

والحروب محبًّا للعدالة . له مقدرة على الخطابة قلما تمتع بها شخص آخر . وسرعان ما أصبح الحاكم المطلق فى الجهة التى هو بها . وكسب لايطاليا مجدًا كبيرًا جديدًا . ومع كثرة الأعمال التى قام بها . وجد متسعًا من الوقت ليكتب قائمة بأعماله المشرفة . وقدمها إلى مجلس النبلاء فى روما . فدل بهذا العمل على أنه كاتب بقدر ما هو خطيب . وسمى مذكراته « التفسيرات » وهى لا تزال إلى الآن من الكتب المشهورة فى أنحاء العالم . ويمتاز أسلوبها بالوضوح والبساطة . ويقرؤها الآن البادئون فى اللغة اللاتينية لتعلم هذه اللغة . كما يقرؤها المثقفون للدرس والسياسة والتاريخ . وعندما انتهت مدته طلب بومبى وقواد آخرون منه أن يسرح جيشه . ولكنه رفض . واتجه إلى روما فخافه بومبى وفر إلى اليونان ثم إلى مصر حيث قتل غيلة بها . ولكن يولبوس قيصر فى هذه المطاردة قابل الملكة كليوباترا ملكة مصر ـ فوقع فى غرامها وتزوجها . وذهبت معه إلى روما سنة ٤٥ ق م . حيث أقيم لها استقبال رائع عظيم . وأنجب منها ابنه قيصرون .

ومع هذا المجد الباذخ نمت أيضًا عداوات وأحقاد ضد القيْصر . واتهم اتهامات كثيرة وكان صديقاه بروتس Brutus وكاسيوس Cussius . هما اللذان قادا المكيدة ضده . وعقدا له مجلس محاكمة رهيب ظل الخطباء يذكرون أخطاءه ومظالمه حتى أثاروا عليه الناس فقتلوه . ودهش القيصر للطعنة القاتلة من يد بروتوس . فالتفت وقال : حتى أنت يا بروتس ؟

وكان من أصدقاء القيصر وقواده . انطونيو Mark Antony وأوكتافيو Octavian . فغضبا لمصرعه ووقف أنطونيو عند تشييع جثمانه فألقى خطابًا مثيرًا رهيبًا استفز به السامعين وأثار غضبتهم على قتلة القيصر ـ ثم طارد هو وأوكتافيو بروتس وكاسيوس إلى بلاد اليونان حيث ماتا منتحرين .

أصبحت السلطة الآن فى يد أنطونيو وأوكتافيو . ومع بقاء الدولة الواسعة الأطراف فى وحدتها كان أوكتافيو هو المختص بالأقاليم الغربية . وكان انطونيو هو المشرف على الشرق . ولكنه أيضًا كقيصر وقع فى حب كليوباترا . وكان زوجًا لأخت أوكتاف . فقامت بينهما معارك انتهت بنصر أوكتاف ودخول مصر فى قبضة الدولة الرومانية .

وفى وقت هذا النزاع ظهرت المسيحية . وتسللت ببطء إلى أعماق الدولة الرومانية الكبيرة . ولم يعبأ بها أباطرة الرومان أول الأمر . لكنهم فيما بعد لمسوا فيها خطرًا يهدد ملكهم ويزلزل عظمتهم . فصبوا جام غضبهم على المسيحيين وأذاقوهم ألوان العذاب . لكن الوثنية كانت قد فقدت سلطانها على نفوس الناس . وسئموا ماديتها الفارغة .

فأقبلوا على المسيحية رغم ألوان التعذيب التى انتابتهم . ولما جاء الامبراطور قسطنطين وجد المسيحية توشك أن تهز عرشه فقررها دين الدولة الرسمى . ثم أخذ يكره الناس عليها . وانعكست آيات التعذيب ، فعُذِّبَ الوثنيون وأُعْفِى المسيحيون . لكن المسيحيين ما لبثوا أن انقسموا . واختلفت آراؤهم فى المسيح فَسببوا لأنفسهم عذابًا آخر جديدًا . وظلوا كذلك حتى ظهر الإسلام فى الشرق واستولى على أطراف الأمبراطورية الرومانية فخلص رعاياها من هذا العذاب . إذ أباح لكل طائفة مسيحية أن تتبع المنهج الذى تريد . ولكل فرد أن ينتمى إلى أى فرقة .

هذه لمحة عابرة تبرز بعض الخطوط العريضة من تاريخ هذه الدولة ، لَمْ نَرَ بُدًّا من ذكرها قبل الحديث عن الخطابة فى هذا العهد .

الخطابة الرومانية :

قلنا من قبل إن الخطابة لا تنمو إلا تحتَ شمس الحرية . ولم تكن حياة الرومان ممتعة بحرية كافية . ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة كالتى أشرنا إليها من مواقف بروتوس وأنطونيو . ذلك أن الشدائد وأزمات الحياة تدعو إلى الخطابة وتظهر الخطباء . ــ واتخذ الكتاب والشعراء فيما بعد من موقف بروتوس من يوليوس قيصر ثم من موقف أنطونيو من بروتوس مجالاً لتمثيل سحر البيان وأثر الخطابة فى نفوس السامعين . ولعل تمثيلية شكسبير الخالدة من أبرع ما يمثل هذا الموقف العجيب . الذى تموجت فيه عواطف السامعين وحماساتهم ، مرة يغضبون عليه وأخرى يرضون عنه ويهجمون على قاتليه ، ولا تزال مرثية أنطونيو من الآثار الأدبية الرائعة ، وأشهر خطباء الرومان على الإطلاق هو شيشرون الذى نفرد له ترجمة وجيزة .

وفى العهد المسيحى ظهرت خطب دينية . وكان الموقف خليقًا أن يخرج خطباء ممتازين كبارًا ، ولكن المسيحية ظلت ــ كما ذكرنا ــ مكبوتة . فلما صارت ديانة رسمية انشقت على نفسها ، واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكى ، ولما ظهر هرقل بمذهبه الذى قام على وحدة الإرادة . والذى أراد به أن يوفق بين المذاهب المتضاربة كان قُصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهبًا آخر وكان بطشه وظلمه مما قتل الخطابة وكمم أفواه الخطباء .

شيشرون Cicero

هو ماركوس ثيولوس ـ عاش قرب نهاية الامبراطورية ـ وشارك فى الحياة السياسية وظل نجمًا لامعًا فى سماء الخطابة والسياسة والقضاء حتى قتل فى سنة ٤٣ ق م .

ولد شيشرون سنة ١٠٦ ق م . من أسرة ذات مال وثقافة ومحبة للفنون ، ودرس فى روما القانون والبلاغة والفلسفة والأدب اليونانى ـ وله فضل كبير على اللاتينية ، ذلك أنه استعملها ـ دون اليونانية فى كتابته ومرافعاته القضائية فأكبره الناس وقدروه وقلدوه .

كان محاميًا قديرًا ـ وكاتبًا أديبًا ـ وسياسيًّا لبقًا ماهرًا .

فقامت شهرته على عملين أدبيين له ـ هما رسائله ـ ومرافعاته القضائية .

كان له عدد من الأصدقاء خارج روما ـ فكان يكتب لهم رسائل مطولة تصف جميع أخبار روما وما يحدث بها ـ وكان يحشوها أحيانًا بالنكت والسخريات ، كما تصف حياة الناس الأدبية والكتب التى تظهر ـ وما يدور فى المجتمعات من أحاديث ـ وهذه الرسائل وإن لم تكن محل درس لمن يؤرخون الخطابة ـ تعكس مقدرة الكاتب البلاغية ـ ومدى ما كان يتصف به من ذكاء ودقة حس ، وهى جميعًا من مكوناته خطيبًا . وهذه الرسائل لا تزال محفوظة إلى الآن تعطى صورة حية عن حياة روما فى ذلك العهد .

أما خطبه القضائية فهى سبب شهرته ـ وهى التى هيأت له أن يكون قنصلاً فتولى هذا المنصب سنة ٦٣ ق م . وأول خطبة لفتت الأنظار إليه كانت خطبة قضائية ضد رجل من ذوى النفوذ ـ سوغ له شرهه المادى أن يلصق تهمة بأحد الأثرياء ليحكم عليه بالسجن ـ ومن ثم استولى على ممتلكاته بثمن زهيد يكاد يكون اسميًا فقط ، وتولى شيشرون الدفاع عنه ـ وكان يومئذ شابًّا لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره ـ فأبدى حماسًا رائعًا وبلاغة قوية وحججًا واضحة ـ مما أدهش السامعين والقضاة ـ فبرئ المتهم وأعيدت إليه ثروته .

وله موقف آخر شبيه بهذا حين كان فى الثلاثين من عمره ـ ذلك أن والى صقلية من قبل روما وكان يدعى فيريس Verres أسرف فى ظلم السكان ونهب أموالهم ـ فاختاروا شيشرون كى يدافع عنهم ـ فأخذ يصور حال السكان وما يعانونه من ظلم الحكام الرومانيين واستهانتهم بهم ما رقق القلوب وهاج عواطف الرحمة لهؤلاء المحكومين

المساكين . كما أبرز حكام الرومان فى حالة من الخجل والاستحياء من سوء تصرفاتهم . وقد أغضبت خطبه هذه معارضيه من الأحزاب الأخرى ، ولكنها رغم غضبهم ارتقت به ليكون قنصلاً . ولقب قنصل هو أرقى المناصب الرومانية ، وكان لقب الامبراطور يطلق على قواد الجيش . ولم يتخذ لقبًا للحاكم الأعلى إلا منذ عهد أو كتاف ـ (أغسطس) .

وبعد مصرع القيصر قام شيشرون بخطب كثيرة ضد انطونيو وأوكتافيو . فأثار عداوتهما ضده . فلما آل إليهما الحكم قررا إعدامه فقتل سنة ٤٣ ق م .

كان شيشرون فيلسوفًا . ومحبًّا للعلم والاستزادة منه . فكان أثناء خلو حزبه من الحكم يعكف على القراءة والكتابة ويستزيد من درس الفلسفة . وقد غادر روما مرة لمدة عامين طاف خلالها بآسيا الصغرى وأثينا وبعض الجزر . وعمق دراسته الفلسفية فى أثينا . وله مقالات فلسفية كثيرة . منها مقالات فى الشيخوخة . والصداقة . والواجب . ورسالة فى طبيعة الآلهة . وأخرى فى «النهاية الحقة للإنسان» .

وترجمت آثاره إلى كثير من اللغات . أما خطبه القضائية ضد فيريس . فلا تزال إلى الآن مثالاً يحتذى من حيث جودة الأسلوب . ورصانة التعبير وقوة الحجة وترتيب الأفكار .

وإذا كان فرجيل أعظم شاعر أنجبته «رُوما» فى هذا العهد . وشيشرون أعظم خطيب ، فإنا قد نرجح كفة شيشرون لسبب واضح جدًّا . وهو أن فرجيل كان صدى لهوميروس . وملحمته الكبيرة «الإنياد» ليست إلا صورة من ملحمة هوميروس «الالياذة» ولا يبقى له إلا تعبيره وبلاغته . أما شيشرون فيبدو نسيجا وحده كما يبدو اعتماده على ثقافته وتفكيره الخاص .

وهو فى نظر المؤرخين خطيب وكاتب وأديب أكبر منه سياسيًّا . وصفة الخطابة على أى حال سياسية أو قضائية هى أبرز صفاته .

ومما يفرق به بين اليونان والرومان ، أن اليونان أمة فلسفة وأدب وفنون . أما الرومان فكانوا دولة سياسة وقوانين ، وكانوا يعتمدون على التراث اليونانى فى الفلسفة والآداب . ولهذا يقول المؤرخون : إن اليونانيين غزوا الرومان فكريًّا حين غزاهم الرومان عسكريًّا . وأجمل مواقف الخطابة الرومانية هو ذلك الموقف الذى نشأ بعد مقتل يوليوس قيصر . وقد ألممنا بصورة منه .

خطبة هانيبال

أيها الجنود إنى لا أدرى إذا كان الحظ لكم أو لمن فى أيديكم من الأسرى فقد شد بكم الوثاق ، وحمت الحاجات ، فعن اليمين وعن الشمال بحران يكتنفانكم وليست لديكم سفينة واحدة تهرعون إليها ، ومن بين أيديكم نهر يو ، وهو أعرض وأسرع جريانا من الرون ، ومن خلفكم جبال الألب تلك الجبال التى لم تستطيعوا اقتحامها إلا بشق الأنفس حتى فى أيام وفرة عددكم ، فهيا أيها الجيوش ، فليس أمامكم إلا الفناء والنصر على الأعداء يوم لقائكم لهم .

لا تيأسوا فإن تلك القدرة الإلـهية التى ألقت بكم فى هذا المأزق الحرج الذى يرغمكم على القتال ، هى عينها التى أعدت لكم على مَرْأى منكم نعيمًا عظيمًا ليكون لكم أجرًا على انتصاركم ، وجزاء لا يرجو أعظم منه إنسان من الله الباقى .

إننا إن لم نستطع ببأسكم وحميتكم إلا أن نعيد إلى حوزتنا صقلية وسردينية اللتين سلبهما العدو من آبائكم سلبا كان ذلك جزاء وفاقا لا يستهان به ولكن أين هاتان مما لكم من ثروة رومة الطائلة ، وأموالها المكدسة وغنائمها التى سلبتها من الأمم الأخرى . ؟ كل هذه ستكون فى حوزتكم .

إنى أربأ بكم أيها القوم . أن تتصوروا أن الانتصار صعب المنال ، أو تعتقدوا كما يعتقد الناس أن إعلان حرب على رومة أمر عظيم له وقع فى النفوس فلتعلموا أنه كثيرًا ما تغلب جيش مستصغر على عدو مستعظم ، وصمد له فى معارك أريقت فيها الدماء ، وحصدت فيها الرءوس ، وكم ثلت عروش فخمة وأفنيت أمم عريقة فى المجد على أيدى جيوش قليلة العدد .

ولكنكم لو جردتم رومة من اسمها الفخم البراق وصيتها الذائع فما الذى يبقى لديهم مما تستطيع أن تقف به أمامكم وتنافسكم فى قوتكم وبأسكم .

الخطابة عند العرب

الخطابة العربية أهم ما يعنينا فى هذا الحديث ، والخطابة الإسلامية أهم ما يعنينا من الخطابة العربية ، ذلك لأننا نريد بكل هذه الدراسة أن نتدرب حتى نكون خطباء إسلاميين ، وقد قدمنا فيما سبق أن الخطابة تقوى فى المواقف الجادة ، مثل مواقف الحروب ، وقضايا الجرائم الكبرى ، والمعارضات البرلمانية ، وهى فى كل مواقفها تحتاج إلى الحرية التى تسمح للخطيب أن يفضى بذات نفسه ويعلن كل ما فى صدره ، فإذا كبتت الحرية ضعفت الخطابة .

ونستعرض هنا مواقف الخطابة من أقدم عصورها لتبيين خصائصها فى كل عصر ، وليكون لنا من درسها عون على ما نريد من تكوين ملكة خطابية ، ومقدرة فنية لدى الدارسين .

أولاً : الخطابة فى العصر الجاهلى

مما لا جدال فيه أن العرب الجاهليين كانت لهم خطب قوية ، وأنهم اعتمدوا عليها فى مواقفهم الهامة ، واستعملوها فى مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم ، وقد ذهب الكثير جدًّا من هذه الخطب مع الزمن ، وحفظ لنا التاريخ قليلاً جدًّا منها كما حفظ أسماء خطباء كانوا مشهورين ولم يبق من خطبهم شيء ، ذلك لفشو الأمية وبعد الزمن ، وقد كانت أسباب الخطابة متوفرة لعرب الجاهلية ، فهم ممتعون بحرية قلما توفرت لغيرهم ، ولهم مقدرة قوية على الحديث وتشقيق الكلام ، واللغة العربية ذات نغم يثير المتكلم والسامع ، ويبعث الخطيب على الاستمرار فى حديثه ، ولهذا كانت لهم مقدرة على الارتجال ومواجهة الموضوع الذى يطرأ من غير أن يكونوا قد أعدوا له حديثًا ، ومع ذلك تأتى على لسانهم العبارات البليغة والحكم الصائبة ، قال الجاحظ : فما هو إلا أن يصرف [العربى] همه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد فتأتيه المعانى أرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا »[1] ، ولا يعنى هذا أن كل خطبهم كان مرتجلا .

وللخطابة الجاهلية مواقف كثيرة ، أهمها ما ذكرنا من اجتماع القوم للتشاور فى أمر من أمورهم كالقيام بحرب ، أو الإصلاح بين متنازعين ، ويأتى فى هذه المواقف خطب ومحاورات ، ويتبع ذلك الوصايا التى يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم لقومه ، أو لأولاده ، وفى أسواقهم كانت تقوم بينهم المنافرات والمفاخرات ، ويتعالى كل شخص أو قبيلة على الآخر ، وكانت هذه تتناول كل شيء حتى إن الخنساء وهند بنت عتبة تنافرتا فى المصائب ، وكل ادعت أنها أصيبت أكثر من الأخرى ، وهذه المواقف تظهر قوة البديهة العربية ، والقدرة البالغة على الارتجال . وأكثر ما نجد فى هذه الخطب أو الوصايا اتسامها بقصر الجمل ، وسرد الحكم ، حتى تكاد تنقطع الصلة بين جملة وأخرى ، وهى فى جملتها خلاصة تجاربهم وخبرتهم بشئون الناس ، وأحداث الحياة ، وليس فى حكمهم معان فلسفية عميقة ، لقلة ثقافتهم وعدم دراستهم ، ولكن لهم نظرات صائبة وآراء حكيمة لا نزال نحتاج إليها ونستعين بها فيما يطرأ لنا من أحداث ومواقف تشبه

---

(١) البيان والتبيين ٢٨/٣ . وأرسالا أى جماعات . وتنثال أى تسيل وتتوالى .

ما طرأ لهم ، وكثيرًا ما يأتى السجع فى عباراتهم عفوا فإن لم تكن العبارة مسجوعة . كانت الجمل مقسمة متوازنة ، وخطب الأعراب وأدعيتهم من أبلغ وأجمل ما فى أساليب اللغة العربية .

وخطب الجاهليين وأدعيتهم ومحاوراتهم ووصاياهم . كلها مما يستعين به الخطيب الحديث ، ويجد فيها مددًا واسعًا بالرأى والفكر ، وبالتعبير والبلاغة . ونورد بعضًا منها للدرس والاستشهاد ، وعلى الراغبين أن يرجعوا إلى المصادر الأخرى ليجدوا مددًا أوسع ، وغذاء أوفى وأدسم .

صفات الخطيب وعادة الخطباء العرب

كان للخطباء فى الجاهلية سمات وعادات استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام ، ولا يزال الكثير منها موجودًا إلى الآن . ذلك أن أغراض الخطابة ، والوسائل المؤدية إلى الإقناع لا تتغير إلا قليلاً .

وقد كان من عادات الخطباء أن يقفوا على شىء مرتفع أو نشز من الأرض ، ليشرف الخطيب على مستمعيه ، فيروا شخصه حين يسمعون كلامه ، وليستطيع الخطيب أن يضم إلى كلامه الخطابى إشارات اليد وانفعالات الوجه وحركات الجسم ، فيكون ذلك أعون على التأثير والاستمالة ، وفى المواقف الحاشدة ، والمجامع الكبيرة يخطبون على ظهور رواحلهم ، وقد خطب رسول الله (ﷺ) فى حجة الوداع بعرفة وهو راكب ناقته القصواء ، وكان تحت عنقها ربيعة بن أمية بن خلف يعيد قول رسول الله (ﷺ) ويصرخ به لكثرة المشاهدين وبُعْدِ الذين فى أطراف الجمع عنه (ﷺ) . وفى الحالات العادية يكون الخطيب واقفًا ، إلا فى خطب الإملاك فإنه يتحدث وهو جالس ، ذلك لعدم كثرة السامعين ولأن المراد من الخطبة هو الإخبار بالزواج وتزكيته ، وليس ثم موضع للإقناع والاستمالة ، كذلك كان يلوث[1] عمامته ، ولا تكون سوداء اللون إلا فى حالات المطالبة بالثأر ، وقد خرج امرؤ القيس إلى وفد أسد الذين قدموا عليه بعد مقتل أبيه ، وهو يعتم بعمامة سوداء ، وكان فيهم عبيد بن الأبرص ، وقبيصة بن نعيم ، كذلك كان

---

(١) يلف ويكور .

الخطيب يعتمد على شيء فى يده ، عصا أو مخصرة أو قناة [1] ، وقد يستعمل ما يعتمد عليه منها للإشارة للإيحاء ، وقوة التأثير فى السامعين ، واستعمال العصا ونحوها مستحب أيضًا فى الخطبة الإسلامية ، وهو كذلك مما يستأنس الخطيب ويحول بينه وبين العبث بيده ، ويستحسن فى الخطيب أيضًا أن يكون نظيف الثوب حسن البزة ، جهير الصوت هادئًا فى عباراته ، وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل شريف النفس ، لأن ذلك يجعله أكثر تأثيرًا ، ويجعل السامعين أكثر قبولا لكلامه ، كما آثروا أن يكون مقتنعا بكلامه عاملاً به ، ومعظم هذه الصفات مما أيده الإسلام ، وقد قال على بن أبى طالب : من نصب نفسه للناس إماما فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تعليمه بسيرته قبل تعليمه بلسانه ، ووقف زياد ابن أبيه يخطب فأعجب الناس حتى قال عمرو بن العاص : ؟؟ «لله در هذا الفتى ، لو كان من قريش لساق الناس بعصاه» فهو لم يحط منه إلا خسة نسبه ولو كان كريم الأصل لساق الناس» .

وكانوا يمدحون فى الخطيب أن يكون ثابت الجنان هادىء المظهر قليل التلفت قليل التنحنح أو العبث بلحيته ، أو مس جبينه ، فهم يعدون ذلك من أسباب غياب الكلام والعجز عن متابعة الخطبة ، كما عابوا التلعثم والارتباك ، وقطع الجمل قبل تمامها ، وإسكان الكلمات فى غير مواضع الوقف .

أما تعبيراتهم فقد تكون مسجوعة وقد تكون مرسلة متوازنة الجمل ، وكانوا لمقدرتهم الخطابية وطواعية اللغة لهم يأتيهم السجع عفوا ،

ومن أقدم الخطباء المشهورين كعب بن لؤى الجد السابع لرسول الله (ﷺ) ، وقد كان يخطب العرب فى الشئون المختلفة ، ويحث كنانة على البر وأعمال الخير ، وكان مهيبا مسموع الكلمة ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به وظلوا يتخذونه تاريخا حتى عام الفيل فأرخوا به حتى كانت الهجرة النبوية ، فاتخذها عمر بن الخطاب مبدأ لتاريخ المسلمين ،

ومن مشهوريهم بعد ذلك قيس به خارجة بن سنان خطيب داحس والغبراء [2] وفى

---

(1) المخصرة : السوط . والقناة الرمح .

(2) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس . راهن بهما حذيفة بن بدر ليسابق فرسيه الخطار والحنفاء . وقد سبقت الغبراء فردها كمين كانت فزارة قد أعدته . فتخلفت ، وقامت بذلك حرب بين عبس وفزارة ، ثم امتدت إلى حرب بين عبس وذبيان ، وقصص هذا الحادث طويل يحسن أن ترجع إليه فى كتب الأدب .

هذه الموقعة اشتهر خويلد بن عمرو الغطفانى بخطبه فى حرب الفجار[1] ، وقس بن ساعدة الإيادى[2] خطيب عكاظ ، وأكثم بن صيفى[3] ، والحارث بن عباد[4] . وقيس بن مسعود[5] .

خطبة المأمون الحارثى[6]

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم وفكر طويلا ثم قال :

«أرعونى أسماعكم واصغوا إلى بقلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد : طمح[7] بالأهواء الأشر[8] وران على القلوب الكدر[9] .... إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وقمر تطلعه النحور[10] وتمحقه أدبار الشهور[11] ، وعاجز مثر ، وحول[12] مكد ، وشاب محتضر[13]

---

(١) حرب نشبت بين قريش وهوازن ـ سميت بذلك لأنهم تفاجروا فيها ، وكانت فى الأشهر الحرم ، وقد شهدها رسول الله (ﷺ) ـ وكان ينبل على أعمامه فيها ، أى يقدم لهم النبل .

(٢) أشهر خطباء العرب الجاهليين على الاطلاق ، كان يدين بالتوحيد ويؤمن بالبعث ، ويدعو إلى نبذ عبادة الأوثان ، يقال إنه أول من قال : «أما بعد» ، وأول من اتكأ على عصا أو نحوها ، وكان حسن الألفاظ واضح العبارة ، وكان الناس يتحاكمون إليه ويرضون حكومته ، وهو القائل : «البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر» تلك العبارة التى رضيها الإسلام وأقرها .

(٣) من الخطباء البلغاء المولعين بسرد الحكم وضرب الأمثال ، أوفده النعمان بن المنذر رئيسا على وفد من الخطباء إلى كسرى ، فأعجب به ، وقال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكان ذلك كافيا لهم ، وخطبته أمام كسرى مليئة بالحكم والأمثال .

(٤) من الخطباء البلغاء له مواقف محمودة فى حرب داحس والغبراء ، وله فيها شعر جيد أيضا وهو من قبيلة بكر .

(٥) قيس بن مسعود بكرى أيضا ، من الخطباء ومن الأجواد الكرماء ، كانت العرب جميعا تقر له بالفضل واالسيادة ، كان له حظيرة بها مائة من الإبل مخصصة للأضياف تقيد واحدة منها للنحر ، فاذا نحرت قيدت أخرى ـ وهؤلاء جميعا شرفاء كرماء تدل مواقفهم على أن العرب كانت تتأثر بمكانة الخطيب الاجتماعية .

(٦) يروى المأمور الحارثى بالراء أيضا ، (٧) طمح ذهب ، والطماح ككتاب ، التشوز والجموح ،

(٨) الكبر والبطر . (٩) ران : غطى ، والكدر الغيم والكدرة .

(١٠) نحر النهار والشهر أوله ، يريد قمر تطلعه أوائل الشهور . (١١) تمحوه أواخر الشهور ، فينحل ثم يختفى ،

(١٢) الحول : الشديد الاحتيال اى الذى يحاول محاولات كثيرة ، يقال حوّل بالتشديد وبفتح الواو كصرد وحوله يكون الواو وفتحها . ومكد : فقير لا مال معه .

(١٣) محتضر بالحاء حضرته الوفاة ، وبالخاء المعجمة : ميت فى فتوته ، يقال اختضر الشخص . اذا مات فى شبابه .

ويفن قد غبر (١). وراحلون لا يؤوبون . وموقوفون لا يفترون ، ومطر يرسل بقدر . فيحيي البشر . ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر الأيرّ[٢] فيصدع المدر عن أفنان الخضر . فيحيي الأنام . ويشبع السوام[٣] وينمى الأنعام ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر . البارئ المصور ، ياأيها العقول النافرة[٤] . والقلوب النائرة[٥] . أنى تؤفكون[٦] . وعن أى سبيل تعمهون[٧] ، وفى أى حيرة تهيمون . وإلى أى غاية توفضون[٨] . لوكشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين[٩] ، وأفاق من نشوة الجهالة من استولت عليه الضلالة .

خطبة قس بن ساعدة[١٠]

لقس بن ساعدة خطبة مشهورة سمعها منه رسول الله (ﷺ) وهو يخطبها فى سوق عكاظ . وأعادها أمامه رجل من إياد ، فاكتسبت بذلك شهرة ، وهى أيضا من الخطب المبشرة بظهور الإسلام

قدم وفد إياد على رسول الله (ﷺ) عام الوفود . فسألهم عن قس فقالوا : مات ، فقال كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق[١١] . وهو يتكلم بكلام

---

(١) اليفن : الشيخ المسن . . وغبر عاش وبقى ، يقال غبر بمعنى مات وعاش .

(٢) الصلب الشديد .

(٣) الماشية التى تسام وترعى .

(٤) الجامحة التى لا تريد أن تأنس وتفكر .

(٥) أى ذات النائرة . والنائرة العداوة أو هو وصف بالمصدر مثل زيد عدل .

(٦) إلى أى اتجاه ينصرفون . من أفك يأفك .

(٧) من عمه بمعنى تحير . يعجب كيف يتحيرون فى البحث عن الطريق الحق وهو واضح أمامهم .

(٨) تسرعون من أوفض .

(٩) صرح عنه . تكشف عنه . اى لو فكرتم لا نكشف الشك وتجلى اليقين .

(١٠) تقدمت ترجمة له .

(١١) أبيض فى سمرة ـ رمادى .

عليه حلاوة ما أجدنى أحفظه . فقال رجل من الوفود أنا أحفظه . قال (ﷺ) : كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول :

«أيها الناس : اسمعو وعوا . من عاش مات . ومن مات فات[1] وكل ما هو آت آت[2] . ليل داج[3] ونهار ساج[4] . وسماء ذات أبراج[5] . ونجوم تزهر[6] . وبحار تزخر[7] . وجبال مرساة . وأرض مدحاة[8] . وأنهار مجراة . إن فى السماء لخبرا[9] . وإن فى الأرض لعبرا[10] . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون . أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا . يقسم قس بالله قسما لا إثم فيه إن لله دينا هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر منكرا . ثم أنشأ يقول :

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى الىّ ... ولا من الباقين غابر[11]
أيقنت أنى لا محا ... له حيث صار القوم صائر

وقد جاءت هذه الخطبة بروايات تزيد وتنقص . والذى ذكرناه هو ما جاء فى صبح الأعشى . وفى رواية الأغانى[12] ـ بعد «ونجوم تزهر» ! «وضوء وظلام . وبر آثام .

(١) ذهب ولا يعود .

(٢) ماهو مقدر لا مفر منه .

(٣) مظلم .

(٤) ساكن منتشر .

(٥) البرج صورة من مجموعه كواكب تشبه صورة حيوان أو غيره . ويسميها الفلكيون بأسماء أشكالها . فيقولون برج الجدى والثور والحوت والدلو.... والأبراج اثنا عشر برجا تقابلها الشمس على طول السنة . ويظهر أن قسا يتحدث عن النجوم بوجه عام .

(٦) تضىء .

(٧) مليئة بالماء تطمى به وترتفع .

(٨) مبسوطة والفعل ثلاثى واسم المفعول منه مدحو . وجاءت الكلمة مدحاة لمشاكلة أخواتها .

(٩) دليلا على خالق عظيم .

(١٠) عظات وخبرات .

(١١) مقيم يريد أن الناس يذهبون للموت ولا يرجعون .

(١٢) انظر صبح الأعشى ج١ ص ٢١١ واللآلئ المصنوعة ٩٥/١ والأغانى .

ومطعم ومشرب وملبس ومركب - مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون .... وإله قس ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أو انه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه » .

ثم أورد الشعر الذى سبق .

ترى ما مدى هذه الخطبة من الصحة[1] . ؟ لسنا بصدد التحقيق فيما أورده بعض الباحثين المحدثين من وضع كل هذه الخطب الجاهلية موضع الإنكار . وليس فقط مجرد الشك . فإن لم تكن هذه الخطبة صحيحة ، فإنا لا يغيب عنا أنه فى أواخر العصر الجاهلى كان الناس قد سئموا عبادة الأوثان ، وكرهوا الاحتفاء بها ، وقد اجتمعت مرة تحتفى بالالهة العزى بنخلة ، فانحاز منهم زيد بن عمرو ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش وورقة بن نوفل ، فقالوا : « تعلموا - والله - ما قومكم على شىء وانهم لنى ضلال ، فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع .... التمسوا لكم دينا غير هذا الدين الذى أنتم عليه » .

وتميل النفس إلى أن هذه الخطبة وخطبة المأمون الحارثى ، والخطبة التى تنسب لكعب لؤى ... كلها من الخطب التى وضعت فى العصر الإسلامى تأييدا للدعوة الإسلامية ، وعلى فرض انتحال كل هذه الخطب نجد فيها سمات الخطب الجاهلية ، لأن واضعها تحرى جهده أن يجعلها مشابهة لطريقتهم حتى تجوز على الناس ، واختلاف روايات الخطب دليل على أنها زيد فيها ، وليست الخطبة الواحدة من صنع شخص واحد .

وخطبة كعب بن لؤى تجرى على نسق الخطبتين السابقتين وهى :

« اسمعوا وعوا ، وتعلموا تعلموا ، وتفهموا تفهموا ، ليل ساج ، ونهار ضاج[2] ، الأرض مهاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين كل ذلك إلى بلاء ، فصلوا أرحامكم وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ، أو ميتا نشر ، الدار أمامكم والظن خلاف ما تقولون ، زينوا حرمكم وعظموه ، وتمسكوا به ولا تفارقوه ، فسيأتى

---

(١) نكرها الكثيرون ، وقد جاء أن الذين سئلوا عن قس هم وفد عبد القيس ، فهذا يجعل السؤال غريبا ، إذهم ربعيون لا إيا ديون ، ويقال إنه كان فى نجران .

(٢) ضاج بالجيم محفف ضاجّ - اسم فاعل من ضجّ ، أى نهار ملىء بالعمل والحركة .

له نبأ عظيم ، وسيخرج منه نبي كريم ثم قال أربعة أبيات من الشعر منها :

تهاويل ليل واختلاف حوادث　　سواء علينا حلوها ومريرها
على غفلة يأتي النبي محمد　　فيخبر أخبارا صدوقا خبيرها

وهي ظاهرة الوضع ، ولا تحتاج إلى تفنيد .

من خطبة أكثم بن صيفي أمام كسرى

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكهم ، وأفضل الملوك أعمها نفعا ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة والكذب مهواة[1] ، والشر لجاجة[2] ، والحزم مركب صعب[3] ، والعجز مركب وطيء . آفة الرأي الهوى ، والعجز مفتاح الفقر[4] ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي[5] ، من فسدت بطانته[6] كان كالغاص بالماء[7] ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البريء ، المرء يعجز لا المحالة[8] ، أفضل الأولاد البررة ، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل[9] ، حسبك من

---

(١) سبب للسقوط والفشل .

(٢) يريد أصل الشر هي اللجاجة - وهي تماحك الخصمين وتماديهما .

(٣) الأخذ بالحزم والحكمة أمر صعب لا يتأتى لكل شخص .

(٤) يريد بالعجز عدم الاحتيال .

(٥) الراعي الصالح لا يستطيع إصلاح الرعية الفاسدة - ولكن الرعية الصالحة تحمل الحاكم على الصلاح - وهذا رأي أكثم - ويؤخذ على إجماله - وربما يريد انه أسهل .

(٦) حاشيته ومخالطوه .

(٧) كمن يشرق بالماء - والغصة : وقوف الطعام في الحلق . ومن غص بشيء أزال غصته بالماء - ومن غص بالماء كان أمره عسيرا .

(٨) المحالة الحيله والمحاولة .

(٩) مايكفيك في سفرك حتى تصل إلى موطنك ـ ينصح بالقناعة .

شر سماعه[١] - الصمت حكم[٢] وقليل فاعله - البلاغة الإيجاز - من شدد نفر[٣] ومن تراخى[٤] تألف .

ومن خطبه المشهورة خطبة له يدعو بها قومه إلى الاسلام ، وينصحهم باتباع نبيه - وذلك أنه لما ظهرت دعوة الإسلام بعث أكثم ابناله يدعى حبيشا فأتاه بخبره وموقف قومه منه وما يدعوهم إليه ، فدعا أكثم قومه فى جمع ثم دعاهم إلى اتباع دعوة الإسلام ولكن مع هدا لم يقطع الرواة بإسلامه - ومما قاله لقومه فى هذا الموقف :

«يابنى تميم : لا تحضرونى سفيها[٥] - فإنه من يسمع يخل[٦] ، ان السفيه يوهن من فوقه ، ويثبط من دونه - لا خير فيمن لا عقل له ، كبرت سنى ودخلتنى ذلة[٧] - فاذا رأيتم منى حسنا فاقبلوه ، وان رأيتم غير ذلك فقومونى استقم . ان ابنى شافه هذا الرجل وأتانى بخبره - وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى - وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه - وأن الرأى ترك ما ينهى عنه ، إن أحق الناس بمعونه محمد (ﷺ) ومساعدته على أمره أنتم ، فإن يكن الذى يدعو إليه حقا فهو لكم دون الناس وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه وبالستر عليه - وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته - وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبل ، وسمى ابنه محمدًا ، فكونوا فى أمره أولا - ولا تكونوا آخرًا - ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين - إن الذى يدعو إليه محمد (ﷺ) لو لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس حسنا - أطيعونى واتبعوا أمرى - أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبدًا ، وأصبحتم أعز حى فى العرب - وأكثرهم عددا - وأوسعهم دارا ، فانى أرى أمرا لا يجتنبه عزيز إلا ذل - ولا يلزمه ذليل إلا عز - إن الأول لم يدع للآخر شيئا ، وهذا أمر له ما بعده -

---

(١) الإنصات إلى الشرشر - وهو قدر كاف - فلا يجوز المشاركة فيه بالعمل .

(٢) حكمة .

(٣) من تشدّد نفر الناس منه .

(٤) تهاون وتبسط .

(٥) السفيه ضعيف العقل والتفكير .

(٦) من يسمع كلام السفيه يظنه حقا .

(٧) وهن وضعف .

من سبق إليه غمر المعالى واقتدى به التالى . العزيمة حزم والاختلاف عجز .

فقال مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم

فقال أكثم : ويل للشجى من الخلى . والهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى .

وموقف مالك معروف فى الإسلام .

ثانيا : ـ الخطابة فى صدر الإسلام

قلنا من قبل إن الخطابة دون الشعر يعتمد عليها فى المواقف الجادة ، لأن الشعر ترف وإثارة عواطف ، والانقلابات الكبيرة فى التاريخ كما رأينا فى الأمه اليونانية والأمة الرومانية . تعتمد على الخطباء اللُّسْن ذوى المقاول الصارمة والكلام القوى المؤثر ، والخطباء دون الشعراء هم الذين يستطيعون أن يشرحوا المبادىء التى يدعون إليها ، ويقيمون عليها الأدلة حتى يقنعوا الناس بها ، وميدان الخطابة واسع يشارك فيه كل مستمع ، ويحاور الخطيب ، أما الشعر فله أشخاص معينون رزقوا موهبة الشعر ، وقد يهيج الشعراءُ مستمعيهم لأمر ما من غير أن يكون لديهم أى تفكير أو بحث عميق فيما أثيروا من أجله .

وقد كان ظهور الإسلام والدعوة لمبادئه أمرًا خطيرًا فى حياة العرب لم يقف أثره عند ترك عبادة الأوثان ، وإخلاص العبادة لله وحده ، بل غير عاداتهم ونظام حياتهم ، بما فرض عليهم من سلوك معين ، وبما حرم عليهم من عادات ألفوها ومرنوا عليها سنين طويلة . فهو قد محا الفوارق بين الناس ، وسوى بينهم جميعا فى الحقوق العامة ، وكان هذا أمرًا خطيرًا لدى العرب ، كما حرّم عليهم الخمر والزنى ، ولم يكن ذلك أمرًا هينا بينهم ، حتى أن الأعشى الشاعر لم يصده عن الإسلام إلا تحريمه الخمر . وبنو هذيل حين أسلموا طلبوا من رسول الله (ﷺ) أن يبيح لهم الزنى ، وحرم الإسلام الهجاء ونهش الأعراض ولم يقبل المدح المسرف المبالغ فيه ، وقد كانت هذه كلها أغراضا للشعر الجاهلى ، لذلك هدأ صوت الشعر وقل نشاطه بظهور الإسلام ، وقامت الخطابة بعبء تبليغ الرسالة وشرح مبادىء الإسلام ، وكان ذلك سببا قويا فى نهضة الخطابة وظهور عدد كبير من الخطباء ذوى اللَّسَنِ ، الذين أثروا اللغة العربية بخطبهم وما أثر عنهم من كلام بليغ ، ومحاورات مقنعة ، وحكم قاطعة وأمثال سائرة .

جعل الاسلام الخطبة فرضا فى صلاة الجمعة ، وهذا يعنى أن المسلم يسمع خطبة مرة فى كل أسبوع على الأقل ، وأن يكون فى كل مسجد خطيب يلقى خطبة فى كل أسبوع . والخطبة سلاح الداعية الإسلامى فى كل مناسبة يدعو إلى الإسلام فيها . وهى مشروعة فى العيدين ويوم الحج الأكبر وفى الدعوة إلى الحرب أو السلم ثم هى كذلك فى حفلات الزواج والإعراس وتولية الحكومات وولايات العهد ، وكان مبلغو دعوة الإسلام

والمعلمون الموفدون إلى أطراف الجزيرة أو الجهات النائية عن مُقام الرسول يعتمدون عليها فى شرح فكرة الإسلام وتحبيب الناس فيه ، واستعملها رسول الله (ﷺ) وهو بمكة لإعلان قومه برسالته ، وواجه بها القبائل فى مواسم الحج ، وهكذا كانت الخطابة أول سلاح استعمله الإسلام لإعلان مبادئه والدعوة إليها .

وكان الذين يدخلون الإسلام يدخلونه عن اقتناع ورغبة ، ومحبة وعاطفة ، وكان حبهم الإسلام وتقديرهم نعمة الله عليهم به ، يحملهم تلقائيا على الدعوة إليه . ويستعينون على ذلك بالخطابة ، فكان المحيط الإسلامى كله مدرسة خطابية ، قويت فيها الخطابة وكثر الخطباء .

وكان عصر الرسول كله عصر جهاد ودعوة ، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى ، بدا موقف خطابى عظيم فيمن يتولى الخلافة بعده . وقد ذكرنا صورة موجزة منه فيما سبق ، ثم ارتد معظم العرب ومنعوا الزكاة ، وقام بين المرتدين خطباء يدعون إلى الثبات على الإسلام ، كما فعل سهيل بن عمرو فى مكة ، وعثمان بن أبى العاص فى الطائف ، ونجد لأبى بكر مجالس شورى يتناوب فيها هو والصحابة الرأى ، من ذلك جمعهُ الصحابة واستشارتهم فيما يفعل إزاء المرتدين ، وبعد انتهاء هذه الحروب جمعهم أيضا ليستشيرهم فى غزو الروم ، وهى مواقف شبيهة بمواقف رسول الله (ﷺ) واستشارته الصحابة يوم بدر ، ثم استشارته إياهم فيما يفعل بالأسرى بعد نهاية المعركة ، وكذلك استشارتهم يوم أحد ، وهذه المواقف الاستشارية من مواقف الديمقراطية ، ومظهر من مظاهر حرية الرأى التى تنشط فيها الخطابة وتقوى .

وكان عهد عمر فى جملته استمرارا لعهد أبى بكر ، وقد مات أبو بكر وهو يأسف أن لم يكن أرسل عمر بن الخطاب غازيا فى الشام إذ أرسل خالد بن الوليد غازيا فى العراق فيكون قد بسط يديه كلتيهما فى سبيل الله ، أما عمر فقد جاء وقد مهدت السبيل للغزو فاستطاع أن يبسط يديه كلتيهما فى سبيل الله ، ولم يجد فى عهده ما يزيد الخطابة نشاطا ، وظل الأمر كذلك فى السنوات الأولى من خلافة عثمان ، وبدءا من السنة السابعة من حكمه بدأ الناس ينقدونه جهارا ، ثم كانت الفتنة الكبرى بمقتله ، ثم انقسام المسلمين بعد بيعة على بن أبى طالب ، وخروج بنى أمية عليه بقيادة معاوية ، وبعد موقعة صفين وحادث التحكيم انقسم المسلمون إلى شيعة يناصرون عليا ، وأبرزهم أهل العراق ، وإلى

أمويين يناصرون معاوية وأبرزهم أهل الشام ثم إلى خوارج . وأكثرهم بدو وعرب خلص ، وهؤلاء اشتهروا بقوة إيمانهم وشجاعتهم النادرة . وتميزت خطبهم بميزات القوة والبلاغة ، وظلوا شوكة دامية فى جانب بنى أمية طول ما حكمت . واستنفدوا جهدًا كبيرًا من طاقة المهلب بن أبى صفرة فلما جاءت الدولة العباسية صادفتهم . وقد فلت قواهم فاستطاعت القضاء عليهم .

وفى عهد الدولة الأموية ظهر عدد من المناوئين للخلفاء ، فبعد مقتل على ظهر ابنه الحسن ثم الحسين . ثم أبناؤهما . كما ظهر عبد الله بن الزبير وكان خصما قويا خليقا أن يقوض العرش الأموى ويقضى عليه ، لولا ضنه بالمال وقصور سياسته عن استئلاف الناس به . وكان خطيبا مفوها . وكان مصعب أخوه خطيبا أيضا ، ثم ظهر المختار الثقفى والأشعث الكندى . ثم دعاة الدولة العباسية أمثال أبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى . وأئمة الدعوة . وكل أولئك كانوا خطباء أقوياء . وبجانب أولئك جميعا نجد الولاة أمثال زياد وابنه والحجاج . قتيبة بن مسلم وخالد بن عبد الله القسرى ، ويوسف ابن عمر الفهرى . ونصر بن سيار وكلهم خطباء بلغاء ـ وكذلك كان خلفاء بنى أمية ـ معاوية ويزيد وعبد الملك وابنه سليمان وهشام .. وهكذا نجد العهد الأموى كله عهد خطابة ، لكن هذا العهد أنهض الشعر أيضا بما أباح للشعراء من أغراض الشعر التى كانت محرمة عليهم . وبسخاء الأمويين لهم بالمال والعطايا .

واستمرت فى هذا العصر أنواع الخطابة الأخرى من المناظرات والمحاورات والوصايا . ونشط القصص ، ووعظ النساك . ووعظ الأعراب ، وهذا النوع لم يكن رائجا من قبل ، لأن البدو أسلموا بآخرة من الناس ولم يكن لهم ما للحضريين من حظ التفقه فى الإسلام . فلما استكملوا حظّهم منه صاغوا عظاتهم فى عبارات حكيمة ، وجمل بليغة رائعة ساعدهم عليها فصاحة ألسنتهم ، وفطرتهم على البلاغة وإجادة التعبير .

مميزات الخطابة فى هذا العهد :

امتازت الخطابة فى أول العهد الإسلامى بنبل مقاصدها وسمو أغراضها وتنزهها عن الأغراض الشخصية ، فهى كانت دائما قائمة على الدعوة إلى الإسلام واتباع مبادئه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتطهير النفوس من الأحقاد والاتجاه بالأعمال إلى الله

وحده . فلما كان العهد الأموى وانقسام المسلمين ظهر فى الخطابة عنصر السياسة ، وتفضيل فريق من ظلاب الحكم على الآخرين ، ولكنها مع هذا ظلت تكتسى برود الإسلام ، فكل يحاجّ الآخر باسم الإسلام ويستشهد بآى القرآن ، وبرز غرض الجهاد والتحريض عليه أكثر من أى غرض آخر ، برز فى معارك على ومعاوية ، ثم ظل نغمة مستمرة على ألسنة الخوارج بمختلف فرقهم ، ولعل الخطبة الداعية إلى الجهاد لم تبلغ فى موقف من المواقف ما بلغته خطب الخوارج ، خصوصا فى إثارتها النفوس وترغيبها فى ثواب الله وتزيينها الجنة وما بها من نعيم وتخويفها من جهنم وما بها من عذاب أليم ، وهذا العنصر من أهم ما ميز الخطبة الإسلامية عن الخطبة الجاهلية ، فالخطبة الجاهلية تدعو للقتال حمية وحفاظا على القبيلة وسمعة أبنائها ، وهذه تدعو للحرب حفاظا على مبادىء الإسلام وترغيبا فى ثواب الله ، والفرق بين المقصدين بعيد فى دلالته ومغزاه .

أما من ناحية الأسلوب فقد تطورت الخطبة أيضا . أصبح لها منذ عهد رسول الله (ﷺ) بداية خاصة هى حمد الله تعالى والثناء عليه ، وذكر الشهادتين ، وقد مر بك أن خطبة زياد التى لم يبدأها بالحمد سميت البتراء ، وسموا الخطبة التى لا تذكر فيها الشهادة جذماء ، والتى لا تزين بالصلاة على النبى شوهاء[١] . ولكن يظهر أن هذه التسميات لم تكن شائعة ولا قاعدة عامة ، وإنما وصفت بها بعض الخطب ، وقال ابن قتيبة : تتبعت خطب رسول الله (ﷺ) فوجدت أوائل أكثرها :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ونتوكل عليه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له » ، ووجدت فى بعضها : « أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته » ، ... ثم قال : ووجدت كل خطبة مفتاحها الحمد إلا خطبة العيد ، فإن مفتاحها التكبير ، وتكبير الإمام قبل أن ينزل عن المنبر أربع عشرة تكبيرة »[٢] .

واتخذت الخطبة كذلك ختاما إسلاميا يعرف به أنها قد انتهت ، وهذا الختام كان معروفا عند خطباء الجاهلية إذ كان الخطيب يكرر الجملة الأخيرة أو جملة معينة خاصة به فيعرف السامعون أن الخطبة قد انتهت . أما هذا الختام الإسلامى فهو ذكر عبارة مما جاء

---

(١) انظر العقد ٦/٣٤

(٢) عيون الأخبار ٢٣١ .

به الدين ، كأن يقول الخطيب : أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم ، أو قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله ، أو يذكر دعاء من أدعية رسول الله (ﷺ) ومأثوراته ، أو يذكر آية قرآنية . فهذه كلها من مظاهر الختام الإسلامى .

وكان أبو بكر رضى الله عنه ـ يختم خطبة الجمعة بقوله : اللهم اجعل خيرزمانى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك ، وكان عمر يكثر أن يقول فى ختام خطبته : «اللهم لا تدعنى فى غمرة ، ولا تأخذنى على غرة ، ولا تجعلنى من الغافلين . وكان عبد الملك بن مروان يقول فى آخر خطبته : «اللهم إن ذنوبى قد عظمت وجلت أن تحصى ، وهى صغيرة فى جنب عفوك فاعف عنى» . وأكثر الخطباء يقولون أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، أو يقولون : قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله . وكلها كلمات إسلامية .

«ومع أن كثيرا من خطب النبى والخلفاء بعده لم تشتمل على آيات قرآنيه كان الناس فى العهد الأموى يعتبرون الخطبة الخالية من آيات القرآن الكريم ناقصة ، وقد خطب عمران بن حطان ـ وهو من خطباء الخوارج وشعرائهم عند زياد خطبة أتقنها جهده وأجادها ، ثم مر بقوم فإذا بينهم شيخ يقول : «هذا الفتى أخطب العرب لو كان فى خطبته شىء من القرآن»[1] ولم يكن تضمين الآيات القرآنية والاستشهاد بها خاصا بالخطب الدينية كخطب الحج والجمعة والعيدين ... بل كانت خطب المحافل والحروب ، وما إليها كلها تحوى آيات قرآنية .

أما الاستشهاد بأبيات الشعر فكان شائعا ، وخطبة الحجاج بالكوفة مليئة بأبيات الشعر وبالرجز ، ولكن لم يكن ذلك كثيرا فى خطب الخلفاء والولاة ، اذ نجد أكثرها خاليا من الشعر .

وفيما عدا هذه الصور التقليدية لان أسلوب الخطبة ، ولم تعد تشتمل على الألفاظ الشديدة الكثيرة ، وسر ذلك فيما يبدو أن الخطب أصبحت غالبا بلغة قريش ، ومن كلام الحضريين ، وفى العصر الجاهلى كانت خطب قريش غير كزة ولا شديدة ، وإنما كان ذلك فى كلام الأعراب النائين ، واستفادت الخطبة الإسلامية من أسلوب القرآن والحديث النبوى ، وكانت تحوى غالبا آيات من القرآن للاستشهاد بها أو لإكساب الكلام زينة ورونقا ، خصوصا الخطب التى تلقى فى عقود الزواج وأيام الحفل الجامعة ،

---

(١) البيان والتبين .

«فإن ذلك ـ كما يقول الجاحظ ـ مما يكسب الكلام البهاء والوقار والرقة وحسن الموقع»[1]، وفى هذا المقام تقدم الحضريون الذين يحفظون القرآن على الأعراب الذين لا يحفظونه [انظر الملحقة ٢].

ولم تنبت الخطبة الإسلامية نهائيا عن الخطبة الجاهلية، فبقى بها كثير من خصائصها من جزالة الألفاظ، وإن قل غريبها، ومن الاستشهاد بأبيات الشعر، وظلت الخطبة قصيرة إلا ما اقتضاه المقام من الطول، وقد جاء هذا فى الخطبة الجاهلية والاسلامية، ففى الجاهلية يذكرون خطبة لقيس بن خارجه بن سنان قالها فى حرب داحس والغبراء، ضرب بها الجاحظ المثل فى الطول[2] وقيل لقيس ما عندك فأجاب: عندى قرى كل نازل، ورضا كل ساخط وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب، آمر فيها بالتواصل، وأنهى فيها عن التقاطع، قالوا: فخطب يوما إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولا معنى، وسئل بعض البلغاء لم لم يكتف بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع، اذ الأمر بالصلة نهى عن القطيعة، فقال: ان الكناية والتعريض لا يعملان فى العقول عمل الإفصاح والكشف[3]، وفى الإسلام روى أن سحبان وائل خطب أمام معاوية من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر، ما تنحنح ولا سعل، ولا توقف ولا تلكأ ولا ابتدأ فى معنى وخرج منه وقد بقى منه شىء، حتى دهش الحاضرون.

هذا الطول الطارىء لم يكن متبعا دائما، وإنما كانت تقتضيه ظروف خاصة، وخُطَبُ النبى (ﷺ) وخلفائه وأيضا من بعدهم ليست بهذا الطول ولا تعد طويلة، وخطب على والخوارج ذات طول نسبى ولكنها ليست طويلة، سوى خطب معينة للإمام ينتابها كثير من الشك.

وكانوا يستحسنون فى الخطبة أن تكون قصيرة كيلا تنسى، وأوصى أبو بكر يزيد بن أبى سفيان حين أرسله إلى الشام فقال: واذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا، ونورد من أمثلة للخطبة الإسلامية خطبة الوداع.

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/١١٨

(٢) انظر الحيوان ٦/١٦١، والأغانى ٧/١٤٢، والعقد الفريد ٣/٣١٣.

(٣) انظر البيان والتبيين ١/١١٧

خطبة النبى (ﷺ) فى حجة الوداع[1]

الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوبُ إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هاديَ له . وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته ، واستفتح بالذى هو خير ، .

أما بعد .

أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم[2] إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا[3] .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب[4] ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السدانة والسقاية ، والعَمْدُ قَوَد ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس : إنما النسيء[5] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا

---

(١) هذه الخطبة جاءت فى مصادر كثيرة ، واختلفت بعض الاختلاف فى فقرات كثيرة منها وانظرها فى الطبرى ١٦٨/٣ ، وابن أبى الحديد ٣١/١ ، والعقد الفريد وكتب السيرة .

(٢) حرام عليكم سفك الدماء ، واغتصاب الأموال ، وكان ذلك يفعل فى الجاهلية .

(٣) تأكيد للحرمة ، لانهم كانوا فى يوم عرفة ، وهو يوم حرام ، وفى بلد حرام ، وفى شهر ذى الحجة ، وكذلك جملة : ألاهل بلغت اللهم فاشهد من زيادة التوكيد .

(٤) كان مسترضعا فى بنى ليث ، وقتلته هذيل ، وقد أسقط رسول الله (ﷺ) ثارات الجاهلية ، وأسقط المطالبة بثأر عامر ومعنى وضع الربا أو الدم أنه لا يطالب به .

(٥) كان العرب إذا دخل الشهر الحرام الذى لا يجوز فيه القتال ، وهم فى حرب لا يقطعون حربهم ، بل يحلون الشهر ويستمرون فى حربهم ثم يحرمون شهرًا آخر بعده ، فهذا هو النسيء ، وقد ترتب عليه اضطراب الشهور ووقوعها فى غير موقعها الحقيقى .

ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله . فيحلوا ما حرم الله . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض[١] . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن ألا يوطِئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذِنَ لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح[٢] ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف[٣] . وإنما النساء عندكم عوان[٤] لا يملكن لأنفسهن شيئا » أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيرا .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلمٍ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه[٥] .

ألاَ هل بلغت اللهم فاشهد .

فلا ترجعُنَّ بعدى كفارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله وسنتى .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب . إن

---

(١) أصبحت الشهور فى وضعها الحقيقى . فلا يجوز تغيرها .

(٢) عقوبات أبيحت للزوج طبقا للخطأ الذى ترتكبه الزوجة .

(٣) من غير إرهاق لكم ومشقة عليكم .

(٤) جمع عانية بمعنى أسيرة . المرأة بخضوعها لزوجها وإمارته على البيت تشبه الأسيرة . فأوصى رسول الله (ﷺ) أن نرفق بها .

(٥) تأكيد على ما نهى عنه من عادات الجاهلية التى كان الرجل القوى يستبيح الاستيلاء على مال الضعيف بغير حق . وهذا كما فى قوله تعالى : «لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل» .

أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى .

ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

فليبلغ الشاهد منكم الغائب

أيها الناس . إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث . فلا يجوز لوارث وصية ، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر[1] ، من ادعى لغير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل منه صرف ولا عدل[2] .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

هذه الخطبة من الخطب الجامعة لأنها حوت تعاليم كثيرة هامة . وهى آخر خطبة جامعة لرسول الله (ﷺ) ، وتبدو صرامتها فى أنه (ﷺ) طبقها على ذويه قبل أن يطبقها على الآخرين ، فبدأ بوضع ربا العباس عمه ، وقد ضاع بهذا على العباس مال كثير ولكن حسبه أن كان له رأس ماله ، كما وضع دم ابن عمه ربيعة بن الحرث ـ والحرث أكثر أبناء عبد المطلب ـ وكان له بلاء مشهود يوم بدر ، وكانت الطريقة الجارية أن يؤخذ بثأره ممن قتله ، لكن الإسلام يجب ما قبله ، لهذا ترك رسول الله هذا الثأر .

وقد آخى رسول الله (ﷺ) ، بين المسلمين وجعل دماءهم متكافئة ، ونبههم فى هذا إلى أن أصلهم واحد هو آدم ، وإنما يتفاضلون بالتقوى لا بالأجناس فالله جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا ، ولم تغفل الخطبة شأن المرأة ومالها من حقوق وما عليها من واجبات .

فى الخطبة مقدمة ليست هى مجرد الحمد والاستشهاد ، ولكنها الوصية بالتقوى

---

(١) اذا ثبت الزنا على امرأة فالولد لزوجها ـ ويقام عليها الحد . فان كان الزوج منكرا للولد لا عن من أمه . واللعان معروف .

(٢) لا يجوز له ذلك أصلا . وأصل العدل ـ القصاص وقتل شخص بشخص . والعدل أن يأخذ دية تعادل ما أصابه .

والعمل الصالح ، فهذه أمر بشيء جامع عام ، وكل ما بينته الخطبة بعد ذلك فهو من التقوى والعمل الصالح ، ثم كان موضوع الخطبة هو التعاليم التى ألقيت ، ولم يحتج أكثرها إلى دليل وبرهان ، لأنها تعاليم النبى المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، ولكن بعضها ذكر له تعليل عابر لبيان توجيهه ، ولماذا كان على هذا النحو.

والخطبة ليست طويلة وليست أيضًا قصيرة إزاء ما جاء بها من تعاليم شرعية ، وقد اختلفت روايتها فى كتب التاريخ والسير ، ولكنها على أطول رواية جاءت بها ليست ذات طول ، وإنما هى ذات توسط وأدنى إلى القصر ، وهى نموذج من البلاغة النبوية ، ونموذج من الإصلاح الاجتماعى الشامل ونموذج من إصلاح الإسلام ، لأنها تعكس بوضوح جوانب من العادات العربية السيئة التى كانت شائعة قبل الإسلام ؟؟

من المحاورات فى هذا العهد

كثرت المحاورات فى العهدين الإسلامى والأموى ، وذلك لكثرة المواقف الداعية لتبادل الآراء ، أو لاختلافها ، أو لمطالبة فئة من الناس بحق أو عمل لا ترضى عنه فئة أخرى ، ومن هنا ينشأ الحوار ويشتد الجدل كل يدلى برأى ويستند إلى حجة ، وقد كانت هذه المواقف موجودة فى العصر الجاهلى ، ولكن الأحداث لم تكن سريعة متلاحقة كما هى فى هذه الحقبة . واتخذت المحاورات لذلك ألوانًا كثيرة ، فأحيانًا تكون هادئة رزينة لا يراد منها إلا التهدى إلى جانب الحق والصواب ، وأحيانًا تكون حادة عنيفة ، يتشبث كل جانب برأيه ويعنيه قبل كل شيء أن يسقط الجانب الآخر ، ولك أن ترجع إلى الحوار الذى دار بين رسول الله (ﷺ) وأصحابه قبل غزوة بدر فى استشارتهم فيما ينبغى أن يفعل ، وأيضًا بعد هذه الغزوة فيما ينبغى أن يفعل بالأسرى ، فتجد حوارًا هادئًا ، لا شدة فيه ولا لجب ، ولا مغالطة ولا انفعال ، وقس على ذلك مشاورته إياهم فى الخروج إلى الحرب يوم أحد . ولكن إذا رجعنا إلى الحوار الذى دار بين المهاجرين والأنصار يوم السقيفة وإلى أنواع الحوار الكثيرة التى كانت تنشأ بين بنى أمية وأعوانهم من جانب ، وبين بنى هاشم أعوان على من جانب آخر وجدت شدة فى القول وتقريعًا وعنفًا . وفى كلا النوعين تجد جهدًا فى البحث عن الأدلة كما نجد بلاغة فى القول وجمالاً فى صوغ العبارات ، هذا مع أن أكثرها عبارات مرتجلة ومواقف فوجىء بها المتحدث دون ما استعداد .

ونختار من هذا موقف السقيفة لأنه ذو أهمية كبيرة فى التاريخ ولابد للداعية الإسلامى من الإلمام به ، ثم نذكر بعض المواقف الأخرى تحاشيا للإطالة .

وهاك صورة ناطقة من هذا اليوم المشهود .

يوم السقيفة [1]

يوم السقيفة من المواقف التى نجد بها أمثلة جيدة للخطبة القصيرة والحوار أو الجدل والمناظرة ، وأود أن أنقل صورة منه نقلاً عن تاريخ الطبرى مع تصرف ضئيل واختيار لبعض الروايات ، وايراده كاملاً يبدى صورة حية لهذه الأمثلة التى ذكرت .

غداة توفى رسول الله (ﷺ) ماج الناس واضطربوا ، وذهبت الدهشة بلب الكثيرين منهم حتى إن عمر بن الخطاب خيل إليه أنه (ﷺ) سيعود ثانيًا ، وكان قد سبق إلى ذهنه أن قوله تعالى : «وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» يؤذن ببقائه (ﷺ) إلى نهاية الدنيا ، فلما جاء أبو بكر وثبت الناس ، وتلا عليهم قول الله تعالى : «إنك ميت وإنهم ميتون» وقوله : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» . هدأ عمر وهدأ الناس ، وعاد أبو بكر مرة ثانية إلى بيت رسول الله (ﷺ) مع أقاربه لتجهيزه ودفنه ، وظل عمر وظل المسلمون بالمسجد ما بين باك ومحزون ينتظرون ما عسى أن يفعلوه توديعًا لرسول الله هذا الوداع الذى لا لقاء بعده .

ولكن عمر بن الخطاب بعد أن هدأ ، وبعد أن أقنعه حديث أبى بكر ، بدر إلى ذهنه التفكير فيمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله (ﷺ) ، وكان أول من فكر فى هذا من المهاجرين ، وكان حوله عدد من كبار الصحابة منهم عبيدة بن الجراح فدار بخلد عمر أن هذا الرجل يصلح لإمارة المسلمين ، وكان هذا عجيبًا من عمر ، ولئن كان هذا التفكير من جانب عمر اهتمامًا واعيًا بشأن الإسلام وشئون المسلمين عامة والدولة الناشئة التى لم تستكمل نضجها بعد ، إنه لم يكن أول من فكر فيه على الإطلاق ، لقد سبقه

---

(١) السقيفة كسفينة هى الصفة والمظلة أو السقف غير الكامل - وكانت سقيفة بنى ساعدة فى المكان الذى به الآن حديقة صغيرة عند ملتقى شارع المناخة .

الأنصار إلى هذا التفكير وودوا لو بقى هذا الأمر لهم دون سائر العرب . ورأوا أنهم قد بذلوا لحماية الإسلام ما بذلوا . وأن الإسلام لم ينهض ولم يترعرع إلا فى بلدهم وتحت سيوفهم ، ولو ظل حبيسًا بمكة كما كان قبل الهجرة . ما نال هذا النجاح ولا علت كلمة الله ودعوة الحق على كلمة المشركين عباد الأوثان . لذلك اجتمعوا ـ والمهاجرون لا يعلمون ـ فى سقيفة بنى ساعدة يتداولون الرأى . ويتخذون العدة للاستيلاء على الخلافة قبل أن يسبقهم إليها المهاجرون .

وإذن فقد كان هناك جمعان وإن شئت ثلاثة جموع . الأنصار فى سقيفتهم مشغولون بأمر الخلافة ، وعلى وأبو بكر وعدد من بنى هاشم فى بيت رسول الله لا يشغلهم إلا تجهيز النبى (ﷺ) ودفنه ، وجمع ثالث من الصحابة بالمسجد ينتظرون ما يفعلون لتشييع هذا الجثمان الكريم ، ولكل منهم شأن يشغله عدا عمر الذى سبقهم إلى التفكير فى شأن خلافة رسول الله على المسلمين وقد فكر واطمأنت نفسه إلى أبى عبيدة ، دنا إليه وحادثه فى هذا الشأن ثم قال له : ابسط يدك فلأ بايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . ! ولكن أبا عبيدة لم يمدد يده ، بل نظر إلى عمر نظرة الدهش المتعجب ثم قال له : ما رأيت لك فهة قبلها مذ أسلمت . أتبايعنى وفيكم الصديق . وهو ثانى اثنين إذ هما فى الغار؟

ويدل هذا على ما كان لأبى بكر من مكانة فى نفوس الصحابة لا ندرى كيف غابت عن عمر فى هذا الوقت ، وقد أبدى عمر بعد ذلك تقديرًا لأبى بكر وأحقيته بالخلافة ، ولكنه بعد استخلافه هو ظل يرى أن أبا عبيدة أصلح الناس لها . وفى عام الوباء حين كان أبو عبيدة بالشام أراد عمر أن يستدعيه ليبايعه بالخلافة . ولكن أبا عبيدة رفض ثم ذهب به الطاعون فى العام نفسه ، وحين طعن عمر . وبحث عمن يلى الخلافة من بعده قال : لو كان أبو عبيدة حيًا لوليته إياها ، ولكنه فى هذا الموقف تراجع ورأى أن أبا بكر أحق بها وأولى .

بينما عمر وأبو عبيدة فى حديثهم والصحابة الآخرون فى شئونهم جاءهم النبأ بأن الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يوشك أن يبايعوا سعد بن عبادة سيد الخزرج خليفة على المسلمين ، حينئذ أرسل عُمر لأبى بكر أن اخرج إلينا فلم يجبه وقال إنى فى شغل ، فأعاد عمر الرسول إليه يخبره أنه قد حدث أمر لابد أن يشهده ، هنالك خرج أبو بكر دهشًا إلى عمر فلما أخبره بما يجرى فى السقيفة رأى ألامناص من الذهاب إليها لإقناع الأنصار بالعدول عما شرعوا فيه .

هذا هو الجو الذى ألقيت فيه الخطب والمحاورات التى نريد أن نضعها نماذج لخطب قصيرة ، ومحاورات فى حدث يعتبر من أهم الأحداث الإسلامية خطرًا .

انطلق أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وبعض من الصحابة تجاه السقيفة وأنت تعلم أنها ليست بمبعدة من الحرم ، ولابد أن كل واحد من هؤلاء الكبار قد فكر وهيأ فى نفسه ما يواجه به المؤتمرين ويقنعهم به ، فهذا موقف لا يكفى فيه الارتجال ولا يهجم عليه بدون تفكير ، وإنهم لفى طريقهم إذ قابلهم بعض من الأنصار منهم عويم بن ساعدة [1] ومعن بن عدى [2] . وقد وصفا فى هذا الحادث بأنهما رجلان صالحان ، فقالا : أين تريدون يا معاشر المهاجرين؟ وذكرا ما تمالأ عليه القوم ، وقالا : لا تأتوهم فإنه لا يكون ما تريدون ، ثم قالا لا عليكم أن لا تقربوهم يا معاشر المهاجرين واقضوا أمركم : ، وفى رواية : لا تأتوهم واقضوا أمركم .

وكان رأى هذين الرجلين الصالحين أن يغضى المهاجرون عن الأنصار وأن يختاروا خليفة من بينهم ، لكنه رأى فطير ، فقد يفضى هذا العمل إلى اختيار خليفتين فى وقت واحد ، فهذا تفريق للمسلمين ، وإثارة للشحناء بينهم لهذا أصر المهاجرون على الذهاب إلى الثقيفة .

ما دار فى السقيفة قبل حُضور المهاجرين .

كان سعد بن عبادة سيد الخزرج [3] وجعا فى هذا اليوم لا يقوى على الوقوف للخطابة بل ولا على الجلوس ، ولا يقوى صوته على إسماع الناس ، لهذا جاءوا به مزملا ،

---

(١) عويم ممن شهدوا بدرا ، وله حديث فى تفسير المتطهرين الذين ذكروا فى الآية «فيه رجال يحبون أن يتطهروا ...» وفيه قال رسول الله (ﷺ) نعم المرء منهم عويم بن ساعدة .

(٢) معن بن عدى ، هو أخو عاصم بن عدى ، وهو صاحب هذا الموقف . وليس عاصما كما ظن بعض الكتاب المحدثين ، وهو من بلى حليف للأنصار ، ذكره ابن إسحق فيمن شهد أحدا ، وكان عاقلا ، لما قال الناس يوم وفاة رسول الله (ﷺ) : وددنا أنا متنا قبله ، إنا نخشى أن نفتن بعده ، قال هو : والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيا . واستشهد يوم اليمامة فى حرب مسيلمة .

(٣) سعد بن عبادة من السابقين إلى الاسلام من الأنصار ، شهد بيعة العقبة وكان أحد النقباء ، وهو وأبوه وابنه من الأجواد . وكان يحمل راية الأنصار بين يدى رسول الله (ﷺ) ، وقدمات فى السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ، ودفن بقرية قرب غوطة دمشق . ولم يبايع أبا بكر بالخلافة ، وكان يحج وحده ، ولم ير أبو بكر حربه لأنه فرد ، ولأن له فضلا سابقا فى الإسلام وحسن صحبة لرسول الله (ﷺ) ، ولأن حربه أو قتله يؤذى شعور الأنصار ، ويفرق كلمة المسلمين ، ولم يبايع عمر أيضا ، ولكنه لم ينقطع عن الجهاد .

فأضجعوه ، ووقف بجانبه ابن له أو بعض أقاربه ليسمع الناس ما يقول ، وكان الحباب ابن المنذر الخزرجى [1] ، من أشد الناس ممالأة لسعد ، وتمسكا أن تكون له الخلافة دون غيره .

خطب سعد فى قومه على الطريقة التى ذكرنا فكان مما قاله :

يا معشر الأنصار : إن لكم سابقة فى هذا الدين ، وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لبث بضع عشرة سنة فى قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان ، فما آمن به من قومه إلا رجال قليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله (ﷺ) ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عُمُّوا به [2] ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمان به ، وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم [3] ، حتى استقامت العرب لأمر الله طوعًا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرًا داخرًا [4] ، وحتى أثخن [5] الله ـ عز وجل ـ لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله وهو عنكم راض ، وبكم قرير عين ، فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دون الناس» .

فأجابوه بأجمعهم أن « قد وفقت فى الرأى ، وأصبت القول ولن نعدُوَ ما رأيت ، نوليك هذا الأمر فإنك فينا مقنع ، ولصالح المؤمنين رضا» .

تحليل الموقف والخطبة :

سعد كما ترى قوى الحجة جدًّا ، أبدى وجهة نظر سليمة ، إنه لولا الأنصار والهجرة

---

(١) الحباب بن المنذر بن الجموح خزرجى سَلَمى . شهد المشاهد كلها ، وهو صاحب المشورة المشهورة يوم بدر ، وقد أطاعه رسول الله (ﷺ) وقال له : قد أشرت بالرأى ، وكان من ذوى الرأى والفطانة حقا ، ومات فى خلافة عمر بن الخطاب وفى حديثه هناك ما يبين مدى اعتداده بنفسه .

(٢) الضيم هو الذل ، عموا به عمهم جميعا وشملهم .

(٣) من عاداه من بينكم كنتم أشد عليه من قريش ، وما عاداه من غيركم كانت وطأتكم عليه أثقل من وطأتهم ،

(٤) دخر كمنع وفرح ـ دخورا ، ودخرا ذل وعنا ،

(٥) أثخن أى أو هن ، ومنه حتى إذا أثخنتموهم ، والاثخان كثرة القتلى بكثرة التجريح وأثخن له الأرض ذللها وأوهنها .

إليهم لقضت قريش على الإسلام والمسلمين ، فالذين استجابوا لدعوته بمكة من الضعاف الذين لا يحمون أنفسهم فضلاً عن حماية غيرهم ، فالأنصار لهم حقًا الفضل فى تثبيت الدين ثم نصره ونشره ، ومع هذا ظل رسول الله (ﷺ) راضيًا عنهم حتى مات ، لماذا إذن لا تكون لهم الخلافة ؟

ولقد وافقه القوم ورضوا رأيه ورضوه خليفة ، لكنّ لم يتقدم أحد لبيعته . وهناك أمران خارجان عن نطاق الخطبة ، ألمعت إلى أحدهما وتركت الآخر ، هذان الأمران هما موقف المهاجرين أولاً ، ثم موقف الأوس من الخزرج ثانيًا ، والخطبة لم تذكر المهاجرين بالاسم ، ولكن حديثها كله يدور على أن الأنصار أولى منهم ، وإذ لم يقبل الناس بعد قبولهم رأى سعد على بيعته قال قائل منهم : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر ، من بعده ؟

يدل هذا القول على أن القوم لم تكن غائبة عنهم حجة قريش ، وأنهم لم يجدوا الشجاعة على الإقدام لمبايعة سعد ، وقال آخرون ردا على هذا : فإنا نقول : « منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا » !

وقال سعد حينئذ : هذا أول الوهن .

وكان الذين اقترحوا هذه الشركة من الأوس لا من الخزرج ، والوهن يأتى من تسليم نصف الخلافة ، ومن انقسام الأنصار .

حضور المهاجرين :

حضر أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ومن معهم والقوم فى هذا الموقف ، فأمسك الأنصار عن الكلام ، حتى جلس الوافدون ، وأهمهم أبو بكر وصاحباه ، وأراد عمر الكلام فمنعه أبو بكر تحاشيا لشدته ، وسكت عمر لأنه لم يرمن الصواب أن يخالفه مرتين فى يوم واحد . فدار الحوار على هذا النحو .

أبو بكر : حمد الله وأثنى عليه ثم قال فيما قال :

... إن الله بعث محمدًا (ﷺ) رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه ، وهم يعبدون دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور ، يعبدون من دون الله مالا يضرهم

ولا ينفعهم ، ويقولون ما نعبدهم الا ليقربونا إلى الله زلفى ، فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم [١] وكل الناس مخالف لهم زار عليهم ، فلم يستوحشوا لقلة عددهم [٢] وشنف [٣] الناس لهم ، وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه [٤] وعشيرته ، وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم .

وأنتم يامعاشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصارا لدينه ولرسوله ، وجعل اليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور . أحد الأنصار [٥] .

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

... أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعاشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة [٦] من قومكم ، واذا هم يريدون أن يختزلونا [٧] من أصلنا ويغصبون الأمر منا ... » .

أبو بكر – (ثانيا)

أيها الناس – نحن المهاجرين – أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثر الناس ولادة فى العرب ، وأمسهم رحما برسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان » فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ،

---

(١) يريد صبروا قبل الهجرة على العذاب الشديد . والتكذيب فحفظوا جرثومة الدين .

(٢) لم يرهبوا الأعداء ويتركوا الدين بسبب قلتهم .

(٣) عداوتهم وبغضهم .

(٤) أقرباؤه وذووه .

(٥) لم يذكر اسمه ولعله الحباب بن المنذر ، وجاءت هذه القالة أيضا قبل كلام أبى بكر .

(٦) الجماعة تأتى من البادية ، والجماعة تسير برفق ،

(٧) يقتطعونا ، ويروى يحتازونا ، أى يستولوا علينا ،

إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء[1] . وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيرا .

أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، وانتم أجدر بالثناء من أهل الأرض جميعا . فأما العرب فلا تعرف[2] هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش فمنا الأمراء ومنكم الوزراء ،[3] فلا تنفسوا[4] على اخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

الحباب بن المنذر بن الجموح – (من الخزرج) .

... يا معاشر الأنصار : املكوا عليكم أمركم فإن الناس فى فيئكم[5] ، وفى ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ، ولن يصدر الناس إلا عن رأيكم ، أنتم أهل العز والثروة ، وأولو العدد والمنعة والتجربة ، وذوو البأس والنجدة ، وإنما ينظر الناس إلى ما تصنعون ، فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم ، وينتقض عليكم رأيكم ، أبى هؤلاء إلا ما سمعتم ، فمنا أمير ومنهم أمير .

عمر بن الخطاب وكان أمسك عن الكلام

... هيهات هيهات لا يجتمع اثنان فى قرن[6] ، والله لا ترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم ، ولكن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم منهم ، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ، منذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مدلٍ بباطل ، أو متجانف[7] لإثم ، أو متورط فى هلكة .

الحباب ...

... يا معاشر الأنصار ، أملكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فان أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ،

---

(١) الغنائم .

(٢) فى أكثر الروايات : لا تدين العرب الا لهذا الحى من قريش ،

(٣) يروى فنحن .

(٤) لا تحسدوهم –

(٥) فى ظلكم وتحت حمايتكم .

(٦) فى حبل – يريد لا يصلح للخلافة اثنان .

(٧) مائل له .

وتولوا عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، أنا جذيلها المحكّك[1] وعُذَيْقُهَا المرجب[2] : أما والله إن شئتم لنعيدنها جذعة.[3]

عمر بن الخطاب..

اذن يقتلك الله.

الحباب : بل إياك يقتل.

[انتضى الحباب سيفه ، فضرب عمر على يده فسقط السيف ، فأخذه عمر وهم أن يضرب سعد بن عباده].

أبو عبيده بن الجراح :

يامعشر الأنصار : كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من بدل وغير.

بشير بن سعد :[4] [خزرجى]

«إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى هذا الدين ، ما أردنا إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا فما ينبغى لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى من الدنيا عرضا ، فان الله ولى النعمة علينا بذلك ، ألا . إن محمدا (ﷺ) من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم فى هذا الأمر أبدا .. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولاتنازعوهم».

أبو بكر

... هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا :

عمر ـ [وهو يمد يده ليبايع أبا بكر]

---

(١) الجذيل : مصغر جذل ، وهو عود تحتك به الإبل لتستريح ، ويضرب مثلا للرجل ذى الرأى الشافى.

(٢) العذيق مصغر عذق ، يراد به النخلة نفسها ، والمرجب الذى يسند بالحجارة والدعم ـ يكنى به عن الرجل الشريف يعنى به قومه.

(٣) يريد نبعث الحرب ، والجذعة الناقة الشابة.

(٤) ابن ثعلبة بن جُلاس ، بدرى وهو والد النعمان ـ استشهد بعين التمر مع خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ ، وبعثه النبى (ﷺ) فى سرية إلى فدك ، وإلى وادى القرى.

ابسط يدك يا أبا بكر.. ألم يأمر النبي بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين فأنت خليفة رسول الله ، فنحن نبايعك خير من أحب رسول الله منا جميعا .

أبو عبيدة : إنك أفضل المهاجرين ، وثانى اثنين إذهما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟

بشير بن سعد يبايع أيضا

الحباب بن المنذر :

عققت يا بشير بن سعد ، عققت ، ما أحوجك إلى ما صنعت ؟ أنفست الإمارة على ابن عمك «يريد سعد بن عباده ـ وكلاهما خزرجى » .

بشير بن سعد :

لا والله ، ولكنى كرهت ان أنازع قوما حقا جعله الله لهم .

أسيد بن حضير ـ [زعيم الأوس] يبايع :[1]

والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، [يخاطب الأوس] قوموا فبايعوا أبا بكر .

[وتكاثر الحاضرون على أبى بكر يبايعونه ، وكادوا يطأون سعد بن عباده] عمر ـ مشيرا إلى سعد :

اقتلوه قتله الله ....

أبو بكر : الرفق هنا يا عمر أبلغ

سعد : أما والله قبل أن أرميكم بما فى كنانتى من نبل ، وأخضب سنان رمحى ، وأضربكم بسيفى ما ملكته يدى ، وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى فلا أفعل .

عمر : لا تدعه يا أبا بكر حتى يبايع .

---

(١) أسيد من بنى الأشهل ، كان أبوه رئيس الأوس وفارسهم يوم بعاث ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، وأحد النقباء ليلة العقبة ، وكان بين الأنصار ثلاثة لا يجارون فضلا ، كلهم من بنى عبد الأشهل ، عباد بن بشير وسعد بن معاذ ، وأسيد ، وهو أسلم قبل سعد بن معاذ ، مات سنة عشرين فى خلافة عمر ـ والأشهل الذى يقل سواد عينه حتى تميل إلى الحمرة ، وبنو عبد الأشهل ينتمون إلى صنم كان لهم بهذا الاسم .

بشير بن سعد :

لا إنه قدلج وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته فاتركوه ، فليس تركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد .
وتمت البيعة لأبى بكر .

نظـرة فى هـذا المـوقف

آثرت أن أنقل صورة من هذا الموقف أدنى إلى الحقيقة ، وفى كتب التاريخ والسير روايات أخرى ، زيادات كثيرة أعرضنا عنها ، لأن هذه الصورة كافية فى إعطاء صورة واضحة ولا حاجة بنا إلى البحث أو الموازنة بين الروايات العديدة . ونحن فى مقام التحدث عن الخطابة القصيرة ، والمحاورات الخطابية نؤثر أن نضع أمام الداعية الإسلامى هذه الصورة ، وفى مضابط البرلمان صور عديدة من المحاورات السياسية والخطب القصيرة ، ولكن صورتنا هذه تعكس منظرا إسلاميا تاريخيا ، وبلغة عربية سليمة .

وندع للقارئ بعد هذا أن يحلل مواقف الأشخاص ، ما بين متحمس يدنو حماسه من الثورة كعمر والحباب ، وبين متروٍّ يحرص على صيانة الوحدة بين المسلمين ، وجمع شملهم مثل أبى بكر وبشير بن سعد وأسيد بن حضير ، ولكن يعنينا أن نبحث طريقة كل فريق فى دعوته لرأيه ، وتأتيه لجذب الناس حوله ، فهذا ما يحتاج إليه الخطيب فى دعوته الناس إلى مبدأ ما ، وقد نظرنا فى خطبة سعد .

أما أبو بكر ، فبدأ ببيان ما كان عليه العرب من وثنية ومدى تمسكهم بها وحرصهم عليها ، وقد سبب هذا للمسلمين الأولين فى مكة متاعب كثيرة وشاقة ، ومع كل ذلك صمدوا وصبروا على ما أوذوا به ، ومعنى هذا أنهم وإن لم يستطيعوا نشر الدين وشهره ، لهم فضل إحياء مبادئه ثلاثة عشر عاما ، ولولاهم لوئد هذا الدين طفلا ـ وبهذا أثبت للمهاجرين الفضل الأول ، بل أكبر فضل فى حماية هذا الدين ، ثم كان من لباقته وذكائه أنه لم يهمل جانب الأنصار ، بل أثبت لهم فضل إيواء المهاجرين ونصر النبى (ﷺ) ـ وبهذا انتهى إلى أن المهاجرين هم الأمراء والحكام ، والأنصار وزراؤهم ، لا يقضى أمر حتى يستشاروا فيه .

وحكمة أبى بكر فى هذا الموقف تستحق كل تقدير ، وأنت ترى أن خطبتيه معا

تدوران على محور واحد ، ولكن الخطبة الثانية جاءت بأدلة جديدة ، وألمعت إلى تخويف الأنصار لامن قوة المهاجرين ، بل من انقلاب العرب منهم ، فالعرب لم يألفوا الأنصار زعماء دين ولا حماة بيت الله ، وإنما ذلك أمر ثابت لقريش ، وكان ذلك ردا قويا على المتحمسين من الأنصار ، ولا شك أنه ترك فى نفوس السامعين أثرا قويًا ، لهذا لم يقدم أحد على مبايعة سعد ، بل تكاثروا على مبايعة أبى بكر.

وأما كلام عمر ، فقد دار أخيرا على ما دار عليه كلام أبى بكر ، وتكاد الحجة تكون واحدة ، أو أن عمرا شقق حججا من كلام أبى بكر .

وجاء فى كتب التاريخ قول عمر إنى كنت زورت[1] كلاما فى نفسى ، فلما هممت بالكلام منعنى أبو بكر ، فلما تكلم لم يدع شيئا كنت أعددته إلا ذكره . ونفهم من هذا أن كلا الرجلين فى لحظات قصيرة أعد فى نفسه حديثا ، وكانت أفكارهما متحدة أو متقاربة ، ولكن عمر يواجه الموقف فى ثورة لم يكن يتوقع لها أن تأتى بما يريد ، بينما كان أبو بكر فى هدوئه ورزانته أدنى إلى النجاح .

من هذا نجد أن الإقناع والاستمالة معا يتوقفان على طريقة الإلقاء وعلى حال الخطيب ، ومقدرته على النفاذ إلى قلوب سامعيه .

خصائص الخطابة فى هذا العصر

استمرت للخطابة أغراضها التى كانت لها فى الجاهلية عدا خطب المنافرات التى حرمها الإسلام ، وقد رأينا قبل أنها بقيت منها صورة بوجه ما ، وحلت محلها المناظرات ، وهى فى جملتها محاجات لأمر ما ، أو دفع لاتهام ، وفى هذا قد يقف شخص ما ليقاطع الخطيب ويحاوره ، واكتست خطب الحرب والحض عليه صورة الجهاد المقدس لأجل الدين ، وجدت أيضا خطب ولايات العهد وولايات الأقاليم ، والاستخلاف ، واتسمت خطب الزواج أيضا بسمات إسلامية ، وشاركت الكتابة فى بعض هذه الأغراض ، وليس من همنا أن نستقصى كل أنواع الخطبة ، ويكفى أن نقدم

---

(١) أعددت وزينت .

منها ما يمكن أن يكون فيه عون الداعية فى رسالته ومرشده إلى ما ينبغى أن يعمل ، وأهم ذلك كله الخطب الدينية .

الخطب الدينية وسيادتها

هذه الخطبة من أهم أغراض الخطابة فى هذا العهد ، وهى أيضا من أهم ما يعنى الداعية الاسلامى ، ونعنى بالخطبة الدينية هنا ، كل خطبة تدعو إلى عمل دينى بحت ، كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى إقامة ركن من أركان الدين ، كالصلاة أو الحج أو قراءة القرآن ، أو التعريف بحكم شرعى ، أو الإصلاح بين متخاصمين أو التذكير بالموت والدار الآخرة ، وهكذا ، وحقيقة الخطبة الدينية أنها تشمل كل شئون الحياة ، لأن الدين الاسلامى ، يقوم على العقيدة ، والعبادة ، والمعاملة ، وبه قانون شامل لكل ما يقابل الناس فى حياتهم من زراعة وصناعة ، وبيع وإيجار وشركات وهكذا . ولكن لأننا أفردنا للشئون الأخرى أبوابًا خاصة ، نقتصر فى هذا الباب على الشئون الدينية الخالصة .

هذا النوع من الخطابة لم يكن موجودا فى العصر الجاهلى فيما نقدر وخطبة المأمون الحارثى التى سبقت ، وخطبة قس بن ساعدة ، مما نرجح أنه من الأدب المصنوع ، ونحن نجد الأدب الجاهلى خاليا من العنصر الدينى عدا ما كان من شعراء اليهود والنصرانية ، وكان أميه بن أبى الصلت ممن عرفوا النصرانية ، وكان يرجو ويطمع أن يكون النبى العربى المنتظر ، وجاء فى شعره أحاديث عن الدار الآخرة والانبياء السابقين ، أما الشعراء الوثنيون فلا نجدهم يتحدثون عن آلهتهم أو يذكرون شيئا عن أصنامهم وكل ما جاء فى شعرهم ، لمحات تذكر بالموت ، أو بأن الناس سيحاسبون على أعمالهم ، وكل ذلك قليل جدا ، كما فى قول طرفة :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطِّوَل المرخى وثنياه باليد[1]

متى ما يشا يوما يقده لحتفه ... ومن يك فى حبل المنية ينقد[2] .

وكقول زهير :

---

(١) الطول : الحبل ، وثنياه طرفاه.

(٢) الحتف : الموت .

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم .

وخلو الشعر الجاهلى على كثرته وتشتت أغراضه من الحديث الدينى يؤذن أيضا بخلو الخطابة منه ، والخطبتان اللتان سبقتا على فرض صحتهما ـ لا تتحدثان عن تعاليم دينية ، وإنما تنذران بفساد عبادة الأوثان ، وتوجهان إلى عبادة الخالق القادر ، وأن نبيا سيظهر .

وخطب النبى (ﷺ) هى المثل الذى يحتذيه الخطيب الدينى الموفق ، وهى فى جملتها تهون من شأن الدنيا ، وتذكر بالآخرة ، وتحث على مكارم الأخلاق وحسن المعاملة ، وهى خليقة أن تكون دستور المسلمين وقانونهم الذى لا يخالف أى شىء منه ، وهى فى واقعها بناء للأمة وسعادة لها ورفع شأن لأبنائها ، ولا يزال علماء الأخلاق وزعماء الإصلاح يجدون فيها مددا لهم ، ويتخذون منها هاديا ومرشدا ، وقد كان لرسول الله (ﷺ) خطب فى الشئون الأخرى ، وكلها تتسم بأنها عمل لله تعالى وقربى إليه ، وللخلفاء الراشدين والخلفاء والحكام بعدهم خطب دينية ومواعظ من هذا النوع ، وكثير منها مما يصل أعماق القلوب ، ويترك أثرا عميقا فى النفوس ، فيستقيم به السلوك المعوج وتأنس الغرائز الجامحة ، ويعدل العصاة عن ارتكاب الذنوب ، وتكون هذه الخطب أبلغ فى النفس إذا كان صاحبها مقتنعا بها ذارغبة فى نشرها وإذاعتها بين الآخرين ، وقد قالوا : ما خرج من القلب وصل إلى القلب ، وما كان من اللسان لا يجاوز الآذان»[1] وهو كلام حق لا جدال فيه .

والعنصر العام الفعال فى هذه الخطب المؤثرة هو التذكير بالموت وأنه حتم على كل حى ، وأن متاع الدنيا زخرف موقوت ، وعرض زائل وأنه من يفعل خيرا يجز به خيرا ، ومن يفعل الشر يلق عقوبته فى الدنيا والآخرة .

وقد كانت الخطب فى هذا العصر مجملة وقصيرة ، ويستطيع الواعظ الحديث أن يولد منها خطبا مطولة بما يدخل عليها من الشرح والتحليل ، وأمثلة هذه الخطب كثيرة جدا تجدها فيما جمعه ابن قتيبة فى «عيون الأخبار» وأورده الجاحظ فى «البيان والتبيين» وابن عبد ربه فى «العقد الفريد» ونورد مثالين من خطب رسول الله (ﷺ) :

---

(١) البيان والتبيين ٨٣/١ .

أورد ابن قتيبة هذه الخطبة ، وفى روايتها اختلاف يسير[١] : قال بعد الثناء والحمد «أيها الناس : إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت . والذى نفس محمد بيده ما بعد الموت مستعتب ، ولا بعد الآخره دار إلا الجنة أو النار» .

والخطبة الثانية اقتبس منها صاحب «الخطب والمواعظ» هذا النص[٢] .

«أيها الناس .. كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى نشيع من الأموات سفْر[٣] . عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أجداثهم ، ونأكل من تراثهم ، كأنا مخلفون بعدهم ، ونسينا كل واعظة[٤] ، وأمنا كل جائحة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره . طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله» .

وكما ذكرنا هذه الخطب مادة لمن يريد شرحها وتوليد المعانى الغزيرة منها ، والخطبة الجامعة التى لا يجوز أن يغفلها أى واعظ وداعية ، هى خطبة الوداع ، وهى فى كتب السير والتاريخ والكتب التى ذكرنا .

ومن خطبة لمعاوية :

أيها الناس :

سافروا بأبصاركم فى كر الجديدين[٥] . ثم ارجعوها كليلة عن بلوغ الأمل[٦] فإن

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٣١ .

(٢) ص ٧٤ .

(٣) مسافرون ـ يقال سفر وشرب كركب .

(٤) كل حادثة بها عظة .

(٥) الجديدان : الليل والنهار والسفر بالأبصار أبعاد التأمل . أى تأملوا فى تقلبات الأزمان .

(٦) عاجزة عن الوصول إلى إدراكه .

الماضى عظة للباقى ، ولا تجعلوا الغرور سبيل العجز عن الجد ، فتنقطع حجتكم فى موقف الله سائلكم فيه ومحاسبكم عليه فيما أسلفتم .

أيها الناس : أمس شاهد فاحذروه ، واليوم مؤدب فاعرفوه وغدا رسول فأكرموه »[1] .

وهذا الإيجاز كان يفهم فى عصره ، أما الآن فلا يلقى إلا بالشرح المستفيض .

ولبنى أمية الآخرين مواعظ لا تقل عن هذه تأثيرا ، وكانت هذه الخطب الدينية مما يثبت هيبتهم ويقوى ملكهم ، ويظهرهم أمام الناس فى مواقف تشبه مواقف الخلفاء السابقين ، وربما طالت خطبة الجمعة حتى يدخل وقت العصر ، أو حتى تكاد الشمس تصفر ، وبدأ هذه الأطالة الوليد بن عبد الملك ، وحاكاه أخوه يزيد ، وكان الحجاج يطيل أيضا حتى يسأم الناس ويتلفتون إلى الشمس المائلة نحو الغرب ، فيهيب بهم ويوبخهم أن سئموا الوعظ ، وكان الحسن البصرى يعيب الحجاج لهذا وقال عنه : واعجبا من أخيفش أعيمش جاء ففتننا عن ديننا ، يصعد على المنبر فيخطب والناس يتلفتون إلى الشمس ، فيقول : ما بالكم تتلفتون إلى الشمس ، إنا والله ما نصلى للشمس ، انما نصلى لرب الشمس ، أفلا تقولون له : «يا عدو الله : إن لله حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وحقا بالنهار لا يقبله بالليل ؟» .. ثم يستدرك فيقول : كيف يقولون ذلك وعلى رأس كل واحد منهم علج قائم بالسيف .[2]

وقد راجت الخطبة الدينية فى عصر بنى أمية رواجا شديدا ، لكثرة مناوئى الدولة الأموية ، ولهذا دخلها كثير من الطول فقد كان الخلفاء الأمويون وولاتهم ، يدخلون فى خطب الجمع والأعياد والحج المسائل السياسية ، ويوهنون من شأن أعدائهم ، فتطول الخطبة ، وكان الناس يسأمون خطبهم فيتخلفون عنها فى صلاة الجمع ، وينصرفون عنها فى صلاة الأعياد ، ولذلك رأى مروان بن الحكم أن يقدم خطبة العيد على صلاته كيلا ينصرف الناس دون سماعه[3] ، واستمر ذلك متبعا حتى قام أبو مسلم الخراسانى بدعوته وأمر سليمان بن كثير أن يصلى بشيعة على صلاة العيد على النحو الذى نراه الآن .

---

(١) الماضى سجل أعمالنا وهو شهيد علينا ، والحاضر مجال اختبارنا ، والمستقبل رسول لما يصل .

(٢) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ٣/٤٧٠ .

(٣) انظر صلاة العيدين فى البخارى .

وليس للخلفاء الراشدين خطب مطولة ، بل كلها تتسم بالإيجاز ، وينسب للإمام على خطب مطولة سميت بأسماء خاصة ، كالغراء والزهراء . وكلتاهما فى نهج البلاغة وفى العقد الفريد ، وما فيهما من دقة المعانى ، والإسراف فى طول التحميد والصلاة على النبى (ﷺ) يحمل على الشك فى نسبتهما للإمام ، ونحن نعلم أن الشريف الرضى صنع خطبا كثيرة مما فى نهج البلاغة ، وأن معظم الكتاب من عمله ، ولعل هذه الخطب مما صنع .

وكان هناك خطباء وعاظ ربما أطالوا الخطبة وحشوها بالمواعظ المؤثرة ، وهم أنفسهم لا يعملون بما يقولون ، ولا يعرفون بالتقوى والورع ، ومن هؤلاء الحجاج بن يوسف ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وجلس معاوية بن أبى سفيان يوما يقص فأبكى السامعين ، فقال له عمرو بن العاص ـ وكان فى مجلسه : أحرقت قلبى بمواعظك ! أترانا حاربنا عليا لأنه كان على باطل ونحن على حق ؟ إن هى والله إلاّ دنيا تكالبنا عليها ، فإما قبست لى من دنياك وإلا نابذتك [1] ! وكان الحسن البصرى يعجب من الحجاج فيقول : «ألا تعجبون من هذا الفاجر ؟ يرقى عتبات المنبر ، فيتكلم بكلام الأنبياء ، وينزل فيَفْتك فتك الجبارين ! يوافق الله فى قوله ويخالفه فى عمله .

وكل هؤلاء كانوا يقتبسون من كلام رسول الله (ﷺ) ونهجه ، فى تهوين الدنيا والتذكير بالموت ، وتساعدهم مقدرتهم الكلامية على صوغ عبارات قوية تقرع القلوب ، وتثير الإشفاق من الحساب فى الدار الآخرة ، ومن كلام الحجاج فى هذا المقام :

أيها الناس :

«قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ [2] ، رب دائب مضيع [3] ، وساع لغيره ، والموت فى أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم ، خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم . ومما فى أيديكم لما بين أيديكم [4] ، فكأن ما قد

---

(١) فى العبارة شىء من التغيير كتبتها من الذاكره .

(٢) الأعمار تنقص بمرور الأيام ، وأعمالنا محصية علينا .

(٣) رب شخص لا ينقطع عن العمل وهو فقير أو لا أجر له عند الله .

(٤) مافى أيدينا هو الدنيا ، وما بين أيدينا الدار الآخرة لأنها مستقبلة .

مضى من الدنيا لم يكن[1] ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ، وقرون كثيرة بين ذلك . هذه الشمس التى طلعت على التبابعة والأكاسرة ، وخزائنهم السائرة بين أيديهم ، وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ، أين الملوك الأولون ؟ أين الجبابرة المتكبرون ؟ المحاسب الله ، والصراط منصوب ، وجهنم تزفر[2] وتتوقد ، وأهل الجنة ينعمون ، فى روضة يحبرون ، جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » .

وهذا وعظ قوى يبعث على الزهد . استفاد قائله من خطب النبى (ﷺ) ونهج نهج القرآن فى المزاوجة بين النعيم والعذاب وحال أهل الجنة وأهل النار .

والحق أن أمثال معاوية والحجاج لم يكونوا عصاة ولا جاحدين لتعاليم الإسلام ، وكانوا يرون أن أعمالهم السياسية إنما هى لخدمة الإسلام ، وأكبر أخطاء معاوية توليته يزيد ابنه عهده على ما كان فيه ، أما الحجاج فعلى شدة قسوته وجبروته خدم الإسلام ، وقطع دابر الفتن والثورات ، ولو أن الأمة الإسلامية ظلت على تفرقها ومطالبة كل حزب بالخلافة لنفسه لقضى ذلك عليها ، أو على الأقل عاق فتوحاتها . ووقفت الدعوة الإسلامية فى محيط محدود .



(١) مضى سريعا ولم نتعظ به .

(٢) تتصاعد أنفاسها المحرقة .

تطور الخطبة منذ مقتل عثمان

لكى نلم بتطور الخطبة وتنوعها فى عهد الخليفتين عثمان وعلى وفى العهد الأموى بعد ذلك ، نلقى نظرة عاجلة على أهم الأحداث السياسية التى فجرت الخطابة وانقسم المسلمون بسببها أقسامًا كل له رأيه ومذهبه الذى يدافع عنه ، وكل يتخذ من الدين له عضدا وساعدا .

ونرجع بهذا إلى نهاية الخليفة عمر بن الخطاب ، فإنه وهو على فراش موته نظر فى الستة الذين رشحهم للخلافة فوجد فى كل واحد منهم صفة تحول دون اختياره خليفة وإيثاره بها على الآخرين ، ولكن ما أخذه عَلَى عَلِيٍّ بن أبى طالب ، كان أهون مما أخذ على أصحابه ، فقد قال له : ما يمنعنى منك يا على إلا حرصك عليها ، وإنك أحرى القوم إذا وليتها أن تقيم على الحق المبين والصراط المستقيم[1] ، بينما أخذ على الآخرين صفات شخصية ، فسعد بن أبى وقاص رجل حرب فيه شدة وغلظة ، والزبير بن العوام مؤمن الرضا كافر الغضب – يعنى أنه لا يملك نفسه فى وقت غضبه ، وعثمان بن عفان ذو عصبية وهو يحب قومه وأهله ، ثم قال وهو يغالب سكرات الموت : لقد قومت لكم الطريق فلا تعرجوه ، ثم قال لعلى : لعل الناس يعرفون لك حقك وشرفك وقرابتك من رسول الله (ﷺ) ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين . فإنْ وُلِّيتَ هذا الأمر فاتق الله فيه ولا تحمل أحدًا من بنى هاشم على رقاب الناس ، ثم التفت إلى عثمان وقال لعل هؤلاء القوم يعرفون لك كذا وكذا ، فإن وليت هذا الأمر فلا تحمل أحدًا من بنى أمية على رقاب الناس ، وأوصى ألا يغير أحد من ولاته على الأقاليم قبل أربعة أعوام .

وآلت الخلافة إلى عثمان ، فأنس الناس إلى ما فيه من لين ودعة لم يكن شىء منهما فى عهد عمر ، وشهدت السنوات الأولى من حكمه رخاء نعم به الناس وفرحوا ، وأبقى عثمان ولاة عمر أربعة أعوام ثم استبدلهم بآخرين كانوا أقل كفاية ، وبدأت أصابع بنى أمية تلعب فى السياسة العامة ، وبدأت محاباة عثمان لهم تسفر عن وجهها ، وظهر على

---

(١) الإمامة والسياسه ص ٤٢ وما بعدها . وتقيم على الحق : لا تنحرف عنه .

الناس منذ السنة السابعة تذمر واستنكار ، ولم يكن لهذا الخليفة الحيي من الشدة ما يكبح به هذا التذمر ، ولا من القوة الشخصية ما يرد به بني أمية عن الطريق الذى انحدروا فيه ، بل كان بينهم من هو أحصف منه رأيا ، وأبقى على سمعته ، فقد كان عمر بن الخطاب صادر أموالاً لأبي سفيان بن حرب ، فأراد عثمان أن يردها إليه ، فلم يقبل ، وأشفق عليه من مخالفة عمر ورده عملاً عمله[1] . ذلك لما يعلمه أبو سفيان من اطمئنان الناس إلى عدل عمر ، ثم استفحل الأمر بالخطاب الذى كتبه مروان بن الحكم ، وفيه الأمر بقتل محمد بن أبي بكر ، وكان الأمر يقضى أن يعاقب مروان عقوبة تطفئ ثورة الثائرين لكن عثمان لم يفعل . وانتهت الثورة بقتله قتلة شنعاء ، والمصحف بين يديه .

بايع الناس بعده على بن أبي طالب بالخلافة ، وامتنع معاوية عن بيعته ، وقال حتى يسلم قتلة عثمان ، ووقف أهل الشام وراء معاوية ، ووقف أهل العراق وراء على ، فلما التقى الجمعان فى صفين وهزم جيش معاوية الذى كان يقوده عمرو . وبه معاوية أيضًا ، رفعوا المصاحف على أطراف الرماح وقالوا نحكم كتاب الله وطلبوا التحكيم ، فانشق جيش عَلِيٍّ قسمين . قسما قبله وآخر رفضه والذين رفضوا هم الخوارج ، ثم انتهى التحكيم إلى ما آل إليه من الخدعة الشنعاء فإذا الأمة الإسلامية قد تقسمت إلى خوارج وشيعة وأمويين ، ورأى آخرون أن يعتزلوا هذه الفتنة ، ودبَّر الخوارج مقتل معاوية وَعَمْرو وعلى ولم يصب القتل إلا عليا ، ونصب ابنه الحسن خليفة ، فتنازل سنة ٤١ هـ عن الخلافة لمعاوية على شروط لم يرع معاوية منها شيئا .

وبعد استقرار الأمر لمعاوية بايع ابنه يزيد – ولم يكن فى نظر الأكثرين يصلح للخلافة ، فقام الحسين بن على يطالب بحقه فى الخلافة ، ولما قتل بكر بلاء ، كان مقتله مثيرًا لمشاعر الشيعة ومغضبًا لجمهور المسلمين . وقام بعده عبد الله بن الزبير يطلب الخلافة وكادت تتم له بيعة عامة ، ثم قام بعده المختار الثقفى واتخذ من الشيعة عونًا له ، وفى أواخر القرن الأول الهجرى قام محمد بن عبد الرحمن بن الأشعث فانضم عدد كبير من الأنصار الساخطين على بنى أمية ، ثم قام يزيد بن المهلب بن أبي صفرة بثورة أخرى ، كل هذا والخوارج منذ موقعة صفين يجاهدون فى سبيل مبدئهم .

وفى أواخر العهد الأموى تولى خلافة المسلمين خلفاء لم يقدروا موقفهم فى الحكم ، ولا جلال الخلافة مما هيأ للخراسانيين والأعاجم بوجه عام أن يجهروا بدعوتهم السرية

---

(١) العقد الفريد ح ١/ ٤٠ . ٤١ . ونجد هذا قد حدث غير مرة .

فظهر أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩ هـ ، ثم قضى على الدولة نهائيًا سنة ١٣٢ هـ .

بهذا نجد أن الدولة الإسلامية منذ مقتل عثمان كانت أتونا من الحروب التى لم تكن تهدأ إلاّ لتقوم ، وكانت تشب قبل كل شىء بوقود الخطابة . فأثرى هذا العهد حقل الخطابة ثراء لم يظفر التاريخ الإسلامى بمثله ، واتخذت فيه الخطابة مظهرًا لم يكن لها من قبل .

ونضيف إلى هذا أن الفتوحات التى امتدت شرقًا وغربًا كانت تعتمد أيضًا على الخطابة ، ولكننا لن نقف لديها طويلاً .

ونستعرض بإيجاز مواقف هذه الأحزاب وآثارها الخطابية .

١ ـ الحزب الأموى وبنو هاشم

هذا هو الحزب الحاكم ، والأحزاب الأخرى جميعًا خصوم له ، ولكن أقوى حزب كان يعارض الأمويين هو حزب الشيعة أنصار على ، وهو الذى قوض أخيرًا عرش بنى أمية وقضى عليهم . ولا ترجع هذه الخصومة إلى بداية النزاع على الخلافة بين على ومعاوية ، ولكن جذورها ترجع إلى أعماق بعيدة فى التاريخ .

فنى ألفاف الماضى قبل الإسلام نجد عنصرين أساسيين لهذا النزاع ، أولهما ما كان من التنافس بين عبد المطلب ، وبين حرب بن أمّية ، هذا التنافس الذى انتهى إلى نفى حرب إلى الشام ، فاستطاع أن يكون له هناك أتباعًا ، وثانى الأمرين ما كان من التنافر بين العراق والشام ، وهذا بدوره يرجع أصلاً إلى العداء بين الفرس والروم ، وكان بنو المنذر أتباعًا للفرس ، وكان الغسانيون أتباعًا للروم ، وكان هذان الجذمان العربيان بعضهم لبعض عدو ، وقد غضب النعمان بن المنذر على النابغة الذبيانى لأنه رحل إلى الغسانيين ومدحهم ، ثم ظل العراق الفارسى والشام الرومى على عداء أيضًا ، ولما انتقل على إلى الكوفة كانت الحرب واضحة جدًّا بين الشام والعراق ، وقد جاء فى خطاب معاوية إلى على هذا البيت :

أرى الشام تكره ملك العراق   وأهل العراق له كارهينا

وبسبب التنافس القديم بين بنى هاشم وبنى أمية كان وقوف أبى سفيان ضد النبى محمد (ﷺ) ومحاربة دعوته . وقال مرة : تنازعنا الشرف وبنى هاشم أطعموا فأطعمنا . وسقوا فسقينا حتى إذا صرنا كركبتى البعير قالوا منا نبى يُوحى إليه . . وهو كلام صريح فيما كانوا يرغبون فيه من إزالة هذا السبب الذى رفع بنى هاشم عليهم . بل نجد معاوية يقول : بنو هاشم أشرف واحدًا ، ونحن أشرف عددًا . فما كان إلاَّ كلاَ وَلا حتى جاءوا بواحدة بذت الأولين والآخرين[1] .

ولم يتطلع بنو أمية للخلافة بعد رسول الله (ﷺ) مع شرفهم فى قريش لأنهم لا سابقة لهم فى الإسلام . ولكنهم كانوا يرقبون أحداثها عن كثب . لم يذكر لهم شىء يوم السقيفة . فلما أوصى أبو بكر بالخلافة إلى عمر قال أبو سفيان : فما فعل المستضعفان . ؟ يريد عليا والعباس . ولما اختير عثمان من الستة الذين عينهم عمر قال على : والله ما هذا أول يوم تآمرتم علينا فيه . وقال أبو سفيان لبنى أمية : تلقفوها تلقف الكرة ولا تدعوها تفلت من أيديكم . فهم بهذا قد ظفروا بشىء كانوا يتطلعون إليه من زمن بعيد .

وقد حابى عثمان أقاربَهُ محاباة طمست فى أذهان الناس ما كان له من فضل وتضحية فى سبيل الإسلام حتى نجد كبار الصحابة يجابهونه بخطئه ـ قال له عمرو بن العاص : إنك ركبت بالناس نهابير[2] من الأمر . فتب يتوبوا . وقام رجل من الأنصار فأنكر عليه إعطاءه المال لمن لم يغزوا . فاستغفر الله . قال فما بال هذا الشارب لا تقيم عليه الحد ـ وهو يشير إلى الوليد بن عقبه بن أبى معيط ـ وكان قد صلى الصبح بالناس وهو سكران . فصلاه أربع ركعات ثم التفت إلى الناس . وقال : إن شئتم زدتكم . فقال عثمان لعلى دونك ابن عمك فأقم عليه الحد . فجلده عبد الله بن جعفر أربعين . وأمسك . وقال : جلد رسول الله وأبو بكر أربعين . وكملها عمر ثمانين . وكل سنَّةٌ . كذلك نجد طلحة يجابهه وهو محاصر ممنوع من الماء . فيقول له أنت غيرت وبدلت .

ولعثمان فى شدته وحصاره خطب ومحاورات نذكر شيئًا منها :

---

(١) انظر العقد الفريد ٢٦٢/٣ ـ وأراد بالواحد عبد المطلب بن هاشم . وبالواحدة التى بذت رسول الله (ﷺ) .

(٢) مهالك ـ المفرد نهبرة ونهبورة . ـ والنهابر جهنم .

١ ـ محاورة على بن أبى طالب

كان عثمان قد جمع عددًا من ولاته وفيهم معاوية وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وسعيد بن العاص ، وعمرو بن العاص . ليشاورهم فى أمره ، وما بلغه عنهم ، وقال لهم :

« إن لكل أمرئ وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا إلى أن أعزل عمالى ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علىَّ » فأشار كل برأيه ، ولكن لم ير واحد منهم أن يُعْزَل هو أو غيره ، ولكن عمرو بن العاص قال له : « أرى أنك قد ركبت [1] الناس بما يكرهون » ، فاعتزم أن تعدِل ، فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل ، فإن أبيت فاعتزم عزمًا وأمض قدما » ـ ولم يكن عمرو من ولاته بعد أن عزله عن مصر وولى مكانه عبد الله بن أبى سرح . ورد عثمان عماله إلى أعمالهم ولم يعد الاجتماع بفائدة .

ولما كانت سنة ٣٤ هـ قدم الناس وكثروا على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، والصحابة لا ينكرون عليهم شيئًا إلا أفرادًا معدودين منهم زيد بن ثابت ، وحسان بن ثابت ، فاجتمع الناس حول على بن أبى طالب يكلمونه ، فدخل على عثمان فقال :

« الناس ورائى وقد كلمونى فيك ، والله ما أدرى ما أقول لك ، وما أعرف شيئًا تجهله ، ولا أدلك على أمر لا تعرفه ، إنك لتعلم ما نعلم . ما سبقناك [2] إلى شىء فنخبرك عنه ، ولا خلونا بشىء [3] فنبلغكه ، وما خصصنا بأمر دونك ، وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ونلت صهره ، وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشىء من الخير منك ...

فاللهَ اللهَ نفسك ، فإنك والله ما تُبصَّرُ من عمى ، ولا تعلم من جهل ، وإن الطريق لواضح بيِّنٌ ، وإن أعلام الدين لقائمة .

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل ، هُدِىَ وَهَدَى ، فأقام سُنَّةً معلومة وأمات بدعة متروكة ... وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضُلَّ وضَلَّ ، فأمات سنة معلومة ، وأحيا بدعة متروكة ، وإنى سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : يؤتى يوم

---

(١) سلطت عليهم وقهرتهم .

(٢) ما علمنا شيئا قبل أن تعلمه .

(٣) عملناه على انفراد .

القيامة بالإمام الجائر ، وليس معه ناصر ولا عاذل[1] . فيلقى فى جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتطم فى غمرة جهنم ، وإنى أُحَذِّرُك الله . واحذرك سطوته ونقماته ، فإن عذاب الله شديد وأليم ، وأُحذِّرُك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال : يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعا ، فلا يبصرون الحق لعلو الباطل ، يموجون فيها مَوْجًا ، ويَمْرحون فيها مَرَحًا » .

فقال عثمان : « قد علمتُ والله ليقولُنَّ الذى قلت ، أما والله لو كنت مكانى ما عنفتك ولا أسْلَمتك ولا عبتُ عليك : والله ما جئت منكرًا أَنْ وصلت رحما ، وسددت خَلَّةً ، وآويت ضائعًا ، ووليت شبيهًا بمن كان عمر يولى ، انشدك الله يا على هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ، وتعلم أن عمر ولاه ؟

قال على : نعم ،

قال : فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟

قال على : سأخبرك ، أن عمر بن الخطاب كان كُلَّ مَنْ وَلَّى فإنما يطأ على صماخه[2] ، إن بلغه عنه حرف جَلَبَه[3] ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ! ضعفت ورفقت على أقربائك .

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضًا .

قال على : لعمرى إن رحمى منهم لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرها .

قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ، ؟ فقد وليته .

فقال على : أنشدك الله هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من « يَرْفَأَ » غلام عمر منه[4] .

قال عثمان : نعم

---

(١) ليس هناك من يلومه أو يدافع عنه .

(٢) الصماخ الأذن كنى بها عن الرأس ، يريد أنه يخضعه لأمره .

(٣) سحبه من وظيفته أو استحضره إليه .

(٤) كان يخاف عمر أكثر مما يخاف منه هذا الخادم .

قال على : فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول الناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية .

ثم خرج على .

فى هذا الحوار تجد أن عليا يتغلب على عثمان ، ويبدو الخليفة وهو يحاول أو يروغ ، فيقول له إن أقاربى أقاربك ، كما يخفق فى التسوية بينه وبين عمر .

أما ما جبهه به عمرو بن العاص حين اجتماعه بعملائه ، فلا تبدو فيه النصيحة بقدر ما يبدو فيه الدهاء ، وقد اعتذر عمرو بعد خروج الولاة عذرًا عجيبًا إذ قال إنه إنما قال هذا ليبلغ كلامه الناس فيثقوا به ، فيقودُ لعثمان خيرًا ، أو يدفع عنه به شرًّا ، وعمرو رجل جرىء لا يبالى أن يقول ما يقول : وهو موتور لعزله عن مصر .

خطبة عثمان بالمسجد

خرج عثمان عقب هذا الحوار إلى المسجد فألقى فى الناس خطبة جاء فيها : «أما بعد ، فإن لكل شىء آفة ، ولكل أمر عاهة ، وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيّابون طعانون ، يُرُونكم ما تحبون ، ويُسِرُّون ما تكرهون . يقولون لكم ويقولون ، أمثال النعام يتبعون أول ناعق . أحب مواردها إليها البعيد[1] ، لا يشربون إلا نغصا[2] ، ولا يردون إلا عكرا ، لا يقوم لهم رائد ، وقد أعيتهم الأمور ، وتعذرت عليهم المكاسب .

ألا والله فقد عبتم على بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم ، ولنت لكم وأوطأت لكم كتفى ، وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على .

أما والله لأنا أعز نفرا ، وأقرب ناصرا وأكثر عددا[3] ، وأقمن[4] إن قلت هَلُمَّ أُتِىَ

---

(١) النعام تترك الماء القريب لتشرب من آخر بعيد ، يريد أنهم يكرهونه ويحبون غيره .

(٢) عكرا .

(٣) يريد أن قومه وأنصاره أقوى من أنصار عمر .

(٤) أقمن بمعنى أحرى وأحق ، إذا دعوت لنصرة أتانى الكثيرون .

إلىّ ، ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى ، وأخرجتم منى خُلُقًا لم أكن أُحْسِنُه ، ومنطقًا لم أنطق به فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على وُلاتِكم[1] ، فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا .

ألا فما تفقدون من حقكم ، والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ، ومن لم تكونوا تختلفون عليه ، فَضَلَ فَضْلٌ من مال ، فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد ؟ فَلِمَ كُنتُ إمَامًا » ؟

فقام مروان بن الحكم فقال : إن شئتم حَكَّمنَا ـ والله بيننا وبينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مَعَارِسكُم تبنون فى دمن الثرى[2]

فقال له عثمان : اسكت لا سُكِّتَّ[3] ، دَعْنى وأصحابى ، ما منطقك فى هذا ؟ ألم أتقدم إليك ألاَّ تنطق ؟ فسكت مروان ونزل عثمان .

وهذه الخطبة القصيرة على حظ كبير من المنطق والسداد ، وهى مقسمة إلى عناصر مميزة :

بين أولاً أن هناك أعداء له ، يعيبون أعماله ويطعنونه من خلف ، ويمنون الناس بما لا يحققونه لهم ، ـ وهو بهذا يردهم عن اتباع هؤلاء العيابين ويوئسهم مما يعدونهم به ، يريد بهذا أن يرد جماح الثائرين ، وأن يجعلهم يصمون آذانهم عن دعاة الثورة . وأشار إلى أن هؤلاء يخدعون أنفسهم أيضًا إذ يتوقعون فيمن بعده خيرًا مما عنده ، وشبههم بالنعام الأحمق .

وفى العنصر الثانى بين لينه ورفقه بهم بجانب شدة عمر عليهم ، ثم هدد فى غير شدة بما لأسرته من قوة لم تكن لأسرة عمر ، وذكر أنهم إن أثاروا حربًا ضده أو خرجوا على طاعته ، فإن لديه جنودًا على استعداد لحربهم ، واعتذر عن ذلك بأنه لا يريده وليس

---

(١) يريد ولاته فى الأقاليم وكل اقليم عاب مواليه .

(٢) معارسكم مفعول به مقدم ، اى تبنون معارسكم فى دمن الثرى . والمعارس جمع معرس ما ينزل فيه المسافر ـ أى أبيتم الفراش اللين ولن يكون لكم بعده إلا الخشن .

(٣) لا سكت ، لا سمع لك صوت حتى تسكت . يدعو عليه بالموت .

هذا من طبعه ولكنهم هم الذين حملوه على هذه الشدة ، وكان لبقًا جدًّا إذْ قَرن هذا التهديد بأنه أعطاهم أعطياتهم ولم ينقصهم شيئًا ، وأنه لم يقصر فى حق لهم ــ وكان عثمان ــ رضى الله عنه ــ صادقًا كل الصدق فيما وصف به نفسه من حب الرفق وأن الانتقام والشدة وإراقة الدماء ليست من خلقه . فعثمان حقًّا حَيِىٌّ أقرب إلى الضعف ، ومع قوة أتباعه وقومه لم يجنح إلى استعمال القوة . ولم يقبل حتى الخروج إلى الشام ، ومن ميله إلى اللين والرفق أنه انتهر مروان وأسكته .

كان عثمان يحابى أقاربه بالوظائف وغير الوظائف ، وحين أمر عبد الله بن سعد بن أبى سرح أن يفتح إفريقية ، جعل له خمس الخمس من الغنيمة ، وعملا بالآية القرآنية ــ تقسم خمسة أقسام . أربعة للغزاة ، وخمسًا لبيت المال ، فأعطاه عثمان خمسه . ثم قسم الأربعة الأخرى التى أرسلت إليه بين بنى الحكم . وقيل بين بنى مروان . وقد أثار هذا عليه الناس مع الأسباب الأخرى ، وهو يعتذر بأنه مال زائد عن الحاجة ومن حق الخليفة أن يتصرف فيه .

وضاعت خطبة عثمان هباء لأن الثورة كانت قد أخذت تشب ، وكان هناك عوامل أخرى أكبر من أن تطفئها خطبة ، والخطبة بداية تطور لأنها أصبحت سياسية ، وليست دينية بحتة كخطبته التى سبقت .



ثالثا : الخطابة فى العصر الأموى

هذا العصر من أزهى عصور الاسلام خطابة ومحاورات ، ولم يكن حظ الخطبة من الرواج والنقاء فى أى عصر من عصور الأدب العربى كله مثل ما كان فى هذا العصر ، خصوصا فى أول قيام الدولة . وأثناء بذل جهودها العديدة فى تثبيت أقدامها ودحض خصومها ،

سبب هذا الرواج أن دواعى كثيرة للخطابة كانت متوفرة ، الحرية متوفرة ، واللغة حية سليمة ، وطيعة موفورة للمتكلمين ، وظروف السياسة العامة تدعو إلى كثرة الخطب وتثير الحماس فى نفوس الخطباء .

تعددت الأحزاب وظلت تتعدد لمدة طويلة ، وجد فى أول الأمر حزبان كبيران ـ حزب معاوية وحزب على ، ثم سرعان ما ظهر الخوارج وبرزت أيضا فجأة موقعة الجمل ، ثم ظهر حزب الشيعة بعد مقتل الحسين ، كما ظهر حزب الزبيريين ، ثم حزب ابن الأشعث ثم المختار الثقفى . واعتمدت كلها على الخطابة ، ومع ما كان يلجأ إليه كل حزب من التحاف الدين والتستر بوشاحه ، كان كل حزب ينتقص خصومه ويذكر معايبهم ، وقامت لذلك محاورات ومناظرات كثيرة وعنيفة ، وهى فى جملتها لم تخرج عن منهج الخطابة ، ولم يقف هؤلاء جميعا ضد الحزب الأموى فقط . فقد كان الإمام على يحارب فى جبهات متعددة ، ثم لما استقر الأمر لا بن الزبير كان يحارب العلويين كما يحارب الأمويين ، وقد عاقب منهم من عاقب ، وناظر من ناظر وله مع ابن عباس مواقف معلومة ، كل هذه الخصومات والثورات اعتمدت على الخطابة واتخذتها وسيلة دعاية يدافع بها كل عن نفسه ويشهر بخصومه .

ساعد على هذا أيضا أن المستمعين كانوا لا يزالون عربا خلصا ، يفهمون اللغة ويقدرون الكلام الجيد البليغ ، وكان ذلك مما يشجع ويبعث فيه الهمة والنشاط على تجييد الخطبة وتجويد عباراتها .

وقد كثر فيها الاقتباس من القرآن رغبة فى جعل الدعوة دينية ودفاعا عن مبادئ الإسلام ،

ولما هدأت كل هذه الخصومات واستقر الأمر لبنى مروان انبعث فى الشعر نشاط قلل من نشاط الخطابة وأهميتها ، ولكنها لم تنقطع ، وقد كان الخوارج حتى آخر الدولة مسعرا للخطابة كثيرا ، وسنذكر موقف يزيد بن الوليد من ابن عمه الوليد بن يزيد وخطبته التى قالها بعد قتله .

ونستعرض من الآن بإيجاز بعضا من خطباء كل ، وليس من الممكن أن نستقصى جميع الخطباء ، وفيمن نذكرهم كفاية .

خطباء الحزب الأموى

كان هذا الحزب أكثر الأحزاب خطباء ، لأنه وهو الحزب الحاكم انضم إليه خطباء ممن كانوا فى حزب على ، وممن كان يمكن أن يكونوا تبعا لأى حزب آخر ، وقد كان كل من المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه من أنصار على ثم انضما إلى معاوية ، وبعد القضاء على حزب الزبيريين انضم إلى بنى أمية آخرون من شعرائه وخطبائه . وكان فى بنى أمية عدد من الخطباء خلفاء وغير خلفاء كما كان فى ولاتهم عدد من الخطباء المشهورين أمثال زياد والحجاج وخالد القسرى وعمرو الثقفى ونصر بن سيار .. وهكذا كان خطباء هذا الحزب كثيرين ومشهورين . ونذكر منهم .

١ ـ معاوية بن أبى سفيان

معاوية من كبار الخطباء فى قومه ، وقد مرت خطب له ، وهو أيضا من دهاة العرب ، ومن أحكم الناس سياسة ، وأبصرهم بعلاج المشكلات ، وبدت عليه مخايل السيادة منذ طفولته ، وتوقعت ذلك له أمه غير مرة ، أسلم عام الفتح ، وكان كاتبا حاسبا سديد الرأى بادى الفطنة ، وهو من كتاب الوحى سئل ابن عباس عن صلاة له فقال إنه فقيه ، وقال عنه عمر إنه كسرى العرب ، ولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد ثم أقره عثمان فكانت ولايته عشرين عاما ، وتنازل له الحسن بن على عن الخلافة عام الجماعة فكان خليفة لمدة عشرين عاما أيضا إلا قليلا ، وهو فى الواقع تسمى بأمير المؤمنين عقب حادث التحكيم .

وهو فى نظر المستشرقين والكتاب الأوروبيين المؤسس الثانى للدولة الإسلامية بعد أبى بكر ، ذلك بسبب انتصاراته العظيمة على البيزنطيين برا وبحرا ، وبسبب جمعه شمل الدولة ولم شعث العرب .

وكان معاوية خطيبا مفوها يجيد تشقيق الكلام ويأتى بالعبارات البليغة الموحية . وقد قال فيه الشاعر :

ركوب المنابر وثابها مِعَنٌّ بخطبته مِجْهَرُ
تريع إليه هوادى الكلا م إذا ضل خطبته المِهْذَرُ

وكان يعين معاوية على إجادة خطبه أمور كثيرة أهمها جراءة قلبه وذكاء جنانه . ثم طواعية الكلام له . وقد فخر بنو أمية بميزاته الخطابية وقالوا إنه «أخطب الناس قائما وقاعدا . وعلى منبر وفى خطبة نكاح» ولم ترد عنه خطب كثيرة تناسب هذه الشهرة . وأكثر خطبه بعد مقتل عثمان . ودخوله مع على فى محاورات وجدل سياسى .

لم يكن معاوية وهو وال فى الشام بحاجة إلى خطب كثيرة أو طويلة . فقد كان جيشه أطوع جيش . وقومه أطوع قوم . وكان معاوية أكثر من أى حاكم أموى ، وربما أكثر من أى حاكم فى عصره ــ بصرا بالسياسة وقدرة على الاستيلاء على قلوب أتباعه وقد استعمل المال تارة واللين أخرى . وتأويل النصوص والأحكام ثالثة وهكذا وكان جوده بالمال . وجود الأمويين من بعده من أهم الأسباب التى ألفت قلوب رعاياهم وجمعتهم حولهم . فقد كان على بن أبى طالب حريصا على ألا ينفق شيئا من بيت المال فى غير وجهه الشرعى ، فيعدل الناس إلى معاوية .

قدم عقيل بن أبى طالب على أخيه على يشكو تأخر العطاء وغلاء الأسعار وثقل الدين . فقال له على : والله ما لى مما ترى شىء إلا عطائى . فاذا خرج فهو لك . فقال عقيل : ... وماذا يبلغ منى عطاؤك ، وما يدفع من حاجتى ؟ فقال على : هل تعلم لى ما لا غيره أم تريد أن يحرقنى الله فى نارجهنم فى صلتك بأموال المسلمين ؟ ...

فخرج إلى معاوية فقص عليه ما حدث ، فرحب به معاوية وأكرم نزله وقال : ياأهل الشام ، هذا سيد قريش وابن سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة فثاب إلى أهل الدعاء إلى الحق .... إن جميع ما تحت يدى لى ، فما أعطيت فقربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح على فيه ، ... وأمر له بثلاثمائة ألف دينار ، وقال : مائة

ألف تقضى بها ديونك ، ومائه ألف تصل بها رحمك ، ومائه الف توسع بها على نفسك[1] .

ولما قتل عمار بن ياسر أبدى عمرو بن العاص أسفه ، وذكر الحديث أنه تقتله الفئة الباغية فقال له معاوية : قبحك الله من شيخ ، فما تزال تنزلق فى قولك ، أو نحن قتلناه ؟ إنما قتله الذين جاءوا به ! ثم التفت إلى أهل الشام فقال : إنما نحن الفئة الباغية التى تبغى دم عثمان[2] .

وهكذا كان يجد من التأويل والسخاء ما يستميل به قومه . وقد أعفاه ذلك من الخطب ، فلم تكن له إلا كلمات قصيرة يوجههم بها فيتجهون ويأمرهم فيطيعون ، ولكن كثرت خطبه منذ خلافه مع على ولم تنقطع بعد عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) حين تنازل له الحسن بن على ، وقد قدم المدينة فى هذا العام ، فقال له رجال من قريش : الحمد لله الذى أعز نصرك ، وأعلى كعبك ، فلم يرد عليهم بكلمة حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد ....

فانى والله ماوليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ، ولقد رُضْتُ لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت منى نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة ، مواكلة حسنة ، ومشاربة جميلة ، فان لم تجدونى خيركم فانى خيرلكم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم الا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، وإن لم تجدونى أقوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ، فان السيل إذا جاد يثرى وإن قل أغنى ،

وإياكم والفتنة فانها تفسد المعيشة وتكدر النعمة ..

* * *

كاشف معاوية مستمعيه من أهل المدينة بأنهم لم يختاروه حاكما ولكنه قهرهم على قبوله ، وهى مقدمة يعرفهم بها أنه غير مخدوع بهم ، ولا بما يسمع منهم من كلمات

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ١٣٦/١ وما بعدها .

(٢) نفسه ٢٠٣ ، وفى ابن أبى الحديد والعقد أن قائل الحديث هو عبد الله بن عمرو.

المجاملة ، ولكنه مع هذا لم يفته أن يطمئنهم فى أثناء خطبته أنه لا يؤاخذهم بما فى نفوسهم من كراهة له . وانتقل من هذا إلى أنه لا يستطيع أن يتقشف تقشف الخليفتين الأولين ، ولعلهم ربما نفروا من هذا التقشف ورضوا بما ينالهم من عطائه ، أما سنيات عثمان التى ذكرها ، فإنما أرادبها الثناء عليه ، فعثمان لم يكن متقشفا ، ولكنه كان يجود بماله الخاص ، وكان من الأثرياء .. ثم مناهم بالمؤاكله الحسنة والمشاربة الجميلة ، وهى طريقته فى الاستمالة بالمال . وهو يعلم أن أهل المدينة لا يقرون له بسهر الليل تهجدا وقراءة قرآن ولا بميزة من العبادة فذكر أنه إن لم يكن خيرهم فى هذا فحكمه خير لهم من حكم غيره ،

ومن سياسته أن أعلن أنه لن يؤاخذ عدوا له بعداوته ما دام لا يثير عليه فتنة ، ولا يشن حربا وهى سياسة نجدها فى خطب زياد والحجاج .

ولعلم معاوية بعدم الرضا عنه حذر من الفتنة .

خطبة غير طويلة ولكنها جامعة لكل جملة منها غرض مستقل .

ولمعاوية خطب أخرى أكثرها قصير وبعضها فى مثل هذا الطول أو أكثر قليلاً وله خطب دينية خالصة فى مثل هذا الأسلوب .

سياسته كما يصورها

عندما أراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد لم يشأ أن يطلبها من الناس بنفسه أو يظهر اقتراحها عليهم ، ولكنه أوعز بها إلى آخرين من الشعراء والخطباء ، ويقال إن المغيرة بن شعبة هو صاحب الفكرة ومزينها فى رأس معاوية وكان المغيرة على الكوفة ، وعلم أن معاوية يريد عزله ليولى مكانه سعيد بن العاص ، فتقرب إلى معاوية بهذه الفكرة ، وقال له : «وأنا أخاف إن حدث بك حدث أن يقع الناس فى مثل ما وقعوا فيه بعد قتل عثمان»[1] ، ولكن يبدو أن الفكرة كانت موجودة قبل ذلك ، لأنا نجد زوجة معاوية فاختة أم ولده عبد الله تصده عن هذا العمل فيجهد جهده فى إنجازه ، أوصى صفيه الضحاك بن قيس الفهرى أن يقترحه على ملأ من الناس ، وأوصى آخرين أن يؤيدوا

---

(١) الإمامة والسياسة ٢٦٣/١ ، تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ وما بعدها .

الضحاك ففعلوا[1] ، ورغم معارضة من عارضوا ولى معاوية الضحاك على الكوفة مكافأة له ، وولى عبد الرحمن بن عثمان الثقفى على الجزيرة لأنه كان أول من أيد الضحاك بإيعاز معاوية ، ثم عزل مروان بن الحكم عن المدينة لانه كتب له أن قريشا تأبى بيعة يزيد ، ثم هدد معارضيه أبناء الصحابة بالقتل وكذب على أهل الشام فأخبرهم أن هؤلاء بايعوا ، فى قصص معروف ، وكل هذا الحماس ينبئ أن الفكرة لم تكن طارئة ، ولا يبعد أن يكون معاوية أوحى بها إلى المغيرة ، على أننا نجد المغيرة يبذل جهدا بالكوفة لاستمالة الناس بالمال .

ونجد معاوية أيضا يجد فى الاتصال بولاته ليرسلوا إليه وفودا يؤيدون ترشيح يزيد لولاية عهده ، ثم يخطب فى المدينة مزكيا ابنه معتلا لتوليته بعلل شتى .

ويقول صاحب العقد الفريد[2] : إنه لما مات زياد أظهر معاوية عهدا مفتعلا فقرأه على الناس فيه عقد الولاية لزياد بعده ، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد ، فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين ... حتى استوثق له من أكثر الناس . فلما كانت سنة خمس وخمسين ، كتب إلى سائر الأمصار فوفد عليه من كل قطر قوم ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمر بن حزم ، فكان مما قاله لمعاوية : ياأمير المؤمنين إن الله سائل كل راع عن رعيته ، فاتق الله وانظر من تولى أمة محمد ، فأخذ معاوية بهر[3] حتى تنفس الصعداء[4] ، وذلك فى يوم شات ، ثم قال : إنه لم يبق إلا ابنى وأبناؤهم ، فابنى أحب إلى من أبنائهم .

بوجه عام كانت سياسة معاوية مجاراة لوصية أبيه ـ غداة تولى عثمان الخلافة : « تلقفوها تلقف الكرة ، ولا تدعوها تفلت من أيديكم » فكان حريصا على بقائها فى عقبه .

---

(١) أوحى معاوية بهذا أيضا إلى مسكين الدارمى الشاعر فوقف فى المسجد وأنشد :

ألا ليت شعرى ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفاء الله مهلا فإنما ... يسيرها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فقال معاوية : اجلس يامسكين وننظر فيما تقول ، متظاهرا بأن ذلك اقتراح من الشاعر وليس بإيعاز منه .

(٢) جـ ٥/١٣٠ .

(٣) البهر انقطاع النفس .

(٤) كبر حاه تنفس طويل .

والمشهور بين المؤرخين أن المغيرة بن شعبة هو صاحب هذه الفكرة فإن صح هذا فهو اقتراح صادف هوًى وعزما سابقا من معاوية ، يدل على ذلك هذا التصميم البالغ الحد ، ويذكر ابن الأثير أن معاوية ذهب الى المدينة في ألف من رجال الشام ليرغم أبناء الصحابة المعارضين على البيعة ليزيد .

ومعنى هذا أن معاوية يحسن التأتى لما يريد ، ويهيئ للأمر الذى يريده مختلف الأسباب ، فإذا دعا الأمر إلى استعمال القوة استعملها ولكن بعد استنفاد حبل السلم .

أما وصيته التي تركها لابنه يزيد عندما مرض مرضه الأخير فهى تنبئ حقا عن معرفته بالناس ودرسه نفسياتهم ، وهى ترد فى كتب الأدب والتاريخ باختلاف يسير فى عباراتها[١] ، ويقال إنه لم يشافهه بها ولكنه طلب من كل من الضحاك بن قيس الفهرى ، ومسلم بن عقبة المرى ليبلغاها إياه إذ كان هو غائبا ، ويقال إنه دعا يزيد نفسه وألقاها عليه . ولكنها رواية مرجوحة تدحضها ظروف موت معاوية ودفنه ، فمن الثابت تاريخيا أن الذى تولى غسله ودفنه هو الضحاك بن قيس ، وأنه خطب الناس فقال :

« إن ابن هند قد توفى ، وهذه أكفانه على المنبر ، ونحن مدرجوه فيها ، ومخلون بينه وبين ربه ، ثم هو البرزخ إلى يوم القيامة ، ولو كان يزيد حاضرا لم يكن للضحاك ولا لغيره أنَ يفعل شيئا من هذا .

وقع موته عند خصومه .

ليس عجيبا أن يبكى معاوية بعض خصومه مثل عبد الله بن الزبير وابن عباس ، ذلك أنهم كانوا يقدرون دهاءه ومقدرته السياسية ، كما كانوا يتوقعون آثارا سيئة من يزيد الذى أخذ له أبوه البيعة كرها عنه .

أما عبد الله بن الزبير فجاء عنه أنه صلى بالناس الصبح ثم انفتل من الصلاة ونشج ثم قال :

« رحم الله معاوية إن كنا لنخدعه فيتخادع لنا ، وما ابن أنثى بأكرم منه ، وإن كنا لنعرفه يتفارق لنا[٢] ، وما الليث المجرب بأجرأ منه ، وأنشد البيتين السابقين عن خطابته

---

(١) انظر الأغانى ١١١/١٧ ط دار الكتب .

(٢) نفسه ٣١٣ .

ثم قال : والله لودى أنه يبقى بقاء أبى قبيس ، لا يتخون له عقل ، ولا تنقص له قوة . . .

وأما ابن عباس فجاء عنه روايتان ، جاء أنه استأذن على معاوية ليزوره فى مرضه ، فأخذ معاوية يهيء نفسه قبل أن يدخل عليه ـ فلما دخل وجلس تمثل معاوية :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فأجاب ابن عباس :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فما خرج حتى سمع الصراخ على معاوية ، وهى رواية فى كثير من كتب الأدب ، وجاء فى الأغانى انه أتا نعى معاوية وولاية يزيد ، وهو يأكل مع أصحابه ، فألقى اللقمة وأطرق ، ثم قال : جبل تدكدك ، ثم مال بجميعه فى البحر ، واشتملت عليه الأبحر ، لله درُّ ابن هند ما كان أجمل وجهه وأكرم خلقه ، وأعظم حلمه . ولما استنكر عليه بعض سامعيه قال له « ويحك : إنك لا تدرى من مضى عنك ، ومن بقى عليك ، وستعلم » .

وهذا واضح فيما يتوقع من يزيد .

نص الوصية

وردت هذه الوصية بصيغ مختلفة قليلا فى كتب التاريخ والأدب ـ وننقل هذه الصورة من الإمامة والسياسة :

«يا بُنى إنى قد كفيتك الرحلة والترحال ، ووطأت لك الأشياء ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وإنى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر .

فأما عبد الله بن عمر فرجل قدوقذته[1] العبادة ، «فحل بينه وبين دينه يحل بينك وبين دنياك[2] ، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين فان أهل العراق لن يدعوه

---

(١) أنهكته وذهبت بقوته .

(٢) ليست فى الطبرى .

حتى يخرجوه ، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحما ماسَّةً وحقًّا عظيما وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه » . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ، ليس له همة إلا في النساء واللهو ، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فاذا أمكنته فرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها لك فظفرت عليه فقطعه إِرْباً إِرْباً »[1] .

وهناك رواية أخرى تذكر شيئا عن أهل الأقطار العربية ، جاء فيها : « انظر إلى أهل الحجاز ، فانهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده . وانظر إلى أهل العراق ، فان سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم ، فانّ عزل عامل واحدٍ أهون عليك من سَلّ مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم[2] . ثم انظر إلى أهل الشام ، فاجعلهم الشعار دون الدثار[3] ، فان رابك من عدو ريب فارمه بهم ، فان أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، لا يقيموا[4] فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير أدبهم ، ولست أخاف أن ينازعك هذا الأمر غير عبد الله بن عمر ... الخ .

وفى رواية ثالثة : لست أخاف عليك من قريش إلا ثلاثة ــ ولم تذكر هذه الرواية عبد الرحمن بن أبى بكر ، وهناك رواية رابعة تجعل هؤلاء خمسة وتزيد عبد الله بن عباس .

هذه الوصية تعكس صورة واضحة من سياسة معاوية ، ومعرفته بالناس وبالشعوب ، وما ينبغى أن يعامل به كل قطر وكل شخص . وربما زيد فى هذه الوصية ما لم يكن فيها ، ولكن هذه الزيادة ليست بعيدة عن رأى معاوية ، ولا عمن قيلت فيه ، ولكننا نستبعد ذكر ابن عباس ، لأنه لم يكن متطلعا للخلافة ، ولا بدا فى محاوراته مع معاوية أنه يريد الحكم لنفسه ، بل كان يراه حقا للحسين ، وحكم معاوية على أهل العراق هو أصدق حكم وأصوبه ، فهم خذلوا الحسين فعلا بعد أن استحثوه ، وحكمه على أبناء الصحابة حكم خبير بنفسياتهم ، وعبد الله بن الزبير يتهم من كثيرين بأنه هو الذى حرض الحسين على الخروج إلى العراق ، وزين له المطالبة

---

(١) فى رواية فإنه خب ضب ، فإن ظفرت فاسحق رأسه ، فإنه رأس الأفعى ــ والخب «كبئر» الماكر الخبيث .

(٢) لا تدرى ما يكونون لك ولا ما يصيبك منهم .

(٣) الشعار مايلى الجسم من الثياب ، والدثار مافوقه .

(٤) العبارة انشائية صيغة نهى ، ولذا جزم الفعل .

بالحكم ، وكان يعلم أن العراقيين لن ينصروه ، ولكنه يريد أن يخلو له الجو بعد الحسين ، ولم يكن بعد الإمام على من هو أقوى من حزب الزبيريين ، وكان عبد الله خليقا أن يقضى على الحزب الأموى كله للكثرة التى التفت حوله ، ولكن بنى أمية كانوا أبصر بالسياسة ، وأقدر على تأليف القلوب بما يبذلون من الأموال .

ولمعاوية ويزيد ابنه خطب دينية بعيدة عن شئون السياسة ، وخطب يزيد الدينية تصور قدرته على الخطابة أكثر مما تصور نفسيته .

وهناك جانب آخر يبرز سياسة معاوية ودهاءه ومقدرته السياسية وجرأته الشديدة ـ ذلك هو كتاباته الكثيره لعلى نفسه ولأتباعه من مثل قيس بن سعد وأبى أيوب الأنصارى ، وقد استطاع أن يستميل زيادا إليه بهذه الطريقة .

معاوية فى نظر التاريخ .

خلاصة القول فيه أنه رجل سياسة وليس رجل دين ، وهو فضلا عن رغبته العظيمة فى تولى الحكم يرى نفسه أولى به من بنى هاشم ، كما قال للحسن بن على أنتم أهل عبادة ولكن لا علم لكم بالحكم ، ولحبه الحكم حَرِصَ على توريثه يزيد ابنه مع علمه بما فيه . وقد لامه عليه الكثيرون حتى السيدة عائشة أم المؤمنين لامته عليه ومن الناحية الثانية وَحَّدَ معاوية الدولة تحت حكمه ثم قادها قيادة ناجحة وسع حدود الدولة الإسلامية وأنشأ أول أسطول إسلامى واقتص أطرافا من الدولة الرومانية والدولة الفارسية ، كل هذا والأمة الاسلامية تتمتع برخاء ، ولم يقصر فى نشر العلم وبث الوعظ والثقافة الدينية .

٢ ـ يزيد بن معاوية

كانت أم يزيد هى ميسون بنت بحدل من قبيلة كلب ، وهى قبيلة كبيرة أصهر إليها هو وعمرو بن سعيد وعثمان وغيرهم ، ولعل معاوية التمس بهذا الإصهار أن يكون له سند من هذه القبيلة البدوية ، وإلى ميسون هذه يرجع أكبر الأثر فى تكوين يزيد ، وقد كانت كثيرة الحنين إلى حياة الصحراء ، وكانت تذهب إليها كثيرا وتصطحب يزيد معها ، وكانت قبيلتها نصرانية أسلم منها بعض وبقى آخرون على نصرانيتهم ، وباختلاط يزيد بهم تعلم الشرب كما تعلم الفروسية والفصاحة ، وكان الأمويون يبعثون بأبنائهم إلى هذه الصحراء صحراء تدمر أو صحراء الشام كما سميت بعد . ليتعلموا اللغة ويسلم لسانهم من اللحن ، ولما لم يرسل عبد الملك ابنه الوليد إليها نشأ لحانة . كان يزيد مع ميله

للمجون وحبه للغناء[1] والشراب ـ فارسا شجاعا وعينه أبوه قائد حملة بحرية لفتح القسطنطينية ، وقد أحرزت هذه الحملة نجاحا وإن لم تفتح القسطنطينية ، وأطلق على يزيد بعدها اسم فتى العرب ، وكان ذلك تمهيدا لتقليده ولاية العهد .

وليزيد خطبة شهيرة قالها عقب وفاة أبيه وإفضاء الخلافة إليه منها :

« ... إن معاوية كان حبلا من حبال الله مده ما شاء أن يمده ثم قطعه حين شاء أن يقطعه ، وكان دون من قبله وهو خير ممن بعده ، ولا أزكيه عند ربه وقد صار إليه ...

وقد وليت الأمر بعده ، ولست أعتذر من جهل ، ولا آسى على طلب علم[2] ، وعلى رسلكم إذا كره الله أمرا غيّره[3] .

٣ ـ عتبة بن أبي سفيان

ولاه أخوه معاوية مصر بعد وفاه عمرو بن العاص سنة ٤٣ هـ ، وكان قد حج بالناس سنة ٤١ ، ٤٢ ، وولى المدينة والطائف لأخيه غير مرة ، وشهد موقعة الجمل مع السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وفيها ذهبت عينه ، ولنجاح سياسته بمصر جمع له معاوية الصلاة والخراج ، وعتبة قريب الشبه من أخيه فى سياسته ، كان يعلم أن أهل مصر فيهم كثرة من أتباع علي ، فأخذهم بالشدة حينا واللين حينا حتى أرغمهم على الخضوع لبنى أمية ، وكان أخطب من معاوية ، بل من أخطب بنى أمية حتى قال الأصمعى : الخطباء من بنى أمية عتبة وعبد الملك ، وأقوى خطبه ما كان بمصر ، وهى مليئة بالتهديد ، وقد نجح فى تهديده حتى إنه خطب مرة فقال :

« ... قد وليكم من إن قال فعل ، فإن أبيتم درأكم[4] بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ... لنا عليكم السمع والطاعة ، ولكم علينا العدل : فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه ـ فصاح المصريون من جنبات المسجد سمعا سمعا ، فناداهم عتبه : عدلا عدلا .

ومن خطبه ذات التهديد :

---

(١) كان مسلم بن عمرو أبو قتيبة بن مسلم مغنى يزيد (عيون الأخبار ٢١٣/٥) .

(٢) عبارة عيون الأخبار : ولا اشتغل بعلم وآثرنا رواية العقد الفريد .

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٣/١ .

(٤) دفعكم .

«يا أهل مصر : خف على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم تأتونه ، كالحمار يحمل أسفارا ، أثقله حملها ولم ينفعه علمها ! وإنى والله لا أداوى أدْواءكم بالسيف ما اكتفيت بالسوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتنى الدرة ، ولا أبطىء عن الأولى إن لم تصلحوا على[1] الأخرى ..

ولا نقف بعد ذلك عند كل خطيب منهم ، ولكننا نذكر عبد الملك ، وقد قدَّمْنا أنه كان يحسب للخطبة حسابا حتى كانت سبب شيبه ، وكان سليمان ابنه خطيبا ويحب كلام الأعراب وأوصاف السماء والمطر ، ومن خطبائهم عمر بن عبد العزيز ، والوليد بن يزيد ولكن أسقطه مجونه وكلفه بسعدى وسلمى ، ويزيد الناقص وله خطب قوية بليغة .

ومن الخطباء المنتمين إلى هذا الحزب ولا يجدر بدارس الخطابة أن يغفلهم عمرو بن سعيد الأشدق ، وعمرو بن العاص ، وزياد والحجاج ، وخالد بن عبد الله القسرى وأخوه أسد ، ومن خطباء ولاتهم قتيبه بن مسلم الباهلى ، والنعمان بن بشير الأنصارى ، والضحاك بن قيس الفهرى ، ونصر بن سيار .. وغيرهم . والحق أن أكثر ولاة بنى أمية وقوّادهم كانوا خطباء ، وقد قلنا من قبل إن دواعى الخطابة كانت متوفرة ، واللغة كانت طيعة ولهذا أكثر الخطباء جدًّا فى هذا العصر . وهناك أيضا قبائل اشتهرت بالخطابة ، فكنت تجد الرجل وابنه وأباه وجده وبعض حفدته كلهم خطباء ومن أشهر القبائل فى إجادة الخطابة تميم وإياد ، ثم ثقيف وأزد اليمن ، وكان القرشيون لكثرة شعبهم وعددهم وللفصاحة المتأصلة فيهم أكثر القبائل خطباء . ولا يتسع الحديث هنا لذكر كثرة من أولئك أو هؤلاء ولكنا نذكر بعضا ، لنضع أمامك بعض المثل ، فإذا شدوت حظا من ذلك فارجع إلى المصادر الأصليه من كتب التاريخ والأدب لتشبع رغبتك من المزيد والدنو من الكمال .

٤ ـ عمرو بن العاص

هذا رجل مشهور بلسنه وطموحه ودهائه ، وكان عمر بن الخطاب إذا رآه ماشيا يقول : ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرا .

وقد رأى معاوية بثاقب بصيرته أن يضمه إليه ، وأعطاه مصر طعمة له وكان مدرها فصيحا قوى الحجة بعيد مرامى الكلام ، وكان عمر إذا تلعثم أمامه شخص يقول أشهد

(١) إذا لم تصلحوا على الأمر الهين أسرعت إلى العقوبة الشديده .

أن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو قريب الشبه من زياد ابن أبيه فى خسة نسبه ، وأمه قريبة الشبه من سمية ، وكانت تدعى النابغة ، قيل هو اسمها ، وقيل اسمها سلمى ، وسميت النابغة لأنها كانت بغيا ، وقد عيره الحسن بن على فقال له : وضعتك أمك مجهولا من عَهَرٍ ـ أى من فجور .

كانت أم عمرو أمةً لرجل من عنزة ، فنالها سبي وبيعت بمكة فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، من أجواد قريش وأعلام تيم ، والذى كان فى بيته حلف الفضول ، فأعتقها وكانت بغيا فوقع عليها فى طهر واحد خمسة من رجال قريش هم : أبو لهب بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن حرب ، وأمية بن خلف الجمحى ، وهشام بن المغيرة المخزومى ، والعاص بن وائل السهمى ، فولدت عمرا هذا وكل منهم ادعاه لنفسه ، لكن النابغة نسبته للعاص بن وائل ، ويقال إن ذلك لأنه كان ينفق عليها أكثر ، وكان عمرو شديد الشبه بأبى سفيان بن حرب ، وقد هجاه أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب فقال :

أبوك أبو سفيان لا شك قد بدت　　　لنا فيك منه بينات الشمائل

واشتهر عمرو بسعة الحيلة وقوة الشخصية وحب الرياسة ، وجراءة القلب ، وكان يعهد إليه بحل مشكلات الأمور ثقة فى ذكائه وسعة حيلته ، وهو سفير قريش إلى النجاشى ليرد المسلمين المهاجرين ثم هو فاتح مصر ، وأحد الدهاة الأربعة المشهورين .

بعد انضمامه إلى معاوية كان شديد الهجوم على العلويين مولعا بالنيل منهم ، وله محاورات كثيرة معهم خصوصا الحسن بن على وابن عباس .

قال عمرو مرة لمعاوية : إن الحسن أَفَهٌّ[1] ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من أعينهم ، ففعل معاوية ، فتكلم الحسن وأجاد ثم قال : أيها الناس : لو طلبتم ابنا لنبيكم ما بين لابتيها لم تجدوه غيرى وغير أخى ، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين . فساء ذلك عمرًا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له : أبا محمد . أتصف الرطب ؟

قال الحسن : أجل . تلقحه الشمال ، وتخرجه الجنوب وتنضجه الشمس ويصبغه القمر ، ...

---

(١) من الفهاهة وهى العى والعجز عن الكلام .

فغاظ ذلك عمرًا أكثر.

وله مع ابن عباس مواقف كهذا ، ولكن ابن عباس ، كان يعيره بأمه ، ويهربه يوم صفين ، وكشفه عورته أمام على ليتقى بها سيفه ، وكان عمرو يقول له : والله ما فى قريش أثقل على مسألة ولا أمرَّ جوابا منك[1] ، وقال له مرة : إنى والله لمسرور بك . فهل ينفعنى عندك ، فقال ابن عباس : حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا .

وكذلك له مواقف كهذه مع عبد الله بن الزبير ، ولكنهم جميعا كانوا يقطعونه بسابقتهم فى الإسلام ، وشرف نسبهم . ولم يكن ذلك كله يوهن عمرا ، لأنه كان بعيد الهمة محبا للرياسة ، وكان يقول : عليكم بكل أمر مَزْلقةٍ مهلكة . أى اطلبوا الأمور الشاقة التى تعرض للزلق وللهلاك .

وهو قائد شجاع موفق فى حروبه ولكنه طموح يحب الرئاسة ويأنف أن يكون تابعا . وكان معاصروه يلجأون إليه فى حل مشكلاتهم العويصة ، ويعرفون مكانته العقلية والسياسية ، ولما طلب مصر من معاوية طعمة له تلكأ معاوية ، فقال له أخوه عتبة : «أما ترضى أن تشترى عمرا بمصر إن هى صفت لك ، ؟ ليتك لا تغلب على الشام» فأعطاه إياها . وكان معاوية فى مأزق ، إذ كانت ثورة بمصر قادها ابن أبى حذيفة ، وهجوم من قيصر الروم لطلب الشام ، وتهيؤ على ابن أبى طالب للحرب ، فوجد لديه الحل الملائم من مهادنة القيصر ، وقتل ابن حذيفة والتفرغ لحرب على ، وقد كتب لابن عباس خطابا جاء فيه :

فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا ، واعلم أن الشام لا تهلك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تهلك إلا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد أعدادكم منا ، ولسنا نقول ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا لمن يكره البقاء كما فيكم» .

وجاء فى رد ابن عباس عليه :

انى لا أعلم رجلا أقل حياء منك فى العرب ، مال بك الهوى إلى معاوية ، وبعته دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطت الناس فى عشواء طمعا فى هذا الملك ، فلما ترامينا

---

(١) العقد الفريد وشرح ابن أبى الحديد ١٩٦/١ .
وأمر من المرة والقوة . أى لا أجد جوابا أصعب من جوابك .

أعظمت الحرب إعظام اهل الدين ، وأظهرت فيها كراهية أهل الورع ، لا تريد بذلك إلاّ تمهيد الحرب وكسر أهل الدين ، فإن كنت تريد الله فدع مصر وارجع إلى بيتك ... » .

وعمرو كمعاوية رجل سياسة أكثر مما هو رجل دين . وكان وهو وال على مصر فشت له فاشية من مال ونعم وكانت له تجارة فأنكر عليه عمر ذلك فأجابه : ألى يوجه اللوم فى ذلك . لقد كان جدى وائل يلبس الجبة سداها الذهب ولحمتها الفضة .. يريد أنه لم يكن مقلا قبل ولاية مصر . لكن عمر أرسل إليه رسولا حاسبه وقاسمه ثروته ، وضم ما لم يره حقا له إلى بيت المال .

وجاء فى النجوم الزاهرة أنه ترك إردبين من الذهب ، فتورع ولداه عبد الله ومحمد عن أخذ شيء منهما ، وردا المال كله إلى معاوية .

وأبرز عمرو فى حكومته بمصر خير مثال للتسامح الدينى ، وخير مثال للعدل الاجتماعى ، خفف الضرائب عن الزراع ، وساعدهم على تنشيط الزراعة ، ولما طلب عمرُ منه الخراج والح فيه استمهله وأبى أن يرسل إليه شيئا حتى ينتهى الحصاد حرصا على الزراع أن يبيعوا شيئا من ماشيتهم ، أو أن تضعف زراعتهم . وأحبه المصريون كما لم يحبوا أى وال آخر عليهم .

رضى الله وعفا عنه

٥ - زيـاد ابن أبيـه

شخصية زياد تستحق أن نقف لديها أكثر مما نقف لدى أى شخصية أخرى من خطباء هذا العصر ، فعرض سيرته لا يقف عند مقدرته الخطابية ، ولكنه يظهر جوانب من محاولات السياسة وتأويل الفقه ، وتيارات الأحزاب والجماعات ، كما يظهر جوانب أخرى من بعد النظر وعمق التفكير وتقدير الأحداث المتوقعة . لهذا نقف أمامه وقفة لا نرى أن تكون قصيرة ولكنها غير مسرفة فى طولها .

نشأته وأصله :

ولد زياد بالطائف ، فى السنة الأولى من الهجرة ، أو ربما بعدها بقليل ، ويقال

أيضًا إنه ولد عام الفتح . وأمه أمة كانت تدعى سُمَيَّة ، كانت لدى الحرث بن كلدة الثقفى طبيب العرب المشهور. قيل إنها كانت أمة لكسرى ، فأعطاها أبا الخير بن عمرو الكندى ، فوهبها أبو الخير الحرث بن كلدة لأنه أصحه من مرض كان يشكوه ، وقيل بل كانت لدهقان فارسى كافأ بها الحرث لابرائه من مرضه ، وولدت سمية للحرث نافعًا ونفيعا ، وكان نفيع أسود اللون فأنكره الحرث وانتفى منه ، وقيل له إن سمية بغى فانتفى من الولدين جميعًا وترك سمية ، وزوّجها عبدًا روميًا[1] كان لابنته فولدت له زيادًا هذا ، وكان الإخوة الثلاثة على حظ من الزكاء والحكمة ، وهم جميعًا موضع شك واضطراب فى أنسابهم .

ولما فتحت الطائف نادى منادى رسول الله (ﷺ) أن من نزل وانضم إلى المسلمين فهو عتيق وولاؤه لله ورسوله ـ فنزل نُفَيْع متدليا بحبل فى بكرة فسمى أبا بكرة مولى رسول الله (ﷺ) وكان يعتز بهذا الولاء ، وانضم نافع إلى أبيه ، ثم أذعنت ثقيف كلها ودخلت الإسلام فأصبح زياد وأخواه مسلمين .

وحين أنشىء معسكر البصرة فى عهد عمر استقر بها كثير من الفاتحين والعرب ، وفى سنة ١٤ هـ أو نحوها عين عتبة بن غزوان عاملاً عليها ، وعتبة كان زوجًا لبنت الحرث بن كلدة فاصطحب معه أقرباءه وأصهاره الثلاثة نافعًا وأبا بكرة وزيادًا ، ولما فتح عتبة الأُبلة[2] ، أصاب بها غنائم كثيرة ولم يجد بين المسلمين من يحسن الكتابة ويحسب هذه المغانم غير زياد ـ وكان يومئذ غلامًا فى رأسه ذؤابة ، فجعل له كل يوم درهمين ويقال إنه كان فى الرابعة عشرة من عمره[3]. ثم ظل يصحب الجيش فى فتوحاته فى الشرق يكتب للناس الحساب ويدون أسماء المحاربين .

ويبدو أن زيادًا لذكائه الخارق تعلم الحساب والكتابة ممن كانوا يعرفونها بالطائف ثم كانت شخصيته هى التى مكنت له أن يظهر أمام القواد ، وجعلتهم يثقون به على صغر سنه ويولونه الأعمال .

---

(١) قيل أيضا أنه عبد عربى من ثقيف .

(٢) بلدة على شاطئ دجلة غرب البصرة ، وكان نهر الأبلة يعد من جنان الدنيا .

(٣) الطبرى ٣/٩٥ .

صلته بأبي سفيان :

كانت البغايا فى الجاهلية لهن رايات يعرفن بها ، وكان لهن مكان أو أمكنة خاصة . وكان الفتيان ينتحين هذه الأماكن ، وكان من العرب من يكرهون فتياتهم على الذهاب إلى هذه الأماكن طلبًا للمال وابتغاء لعرض الحياة الدنيا ، وكانت سمية ممن يغشينها ، فيقال إن أبا سفيان خرج إلى بعض الأماكن وهو ثمل فسأل صاحبة الراية عن فتاة ، فلم يجد غير سمية ، فقال هاتها على نتن إبطها ، فوقع عليها فولدت له زيادًا على فراش عبيد .

هذه رواية جاءت فى كتب التاريخ والأدب ، ذكرها ابن عساكر وصاحب العقد الفريد وابن أبي الحديد وغيرهم . ومع هذه الكثرة نجد بها هنوات تبعث على عدم الاطمئنان إلى تفاصيلها ، فسمية كانت فارسية جميلة ، وكان زياد أحمر اللون [1] . والفارسيات أرق وأنظف من العرب ، فكيف تكون سمية نتنة الإبطين؟ ثم إن علم أبي سفيان بصفاتها يدل على أنه كان يعرفها من قبل ، وفى مثل هذا الموضع يتردد على الفتاة عدد من الشبان . وإذن فميلاد زياد ليس مقطوعًا به إنه نتيجة هذا اللقاء ، ولا أنه ابنه دون غيره .

خطبته واعتراف أبي سفيان به :

قيل إنه لما فتح سعد بن أبي وقاص جلولاء أرسل زيادًا بحساب غنائمها إلى عمر بن الخطاب ، فأدى مهمته بكفاية بالغة ، وحدث عمر عن فتوحات الجيش الإسلامى ببلاغة لفتت نظر الخليفة ، فأمره أن يخطب الناس من فوق المنبر بما حدثه به ، فخطب وأبدع حتى وصفه عمر بأنه خطيب مصقع ، فقال زياد : «إن جندنا أطلقوا بالفعال الستنا [2] » ــ وكانت هذه الخطبة أول ما ظهر من مقدرته الخطابية ولفتت الأذهان نحوه ، وبها استلحقه أبو سفيان [3] .

ويقال إن عمر أرسله إلى اليمن لإصلاح فساد كان قد نجم بها ، فلما عاد خطب خطبة لم يسمع الناس مثلها ، فقال عمرو بن العاص : لله در هذا الفتى لو كان من

---

(١) الطبرى ٢١٦/٤ .

(٢) المصدر السابق ١٣٦/٣ .

(٣) العقد ٢٩٠/٥ .

قريش لساق العرب بعصاه» . فأخبره أبو سفيان أنه ابنه وأنه هو الذى ألقى به فى رحم سمية .

ويقال أيضًا : إنه ألقى خطبته وأبو سفيان وعلى بن أبى طالب عند أصل المنبر ، فقال أبو سفيان لعلى : أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى ؟ قال : نعم قال : إنه ابن عمك ، أنا قذفته فى رحم سمية ، قال على : فما يمنعك أن تدعيه ؟ قال : أخشى هذا القاعد على المنبر أن يفسد على إهابى ؟ وهو يريد أنه يخشى عمر أن يقيم عليه حد الزنا ، ويقال إنه قال إنه لم يستلحقه جهرا أنفة منه .

والرواية الأولى تبدو عليلة جدًّا ! فمن ناحية أن أبا سفيان لم يكن يجهل أن الإسلام يجب ما قبله ، ويمحو أعمال الجاهلية . وقد شهد رسول الله (ﷺ) يقول ذلك لكثيرين ، ولم يحاسب أبا سفيان نفسه على ما عمل قبل إسلامه ! ، ومن ناحية أخرى أنه ارتكب هذه الفعلة وهو متزوج – لأنه متزوج قبل عام الهجرة الذى ولد فيه زياد بمدة طويلة ، فإذا كان حقًّا يخشى الحد فحده الرجم ، وليس مجرد إفساد الإهاب ، ومن ناحية ثالثة هذا الإقرار لا يلحق زيادًا به ، فقد حكم رسول الله (ﷺ) بأن الولد للفراش وللعاهر الحجر – وإذا كان هذا مما يخفى على أبى سفيان فإنه لم يكن ليخفى على الإمام على ، وهو من الممتازين فى الفقه والقضاء . ولكن معاوية استلحق زيادًا بعد ذلك بهذا الإقرار .

اتصاله بالولاة :

بسبب نجابة زياد وإجادته الكتابة والحساب لم يستغن عنه ولاة البصرة فظل على صلة بهم فى عهد عمر وعثمان وعلى حتى استلحقه معاوية .

كان يكتب للمغيرة بن شعبة ، وكانت بينهما مودة ، ثم كتب لأبى موسى الأشعرى وكان له منزلة عنده ، وقال أبو موسى وجدت له نبلا ورأيا فأسندت إليه عملى ، ورأى عمر حدة ذكائه فعزله عن عمله عند أبى موسى ، وقال إنه لم يصرفه عن خيانة ولا تقصير ولكنه كره أن يحمل فضل عقله على الرعية .

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان وحين كان والى البصرة عبد الله بن عامر بن كريز ، كان زياد شديد الصلة به ، فكان واليا على الديوان وبيت المال ، وكان ابن عامر إذا شخص عن البصرة يستخلفه عليها ، ولكن ساء ما بينهما بعد ذلك . وظلت العلاقة بين أولادهما سيئة أيضًا ، ذلك لأن زيادًا حفر نهر الأبلة فى غيبة عامر .

وفى عهد على رأى أن يعتزل الفتنة ، وأراد على أن يوليه البصرة فلم يقبل ، فولاها ابن عباس وولى زياد الخراج وبيت المال ، وكان ابن عباس يستشيره ويستطلع رأيه فى مشكلاته ، ويسند إليه عمله إذا شخص عن البصرة . وقد جره قيامه بهذه الأعمال إلى الاتصال بالحزب العلوى أكثر فأكثر .

سياسة زياد :

كان زياد داهية بعيد الغور بعيد النظر حصيف الرأى فى معظم مواقفه ، والقاعدة البارزة فى سياسته أنه يسلط بعض أعدائه على بعض ، ويضرب طرفًا منهم بطرف آخر ، فيريح نفسه وجنده ويكسب موقفه ،

أراد معاوية أن يخرج البصرة من طاعة على فأرسل إليها ابن الحضرمى ليؤدى رسالته ، وكان ابن عباس غائبًا وزياد قائمًا على البصرة ، ونزل ابن الحضرمى على بنى تميم ، فذهب زياد إلى ربيعة يستعينهم ، فلم يجد لديهم عونا ، فلجأ إلى الأزد ــ وزعيمهم يومئذ ــ صَبْرَةُ بن شَيْمَان ــ فحماه ، واستطاع أن يشب المنافسة بين القبيلتين حتى كادت الحرب تقع بين الأزد وتميم[1] ،

ولما وجهه على إلى بلاد فارس ليطفئ فتنتها ، وكانت قد خلعت طاعته ومنعت الخراج وطردوا عمال على ، ووضع أهل كل ناحية أيديهم على ما لديهم ، ولعل هذا أشق موقف صادف زيادا ، بل هو أصعب ما يصادفه حاكم أيًّا كان ، ولو أن زيادا إذ ذاك لجأ إلى السلاح لنشبت حرب كبيرة تستنفد جزءًا أكبر من طاقة على وتطمع معاوية أكثر فيه ، أو تخرج الإقليم كله إليه ، ولكن زيادًا لجأ إلى الحيلة واستعمل اللين وربح الموقف بالسياسة لا بالحرب ، قال الطبرى : «بعث إلى رؤسائهم فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوما وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ... وقتل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعًا ولا حربًا »[2] ــ ويبدو أن هذا العمل كان من أهم ما لفت نظر معاوية إليه وجعله يفكر فى فصله عن على حتى واتته فكرة استلحاقه .

---

(١) الطبرى ٤/١٠٦ .

(٢) راجع تفاصيل هذا الحادث فى ابن الحديد ح ٤ ص ٤١ وما بعدها .

استلحاق زياد :

حاول معاوية استلحاق زياد عقب هذا الحادث ، فوجه إليه خطابًا جاء فيه : «إن العُشَّ الذى ربيتَ فيه معلوم عندنا . فلا تدع[1] أن تأوى إليه ، كما تأوى الطيور إلى أوكارها ، ولولا شىء الله أعلم به لقلت كما قال العبد الصالح : فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا ، وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنها أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ»[2] .

ثم كتب أبياتًا منها :

تنسى أباك وقد حقت مقالتهُ إذ تخطب الناس والوالى لَنَا عمرُ ؟
فافخر بوالدك الأدنى ووالدنا إن ابن حرب له فى قومه خطر

ولم ينل الخطاب ما كان معاوية يتوقعه ، ولكنه ترك فى نفس زياد أثرًا ، أعلن الخطاب على الناس ، وسخر من معاوية ، وذكر أنه ابن آكلة الأكباد ، ولم ييأس معاوية منه ، وأهتم علىٌّ لما علم به ، فبعث إلى زياد بخطاب أيضًا جاء فيه :

«وإنه كانت من أبى سفيان فلتة فى أيام عمر من أمانى الباطل وكذب النفس ، لم تستوجب بها ميراثا ولم تستحق بها نسبا ، وإن معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرء من بين يديه ، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ، فاحذره ثم احذره» .

وكانت نتيجة الخطاب على غير ما رَجَا على أيضًا ، فقد التقط يزيد شهادته بإقرار أبى سفيان وقال : شهد بها ورب الكعبة

ولما مات علىٌّ كان زياد فى بلاد فارس وبيده أموالها ، وجندها له طائعون ، فبعث إليه بخطاب يتهدده ويخيفه ، فلم يعبأ وقال : يتهددنى وأمامه ابن بنت رسول الله (ﷺ) ، فى مائة ألف من المهاجرين والأنصار ، - ثم ما لبث الحسن ابن على أن صالح معاوية ، فأصبح زياد بين أمرين : إما أن يستقل بفارس ويبحث عن أحد الشيعة أو عن أى شخص متطلع للخلافة فينضم إليه ، وإما أن يستسلم ، ولكن لم يكن ثم شخص ظاهر للخلافة فى حياة الحسن ، يضاف إلى ذلك أن نفس زياد مالت إلى النسب القرشى ، حقًا إنه كان يسمى نفسه «زياد بن عبيد» ، وفى رسالة له بعث بها إلى الإمام على قال من زياد بن عبيد ، لكن يبدو أنه كان معروفًا أن أمه من البغايا ، وأنه

---

(١) لا تهجره ولا تترك انضمامك إليه .

(٢) يريد أنه قادر على حربه ولكنه يحترم أخوته .

مطعون النسب ، فإدراك واحدة منها بنسب شريف أولى . وإلى هذا الحد لم يبد منه عمل إيجابي للانضمام إلى معاوية ، ومعاوية يخشاه[1] .

لجأ معاوية إلى احتيال آخر ، فكتب إليه يطلب أن يدفع ما لديه من الخراج ، فرد زياد بأنه أنفق ما أنفق واستبقى للمستقبل ما استبقى وسائر الخراج وقع إلى علي . واستراح معاوية إلى هذه الإجابة لأنها لم تنكر أنه أمير المؤمنين الآن وله حق المطالبة بالخراج . فأرسل إليه يطلب قدومه عليه . وأبى زياد أن يحضر .

لجأ معاوية إلى التهديد فحبس أبناء زياد ـ عبد الرحمن ، وعبيد الله ، وعبادا ، وكتب إليه أنه سيقتلهم إن لم يحضر . فلم يهتم زياد أيضًا . ولكن أخاه أبا بكرة سعى لدى معاوية ليطلقهم فأطلقهم ، ولعل معاوية لم يكن يريد إلا تعريفه أنه قادر على النيل منه بوجه ما . ولاحظ لمعاوية في قتلهم إلا إشعال فتنه لا يريدها أن تشعل .

استدعى معاوية المغيرة بن شعبة ليسفر لدى زياد في إقناعه بالانضمام إليه . فرمى داهية بداهية ، وباختصار نجح المغيرة في استمالة زياد وإقناعه وكان بينهما صداقة . ولزياد عند المغيرة يد تجعله يطمئن إلى أنه لا يخدعه . فخدعه[2] .

كان معاوية قد أرسل معه خطابًا وعده فيه ومناه . لكن زيادًا كان يخشى غدره فاستوثق لنفسه أولاً ثم قدم عليه بما معه من أموال فارس . فقبلها معاوية . ثم استدعى شهودًا شهدوا أن أبا سفيان أقرّ به قبل موته[3] ـ ثم خطب زياد فكان من كلامه :

« هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره . وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم . وشهد الشهود بما سمعتم . فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس . وحفظ منا ما ضيعوا .

---

(١) انظر العقد الفريد ٣/٢٩٣ .

(٢) اتهم المغيره وهو وال على البصرة أنه ارتكب الفاحشة ، وشهد عليه ثلاثة منهم أبو بكرة أخو زياد ، وتلجلج زياد ، فأقام عمر الحد على الثلاثة الذين شهدوا . وحلف أبو بكرة لا يكلم زيادا ما عاش . وبذا قامت علاقة بين المغيرة وزياد .

(٣) تم هذا الاستلحاق سنة ٤٤ هـ . جلس معاوية على المنبر وزياد بين يديه في جمع من الناس وقام جماعة من الناس فشهدوا أنهم سمعوا أبا سفيان يقرر أنه أبوه ، ثم قام أبو مريم السلولي وكان خمارا في الجاهلية بالطائف . فذكر أن أبا سفيان قدم عليه مخمورا وطلب ويلتمس له بغيا فالتمس له سمية ، فرضيها على نتن رائحتها ، وكان زياد ثمرة التقائه بها في تلك الليلة ، كما بين أن سمية كانت من ذوات الرايات وكانت تنزل منازل البغايا وتؤدي من بغائها مالا للحرث بن كلدة .

وأما عُبَيْد فإنه والد مبرور أو ربيب مشكور[1] .

وولى معاوية زيادًا البصرة وخراسان وسجستان . ثم جمع له السند والبحرين وعمان ثم ضم له الكوفة ، فأصبح بذلك واليًا على العراقين . وهو أول من جمع له بينهما .

حكومته :

ولى زياد على البصرة وهو يعرف ما بها ـ كما بالعراق كله ـ من تفرق الكلمة وتشعب الرأى واختلاف الأهواء ، كما أنه يدرك حرج موقفه بعد تحوله من جانب على إلى جانب معاوية ، وربما خفَّفَ هذا الأمر أن الحسن تنازل عن حقه . ولكن زيادًا لم يصبح محايدًا . بل أصبح أمويًا ، لهذا رأى أن الشدة أجدى فى هذه الحالة ، فاشتط فى العقوبة حتى عاقب على الظنة ، وأخذ بالشبهة وملأ قلوب الرعية بالرعب منه . فشمل البلاد أمن عام ، ومع ذلك لم ينقص من أحدٍ أُعطية ولا أيأس أحدًا من عدله ، وكتب فى مجلسه عنوان سياسته «الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف . المحسن يجازى بإحسانه ، والمسىء يعاقب بإساءته» . وكان يقول لو ضاع حبل بينى وبين خراسان لعرفت آخذه» .

وبهذه الحكومة كفى زياد معاوية مشقة إخضاع العراق ، ودل اختياره على دهاء معاوية وحصافة رأيه ، فقد ظل يراوده ولا ييأس من نفوره حتى لان له فربح به ربحًا عظيمًا ، وكان زياد بدوره فرحًا بهذا النسب الجديد وقد جاءه مرة رجل بخطاب من السيدة عائشة (رضى الله عنها) فى أوله : «من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبى سفيان» . فقال له زياد : إذا كان الغد فجئنى بكتابك ، فلما جاءه جمع الناس وأمر بقراءة الخطاب أمامهم ، ليعلموا أن أم المؤمنين تشهد بصحة نسبه ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكره قال عنه صاحب البصرة ، والكثيرون يقولون ابن أبيه» وكان فى تثبيت هذا النسب تثبيت له وقطع للألسنة الساخرة منه والضائقة به .

ولم يترك زياد فى حكومته وسياسته الداخلية ما ألفه من ضرب بعض خصومه ببعض ، وعمل فى العراق على تفتيت وحدة القبائل فقسمها أرباعًا ، وكان سعد بن أبى وقاص قد جعلها أسباعًا ، وكانت قبله أعشارًا ، ونقل بعضًا من الكوفة إلى البصرة ليقلل عدد القبيلة الواحدة ، ويفل شوكة المتآمرين ، والصيغة البادية على حكمه هى

---

(١) العقد ٣/٢٩١ .

الشدة البالغة ، وقد تؤدى إلى ظلم ولكنه لا يبالى بذلك فى سبيل إقرار الأمن والقضاء على الاضطرابات . وقد نجح فى هذا إلى حد أن المرأة كانت تبيت وباب بيتها مفتوح ، والتاجر يدع بضائعة فى السوق ولا يجرؤ أحد أن يدخل بيتًا أو يأخذ شيئًا من مال غيره .

وكان يمزج شدته بما يخففها ويحول بين الناس وبين الوقوع فى عقوبته ، أمر أهل البصرة أول قدومه أن يلزموا بيوتهم ليلا ، ولا يفارق أحد منزله بعد صلاة العشاء ، فكان الناس يهرعون إلى بيوتهم عقب صلاتهم العشاء وربما تركوا نعالهم بالمسجد خوفًا أن يتأخروا فيقتلوا ، أما هو فكان يؤخر صلاته حتى يكون آخر من يصلى – ثم يأمر قارئًا بترتيل سورة طويلة من القرآن ثم يقول للحرس : أخرج فإن صادفت شخصًا فاقتله[١] . فهو شدد ولكنه أعذر إلى الناس بهذا الإمهال .

وكان يقبل أن يناقش فى رأيه ، ولكنه لا يقبل تطاول مناقشيه عليه ، عندما ألقى خطبته البتراء بالبصرة اعترض عليه أبو بلال الخارجى ، فقال إن الله تعالى يقول «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وأنت تأخذ البرىء بالظالم ، والمحسن بالمسىء» ! فأجابه «إنا لا نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضًا . ولما سأله شخص عن أبيه قتله[٢] ، وألقى فى الكوفة أول ما دخلها خطبة كتلك التى ألقاها بالبصرة فحصبوه ، فأمر باغلاق أبواب المسجد . وأخذ الذين حصبوه فقطع أيديهم .

وذكر المبرد فى كامله[٣] أنه كان يبعث إلى الجماعة من الخوارج فيقول : ما أحسب الذى يمنعكم من إتيانى إلا الرجلة[٤] ، فيحملهم ، ويقول اغْشَوْنى الآن واسمروا عندى ، فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فقال : قاتل الله زيادًا جمع لهم كما تجمع الذَّرة[٥] ، وحاطهم كما تحوط الأم البرَّة[٦] ، وأصلح العراق بأهل العراق[٧] ، وترك أهل الشام فى شأمهم ، وجَبَى الشامَ ألف ألف . وثمانية عشر ألفًا[٨] .

---

(١) راجع الطبرى ١٦٧/٤ .

(٢) نفسه .

(٣) ص ١٦٣ حـ ٢ .

(٤) الرجلة المشى على الأرجل . وحملهم أرسل إليهم ما يركبونه .

(٥) النملة .

(٦) كما تحوط أولادها يزيد أحسن تأديبهم .

(٧) سلط بعضهم على بعض والعبارة لعمرو بن معد يكرب فى وصف سعد بن أبى وقاص . فتوح البلدان ٢٧٨ .

(٨) ساق لهم ربما من غير أن يكلفهم مشقة حرب .

وليس لزياد أثر بارز فى إصلاح الأرض وتنمية الزراعة حتى قال عنه الأصمعى إنه أقام تسع سنين على العراق لم يضع لبنة على لبنة ، ولم يغرس شجرة[1] . وسبب ذلك أن البصرة والكوفة انشئتا معسكرين للجند المحاربين ، والفترة التى حكمها زياد كانت فترة حروب وانشغال بالخوارج على الأخص . ولكنه حفر نهر الأُبُلَّة وكان خورًا يجرى فيه ماء المطر ، وماء النهر حين مده ثم يجف عند جزره ، وقد كان عمر بن الخطاب أمر أبا موسى بحفره ، ثم طم منه نحو فرسخ ، فأشار زياد على عبد الله بن عامر بن كريز بحفره فلم يفعل ، ثم شخص إلى خراسان وولى زيادًا البصرة فحفره ، فأغضب ذلك ابن عامر إذ اتهمه أنه يريد أن يذهب بهذا الفخر دونه .

موقف أبي بكرة منه :

قاطع أبو بكرة زيادًا منذ تراجعه عن الشهادة على المغيرة بن شعبة ، وظل مقاطعًا له ما عاش ، ومع ذلك لم يكن أى منهما يتراجع عن خدمة الآخر إذا سنحت له فرصة ، وقد رأينا كيف توسط أبو بكرة لدى معاوية ، لإطلاق أولاد زياد من سجنه . ولما قبل زياد استلحاق معاوية أنكره أبو بكرة وقال إن أمنا لم تكن بغيا ، ثم حدث أن استأذن زياد معاوية فى الحج فأذن له ، فذهب أبو بكرة إلى بيته وقد أجلس له أولاده ، فسلم أبو بكرة عليهم دون زياد ثم قال لهم : إن أباكم ركب أمرًا عظيمًا فى الإسلام بادعائه إلى أبي سفيان ، فوالله ما علمت سمية بغت قط ... وهو مار بالمدينة ، وبها أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي (ﷺ) ، ولابد له من الاستئذان عليها ، فإن أذنت له فقعد منها مقعد الأخ من أخته ، فقد انتهك من رسول الله (ﷺ) حرمة عظيمة ، وإن لم تأذن له فهو عار الأبد . ثم خرج ، فقال زياد : جزاك الله خيرًا من أخ فما تدع النصيحة على حال ، ورجع عن حجه .

ولما مرض أبو بكرة مرض موته أرسل زياد إليه أنس بن مالك ليصلحه فقال له اتق الله فى زياد أخيك ، فان الحياة يكون فيها ما يكون ، فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدكما لصاحبه ، ووالله ما علمت إنه لوصول للرحم . هذا عبد الرحمن ابنك على الأبلة وهذا داود على الرى ، وهذا عبد الله على فارس كلها ، والله ما أعلمه الا مجتهدا ....

---

(١) ابن عساكر ٤١٤/٥ .

فقال أبو بكرة : وأهل حروراء[1] قدا اجتهدوا فأصابوا أو أخطأوا ، والله لا أكلمه أبدا ولا يصلى على ، فرجع بها أنس إلى زياد ، وقال له : إنه قبيح أن يموت بالبصرة وأنت بها ولا تصلى عليه ، ولا تقوم على قبره ، فاركب دوابك والحق بالكوفة ففعل ، ومات أبو بكرة فصلى عليه أنس .

ونحن من قبلنا نرى أن قبول زياد انتسابه إلى أبى سفيان كانت زلة جللته بعار أكثر مما حلته بشرف ، وحقق على أمه تهمة حفظها لها التاريخ ، كما أذل أباه عبيدا ووسمه بخزى وعار ، وقد كان له من مواهبه وصفاته مايكفيه ذلك كله ، ولم يكن معاوية وهو يرى حاجة إليه ليعزله عن ولايته أو يقصر فى إسناد ولاية إليه . وقد ربح معاوية منه كثيرا ولم يستفد هو منه ولم يأخذ بقدر ما أعطى .

٦ـ الحجاج

من أعظم ولاة بنى أمية وأشهرهم ، وأشدهم أثرا فى أحداث التاريخ الإسلامى ، وهو خطيب وجرىء ، وذو قسوة وجبروت ، ومع ذلك له مواقف رحيمة وتسامح ، وفى كل ذلك يتسم بالذكاء والحصافة ، أوصى عبد الملك بن مروان أولاده به وهو فى مرضه ، فقال : أكرموا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم المنابر ، وهو وطأها لهم بقتله منافسيهم وعلى الأخص عبد الله بن الزبير . وابن الأشعث ، ولولاه ما استطاع المهلب أن يفعل بالخوارج ما فعل ، لأن العراقيين كانوا يتقاعدون عن الغزو معه .

قبيلته ووالداه :

الحجاج ثقفى ، وبنو ثقيف قبيلة كبيرة تضارع قبيلة قريش ، وكانت تقيم بالطائف ، ولم تكن منقطعة الصلة بمكة ، وكانت على صلة بقريش ونصارى الحيرة ، وكان أمية بن أبى الصلت قرأ كتب النصارى واستفاد من أحبار الحيرة وكان يتوقع أن يكون نبيا ، وقد رثى قتلى قريش فى بدر وهجا المسلمين . وكان الحرث بن كلدة قد تعلم الطب فى جنديسابور ، وبعد وفاة رسول الله (ﷺ) هموا بالردة ومنع الزكاة فقام عثمان بن أبى العاص عامل النبى عليهم فقال : يا بنى ثقيف كنتم آخر من أسلم فلا تكونوا أول من

(١) الخوارج الذين اجتمعوا فى هذه القرية قريبا من الكوفه .

يرتد . فثبتوا على الإسلام . فلما كانت فتوحات أبي بكر كان لهم فيها يد وجهاد . ولما كانت خلافات على ومعاوية كان المغيرة بن شعبة ممن خاضوا نارها . ثم قام بعد ذلك المختار الثقفي بثورة ضد عبد الملك بن مروان . وهكذا كان لهذه القبيلة نشاط سياسي عوضت به ما فاتها من السبق إلى الإسلام .

ولم يكن الحجاج من ذوائب ثقيف ، ولكن همته البعيدة وتكوينه الشخصي مما هيآه لهذا المجد الذى تبوأه ، كان أبوه معلم صبيان بالطائف وكان هو كذلك أيضا ، وقد هجاه بعض الشعراء فقال :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله يراوح صبيان القرى ويغادى

وكان أبوه يدعى يوسف بن الحكم بن أبي عقيل . وأمه تدعى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفي . قيل إنها كانت زوجة للمغيرة بن شعبة فدخل عليها بعد صلاة الصبح فوجدها تتخلل ، فقال لها إن كان تخللك من طعام الأمس إنك لقذرة . وإن كنت تتخللين من طعام اليوم إنك لنهمة ، كنت فبنت ، فقالت له : والله مافرحنا إذ كنا ولا أسفنا إذ بنا ، وما هو لشيء مما ظننت ولكنني استكت فأردت أن أتخلل بسواك ، فندم المغيرة على ما بدر منه . وخرج فلقى يوسف ابن أبي عقيل فقال له : إني نزلت الساعة عن سيدة نساء ثقيف فتزوجها تنجب لك فتزوجها يوسف فولدت الحجاج هذا وكانت سمته كليبا ولكن غلب اسم الحجاج .

ويقال إنها كانت تحت الحرث بن كلدة طبيب العرب فلما وجدها تتخلل على ما ذكرنا بعث إليها بطلاقها ، وجرى بينهما الحوار السابق[1] .

وقالوا عن الحجاج إنه ولد مشوها لادبر له وأنه كان يأبى الرضاع حتى خشى عليه فطب له الحرث إذ نقب عن دبره وجعله يقبل الرضاع .[2]

---

(١) يقال إنها هى التى سمعها عمر ليلا تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أو من سبيل إلى نصر ابن شداد

ويقال إن تلك هى جدته لأمه . وكان يعير بأنه ابن المتمنية . وقصة نصر معروفة لانرى داعيا لإعادتها .

(٢) أنظر وفيات الأعيان ترجمة الحجاج . ومروج الذهب ١٣٢/٣ .. والعقد الفريد ٢٩٨/٥ وما بعدها .

وترك الحجاج مهنة التعليم ولحق بروح بن زنباع الجذامى وزير عبد الملك ومستشاره فعمل فى شرطته ثم بدأ نشاطه ونجابته فكان رئيس الشرطة .

بداية ظهوره :

شكا عبد الملك إلى روح انحلال عسكره وأنهم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله . فقال له : إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله ، وذكر له الحجاج فقلده شرطته . فلم يكن أحد يتخلف إلا أعوان روح بن زنباع ، فوقف عليهم يوما وقد أرحل الناس وهم على طعام يأكلون . فقال لهم ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ قالوا له : انزل يا ابن اللخناء فكل معنا . فقال لهم : هيهات ، قد ذهب ما هنالك ، ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر . وأمر بإحراق خيمة روح نفسه . وشكا روح إلى الخليفة فلما أحضر الحجاج قال : ما أنا فعلت وإنما فعله أمير المؤمنين . إنما يدى يدك وسوطى سوطك . وما على أمير المؤمنين أن يصرف لروح عوض الفسطاط فسطاطين . وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له . فأخلف عبد الملك لروح ما ذهب وتقدم الحجاج فى منزلته .

فى حرب بن الزبير :

بعد أن قضى عبد الملك على مصعب بالعراق وجه الحجاج لقتال عبد الله بمكة ، وكان قد تحصن بها وسمى نفسه العائذ . فحاصرها الحجاج مدة حتى انفض أتباع عبد الله ، واضطر أن يبرز إليه بنفسه . فقتل وصلب جسده أياما ، ثم ولاه عبد الملك العراق ، وكان إذ ذاك يموج بالفتن ويغلى بالشر وتدبير المكايد ، فقضى على ذلك كله بالشدة والعنف . وسفك الدماء حتى ملأ قلوب الناس بالرهبة وأذلهم بسلطانه . وبذا توطد الملك لبنى أمية واطمأنت أحوالهم الداخلية . ولم يبق ممن يناوشونهم سوى الخوارج . وهؤلاء ظل المهلب بن أبى صفرة وأولاده يحاربونهم حتى أوهنوا عزمهم وفلوا شباتهم . وكان الحجاج وراء ذلك إذ هو الذى يبعث الأمداد للمهلب ولا يستطيع أحد أن يتخلف خوفا من سيف الحجاج .

الحجاج وزياد :

هذان الواليان أقوى ولاة بنى أمية وأشدهم بأسا . والعرش الأموى مدين لهما بما لا يدينه به أى وال أو قائد . كلا الرجلين يمتاز بالذكاء والشدة ، ولكن الحجاج اعتمد على قسوته أكثر مما اعتمد على سياسته بينما كان زياد على العكس من ذلك . وكانت

مهارته أنه يضرب عدوه بعدوه فيوهن خصومه ويريح جيشه ، وقد سأل عبد الملك عباد ابن زياد عنهما فقال عباد : «إن زيادا قدم العراق وهى جمرة تشتعل ، فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم ، وضبط أهل العراق بأهل العراق ، وقدمها الحجاج فكسر الخراج وأفسد القلوب ، ولم يضبطهم بأهل الشام فضلا عن أهل العراق ، ولو رام منهم مارامه زياد لم يفجأك إلا على قعود يوجف به» .

وهذا واضح فى أن زيادا أبعد بصرا بالسياسة وأقوم رأيا ، ويقولون إن زيادا أراد أن يتشبه بعمر بن الخطاب فظلم ، وأن الحجاج أراد ان يتشبه بزياد ففجر ، وانضمام زياد لبنى أمية سد ثغرة كان معاوية يخشى ألا تسد إذا فتحت ، وحال دون فتن لولاه لا ضطرمت أما الحجاج فقد واجه الفتن وهى مضطرمة ، وخاض حروبا لم يكن ثم مناص من خوضها .

وخلاصة القول فيهما أن زيادا أقوى وأحزم وأكيس ، وأن الحجاج أدى لبنى أمية ما لم يؤد زياد لهم .

خطبته بالكوفة :

هذه الخطبة أشهر خطب الحجاج لأنها أولى خطبه واليا ، ولأنها هى التى ثبتت مكانته وبثت مخافته فى نفوس العراقيين ، وهى فى كثير من كتب التاريخ والأدب ، وننقلها هنا عن كتابى البيان والتبيين ، والكامل للمبرد[1] .

بينما الناس فى المسجد الجامع بالكوفة ، وأهلها يومئذ فى حال حسنة يخرج الرجل منهم ومعه العشرة والعشرون من مواليه[2] إذ أتى آت فقال : هذا الحجاج قد قدم أميرا على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد معتما بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه متقلدا سيفه ، متنكبا[3] قوسه يؤم المنبر فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فمكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق حتى

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٣٠٧ ، والكامل ١/٢٢٤ ط المكتبة التجارية ، وصبح الأعشى ١/٢١٨ وتاريخ الطبرى ٧/٢١٠ .

(٢) كانوا فى ثراء ، ولديهم كثير من الموالى .

(٣) يحملها على منكبيه .

قال عمير بن ضابئ البرجمى : ألا أحصبه [1] لكم ؟ فقالوا أمهل حتى ننظر . فلما رأى عيون الناس إليه حسر [2] اللثام عن فيه ونهض فقال :

وذكر الجاحظ عن رواته :

خرج الحجاج يريد العراق واليا عليها فى اثنى عشر راكبا على النجائب حتى دخل الكوفة بفجأة حين انتشر النهار . وقد كان بشر بن مروان بعث المهلب إلى الحرورية [3] . فبدأ الحجاج بالمسجد فدخله ثم صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء . فقال : على بالناس : فحسبوه وأصحابه خوارج . فهموا به . حتى إذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى [4]

أما والله إنى لأحتمل الشر بحمله [5] . وأحذوه بنعله [6] . وأجزيه بمثله . وإنى لأرى رؤوسا قد أينعت [7] وحان قطافها . وإنى لصاحبها [8] وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

(قد شمرت عن ساقهافشدوا) [9]

ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم قد لفها الليل بسواق حطم [10]

---

(١) أرميه بالحصباء وهى الحصا الصغير الذى تغطى به أرض المسجد . (٢) رفعه وكشف وجهه .

(٣) الحرورية : الخوارج الذين كانوا بحروراء ـ قرية على بعد ميلين من الكوفة .

(٤) من قصيدة لسحيم بن وثيل ـ بوزن كريم ـ الرياحى ـ أى ابن رجل جلا الأمور ووضحها . وطلاع الثنايا تعنى أنه صلب قوى يقتحم الشدائد والثنايا جمع ثنية ، وهى ما التوى من الأرض .

(٥) بكسر الحاء ـ أى بثقله . (٦) أتبعه وأقابله بمثله .

أينعت الثمرة نضجت واستحقت الجنى .

(٨) يريد أنه متولى قطع هذه الرءوس كما يقطف الثمار صاحبها ، ولا ينازعه أحد ـ فهو سيقطع هذه الرءوس غير مسئول عن قطعها .

(٩) جاء هذا الشطر فقط فى البيان والتبيين ، وذكر المبرد الرجز الآتى كله

(١٠) الرجز لرويشد بن رميض العنبرى . الشد : الجد والاجتهاد . وزيم اسم الناقة . وحطم هو شريح بن ضبيعة . وكان رويشد غزا اليمن وفى عودته ضل الطريق فساق شريح الإبل بشدة حتى أدرك الماء ، فقال فيه رويشد الرجز فسمى «الحطم» وهو الذى لا يبقى من السير شيئا : والأكوال الذى يقضى على الطعام : والنار الحطمة التى لا تبقى . . .

لـيس بـراعى إبـل ولا غنم ولا بجزار على ظـهـر وضم [1]

ثم قال :

قـد لـفـهـا الـلـيل بعصلبى أروعَ خـراجٍ من الـدوى [2]

مهاجرٍ ليس بأعرابى

وقال :

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا [3]

والـقـوس فيهـا وتـرعُـرُدّ مثل ذراع البكر أو أشد [4]

(لابد مما ليس منه بد)

إنى والله ياأهل العراق (والشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق) [5] ما يقعقع لى بالشنان [6] ولا يغمز جانبى كتغماز التين [7] . ولقد فررت [8] عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وأجريت إلى الغاية القصوى [9] . وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته [10] بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدنى أمرها عودا [11] وأصلبها مكسرًا فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم [12] فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم

---

(١) الوضم : الخشبة التى يقطع عليها اللحم ، ونحوها ـ يريد أنه سواق جاد ، لا توكل إليه صغائر الأمور .

(٢) العصلبى : الشديد ، والكريم ذو الجسم والجهارة ، وقيل الجميل الرائع الحسن ، والدوىّ الصحراء الملساء ليس بها علم ولا أمارة يريد أنه يستطيع الخروج من الشدائد والمشكلات ، ويقال أيضا داويه ، وهى المتسعة التى يسمع لها دوى بالليل .

(٣) شمرت عن ساقها . يريد الحرب أو الحالة ، أى جدجدها ـ كما فى الآية يوم يكشف عن ساق .

(٤) عرد بوزن عتل شديد . والبت الأخير لابد مما ليس منه بد ليس فى الخطبة ، وزاردها الأخفش فى الكامل لتمام الشعر ، وهذه الأبيات لم تأت فى البيان والتبيين .

(٥) مما زيد فى البيان والتبيين وليس بالكامل ولكنه بالعقد الفريد أيضا .

(٦) الشنان جمع شَنّ ، جلد القربة ، كانوا يحركونه فيحدث قعقعة تنفر منها الأبل فتجرى . وبها كانوا يستحثونها على السير . يريد أنه لا يخوف مما لا يخيف .

(٧) لا أحتمل أن أُجَسّ وأختبر .

(٨) فرّ الرجل الفرس نظر فى أسنانه ليعرف سنه ، ويعرف الجواد من عينه فيقال : إن الجواد عينه فراره والذكاء تمام السّن وحدة القلب ، يريد أن الخليفة اختاره بعد فحص دقيق ورأى حصيف .

(٩) إلى نهاية الشوط حيث توضع قصبة يستولى عليها السابق ، تسمى الغاية .

(١٠) الجعبة التى توضع فيها السهام ، وعجم العود جسه بأسنانه لمعرفة مدى صلابته .

(١١) أمر من المِرّة وهى القوة .

(١٢) أوضع أسرع وجرى .

السلمة[1] . ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[2] . فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله . فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إني والله ما أقول إلا وفيت . ولا أهم إلا أمضيت . ولا أخلق إلا فريت[3] فإياى وهذه الجماعات . وقال وقيل وما تقولون . وفيم أنتم وذاك ؟ أما والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده[4] . وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه[5] . ياغلام إقرأ كتاب أمير المؤمنين .

قال المبرد : فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين . إلى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم فلم يقل أحد منهم شيئا . فقال الحجاج : اكفف ياغلام . ثم أقبل على الناس فقال : سلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئا : هذا أدب ابن نهية ، ـ (وهو رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج) ـ أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن قناتكم . إقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين . فلما بلغ إلى قوله « سلام عليكم » لم يبق فى المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

وأسرع الناس حتى كان الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده

بلاغة الحجاج :

كان الحجاج آية فى البلاغة والفصاحة . كان يخطب فيطيل فلا يتلعثم ولا يتلجلج ولا يخطئ . وعد الأصمعى أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل . الشعبى وعبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القِرِّيَّة . والحجاج أفصحهم . وقال مالك بن دينار ما رأيت أحدا أبين من الحجاج إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه

---

(١) واحدة السلم ، وهو شجر ذو شوك ـ يحزمه الراعى بحبل ثم يضربه بالعصا فيقع ورقه لتأكله الماشية .

(٢) الإبل التى تدخل بين إبل أخرى ، فيضربها صاحبها حتى لاتزاحمها على الماء .

(٣) خلق الجلد قاسه وقدره ، وفراه قطعه ـ يريد أنه لا يرجع عن شىء هم به .

(٤) أوجعته بآلام تشغله عن غيره .

(٥) فى البيان والتبيين : الاسفكث دمه ، وانتهبت ماله . ثم دخل منزله .

عنهم ، وإساءتهم إليه حتى إنى لأحسبه صادقا وأظنهم كاذبين .

ونحن نتبين خطب الحجاج فنلمس فيها أسبابا هى أساس بلاغتها وقوتها أهمها ذكاؤه وقدرته على تصوير الأسباب التى تؤيد رأيه وتدحض آراء معارضية . ومنها جرأته وشجاعته النادرة على مواجهة الصعاب حتى ليتحمل نعى ابنه وأخيه فى يوم واحد . ومع ذلك يجد جلدا وقوة ليقف بين العراقيين وهو يعلم أنهم أعداؤه وشامتون به . ولكنه يدير كلامه على وجه يجعله يرى أن الخلاص من العيش بين العراقيين نعمة ؟ وثالث هذه الأمور تكوينه الأدبى . وانظر كيف حشا هذه الخطبة بالأمثال والأشعار والعبارات المجازية .

ولهذه الصفات نفسها كان الحجاج سديد الإجابة عندما توجه إليه لائمة أو يسأل سؤالا محرجا ، وقد رأينا كيف أجاب عبد الملك حين سأله عن إحراقه فسطاط روح بن زنباغ ، وسخر منه مرة خالد بن يزيد بن معاويه وهو يخطر متبخترا فى المسجد عليه سيف محلى ، فقال بخٍ بخٍ : هذا عمرو بن العاص ، فمال إليه الحجاج فقال : والله ما سرنى أن العاص ولدنى ولاً ولدته . أنا ابن الأشياخ من ثقيف والعقائل من قريش ، والذى ضرب بسيفه هذا مائة من قريش يشهدون على أبيك بالكفر وشرب الخمر حتى أقروا أنه ولى .

وكان من عادته إذا صعد المنبر أن يتلفع بمطرفه ، ثم يبدأ كلامه متأنيا هادئا حتى ما يكاد يسمع حتى يتزايد فى الكلام فيخرج يده من مطرفه . ثم يزجر الزجرة فيقرع بها أقصى من فى المسجد .

ظلم الحجاج :

كان الحجاج ظالما قاسيا مسرفا فى سفك الدماء لا يبالى أن يقتل الرجل لسبب واه لا يستدعى قتله ، ولا يبالى أن يقتل جماعة كثيرة لمثل هذا السبب وقد رأينا قتله عويمر بن ضابئ البرجمي وهو شيخ كبير . وكان ذلك بالكوفة . وفى البصرة جاءه ذو الكرسفة[١] ، وكان شيخا كبيرا أيضا . فقال : أصلح الله الأمير إن بى فتقا وقد عذرنى بشر وقد رددت العطاء . فقال : إنك عندى لصادق ثم أمر به فضربت عنقه[٢] .

---

(١) هو رجل من يشكر كانت له عين عوراء يضع عليها صوفة فلقب بذى الكرسفة .
(٢) انظر الكامل ٢٣١/٢ تجارية .

وقدم رجل من سليم رجلا إلى الحجاج وقال : إنه عاص - يريد ألا يذهب للحرب - فقال الرجل : أتشرك الله أيها الأمير فى دمى ، فوالله ما قبضت ديوانا قط ولا شهدت عسكرا ، وإنى لحائك أخذت من تحت الحف[1] - فقال اضربوا عنقه - وكتب إلى المهلب : من خفته على المعصية ممن قبلك فاقتله - فإنى قاتل من قبلى ، ومن كان عندى من ولىٍّ من هرب عنك فأعلمنى مكانه - فإنى أرى أن آخذ الولىّ بالولىّ والسمىّ بالسمىّ[2] وقد أحصى الذين قتلهم صبرا[3] فكانوا مائة وعشرين ألفا - وعرضت السجون بعد موته فكان بها ثلاثة وثلاثون ألفا لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب - ووجد فيهم أعرابى كان قد شرع يبول فى أصل مدينة واسط ، فلما أطلق سراحه أخذ يقول :

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرينا وبلنا لا نخاف عقابا

وقتل فيمن قتل سعيد بن جبير[4] - العالم العابد وابن القِرِّيَّة كما كان كثير الشتم للإمام على .

جرأته على المأثورات الإسلامية .

كان الحجاج جريئا على آيات القرآن والأحاديث تارة يؤولها تأويلا بعيدا - وتارة يخالفها دون مبالاة ، وكانت الفكرة السائدة لديه أن تنقطع الثورات والفتن ويستتب الأمن لتهدأ الأحوال أمام الخليفة الأموى ، وفى سبيل ذلك استباح ما لم يستبحه غيره .

أراد مرة أن يحج فاستخلف ابنه محمدا على البصرة ، ثم خطبهم فقال :

« ... استخلفت عليكم ابنى محمدا ـ وما كنتم له بأهل ـ وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله (ﷺ) فى الأنصار - فانه أوصى أن يقبل من محسنهم - ويتجاوز عن مسيئهم ، وأنا أوصيته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم .

---

(١) الحف المنسج .

(٢) من يحمل اسم الآخر .

(٣) من قتل فى غير معركة .

(٤) من موالى بنى أسد ، كتب لعبد الله بن مسعود حين كان على قضاء الكوفة ، ثم لأبى برده بن أبى موسى الأشعرى ، ثم خرج مع ابن الأشعث ضمن القراء الذين صحبوه ، وهرب بعده إلى مكة فقبض عليه خالد القسرى وأرسله الى الحجاج فقتله .

وخطب مرة فتحدث عن عثمان فقال : إن مثل عثمان عند الله كمثل عيسى ابن مريم . قال الله فيه : إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » وكان أبو البخترى جالسا بالمسجد . فقال : كفر ورب الكعبة ، ويعزى إليه أنه رأى الناس يطوفون بقبر رسول الله (ﷺ) ومنبره فقال : إنما يطوفون بأعواد ورمة .

وكتب مرة إلى عبد الملك يقول : إن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين . لأن الله خلق آدم بيده وأسجد الملائكة له وأسكنه جنته ثم أهبطه إلى الأرض وجعله خليفة . وجعل الملائكة رسلا إليه . فأعجب عبد الملك بهذا الخطاب وود لو يجد خارجيا يحاجه به . فاستأمنه «حوار بن يزيد الضبى» وكان هاربا من سجن الحجاج . فأمنه فقال : قد جعلك ملكا ونبيا وخليفة . إن كنت ملكا فمن أنزلك وإن كنت نبيا فمن أرسلك . وإن كنت خليفة فمن استخلفك ؟ أعن مشورة من المسلمين . أم ابتززت الناس أمورهم بالسيف ؟ فقال عبد الملك لا تجاورنى فى بلد أبدا . فذهب إلى مصر حتى مات عبد الملك [١] .

وكان عجيبا حقا من الحجاج أن يضرع إلى الخليفة إلى هذا الحد مع طغيانه البالغ عن من هم تحت يده ، وقد وصف نفسه مرة لعبد الملك بأنه لجوج حسود حقود . فقال عبد الملك ما فى إبليس شر من هذا .

آراء العلماء فيه :

كان الحسن البصرى يبغضه جدًا ويقول إنه عقوبة من الله ، ولما أخبر بموته خرَّ ساجدًا . وكان القاسم بن محمد يقول إنه ينقض عري الإسلام عروة عروة ، وكان عمر بن عبد العزيز يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون ذلك أشد إلى عذابه فى الآخرة ، ولما بلغه موته خرَّ ساجدًا أيضا ، وكان يقول : لو جاءت كل أمة بمنافقتها وجئنا بالحجاج لفضلناهم جميعًا ، وكانت له دراهم ضربها تسمى الدراهم الحجاجية ، فكان أنس وابن سيرين لا يبيعان ولا يشتريان بها .

---

(١) انظر الحديث مستوفى فى العقد الفريد ٥/٣٣٣ .

الحجاج والوليد :

ظل الحجاج واليا على العراق طوال عهد عبد الملك ، وكان الحجاج يرى أن عبد الملك قد بوأه منزلا لم يكن يطمع فيه ولا يتوقعه ، وكان يدرك كراهة أهل العراق له ، ويعلم لهذا أنه إذا نزعت منه ولاية العراق شمت به الأعداء ، ونال منه الخصوم الكثيرون ، ولعله لهذا تحمل من عبد الملك كثيرا من ألوان المهانة ، وقد رأينا بعضا من ذلك . ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويقلدها ولده الوليد . كان الحجاج ممن زينوا له ذلك وشجعوه عليه . ومات عبد العزيز قبل أخيه فاستقر الأمر للوليد استقرارا لا مشاحة فيه ولكنه ظل يحفظ للحجاج مسعاه لدى عبد الملك ، ثم أراد الوليد بدوره أن يخلي أخاه سليمان من ولاية العهد ويولى ابنه فشجعه الحجاج أيضا ، ولكن فى هذه المرة مات الوليد قبل أن يخلع سليمان ، ومات الحجاج قبل الوليد .

كان الحجاج أيام عبد الملك خادما مطيعا يترضّى سيده ويرتكب فى سبيل مرضاته مالا يرتكبه غيره ، وكان عبد الملك يقدر عمله ولكن لا يسمح له بالزيادة عن كونه واليا ، ولما دنت منيته أوصى أولاده بالحجاج وقال إنه جلدة ما بين عيني ، فلما تولى الوليد كان للحجاج عليه دالة ، وفوّضه أمر العراق كله ، بل وغير العراق أحيانا . فكان مطلق اليد يفعل ما يريد .

كان والى المدينة أيام عبد الملك هو عمر بن عبد العزيز — ابن أخيه وزوج بنته — وكان يحكمها بمجلس شورى مكون من فقهائها ، وكان يأسى لما يعانيه أهل العراق من عسف الحجاج وقهره ، فكتب إلى الوليد يخبره بذلك ، فاضطغنها الحجاج عليه ، ثم كتب إلى الوليد يخبره أن المارقين من أهل العراق يَجْلُونَ إلى مكة والمدينة وأن ذلك مما يسبب وهن الدولة ، وأشار عليه أن يوليهما عثمان بن حيان وخالد بن عبد الله القسرى . فعزل الوليد عمر وولى خالدا مكة وعثمان المدينة[1] .

وقد كان منطق الواقع يقضي أن يأمر الوليد عُمَرَ أن يرُد الفارّينَ من أهل العراق إلى موطنهم ، لا أن يعزله ، ولكنه استشار الحجاج وعمل بمشورته ، وخالد بن عبد الله متهم فى دينه ، أما عثمان فأخرج العراقيين جميعا تجارا ولاجئين وفارين ، ليقتص الحجاج منهم أو ممن يرى الاقتصاص منه .

---

(١) راجع تفاصيل ذلك كله فى تاريخ الطبرى ٤٨/٦ وما بعدها .

بهذا ترى أن الحجاج لم يعد فى عهد الوليد كما كان فى عهد أبيه عاملا أو واليا وإنما أصبح شريكا فى إدارة الدولة ومستشارا لدى أمير المؤمنين ومطلق اليد فى عمل ما يريد

صفحة بيضاء من حياته :

لكل إنسان حسنات وسيئات . وقد ذكرنا من مساوئ الحجاج ما ذكرنا فلنلق نظرة على أعماله الحسنة .

استطاع الحجاج أن يقضى على الفتن والثورات ، وبإرهابه الناس أصبح لواء الأمن يرفرف على البلاد كلها ، وله الفضل فى نشر الأمن الداخلى ومد الفتوح والقضاء على الثورات الخارجية زمن الوليد وزمن أبيه أيضا ، وهو الذى وجه العراقيين إلى الحرب مع المهلب بن أبى صفرة كما رأينا ، وهو الذى بعث قتيبة بن مسلم الباهلى لحرب خراسان وجعله عامله عليها بعد يزيد بن المهلب ، ففتح منطقة ما وراء النهر ، حتى قارب حدود الصين ، وهو الذى سير محمد بن القاسم الثقفى القائد الشاب للحرب فى الهند ففتح حوض السند ، فالحجاج أحسن اختيار القواد بذكائه . وحمل الجند على طاعتهم والعمل معهم بشدته ، وكان يعنى بتجهيز الحملات ويزودها بكل ما تحتاجه حتى الخيوط والمال . وكان لا يبالى بما ينفق فى تجهيز حملاته ثقة منه أن ما يناله بيت المال من خمس الغنائم يعوض ما أنفق . انفق ستين مليون درهم على الحملة التى خرجت مع محمد بن القاسم ، وكان خمس غنائمها اثنى عشر مليونا .

وللحجاج أعمال داخلية عظيمة أيضًا :

أشاع الأمن ولجأ إليه الضعاف المظلومون حتى كانت المرأة اذا اعتدى عليها هتفت به فيلبى دعوتها . وفى عهده ضربت النقود العربية لأول مرة وكان العرب قبل ذلك يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية ، وعنى بتعمير الأراضى وتجفيف المستنقعات وزرع الأراضى البور وشق الترع وإصلاح ما طم أو احتاج إلى إصلاح منها ، وتنظيم الرى وتحسين الضياع فعاد ذلك كله على الأمة بالرفاهية والرخاء .

ومما عمله للنهوض بالزراعة أنه أمر بإعادة الفلاحين الذين نزحوا من قراهم إلى المدن إلى مواطنهم ليعمروا الأرض ، كما منع ذبح الثيران كى تستخدم فى حرث الأرض وريها .

ومع ما اشتهر به من القسوة والظلم كان يعفو عن الكثيرين . وخصوصا المهزومين المستسلمين من ثوار البصرة ومحاربى دير الجماجم ، ويبدو أنه كان يجنح إلى القسوة البالغة إذا رأى فيها إسكان فتنة ، فهو يرهب بها الناس أو إذا كان يرى الشخص المعاقب ذا

خطر على الدولة ويستحق العقوبة ـ وهو فى هذا لم يبال أن يأخذ البرىء بذنب المجرم . وهذا ـ فيما يبدو ـ هو الذى سوغ له رمى الكعبة بالحجارة وقتل عبد الله بن الزبير وصلبه مدة طويلة حتى قالت له السيدة أسماء بنت الصديق : أما آن لهذا الفارس أن يترجل ؟

وقد صادف يوم حصاره الكعبة ورميها بالمنجنيق أن أبرقت السماء وأرعدت ، فتخوف الناس وظنوا ذلك نذير غضب من الله ، فقال لهم أنا ابن نجد وأعرف صواعقها .[1]

ولكننا نقول إزاء هذا هل كان ابن الزبير أقل صلاحية لولاية المسلمين من عبد الملك ؟ أو لم يكن أحرص على قوانين الإسلام وأحكام القرآن من كل بنى أمية ؟ إن ابن الزبير كابن أبى طالب ـ حرص على إبقاء مال المسلمين للمسلمين بينما استعمله هؤلاء لتثبيت ملكهم ، ثم نجد الحجاج يقتل فقهاء العراق وقراءه ، وما كانوا يقولون غير ما يعتقدون :

وأروع صفحة من أعمال الحجاج هى أمره بنقط المصاحف وشكلها فسهل قراءتها من ناحية ، وطور الخط العربى كله من ناحية أخرى ، وهو بانى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة ، وأخذت اسمها من هذه الوسطية .

نهاية الحجاج :

مات الحجاج فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان عمره ثلاثا وخمسين أو أربعا وخمسين سنة ، ورأينا ما كان من العلماء والصالحين من ابتهاج بموته ، وسأله أحد عواده وهو على فراش موته كيف تجدك ؟ فقال : سفر طويل ، وزاد قليل ، فويلى إن لم يرحمنى الجبار ، وقال الوليد مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبى مسلم ـ وهو كاتب الحجاج ـ فكنت كمن سقط منه درهم فأصاب دينارا ، وكان يقول : ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول : الحجاج جلدة ما بين عينى وأنفى ، وأنا أقول إنه جلدة

---

(١) خطب فيهم خطبة جاء فيها : «لا يهولنكم هذا ، فإنى أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أصحرت لربى ، فلو ركبنا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكنها جبال تهامه لم تزل الصواعق تنزل بها . ثم صاح بأهل الشام أن قاتلوا على اعطيات أمير المؤمنين فكانوا يرمون الكعبة ويرتجزون :

خطارة مثل الفريق الزبد　　　يرمى بها عواذ أهل المسجد

وانظر الطبرى ٤٤٨/٦ ، والعقد ١٨٠/٥ .

وجهي كله ، وقد أقر عماله بعد موته على ما هم عليه ولم يغير منهم أحدا .

ولم يترك الحجاج بعده تركة تذكر ، بل كانت مصحفا وسلاحه وبضع مئات من الدراهم .

٧ - خالد بن عبد الله القسري (١)

من ولاة هشام بن عبد الملك على العراق ، ومن خطباء بنى أمية المشهورين وهذه أجود صفاته وأكرم مناقبه .

ينتمي خالد إلى القحطانيين ، وأبوه هو عبد الله بن يزيد بن أسد بن كرز ، قال أبو الفرج : وهم أهل بيت شرف فى بجيلة لولا ما يقال فى عبد الله بن أسد فإن أصحاب المثالب ينفونه عن أبيه ، وعلى ما قيل فيه كان له ولابنه خالد سؤدد وشرف وجود .

كان الجد الأعلى كرز يدعي كرز الأعنة ، ويدعوه الجاهليون رب بجيلة وكان ممن حرم الخمر فى جاهليته تنزها عنها . وقدم أسد وابنه يزيد على رسول الله (ﷺ) فأسلما ، وروى يزيد عنه (ﷺ) حديثا واحدا هو وصية له وهو : «أحب للناس ما تحب لنفسك» ، وكان من محاربى الشام فى عهد عمر وكان سيدا مطاعا بين اليمنيين ، وبعثه معاوية فى أربعه آلاف من جند الشام لنصرة عثمان فوصل المدينة بعد مقتله فرجع ولم يحدث شيئا ، وحضر مع معاوية موقعة صفين وله بها خطبة حكيمة (٢) .

أما عبد الله والد خالد فانه لم يكن من ذوى النباهة والشأن ، ويتهم بأنه دعى وليس من هذه القبيلة ، وتتصاعد هذه التهمة إلى كرز فيقال إنه كان عبدا لعبد القيس فى هجر فأبق منهم ، وتقلب بين أماكن وقوم كثيرين حتى أخذته بنو أسد فزوجوه مولاة لهم يقال

---

(١) انظر أخباره مستوفاة فى الأغانى ٢٢/٥ وما بعدها ، ووفيات الأعيان ٢/٢٢٦ .

(٢) منها .. «قد كان من قضاء الله جل وعز أن جمعنا وأهل ديننا فى هذه الرقعة من الأرض ، والله يعلم أنى كنت لذلك كارها ، ولكنهم لم يبلعونا ريقنا ، ولم يدعونا نرتاد لديننا وننظر لمعادنا حتى نزلوا فى حريمنا وبيضتنا ، وقد علمنا أن بالقوم حلماء وطغاما ، فلسنا نأمن طغامهم على ذرارينا ، وقد كنا لا نحب ان نقاتل أهل ديننا فأحرجونا حتى صارت الأمور إلى أن يصير غدا قتالنا حمية ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ....والذى بعث محمدا بالحق لوددت أنى مت قبل هذا ، ولكن الله تبارك وتعالى إذا أراد أمرا لم يستطع العباد رده ، فنستعين بالله العظيم» ثم انكفأ .

إنها كانت بغيا ثم اشترى نفسه ونزل على بجيلة بالطائف فانتسب إليهم ، ويقال إن أصله من يهود تيماء .

وكتب عبد الله بن يزيد لحبيب بن مسلمة الفهرى فى عهد عثمان وكان كاتبا قديرا فنال حظا وشرفا ، وكان خطيبا مفوها ولكنه كان يسمى خطيب الشيطان وتزوج عبد الله فتاة رومية نصرانية وهبها له عبد الملك بن مروان فأنجبت له خالدا هذا ، فخالد اذن سيء النّسب من قبل والديه جميعا .

كان عبد الله مع عمرو بن سعيد الأشدق على شرطته أيام عبد الملك ، فلما قتل عمرو هرب عبد الله واختفى حتى سألت اليمانية فيه عبد الملك فأمنه عام الجماعة ونشأ خالد بالمدينة نشأة ماجنة خليعة . فكان فى حداثته يتخنث ويتتبع المغنين والمخنثين ويمشى بين عمر بن أبى ربيعة وبين النساء فى رسائلهن إليه ورسائله اليهن ، وكان يسمى الخريت والجرىء ، وكان يجمع بين عمر ومعشوقاته .

وفى عهد هشام بن عبد الملك تولى إمارة العراقين بعد عمر بن هبيرة ، فبدت له صفات حميدة وأخرى ذميمة جدا .

فمن صفاته الحميده أنه كان جوادًا معطاء . وأنه شجاع جرىء القلب على الخليفة أحيانا . وكان خطيبا مفوها .

ومساوئه عديدة جدا منها أنه بنى لأمه النصرانية كنيسة فى ظهر قبلة المسجد بالكوفة فكان إذا أراد المؤذن أن يؤذن ضرب لها بالناقوس ، وإذا قام الخطيب على المنبر رفع النصارى أصواتهم بقراءتهم . وكان أهل الكوفة يكرهونه ويقولون ابن البظراء . ويقال إنه ختن أمه على الكبر وهى كارهة وكان أعشى همدان يعيره بذلك . ويقال إن الأسرة كلها كانت توصف بالكذب وأن يزيد بن أسد كان يلقب خطيب الشيطان لكذبه . وكان أكذب الناس فى كل شىء معروفا بذلك ، فسلك ابنه عبد الله منهجه فى ذلك وحمل أيضا لقبه خطيب الشيطان ثم جاء خالد ففاق الجماعة ولكن رياسته وسخاءه سترا بعض أمره .

وكان خالد يكره المضرية ويكره على بن أبى طالب ، وقد طلب من المدائنى أن يكتب له السيرة النبوية وألا يذكر عليا إلا أن يذكره فى سواء الجحيم . ورأى يوما عكرمة مولى ابن عباس وعليه عمامة سوداء . فقال بلغنى أنه يشبه عليا سود الله وجهه كما سود ذاك . وكان يلعنه فى خطبه .

وكان يتهم بالزندقة وله أعمال كثيرة تدل على رقة دينه وزيغ عقيدته . وكان يتقرب إلى الخلفاء بما يضر بدينه ولم ينفعه ـ كان يقول : لو أمرنى أمير المؤمنين نقضت الكعبة حجرا حجرا ، ونقلتها إلى الشام . وكان يولى النصارى والمجوس على المسلمين ، ويأمرهم بامتهانهم وضربهم . وكان أهل الذمة يشترون الجوارى المسلمات ويطئوهن ـ وهو أمر يحرمه الإسلام ـ ولكنه كان يبيحه لهم . وكان يستهين بتعاليم الإسلام ويتطاول على الله تعالى وعلى أنبيائه . فلما حفر الوليد بئرا عذبة الماء قريبا من الحجون ـ كان خالد ينقل ماءها فيوضع فى حوض إلى جنب زمزم . ويقول وهو يخطب : إن ابرهيم خليل الله استسق ماء فسقاه الله ملحا أجاجا ، وإن أمير المؤمنين استسقى فسقاه الله عذبا نقاخا[1] وكان يرى أن حفظة القرآن من الحمق .

وما من حسنة من حسناته إلا ردت بصفة أخرى سيئة . أما سخاؤه بالمال فكان يقابله بخله بطعامه ، فقد كان لا يطيق أن يؤكل طعامه ، وشجاعته فى بعض المواقف يقابلها جبنه وخوفه أمام خصومه . فلما خرج عليه المغيرة وهو على المنبر دهش وتحير وقال : أطعمونى ماء . وقد قال الكميت الأسدى يمدح يوسف بن عمر الذى ولى العراق بعد خالد :

وما خالد يستطعم الماء فاغرا بعدلك . والداعى إلى الموت ينعب

وقد رأينا من قبل كيف ارتج عليه ، ووقف مرة يخطب وأراد أن يستشهد بآية قرآنية فارتج عليه ولم يجد فى رأسه شيئا من القرآن فقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وظل يكررها ثم قال لصديق له زنديق افْتَح عَلَى . فقال له : لا يهولنك ذلك فما رأيت عاقلا يحفظ القرآن وإنما يحفظه الحمق قال صدقت .

وكان شديد الصلة بهشام فمازالت هنواته تلقاءه وسيئاته تتوالى حتى تغير عليه قلبه فأبغضه ولم يجد بدا من عزله . قال عنه مرة ابن الحمقاء فبلغته ، وقال فى خطبة له : والله ما إمارة العراق مما يشرفنى ، فغاظت الكلمة هشام بن عبد الملك فكتب إليه :

بلغنى يا ابن النصرانية أنك تقول : إن إمارة العراق ليست مما يشرفك . صدقت ، والله ما شىء يشرفك . وكيف تشرف وأنت دعى إلى بجيلة القليلة الذليلة ...» .

ولما عزله هشام قتل ابنه يزيد بن خالد ، وعذبه هو فَشُدَّ فى رجله شريطٌ وجعل

---

(١) النقاخ العذب الصافى البارد .

الصبيان يجرونه . وكان قد كتب إلى يوسف بن عمر وهو باليمن أن يلى العراق ويحاسب خالدا فحبسه وعماله وحاسبه ثم أودعه السجن حتى قتل فى أيام الوليد بن يزيد قتلة شنيعة . قيل وضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى تقصفتا . فرفع الخشبتين إلى ساقيه وفعل بهما ذلك . ثم رفعهما إلى وركيه ثم إلى صلبه فلما انقصف صلبه مات .

ولما كان واليا على مكة خطب يوم جمعه فأثنى على الحجاج خيرا وذكر طاعته ثم ورد عليه كتاب من سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه وإظهار البراءة منه . فلما كانت الجمعة التالية قال :

... إن إبليس كان ملكا من الملائكة ، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً . وكان قد علم الله من غشه وخبثه ما خفى على الملائكة فلما أراد فضيحته ابتلاه بالسجود لآدم فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ، فلعنوه ، وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبثه ما خفى عنا . فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين . فلعنه فالعنوه لعنه الله .

وهذا تأت حسن لتحوله وإتيانه بشىء يعارض ما سبق أن قاله :

وقال مرة لعمر بن عبد العزيز : من كانت الخلافة زانته فقد زنتها ، ومن كانت شرفته فقد شرفتها ، فأنت كما قال الشاعر :

وتزيدين أطيب الطيب طيبا ... أن تمسيه ، اين مثلك أينا
وإذا الدر زاد حسن وجوه ... كان للدر حسن وجهك زينا

فقال عمر : إن صاحبكم أعطى مقولا . ولم يعط معقولا وهو تواضع من عمر ولكنه ثناء على خالد بحسن القول .

وخطب مرة فذكر الله وجلاله ثم قال :

« .. كنت كذلك ما شئت أن تكون ، لا يعلم كيف أنت إلا أنت ، ثم ارتأيت أن تخلق الخلق ، فماذا جئت به من عجائب صنعك !! الكبير والصغير من خلقك . والظاهر والباطن من ذرك من صنوف أفواجه وأفراده وأزواجه ، كيف أدمجت قوائم الذرة والبعوضه إلى ما هو أعظم من ذلك من الأشباح التى امتزجت بالأرواح .

وخطب يوما فسقطت جرادة على ثوبه فقال : سبحان من الجرادة من خلقه ، أدمج قوائمها ، وطوق جناحها ، ووشى جلدها ، وسلطها على ما هو أعظم منها .

خطبـاء آخـرون من هذا الحزب

هناك خطباء آخرون من الحزب الأموى يستحق الكثيرون منهم أن نقف لديهم ونذكر لهم خطبا نشرحها ، ولكن حسبنا ما ذكرنا ، ونشير إشارات عابرةً إلى عدد منهم عمرو بن سعيد الأشدق ، وكان ممن أيدوا بيعة معاوية لابنه يزيد فقال :

«إن يزيد أمل تأملونه ، وأجل تأمنونه ، إن استضفتم إلى حلمه وسعكم ، وإن احتجتم إلى رأيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه ، فقال له معاوية : أوسعت أبا أمية فاجلس .

ومنهم عتبة بن أبي سفيان ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وولاة بنى أمية كانوا خطباء أيضا منهم عدا من ذكرنا ، قتيبة بن مسلم ، ويوسف بن عمر ، ونصر بن سيار ، ومن مشهورى الخطباء فى هذا الحزب الضحاك بن قيس وهو أول من تكلم فى شأن تولية يزيد بإيعاز من معاوية ، وجاء فى هذه الخطبة :

أصلح الله الأمير وأمتع به . إنا قد بلونا الجماعة والألفة ، والاختلاف والفرقة ، قد رأينا من دعة يزيد ابن أمير المؤمنين وحسن مذهبه وقصد سيرته ويمن نقيبته ، مع ما قسم الله له من المحبة فى المسلمين والشبه بأمير المؤمنين فى عقله وسياسته ... ما دعانا إلى الرضا به فى أمورنا ، والقنوع به فى الولاية علينا . فليوله أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عهده ، وليجعله لنا ملجأ ومفزعا بعده .

وقد كثر الخطباء المنتمون إلى هذا الحزب لنجاحه فى الاستيلاء على الحكم ولطول مدته ، فبعد استقرار معاوية لم يعد ثم إلا خطباؤه وخطباء الخوارج ، وخطباؤه أكثر لكن خطباء الخوارج أبلغ وأخلص .

مقاصد الخطبة الأمـوية

كان المقصد الأساسى للخطبة الأموية هو تثبيت الحكم الأموى ، وللوصول إلى هذا الغرض كانت تحوم حول عناصر معينة ، أهمها ذكر مزايا الأمويين ومالهم من فضل على

رعاياهم ، ثم الحط من شأن على وأنصاره . وفى عهد معاوية لم يكن له خصوم غير الشيعة والخوارج ، ولكن الخوارج لم يكن نبه شأنهم ولا أصبحوا ذوى خطر يهدد العرش الأموى ، لهذا كان معاوية يعنى بالتركيز على إهانة على والحط من قدره . وكانوا يتخذون من ذكر عثمان وظلمه ممن اعتدوا عليه ودمه الضائع وسيلة للنيل من على وبيان أنه هو المسئول عن هذا الدم المهدور والخليفة المعتدى عليه . ويستدعى هذا أيضًا أن يذكروا ما كان لعثمان من أياد على الإسلام ، وما كان له من قربى لرسول الله . وما أثنى النبى (ﷺ) عليه به . كل هذا ليتخذوا من تعظيم قدره وجليل مكانته وسيلة لبيان فظاعة الاعتداء عليه ثم لإبراز علىّ فى صورة الآثم المرتكب لهذا الإثم العظيم.

وقد ذكر الطبرى وصية أوصى بها معاوية المغيرة بن شعبة الثقفى حين ولاه الكوفة عام الجماعة جاء فيها :

«أما بعد : فإن لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا[1] . وقد قال المتلمس :

لذى الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا ... وما علم الإنسان إلا ليعلما[2]

وقد يجزى عنك[3] الحكيم بغير التعليم . وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادًا على بصرك[4] بما يرضينى ، ويسعد سلطانى[5] ، وتصلح به رعيتى . ولست تاركًا إيصاءك بخصلة : لا تتحمَّ[6] عن شتم على وذَمِّه . والترحُّم على عثمان والاستغفار له . والعيب على أصحاب على . والإقصاء لهم[7] . وترك الاستماع منهم» .

فمعاوية يعلن فى هذه الوصية أنه ترك أشياء كثيرة كانت تستحق أن يوصيه بها . ولكنها تركها اعتمادًا على فطنته وذكائه . أما شتم على وأصحابه وتزكية عثمان وعمله فما لا يفوته

---

(١) «ما» فى «ما تقرع» مصدرية ، أى لذى الحلم وجد قرع العصا ، والحلم : الذكاء والعقل ، ومن الأمثال العربية : ان العصا قرعت لذى الحلم» ــ قيل كان عامر بن الظرب أحد حكام العرب الحصفاء ، فلما شاخ أنكر من عقله شيئا ، فأوصى بنيه أن يقرعوا له العصا بالمجن إذا حاد فيفطن .

(٢) علم ليستفيد من علمه .

(٣) الخطاب لكل شخص ، أى قد يؤدى عن المرء شخص لم يوصه بشىء .

(٤) علمك بما أحب .

(٥) يجعل حكومتى قوية .

(٦) بوزن تتعدى ، بمعنى لا تحد ولا تتحاش .

(٧) إبعادهم إهانة لهم .

أن يذكره به ، ثم كان هذا دستورًا للأمويين جميعًا ، ونجد المغيرة بن شعبه شديد الإلحاح فى سب علىّ وإهانته والحط منه هذا مع علمه بأن الكوفة تحوى أنصار على ومنها نبت المذهب الشيعى ، ثم نجد الأمويين خلفاء وولاة يلعنون عليا فى خطب الجمعة ، ووقف ذلك عمر بن عبد العزيز زمن حكمه ، لكنهم رجعوا إليه بعده ، ويتغالى ولاة الأمويين أحيانًا فيسبون البلاد والشعوب التى كانت تساعد عليا ، وهذا أكثر وضوحًا فى خطب الحجاج وَزياد : وكانت إهانة هذين تقترن بالتهديد والوعيد ، ومن ذلك قول الحجاج : إنى لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها .

وكأنى أرى الدم بين العمائم واللحى ، وقد مرت خطبة زياد البتراء ، وما فيها من تهديد مزلزل للقلوب ، وربما كان معاوية واضع دستور الأمويين يعد من شتم على وتهديد الرعية إن خرجت على الحاكم ، أقلَّ تهديدًا من الآخرين ، وقد قال لزيادٍ : لا ينبغى أن نسوس الناس سياسة واحدة ولكن تشتد أنت وألين أنا ، لهذا نجد تهديده عامًّا إذ يقول مثلاً : إياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة . ، ويقول عتبة بن أبى سفيان لأهل مصر : «إياكم أن تكونوا للسيف حصيدا ! » .

ومن المقاصد الشائعة فى الخطبة الأموية أن يذكر الخليفة أنه دون ما يرجون منه وما يرجو من نفسه . ودون ما تتطلب المثالية ، ولكنه أفضل من غيره ، وأحسن ما يمكن أن يكون فى وقته . ولعل بنى أمية كانوا يفعلون ذلك قطعا لألسنة الناقدين ، فهم يسلمون بأنهم دون الكمال ولكنهم خير من غيرهم ، نجد هذا فى أول خطبة ألقاها معاوية إذ قال : فإن لم تجدوا فىّ خيركم ، فإنى خير لكم ولاَيةً ، وفى آخر خطبة له قال : لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيرًا منى .

وفى جميع عناصر الخطبة ومقاصدها تستند إلى جانب دينى ، وأسلوب وعظى يرغب فى الآخرة وينفر من الدنيا أو يهون من شأنها ، هذا ليظهروا أمام الناس أنهم يعملون فى حقل الدين ولا يبعدون عن حظيرة الإسلام .

إذا نحن وازنا بين الخطبة الأموية وخطب الخلفاء الراشدين وعهد النبوة نجد أن التطور الذى نال الخطبة واسع جدًّا ، طالت بعض الإطالة ومع اشتمالها على عنصر دينى لم تعد دينية بحتة إلا نادرًا ، وفى كثير من مقاماتها تكون سياسية بحتة ، وأسلوب التهديد أسلوب مستحدث فيها ، وسنجد هذا يستمر حتى آخر العهد الأموى ، وينتقل أيضًا إلى العهد العباسى .

وقد ذكرنا هذه الميزات ونحن لما نتجاوز عهد معاوية لنرى أنه رائد هذا المنهج . وأنها سياسة له قلده فيها خلفاؤه .

خطبة يزيد بن الوليد بعد قتل الوليد بن يزيد

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد أيها الناس ،

إني ما خرجت أشرًا ولا بطرًا ، ولا حرصًا على الدنيا ولا رغبة في الملك ، وما بي إطراء نفسي ، ولا تزكية عملي . وإني لظلوم لنفسي إن لم يرحمني ربي ، ولكني خرجت غضبًا لله ودينه ، وداعيا إلى كتابه وسنة نبيه . حين درست معالم الهدى ، وأطفئ نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد المستحل الحرمة . والراكب البدعة والمغير السنة ، فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تقلع ، على كثير من ذنوبكم ، وقسوة من قلوبكم ، وأشفقت أن يدعو كثيرًا من الناس إلى ما هو عليه ، فيجيبه من أجابه منكم ، فاستخرت الله في أمري ، وسألته ألا يكلني إلى نفسي ، وهو ابن عمي في نسبي ، وكفئي في حسبي ، فأراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ولاية من الله وعزما ، بلا حول منا ولا قوة ، ولكن بحول الله وقوته ، وولايته وعزته .

أيها الناس :

إن لكم علي ـ أن وليت أموركم ـ ألا أضع لبنة على لبنة ، ولا حجرا على حجر ، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد ، حتى أسد ثُغَرَه وأقيم مصالحه ، مما تحتاجون إليه وتقوون به ، فإن فضل شيء رددته إلى البلد الذي يليه ، وهو أحوج البلدان إليه ، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء ، ولا أجمركم في بعوثكم فتفتتنوا وتفتن أهاليكم ، . فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به ، وإن ملت فلا بيعة لي عليكم ، وإن رأيتم أحدًا أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا أول من يبايعه . ويدخل تحت طاعته .

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

وقد كان الوليد بن يزيد على شاكلة أبيه يزيد بن عبد الملك ـ مجونا وتفانيا في الشراب وحب الغناء ، وكرهه الناس وأغروا به يزيد ، وقتل بقرية كانت تدعى

البخراء ، على بعد ثلاثة أيام من مدينة تدمر . ومع أن عددًا كبيرًا من الناس كانوا قد بايعوا يزيد أو اتفقوا معه على البيعة سرًّا قبل أن يقتل الوليد يبدو عليه التردد ، ومحاولة استجلاب الناس نحوه .

وفى هذه الخطبة تبدو ثلاثة عناصر أساسية :

تزكية عمله وتبرير ثورته على الوليد ، وفى هذا وصفه بأنه بدعى خارج عن السنة ، وأنه كان يخشى منه أن يفسد الآخرين ، ثم بذله الأمانى للشعب من ذكره توفير حاجياتهم واستشارتهم فى كل أموره وعدم تجمير الجيش ـ المحارب ـ أى عدم إطالة غيبته ـ حرصًا عليه وعلى ذويه ، وأخيرًا إظهاره عدم التهافت على الخلافة ، وأنه على استعداد لأن يَنخَلع عنها إذا رأوه قد حاد عن حدود الدين ، أو كان هناك من هو أليق لها منه . ولعله لم يكن فى حاجة لكل ذلك لأن الناس كانوا قد كرهوا الوليد وملوه ، وكان يزيد يشتهر بالنسك ويؤمل الناس فيه الخير .

ومع ذلك انقص رواتب الجيش ـ وكان يلقب بالناقص لهذا ـ وكانوا يقولون : « الأشج والناقص أعدلا بنى أمية » ـ والأشج هو عمر بن عبد العزيز .

ويزيد بن الوليد ابن أميرة فارسية ، هى ابنة كسرى يزدجرد ، لم تلد للوليد غيره وكانت ولايته خمسة شهور وأيامًا . توفى سنة ١٢٦ هـ .

وكانت الدولة قد آذنت بالشيخوخة والضّعف ، فقد بايع يزيد هذا لأخيه ابراهيم بن الوليد فلم تطل مدته إلا شهورًا ثم جاء بعده مروان بن محمد بن مروان ، وكان حازمًا شهمًا بليغًا ، ولكن الدولة كانت قد أدبرت عن بنى أمية ، وانتشرت الدعاية والفتن ضدهم .

ولسنا بحاجة للبحث عن خطب أخرى فى هذا العهد ، وحسبنا ذلك من العصر الأموى أزهى عصور الخطابة العربية جميعًا .

الأحزاب السياسية فى العهد الأموى

لكى نتعرف منهج الخطباء الذين كانوا يناوئون بنى أمية نستعرض أسباب قيام هذه الأحزاب ، والمبدأ الذى قام عليه كل حزب ، لأن خطبهم كانت تدور حول هذه المبادىء لتزكيها وتشرحها ثم تدحض مبادىء الآخرين وتهونها فى نفوس الناس ، ونحن قد رأينا من قبل عناصر العداء القديم المستحكم بين بنى أمية وبنى هاشم ، وقد ظل هذا العداء قائمًا بين أبى سفيان وبين رسول الله (ﷺ) أكثر من عشرين عامًا حتى أكره أبو سفيان على الخضوع للدين الجديد ولنبيه يوم فتح مكة ، وحتى اللحظة الأخيرة كان من الصعب عليه أن يقر بنبوة محمد (ﷺ) ولما محا الإسلام من نفوس الأمويين وأنصارهم آثار الشرك ظلت نفوسهم تتطلع إلى الرياسة وتصبو إلى المناصب العليا ، ولكن لم يكن لأى منهم – وقد دخلوا الإسلام آخر من دخل – أن يكون خليفة للمسلمين ، وكانوا دائمًا يتشبثون بعثمان بن عفان لسابقته فى الإسلام وصلته برسول الله (ﷺ) فلما آلت إليه الخلافة فرحوا بها وحرصوا على بقائها فيهم ، هذا كله بينما كان على ابن أبى طالب يتطلع إلى الخلافة منذ وفاة رسول الله ، وكان عمه العباس يسانده فى هذا ، حتى إنهما دخلا على رسول الله (ﷺ) فى مرض موته ، فأدرك العباس أنه ميت ، فلما خرجا طلب من على أن يسأله لمن الأمر من بعده ولكن عليا استحيى ولم يفعل . فلما اختير أبو بكر خليفة تردد على فى بيعته[1] لأنه كان يرى أنه أحق بها لقرابته وصهره لنبى الإسلام ، ثم بايع أبو بكر عمر فصدم على ثانيًا ، وقال أبو سفيان عنه وعن عمه العباس : ما فعل المستضعفان ؟ ولما قلدها عثمان قال على : والله ما هذه أول مرة تتآمرون علينا ، ولما غضب الناس على عثمان وقامت حوله الثورات قدم معاوية من الشام فأتى مجلسًا فيه من كبار الصحابة على وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر فهددهم وأوصاهم بعثمان وقال : «لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالاً» ثم عرض على عثمان أن يقتل هؤلاء أو يشتتهم فنفر عثمان ، فقال له : اجعل لى الطلب بدمك إن قتلت قال عثمان نعم هذه لك إن قتلت فلا يطل

---

(١) الإمامة والسياسة ٤٧/١ .

دمى[1] فلما بويع على بالخلافة بعد عثمان امتنع معاوية عن البيعة وقال : ابلعونى ريق إنها ليست بخدعة الصبى عن اللبن ، ثم قامت الحرب بين على وبينه فكان أبرز ما فيها أن عليًّا يمتاز بالشجاعة والصراحة واللين ، وأن معاوية يمتاز بالدهاء والعمق ، وكان جيش معاوية طيِّعًا يؤمر فيأتمر وينهى فينتهى لا يسأل لماذا أمر ولا لماذا نهى ، بينما كان جيش على شريكًا فى الرأى منقسمًا فى وجهات النظر حتى أفسد عليه رأيه بالعصيان ، وعقب هزيمة معاوية يوم صفين رفعوا المصاحف على الرماح وقالوا نحكم القرآن ، وأدرك على أنها خدعة ولكن فريقًا كبيرًا من قومه أصروا على التحكيم بينما قال جماعة منهم إنه كفر ، هذا لأنه خليفة شرعى ولا يصح أن يحكم فى أمر ثبت له بحكم الشريعة ، وانتهى التحكيم بخدعة ثبت فيها عمرو معاوية بعد أن خلع أبو موسى الأشعرى عليا ، وعلى إثرها تسمى معاوية أمير المؤمنين ، وعادت الحرب جذعة ولكن أصبح لعلى خصمان ، لأن الذين رفضوا التحكيم من أول الأمر اعتبروا عليا كافرًا وحاربوه ، وربح معاوية بهذا الموقف ربحًا مضاعفًا .

ولما بايع معاوية ابنه يزيد أبى أبناء الصحابة الكبار ــ الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبى بكر أن يبايعوا ، ثم قام الحسين بثورة قتل فيها ، فقام بعده عبد الله بن الزبير يطالب بالحكم ، وأقر له بالخلافة أكثر المسلمين وأكثر أقاليم الدولة لكنه كان كعلى بن أبى طالب رجل شجاعة وسنة ولم يكن رجل سياسة ودهاء ، وكان خصمه عبد الملك بن مروان صِنْو معاوية فى دهائه وعمق سياسته ، استعمل ــ كما فعل معاوية ــ المال فى تأليف الرجال ، ورمى ابن الزبير بالحجاج فقتله ، وقام ابن الأشعث بحركة أخرى فانضم أولاً إلى ابن الزبير ، ثم أعلن المطالبة بدم الحسين فانضم له عدد من الشيعة ، ثم دعا لنفسه ، وكانت حركة أقل من حركة ابن الزبير أثرًا ولكنها ضايقت الخليفة الأموى فترة من الزمن ــ ثم قضى عليه ، وبقى الخوارج إذا قُضِى على داعية منهم قام آخر وحديثهم متشعب طويل .

من هذا العرض السريع نتبين وجهة الخطابة لكل فريق . والعناصر الهامة التى يمكن أن يدور عليها حديث كل خطيب .

وقد كان حزب على أقوى الأحزاب ولكنه قضى عليه سريعًا ، وظل حزب الخوارج

---

(١) نفسه ص ٥٣ ــ وطل دمه أى أهدر بدون دية أو قود .

هو الشوكة الدامية وأيضًا السيل المتدفق من الخطابة . ولم يقض عليه إلا فى العصر العباسى .

١ ـ الحزب العلوى

آلت الخلافة إلى على بن أبى طالب بعد مقتل عثمان ، وبعد الثورات التى قامت ضد عثمان فى أواخر أيامه وكان قتله متوقعا . ويتحمل الأمويون أقاربه مسئولية الموقف المتأزم بين عثمان والثائرين عليه . فمروان بن الحكم هو الذى زور الخطاب بقتل محمد بن أبى بكر ، وأثار ثائرة الناس على الخليفة . وقد حضر معاوية من الشام ولم يعمل له شيئا سوى أن حمل عليا ومن معه مسئوليه دم عثمان ثم عاد إلى الشام .

وبعد قتل عثمان دعا الزبير بن العوام إلى مبايعة على وذهب إليه مع جمع فى بيته فأبى على أن يقبل البيعة ، وقال ليس ذلك إليكم . إنما هو لأهل الشورى وأهل بدر ، فرجعوا . ولكنهم قالوا يمضى قتل عثمان ولا خليفة فيثور كل رجل فى ناحية . ولو سارت تولية على مع قتل عثمان أمنت الفتنة . فأصروا على مبايعة على وضموا إليهم الأشتر النخعى وعادوا إلى على يخوفونه الفتنة حتى قبل ومديده ، ثم أتوا طلحة فأبى بيعته وقال حتى يجتمع أهل الشورى ، فأخذوا به إلى على فبايع بلسانه ومنعه يده . ثم ذهبوا بعلى إلى المسجد فكان طلحة أول من مد يده لبيعته . وكانت له إصبع مشلولة فتطير منها على . ثم غضبت عليه عائشة (رضى الله عنها) وكانت غاضبة على عثمان من قبل ، وكتب سعد ابن أبى وقاص لعمرو بن العاص إذ سأله عمن تولى كبر عثمان : إنه قتل بسيف سلته عائشة وصقله طلحة ، وسمه ابن أبى طالب ، وسكت عنه الزبير وأشار بيده وأمسكنا نحن ولو شئنا دفعنا عنه .... ،

وكان الكثير يتوقعون معارضة معاوية اذ جاءت بيعة على من كل مكان إلا الشام ولم يقبل معاوية تولية على إياه الشام ولا وجد على من يتولاه . ثم انتكث عليه الزبير وطلحة . ثم نجمت الفتنة تحرك قرونها . وكان مع على كثرة ولكن معاوية كان أكثر دهاء وأعمق سياسة . ويرى الكثيرون أن معاوية ما ترك عثمان فى ورطته إلا وهو يترقب الخلافة لنفسه . انضم إلى على عدد كبير من الصحابة وكان الأنصار معه إلا أفرادا . ولكن لما قامت الحرب كان معاوية أحزم وفى جيش أطوع ، وكان على ألين وفى جيش متفرق الكلمة متشعب الرأى . واستدعت المواقف الكثيرة المتضاربة من على بيانات

وتوجيهات وردودا على المعارضين لهذا كثرت خطب الإمام . وكان رضى الله عنه بالغ القدرة فى الخطابة حوله عدد ممن يجيدون الخطابة أيضا . ولم يمت هذا الحزب باستيلاء معاوية نهائيا ، بل الشيعة يعملون سرا تارة وجهرا أخرى . وانضم اليهم بنو العباس حتى تقوض العرش الأموى فظفر العباسيون بالحكم دون العلويين وظل الشيعة يناضلون مرة ثانية حتى قامت لهم فى القرن الرابع دولة صدقها بعض وكذبها بعض وهى دولة الفاطميين .

خطباء الحزب العلوى

١ ـ على بن أبى طالب

أشهر هؤلاء على الإطلاق هو على بن أبى طالب . بل هو أشهر خطباء هذا العصر كله ، كان رضى الله عنه فصيح اللغة قوى التعبير واسع المعانى قوى الحجة ، وقد تعرض لمواقف خطابية عديدة لكثرة خصومه ومعارضيه ولازدحام الأحداث فى حياته . ما كادت تتم بيعته حتى عارضه طلحة والزبير . واستثارا أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها . فكانت موقعة الجمل التى استنفدت قدرا من طاقته وفيها ألقى عددا من الخطب . ثم كانت حرب معاوية فى صفين ثم حروب الخوارج وفى كل ذلك ألقى الإمام عديدا من الخطب . ثم له خطب أخرى دينية ووعظية وهكذا نجد له خطبا كثيرة وبليغة . وقد جمعت خطبه فى كتاب نهج البلاغة جمعها الشريف الرضى أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى ، وضم إليها كتبه ومواعظه وحكمه ، وقدم لكتابه بمقدمة قال فيها إن مجموعة هذا «يتضمن من عجائب البلاغة وغرائب الفصاحة وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعا فى كلام ولا مجموعا فى كتاب» . وحقا لا يوجد لأحد من مأثور الخطب والمكاتبات مايصل إلى هذا الحد . والكتاب ليس كل كلامه ولكنه مختار من آثاره الأدبية ، لهذا أبدى الكثيرون شكوكا واتهامات لهذا الكتاب ، قيل إن الشريف الرضى ألف كثيرًا من هذه الخطب ونحلها للإمام . وقيل إن عديدا من الشيعة صنعوا ذلك فى أوقات مختلفة قبل مجىء الشريف الرضى . وقد شرح هذا الكتاب ابن أبى الحديد شرحا واسعا وأفاض فيه الثناء على بلاغة الإمام وفصاحته . وتعرض لنسبة نهج البلاغة إليه فأنفق جهدا غير قليل فى تأكيد نسبة الكتاب إليه . ولكن هناك خطبا تبعد كل البعد عن ذوق العصر الذى عاش فيه الإمام . ومهما يكن من شأن هذا الوضع

فإن القدر الصحيح المقطوع بصحته أو الذى لا مجال للطعن فيه قدر كبير لا يوجد مثله لأى خطيب آخر فى هذا العصر.

وخطب الإمام ناصعة الأسلوب قوية الحجة عميقة المعانى. وخطبه الدينية أو الصوفية ذات أثر قوى فى نفوس قارئها. قال ضرار الصدائى: إنه رآه فى بعض لياليه ماثلا فى محرابه يتململ تململ السليم[1]. ويبكى بكاء الحزين وهو يقول: «يادنيا غرى غيرى ألى تعرضت أم إلى تشوقت؟ هيهات هيات. لقد طلقتك ثلاثا لا رجعة بعدها. أملك طويل وأجلك قصير! آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق!!».

وورع على وتقواه وحرصه على إقامة السنة فى مقابلة ما يبذل الأمويون من بيت المال لاستجلاب الأنصار وإسكات الأعداء كان ذا أثر كبير فى فقد على عددا من رجاله وخسرانه المعركة وكانت له. فالصوفيه أو الدعوة إلى العمل للدار الآخرة كانت فى على خلقا وطبعا. وتعبيره عنها يفيض بالصدق وحرارة العاطفة.

والإمام على ينسب إليه شعر حكيم قوى مما يؤيد مقدرته الكلامية وأصالة البلاغة فى لسانه.

ومن مكوناته الأدبية أنه من قراء القرآن ومفسريه. وكان يلجأ الصحابة الكبار إليه لحل المشكلات الفقهية والقضائية. وكان يحلها معتمدا على درسه القرآن وفهمه أسراره. وكان من أقضى الصحابة وأبصرهم بمسائل الحدود. ولا يفضله فى علم الميراث إلا زيد بن ثابت الذى قال فيه رسول الله (ﷺ): أفرضكم زيد.

هذا وقد قدمنا نموذجا للخطبة الكاملة من كلام الإمام. وخطب أصحابه يوم صفين فقال:

«أيها الناس: إن الموت طالب لا يعجزه هارب. ولا يفوته مقيم. أقدموا ولا تنكلوا. فليس عن الموت محيص. والذى نفس ابن أبى طالب بيده إن ضربة سيف أهون من موت الفراش.

أيها الناس: اتقوا السيوف بوجوهكم. والرماح بصدوركم. وموعدى وإياكم الراية الحمراء.

---

(١) السليم الملدوغ.

ولما دبر الخوارج قتل على ومعاوية وعمرو ، كان عبد الرحمن بن ملجم هو المنوط به قتل على ، وكان للأشعث الكندى إصبع فى مقتله ، فقد رتب ابن ملجم ن يقتله عند خروجه من بيته لصلاة الصبح ، فقضى ليلة عند الأشعث ، وقد سمعه حجر بن عدى يستنهضه ويقول له : فضحك الصبح ، فلما أشيع قتل الإمام قال حجر للأشعث : أنت قتلته ياأعور .

وآخر كلام للإمام على وهو وصيته أبناءه بعد أن ضرب ، فقد أغشى عليه وهم بجانبه فلما أفاق التفت إلى الحسن والحسين ، وبجانبه محمد ابن الحنفية فقال لهما :

«أوصيكما بتقوى الله والرغبة فى الآخرة والزهد فى الدنيا ، ولا تأسفا على شىء فاتكما منها ، اعملا الخير وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا .» ثم التفت إلى محمد فقال : أما سمعت ما أوصيت به أخويك قال : بلى ، قال فإنى أوصيك به ، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما ومعرفة فضلهما ، ولا تقطع أمرا دونهما ، ثم أقبل ثانيا على الحسن والحسين فقال : أوصيكما به خيرا ، فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وانتما تعلمان أن أباكما كان يحبه فأحباه .

على فى نظر معاوية

كان معاوية يقر لعلى بكل فضائله ، ولكنه كان يحرص على انتقاصه حتى بعد موته ، وذلك كيلا يذكر الناس محاسنه ومزاياه فيتعاطفوا مع شيعته ، كان معاوية صادقا كل الصدق حين قال للحسن بن على : إنكم أهل علم وعبادة ولكن لا علم لكم بالحكم .

وقد قدم عبد الله بن أبى محجن الثقفى على معاوية فقال : ياأمير المؤمنين إنى أتيتك من عند الغبى الجبان البخيل ابن أبى طالب . فقال معاوية : لله أنت أتدرى ما قلت ؟

أما قولك الغبى فوالله لو أن ألسن الناس جمعت فجعلت لسانا واحدًا لكفاها لسان على .

وأما قولك : إنه جبان فثكلتك أمك ! هل رأيت أحدا قط بارزه إلا قتله .

وأما قولك إنه بخيل . فوالله لو كان له بيتان أحدهما من تبر والآخر من تبن لنفد تبره قبل تبنه .

فقال الثقفى فعلام تقاتله إذن ؟

وسأل معاوية ضرار الصدائى أن يصف عليا ، فوصف ورعه وتقواه وطول تهجده .

فبكى معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، لقد كان كذلك .

فمعاوية لا ينكر من صفاته إلا صلاحيته للحكم ، فيرى نفسه أصلح منه ، وكثيرون من أتباع على جبهوا معاوية بأنه طالب دنيا وعلى طالب آخرة ، وبأنه حاد عن قانون الله ، حتى السيدة عائشه ـ رضى الله عنها ـ قالت له مثل ذلك ، ولكن معاوية كان يحسن إلى أتباع على ولا يرى داعيا لإهانتهم أو للانتقام منهم ، ولا يكف عن شتم على ولعنه من فوق المنبر ، وكان هذا عملا من أعمال السياسة .

وكان معاوية فى هذا كله أذكى من عبد الله بن الزبير الذى انتقص بنى هاشم وسجن جماعة منهم ، كما سيأتى ذلك بعد .

٢ ـ الحسن بن على

ولد الحسن ـ رضى الله عنه ـ فى السنة الرابعة من الهجرة ، نشأ وتربى تحت يد رسول الله (ﷺ) وسمعه وبصره ، وكان يحبه هو والحسين حبا جما ، وكان الحسن أشبه الناس بجده ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وروى عن الحسن عدد من الصحابة وممن روى عنه أم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال عنه النبى (ﷺ) : إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، وتوجد نصائح مأثورة مما لقنه أبوه الإمام على ، وكان الحسن هادئا رزينا صائب الرأى بليغ العبارات .

لما قتل الإمام على أقبل الناس يبايعون الحسن فقال : أبايعكم على السمع والطاعة ، وأن تحاربوا من حاربت وتسالموا من سالمت ، فارتابوا وأمسكوا أيديهم ، وقبض هو يده ، فذهبوا إلى الحسين فقالوا نبايعك على ما بايعنا عليه أباك ، وعلى حرب الضالين أهل الشام ، فقال : معاذ الله أن أبايعكم ما كان الحَسَنُ حيًّا ، فانصرفوا إلى الحسن ولم يجدوا بُدًّا أن يبايعوه على ما اشترط [1] ، وتمت بيعته فى رمضان سنة أربعين ، وكتب إليه عبد الله بن عباس رسالة جاء فيها .. اشدد عن يمينك وشمر للحرب ، وجاهد عدوك واستر من الظنين ذنبه بما لا يثلم دينك ، واستعمل أهل البيوتات تستصلح عشائرهم .

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ١/٢٨٥ .

وكان الحسن أكره الناس للفتنة ، ولهذا كره استمرار الحرب مع معاوية فعقد معه صلحا ولم تهرق فى عهده محجمة من دم ، التقى جيشاهما فنظر إليهم الحسن أمثال الجبال فى الحديد ، فقال أضرب بعض هؤلاء ببعض فى ملك من الدنيا لا حاجة لى به ؟ فبايع معاوية على أن يجعل له العهد من بعده ، فنفر أصحابه فقال لهم أنتم بايعتمونى على السمع والطاعة ، فكانوا يقولون له ياللعار فيجيب العار ولا النار ، ومازال بآله وأصحابه حتى قبلوا .

ومات الحسن فى السنة الخمسين . وكان قد أوصى أن يدفن مع جده فى بيت عائشة فمنعه مروان بن الحكم ، وكان الوالى على المدينة سعيد بن العاص فصلى عليه ودفن بالبقيع . وقيل انه مات مسموما .

ولما تم صلحه مع معاوية صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال :
أيها الناس . إن الله هدى أولكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وكانت لى فى رقابكم بيعة تحاربون من حاربت ، وتسالمون من سالمت ، وقد سالمت معاوية وبايعته ، فبايعوه . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين .
وأشار إلى معاوية .

وحاول سليمان بن صرد[1] سيد أهل العراق ورأسهم ـ وكان غائبا عن الكوفة وقت البيعة . أن يغرى الحسن بالنكوص فى بيعته ، ولامه على أنه لم يأخذ عليه كتابة ويشهد عليه . وقال : إن معاوية سيقول ما كنت أردت بذلك إلا إطفاء الفتنة ، وأراد الذهاب إلى الكوفة لإخراج عامل معاوية ، فقال الذين حضروا جميعا : ابعث سليمان وابعثنا معه ، فلم يوافقهم الحسن رغم حماسهم واستعدادهم للحرب ، ولكنه قام فخطبهم فقال :

... أما بعد فإنكم شيعتنا ، وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة ، والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم فى أمر الدنيا ، وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأسا ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيى غير ما

---

(١) هو سليمان بن حود بن أبى الجون ، من خزاعة ، كان اسمه يسارا ، فغيره النبى (ﷺ) شهد صفين مع على ، وهو الذى قتل جوشنا مبارزة ، وكاتب الحسين بعد ذلك ثم تخلف عنه ، ثم كان من الذين خرجوا يطلبون دمه ، وكانوا أربعة آلاف ، وكان ممن قتلوا بعين الوردة سنة ست وخمسين ، وكان عمره ثلاثا وتسعين ، وحمل رأسه إلى مروان بن الحكم .

أردتم ، ولكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أرد بما أردت إلا حقن دمائكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر لله والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم ، حتى يستريح بر ، أو يستراح من فاجر ، مع أن أبى كان يحدثنى أن معاوية سيلى الأمر ، فوالله لو سرنا إليه بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ، إن الله لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ... » .

ولم يؤثر عن الحسن خطب كثيرة ، لأنه لم تطل خلافته إلا شهورا سبعة وسبعة أيام ، وظل معاوية طوال حياته يكرمه ، بينما ظل الأمويون ومن تبعهم . وخصوصا عمرو بن العاص يتحرشون به ، ولكنه كان فصيحا قوى الحجة يتغلب عليهم كما ترى فى الحوار الذى دار بينهم ، عَلَى أنّ معاوية كان يتمنى موته كى يتم بيعة ابنه يزيد .

ولما مرض الحسن مرضه الذى مات فيه ـ وكان ذلك فى السنة الخمسين ، أى بعد تنازله لمعاوية بعشرة أعوام ـ كتب عامل المدينة إلى معاوية يخبره بشكاته ، فكتب إليه معاوية : إن استطعت ألا يمر يوم إلا يأتينى فيه خبر عنه فافعل ، فلم يزل يكتب إليه بحاله حتى توفى .

وهذا يبين مدى ما كان لمعاوية من رغبة فى التخلص منه ، فلما أتاه خبر موته خرّ ساجدا ، وكان عبد الله بن عباس بالشام ، فحضر إلى معاوية أو هو استدعاه ، فقال : قد بلغنى الذى أظهرته من الفرح والسرور لموت الحسن ، أما والله لا ينسأموته فى أجلك ، ولا يسد حفرتك ، وما أقل بقاءك وبقاءنا بعده ! » ثم خرج ابن عباس ، فرأى معاوية أن يبعث إليه يزيد يعزيه ، فجلس يزيد بين يديه واستعبر لموت الحسن ، فلما قام أتبعه ابن عباس بصره وقال : «اذا ذهب آل حرب ذهب الحلم من الناس» . يتعجب من دهائهم .

ومن خطب الحسن المعروفة خطبته حين اختلف الناس على أبيه بعد واقعة التحكيم ، قال له أبوه : قم يا حسن فقل فى هذين الرجلين ـ عبد الله ابن قيس ـ أبى موسى الاشعرى ـ وعمرو بن العاص ، فقام الحسن فقال :

«أيها الناس . انكم قد أكثرتم فى هذين الرجلين ، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب دون الهوى فحكما بالهوى دون الكتاب ، ومن كان هكذا لم يسم حكما ، ولكنه محكوم عليه . وقد أخطأ عبد الله بن قيس إذ جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ فى ثلاث خصال : واحدة أنه خالف أباه إذ لم يرضه لها ولا جعله من أهل الشورى ، وأخرى انه لم يستأمره فى نفسه ، وثالثة أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون

بها على الناس . وأما الحكومة فقد حكم النبي – عليه الصلاة والسلام – سعد بن معاذ فى بنى قريظة ، فحكم بما يَرْضَى الله به ولا شك ، ولو خالف لم يرضه رسول الله .

فأخذ بهذا الحديث أقطار المعارضين ، بين جواز التحكيم وخطأ المحكمين .

وكان الحسن بعيد النظر فى السياسة ، ولعل والده لو أخذ برأيه أثناء الفتنة لكان للأحداث مجرى غير الذى حدث ، ولرجحت كفة العلويين دون نزاع . فقد أشار عليه أولا أن يركب راحلة ويلحق بمكة فلا يتهم بشىء من أمور عثمان ، وهذا ما فعله معاوية إذ رجع إلى الشام ، وطلب الحسن من أبيه ألاَّ يُبايعَ إلاّ على بيعة جماعة ، كما أمره حين خالف عليه طلحة والزبير ألا يكرههما على البيعة ، ولا يحارب من أجلها ، بل زاد أن طلب منه أن يتخلى عنها ويقيل الناس من بيعتهم ، وقال له لو تشاوروا عاما ما زويت عنك ولا وجدوا منك بدًّا ، ولكن عليا لم يطعه ، وقال أحارب من عصانى بمن أطاعنى .

وكان رضى الله عنه مقدرا من ذويه وأعدائه على السواء .

خطبـاء علويـون آخـرون

هناك خطباء عديدون ينتمون إلى حزب الإمام على ، لكنهم جميعا تنبهم خطاباتهم بجانب خطب الإمام الكثيرة البليغة ، ومن ناحية أخرى لم يستقر لعلى ولاة وقواد فى الأقاليم لمدة طويلة ، وكانت معاركه ومواقفه الخطابيه مركزة فى المواقع التى شهدها بنفسه ، فكان هو الخطيب الأول بوصفه رئيس الحزب وموجهه ، لكننا نستعرض أتباعه فنجد بينهم عددا كبيرا من ذوى الخطابة واللسن ، ونذكر فى مقدمتهم أبناءه ثم من الصحابة : هؤلاء الأشخاص :

١ – الأشتر النخعى

وهو مالك بن الحرث – كان رئيس قومه مطاعا فيهم وكان محبا للإمام على شهد معه صفين وموقعة الجمل ، ويقال إنه شهد خطبة عمر بالجابية ، وشهد موقعة اليرموك ، وأصابته ضربة فسال منها القيح إلى عينه فشترها ، فسمى الأشتر ، وكان من المحرضين على عثمان وشهد حصره . وولاه على الجزيرة ، ثم ولاه مصر بعد صرف قيس بن سعد عنها ، وقيل بعد صرف محمد بن أبى بكر لكنه مات قبل دخولها ، وأكثر الأقوال أنه مات مسموما ، ولكن يختلف المؤرخون فى طريقة موته وكيف دس له السم ، فيقال إن

معاوية كتب إلى الخانسيار ـ وهو رجل من أهل الخراج فى العقبة ـ أن يخلصه من الأشتر ويترك له خراجه . فدس له سما مات به وأبلغ معاوية وعمرا بموته فقال عمرو : إن لله جنودا من عسل ، وقيل صحبه مولى لعثمان بن عفان يدعى نافعا ، أظهر له الود وقال إنه مولى لعمر بن الخطاب ، فأدناه الأشتر ووثق به وولاه أمره فصحبه إلى عين شمس فتلقاه أهل مصر بالهدايا والترحاب فسقاه نافع هناك سما .

كان الأشتر شجاعا جريئا . اشتبك مع عبد الله بن الزبير فى موقعة الجمل فكان كل واحد منهما إذا قوى على الآخر جعله تحته وركب صدره ، فعلا ذلك مرارا وعبد الله يقول :

اقتلانى وما لكا   واقتلا مالكا معى

فصارت مثلا ، وهو يريد أنه مصر على قتله حتى ولو مات معه ، ولكنهما انصرفا من غير أن يقتل أحدهما الآخر ، وجاء عن ابن الزبير أنه قال : ما ضربته ضربة إلا ضربنى ستا أو سبعا ، ثم أخذ رجلى وألقانى فى الخندق وقال : لولا قرابتك من رسول الله (ﷺ) ما اجتمع منك عضو إلى عضو أبدا ، وترك فى رأسه بركة لو صبت فيها قارورة لاستقرت بها وكان الأشتر شاعرا أيضًا .

٢ ـ قيس بن سعد

وهو قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى ، كان من ذوى الرأى والحكمة والدهاء ، كان من رسول الله (ﷺ) بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير ، وقد خدم رسول الله (ﷺ) عشرين عاما ، وكان شريف النفس سيد قومه غير مدافع ، وكذلك كان أبوه وجده ، وكان حامل راية الأنصار مع رسول الله (ﷺ) ويوم فتح مكة انتزع رسول الله (ﷺ) الراية من أبيه وسلمها إياه ، وكان قيس طوالا ضخما حسن الهيئة إذا ركب حمارا خطت رجلاه الأرض ، وكان يقول : اللهم ارزقنى مالا فإنه لا يصلح الفعال إلا بالمال ، وكان جوادا متلافا حتى إنه كان يستدين ويطعم ، وشهد غزوة العسرة فكان يطعم ويستدين حتى نهاه أبو عبيدة أمير الجيش ، واستدان منه رجل ثلاثين ألفا فلما ردها عليه أبى أن يقبلها ، وقال عنه النبى (ﷺ) : الجود من شيمة أهل ذلك البيت ، وقال عنه أبو بكر وعمر : إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه ، فمشيا فى الناس فصلى النبى (ﷺ) يوما فقام سعد بن عبادة خلفه فقال : من يعذرنى من ابن أبى

قحافة وابن الخطاب ؟ يبخلان على ابنى . شهد مع رسول الله (ﷺ) مشاهده ومع على مشاهده كلها ، وحضر فتح مصر واختط له فيها بيتا . وكان ـ كشريح وعبد الله بن الزبير ـ سناطا ليس فى وجهه شعر ، وكان الأنصار يقولون : وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا .

ولاه الإمام على مصر ، وأعطاه خطابا قرأه على الناس أول ما دخلها ، وفيه أنه ممن يرضى هديه ويرجو صلاحه ونصيحته ، وقد أحسن قيس سياسة المصريين ، وأعطى أتباع معاوية فهدأت الحال فى مدة حكمه حتى قلق معاوية وخاف سياسته فاحتال لإخراجه منها ، أرسل إليه رسلا ودس على على حتى أخرجه من مصر ، فساءت حالها بعده وقد أوصى محمد بن أبى بكر بحسن معاملة المنتمين إلى بنى أمية حتى تظل مصر هادئة لكنه لم يستجب له . فساءت حالها وقامت بها ثورات .

وهناك مكاتبات متبادلة بينه وبين معاوية . حاول فيها معاوية ان يستميله فلم يفلح . ومن سياسته أن مسلمة بن مخلد الأنصارى قام بمصر فنعى عثمان وطالب بدمه . فأرسل إليه قيس : ويحك ! أعلى تثب ؟ فوالله ما أحب أن لى ملك مصر إلى الشام وأنى قتلتك . فبعث إليه مسلمة : إنى كاف عنك مادمت والى مصر .

وحديثه مستفيض فى كتب التاريخ وتوفى سنه ٨٥ هـ .

٢ ـ حزب ابن الزبير

لابد لنا من إلمامة عابرة بموقف عبد الله بن الزبير من أحداث السياسة فى عهد معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك . لنبرز بها صورة من صور النضال لأجل الخلافة أولاً ، ثم لنرى من هذه الصورة موضوعات الخطابة الزبيرية ، ومواجهتها للأحداث التى واكبتها ، ونعرض لجذور هذه الأحداث بدءا من عهد معاوية وبيعته ابنه يزيد .

معارضة البيعة :

رأينا من قبل كيف عرض معاوية هذه الفكرة ، وكيف احتال لها ، وذكرنا أن جماعة من كبار أبناء الصحابة ومن الصحابة رفضوا هذه البيعة ، وكان على رأسهم

الحسين بن على ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير صاحب الدعوة الزبيرية والحزب الزبيرى ، وقد حاج هؤلاء معاوية بحجج قوية ، كان منها ما جاء على لسان ابن الزبير وهو :

«إن رسول الله (ﷺ) قبض فترك الناس إلى كتاب الله ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبابكر ، ثم رأى أن يستخلف عمر وهو أقصى قريش منه نسبا ، ورأى عمرُ أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، وفى المسلمين ابنه عبد الله ، وهو خير من ابنك ، فإن شئت أن تدع الناس على ما تركهم رسول الله فيختارون لأنفسهم ، وإن شئت أن تستخلف من قريش كما استخلف أبو بكر خَيِّرَ من يعلم ، وإن شئت أن تصنع مثل ما صنع عمر ، تختار رهطا من المسلمين ، وتزويها عن ابنك فافعل .

وكان معاوية فوق المنبر فنزل ، ولكنه أسرها فى نفسه حتى يدبر الأمر من وجهة أخرى .

وكان الآخرون قد تحدثوا أيضًا برأيهم ، وأدلى كل بوجهة نظره ، وكان من أشد المتكلمين عبد الله بن جعفر والحسين بن على ، ولكن يبدو أن ابن الزبير كان من أكثرهم إخافة لبنى أمية ، يدل على ذلك وصية معاوية ليزيد عند موته ـ وقد ذكرناها ـ كما يدل عليه ما كتب به سعيد بن العاص إلى معاوية حين كان والىَ المدينة وطلب معاوية منه أن يدعو الناس لبيعة يزيد ، إذ قال : «إن الناس عن بيعة يزيد بطاء ، لاسيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يجبنى منهم أحدٌ ، وبلغنى عنهم ما أكره ، وأما الذى جاهر بعداوته ، وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير» .

وعقب موت معاوية أرسل يزيد إلى خالد بن الحكم ـ وكان عامل المدينة[1] ـ أن يأخذ له البيعة من هؤلاء ، ولم يكن موت معاوية قد فشا ، فاستدعى الحسين بن على وابن الزبير فى بيته ليلا ، وطلب منهما البيعة ، فقال ابن الزبير : قد علمت أنا كنا أبينا البيعة إذ دعانا إليها معاوية ... ومتى ما نبايعك على هذه الحال نرى أنك أغضبتنا على أنفسنا ، دعنا حتى نصبح وتدعو الناس إلى البيعة ، فنأتيك فنبايعك بيعة سليمة ، ثم خرجا كلاهما إلى مكة ، وكان ذلك فى سنة ٦٠ هـ .

وفى سنة ٦١ هـ كانت فاجعة كربلاء التى قتل فيها الحسين ، وكان الوالى على العراق

---

(١) هذا من كلام ابن قتيبة وفى الطبرى ٥/٣٢٧ أن عامل المدينة كان الوليد بن عتبه بن أبى سفيان .

هو عمرو بن سعيد الأشدق فأرسل برأسه إلى يزيد ، وبموت الحسين أصبح ابن الزبير أبرز من يتجه إليه الغاضبون على يزيد بالخلافة ، وهو من قبله قام بمكة ينعى على أهل الكوفة وعلى العراقيين عامة تفريطهم فى نصر الحسين ، كما ذكر سيئات يزيد وذميم أخلاقه . وبدا ليزيد أن يسالمه ويتألفه ، ولكنه كان أكبر من أن ينخدع له ، وكان هناك أيضًا بعض من بنى أمية شجعوا ابن الزبير ودعوا إلى بيعته ، فلم يسع يزيد إلا أن يأمر عمرو بن سعيد أن يعبئ جيشًا لحرب ابن الزبير بمكة ، فعبأ جيشًا جعل على رأسه عمرَو بن الزبير ليحارب أخاه ، فأسره عبد الله وهزم الجيش[1] .

وفى سنة ٦٣ هـ اشتد الأمر على يزيد ، إذ قرر أهل المدينة خلعه أيضًا ، ولما طلب من عمرو بن سعيد أن يذهب إلى الحجاز ليخضع العصاة هناك ، أبى وقال إنه لا يريد أن تراق دماء قريش على يديه ، ولعله بعد قتل الحسين أنف أن يلوث بدماء أخرى ، فأرسل يزيدُ «مسلمَ بن عقبة المرِّى» ، وهو سيد من سادات العرب وبطل من أبطال الحرب ، فتردد أولاً ثم قبل ، وسخا بالعطاء لمن يذهب معه ، فكثر جنده حتى بلغوا اثنى عشر ألفا ، وكان أكثرهم من بنى كلب أخوال يزيد ، فاقتحم هذا الجيش المدينة ، ويقال إنه استباحها ثلاثة أيام[2] ، واشتهرت هذه الموقعة باسم موقعة الحرة لأنه المكان الذى عسكر فيه مسلم قبل دخوله المدينة .

واتجه مسلم بعد المدينة إلى مكة فمات فى الطريق ، وخلفه على الجند رجل يقال له الحصين بن نمير السكونى ، وأوصاه مسلم وصية جاء فيها : «أسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعَمِّ الأخبار ، ولا تمكن قريشا من أذنك» وأضافت رواية أخرى : «ولا تُرِدَّنَّ أهل الشام عن عَدُوِّهم ، ولا تقيَمنَّ إلاّ ثلاثا حتى تناجز ابن الزبير الفاسق[3] . ووصل الحصين إلى مكة فحاصرها ورمى الكعبة بالمجانيق ، فوصلهم نعى يزيد وهم على هذه الحال ، وعلم ابن الزبير بموته قبلهم فتنادى قومه : علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم ، وكانت وفاته سنه ٦٤ هـ .

أثر موت يزيد :

أحدثت وفاة يزيد اضطرابًا كبيرًا فى أنحاء الدولة إذ رغب الكثيرون أن يتخلّصوا من

---

(١) انظر تفاصيل هذا الحادث فى الطبرى ٥/٣٤٤ وما بعدها .

(٢) نفسه ٤٨٦ .

(٣) نفسه ٢٩٦ .

حكم هذه الأسرة ، أما معاوية الثانى فاعتكف فى بيته على ما سبق مُدّة أربعين يومًا أو شهرين ـ جمدت خلالها شئون الأمويين ، ولما مات تولى قيادة الناس فى دمشق الضحاك بن قيس الفهرى الذى تولاها من قبل عَقِبَ مَوْتِ معاوية بن أبى سفيان حتى يحضر يزيد ، وأثناء هذا الجمود تقدمت دعوة ابن الزبير وزاد أنصاره ، ولعل أكبر نصر له كان انضمام زفر بن الحرث مع قومه القيسيين إليه ، فهؤلاء كانوا يكرهون بنى كلب ويكرهون يزيد لتقديمه أخواله الكلبيين عليهم ، وفى العراق نما الهرج والمرج ، إذ انشق الخوارج على أنفسهم ، وكانوا من أعوان ابن الزبير فاستقلوا عنه ، فأَسْأَمَتْ حالهم أهل العراق ورأوا أن ابن الزبير هو الملجأ الوحيد لهم ، فعظم بذلك شأنه .

ووجد الأمويون أنفسهم أمام مأزق شديد لأن الضحاك الفهرى ـ فت فى عضدهم كثيرًا ـ بانضمامه إلى ابن الزبير ، وكانت شئون الأمويين فى يدى رجلين بارزين هما مروان بن الحكم شيخ القبيلة حينئذ ، ومالك بن بَحْدَل خال يزيد ، فرأى مروان أن يبايع ابن الزبير أيضًا ، لكن مالكا والآخرين رأوا أن يجمعوا كلمة الأُسْرة وأن يولوا عليها مروان أكبرهما سنًا ، فبايعوه على أن يكون الأمر بعده لخالد بن يزيد ، ثم لعمرو بن سعيد الأشدق ، وكانت بيعة مروان سنة ٦٤ هـ ـ فى الجابية ولم تطل مدة مروان أكثر من عشرة أشهر فمات سنة ٦٥ هـ . ولكنه نكث بعهد الجابية إذ جعل ولاية عهده لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ونحّى خالدًا وسعيدًا ، ثم ترك الدولة وليس مع بنى أمية غير الشام ، والشام مُنقسم أيضًا .

عبد الملك وابن الزبير :

دلت الأحداث إذ ذاك على مهارة عبد الملك السياسية ، وأنه ينهج نهج معاوية فى دهائه وسخائه وحيلته .

اتجه أولاً إلى زفر بن الحرث الكلابى فعقد معه صلحًا وأرضاه ، فهد بذلك ركنًا من قوة ابن الزبير ، ثم اتجه إلى العراق فحارب مصعب بن الزبير وقضى عليه ، واضطر قبائلها المختلفة المتناحرة أن تبايعه ، ثم ولى الحجاج بن يوسف الثقفى حرب ابن الزبير ، فذهب هذا أولاً إلى الطائف موطن قبيلته ومنها ناوش ابن الزبير فترة ، ثم اتجه إلى مكة فأقام المجانيق على جبل أبى قبيس ورمى الكعبة بالحجارة ، ولم يتركه عبد الملك بل أرسل له مددًا كبيرًا من الشام ، فلما اشتد الحصار والرجم تفرق أنصار ابن الزبير وقتل قتلته المعروفة ، وحمل رأسه إلى الحجاج ثم إلى عبد الملك ثم طيف به على الناس والأقاليم

تهديدًا لهم وشماتة . وصلب جسده على أسوار مكة ، وكانت نهايته سنة ٧٣ هـ .

هذه هي الحركة الزبيرية سردناها بنظرة عابرة ، ثم نتجه بعد هذا إلى بعض المواقف الخطابية التي صاحبتها .

عبد الله بن الزبير خطيبا

أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله (ﷺ) ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين ، وكان ميلاده عام الهجرة ، وهو أول ولد للمسلمين بالمدينة ، وقد فرح به المسلمون جميعًا لأن اليهود كانوا أرجفوا أنهم أخذوا المسلمين فلا يولد لهم بالمدينة . وقد حنكه رسول الله (ﷺ) ، وكان ريق رسول الله (ﷺ) أول شيء دخل جوفه ، وهناك حادث آخر يعزى إليه وهو أن رسول الله (ﷺ) احتجم مرة فقال لعبد الله : اذهب بهذا الدم فأهرقه حيث لا يراك أحد . فلما بان عن النبي شرب الدم ورجع ، وقال جعلته في أخفى مكان علمت أنه يخفى على الناس ، قال له رسول الله (ﷺ) لعلك شربته قال نعم . قال ولم شربت الدم ؟ ويل للناس منك وويل لك من الناس ، فكانوا يرون أن ذلك سبب ما به من قوة وشجاعة . وكان مع هذا ذكيًا عابدًا فقيهًا ، فما رأى الناس أحسن من صلاته ، كان يقف كأنه عمود لما يطيل من القراءة ، ولما في صلاته من الخشوع ، وما ترك بابًا من أبواب العبادة إلا تكلفه .

وقد شهد مع أبيه موقعة اليرموك وموقعة الجمل ، كما شهد فتح إفريقية ، ذكر ابن عذاري أن عبد الله بن أبي سرح كان إذا احتاج أن يفكر في أمر دخل خيمته وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد بالدخول عليه . فلما أعياه أمر البربر في إفريقية فعل ذلك ، فجاء عبد الله ابن الزبير يريد مقابلته فمنعه الحاجب . فأخذ يدور حول الخيمة فرآه ابن أبي سرح من خصاصها فدعاه ، فأخبره ابن الزبير أنه اهتدى إلى ثغرة في صفوف العدو يمكن أن يهجم عليهم منها ، وأطلعه عليها فتم بها الفتح للمسلمين[1] .

وكان عبد الله بشيرًا بفتح آخر إلى عثمان ، فلما قدم المدينة ذهب إلى الخليفة قبل أن يدخل على أبيه وحدثه بهذا الغزو فأعجبه حديثه فقال له : هل تستطيع أن تخبر الناس بمثل هذا يابني ، قال : أنا أهيب لك منهم ، فقام عثمان في الناس خطيبًا ، وقال : إن

---

(١) انظر البيان المقرب ص ٤٢ وما بعدها .

الله قد فتح عليكم إفريقية . وهذا عبد الله بن الزبير يخبركم خبرها إن شاء الله . وكان عبد الله إلى جانب المنبر فقام خطيبًا . وكان أول من خطب إلى جانب المنبر . فأعجب به الناس . فلما سكت نزل عثمان . وقام عبد الله إلى أبيه . فقبله أبوه بين عينيه وقال ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . والله يا بنى مازلت تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت . ثم قال : إذا أردت أن تتزوج امرأة فانظر إلى أبيها وأخيها . قبل أن تتزوجها [1] .

ولعل هذه الخطبة كانت أول ما بدا من نجابته فى الخطابة فقد كان ما يزال شابًا حتى أشفق عليه أبوه . ووجد على عثمان أن يُوليِّه هذا الأمر وهو فى هذه السن . هكذا ذكر ابن عبد الحكم . ولا نراه جيّدًا لأن إفريقية فتحت سنة ٢٧ هـ . أى أن ابن الزبير كان فى هذه السن . فهو ليس حدثًا .

أما الخطبة فهى :

«الحمد لله الذى ألف بين قلوبنا وجعلنا متحابين بعد البغضة . الذى لا تجحد نعماؤه . ولا يزول ملكه . له الحمد كما حمد نفسه . وكما هو أهله . انتخب محمدًا (ﷺ) فاختاره بعلمه . وائتمنه على وحيه . واختار له من الناس أعوانًا قذف فى قلوبهم تصديقه ومحبته . فآمنوا به وعزروه ونصروه ووقروه . وجاهدوا فى الله حق جهاده . فاستشهد الله منهم من استشهد على المنهاج الواضح . والبيع الرابح . وبقى منهم من بقى لا تأخذهم فى الله لومة لائم .

أيها الناس . رحمكم الله

إنا خرجنا للوجه الذى علمتم . فكنا مع وال حافظ . حفظ وصية أمير المؤمنين . كان يسير بنا الأبردين [2] . ويخفض بنا فى الظهائر [3] . ويتخذ الليل جَمَلاً [4] . يعجل الرحلة من المنزل الجدب . ويطيل اللبث فى المنزل الخصب . فلم نزل على أحسن حال نعرفها من ربنا حتى انتهينا إلى إفريقية . فنزلنا منها حيث يسمعون صهيل الخيل . ورغاء الإبل . وقعقعة السلاح . فأقمنا أيامًا نجم كراعنا [5] ونصلح سلاحنا . ثم دعوناهم إلى الإسلام والدخول فيه . فأبعدوا منه . فسألناهم الجزية عن صغار أو الصلح . فكانت

---

(١) فتوح مصر ص ٢٥٠ .
(٢) أول النهار وآخره .
(٣) جمع ظهيرة .
(٤) يركب الليل فى سفره .
(٥) نريح إبلنا .

هذه أبعد فأقمنا عليهم ثلاث عشرة ليلة نتأناهم[1] وتختلف رسلنا إليهم . فلما يئس منهم[2] . قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه وذكر فضل الجهاد ، وما لصاحبه إذا صَبَرَ واحتسب . ثم نهضنا إلى عدونا وقاتلناهم أشد القتال . يومنا ذلك . وصبر فيه الفريقان . فكانت بيننا وبينهم قتلى كثيرة . واستشهد الله فيهم رجالاً من المسلمين ، فبتنا وباتوا . وللمسلمين دَوِيٌّ بالقرآن كدوى النحل . وبات المشركون فى خمورهم وملاعبهم . فلما أصبحنا أخذنا مَصَافَّنَا التى كنا عليها بالأمس ، فزحف بعضنا على بعض . فأفرغ الله علينا صبره . وأنزل علينا نصره . ففتحناها من آخر النهار ، فأصبنا غنائم كثيرة ، وفيئًا واسعًا ، بلغ فيه الخمس خمسمائة ألف . [فصفق عليها مروان بن الحكم] ـ فتركت المسلمين قد قرت أعينهم وأغناهم النَّفَلُ[3] . وأنا رسولهم إلى أمير المؤمنين . أبشره وإياكم بما فتح الله من البلاد . وأذَلَّ من الشرك .

فاحمدوا الله عباد الله على آلائه ، وما أحل بأعدائه من بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

خطبته بعد قتل الحسين

تقدم أنه قام خطيبًا بمكة بعد قتل الحسين فلام أهل الكوفة خاصة ، وأهل العراق عامة ، ومن هذه الخطبة :

«إن أهل العراق غُدُر فجرٌ إلاَّ قَليلاً ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق ، إنهم دعوا حسينا لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له : إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سِلْمًا ، فيمضي فيك حكمه ، وإما أن تحارب ـ فرأى والله ـ وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحدًا ـ أنه مقتول ، ولكنه آثر الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسينا ، وأخزى قاتل حسين ، لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان فى مثله واعظ وناه عنهم ، ولكنه ما حم نازل[4] . وإذا أراد الله أمرًا لَنْ يُدْفَع .

(١) نتأنى ونتريث .

(٢) يريدا لوالى .

(٣) ما نالوا من الغنيمة .

(٤) الذى قَدِّرَ واقع .

أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدًا ؟ ، لا ، ولا نراهم لذلك أهلاً . أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيرًا فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم[1] ، وأولى فى الدين والفضل .

أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب[2] الصيد ، فسوف يلقون غيا .

فثار إليه أصحابه قائلين أظهر بيعتك ، فإنه لم يبق أحد بعد الحسين أولى بها منك . وكان عبد الله إذ لجأ إلى مكة وقال إنى عائذ بها يدعو لنفسه سرًّا ويبايع الناس .

وفى هذه الخطبة نجد أن الحسين قد وجد نفسه مضطرًا أن يواجه جيش ابن زياد مع علمه أنه سيقتل ، وأهل الكوفة هم الذين ألجأوه لهذه التضحية ، والشيعة يقولون إن الحسين خرج إلى العراق عالمًا أنه سيقتل مؤثرا الاستشهاد فى سبيل الحق ، ورأى الشيعة بعيد جدًّا ، لأن معاوية جعل على رأس كل واحد ممن امتنعوا عن البيعة جنديًا يقتله إذا عارض معاوية فيما يعلن من البيعة ، وأعلن هو من فوق المنبر أن هؤلاء بايعوا ، فلم يجرؤ واحد منهم أن يجيب بكلمة ، أو يبدى أية معارضة ، ولو كان يرى من الواجب أن يستشهد لفعل ، ولكان قتله فى المسجد أدعى للثورة وذهاب بيعة يزيد إلى الأبد .

خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما بلغ عبدَ الله قتل أخيه أمسك عن ذكره أيامًا حتى تحدثت به إماء مكة فى الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس مليا لا يتكلم ، والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقًا . فقال رجل إلى من بجانبه : ما له لا يتكلم ! أتراه يهاب المنطق ؟ والله إنه للبيب الخطباء ، قال لعله يريد أن يذكر مقتل أخيه سيد العرب فيشتد ذلك عليه وهو غير ملوم . ثم تكلم عبد الله فقال :

(١) أحق منهم بالخلافة والملك .

(٢) تطلاب بمعنى طلب ، من مصادر سماعية مفتوحة الأول دائما . والفقرة كلها تعريض بيزيد بن معاوية فقد كان صاحب لهو وشراب .

«الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء .

أما بعد . فإنه لَمْ يُعِزَّ الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرا ، ولَمْ يُذِلَّ من كان الحق معه ، وإن كان مفردًا ضعيفًا ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد الغدر والشّقاق ، فساءنا وسرنا ، أتانا أن مصعبا قتل ـ رحمة الله عليه ومغفرته ـ فأما الذى أحزننا من ذلك فإن لفراق الحميم لذعة ، ولوعة ، يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى[1] من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء ، . وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة[2] إن شاء الله تعالى .

أسلمه الطغام[3] الصم الآذان ـ أهل العراق ـ إسلام النعم المخطَّمة[4] ، وباعوه بأقلَّ من الثمن الذى كانوا يأخذونه منه ، فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين . إنا والله لا نموت حتف آنافنا[5] ، ولكن قعصا[6] بالرماح ، وموتًا تحت ظلال السيوف وليس كما يموت بنو مروان . والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط ، ألا وانما الدنيا عاريّة[7] من الملك القهار ، الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد[8] ملكه ، فإن تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البطر[9] ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق[10] المهين .

أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

هذه خطبة ليست طويلة ولكنها ليست قصيرة أيضًا ، وإذا وازنت بينها وبين خطبة

---

(١) يفىء ويرجع .

(٢) الخير فى الدار الآخره لأنه قتل مجاهدا فى سبيل الله .

(٣) العوام الذين لا عقل لهم ولا تعليم .

(٤) الخطام ما يوضع على أنف البعير من الحبال ليقاد به ـ ويقال خطمه إذا وضع فيه هذا الحبل .

(٥) يقال للذى يموت على فراشه مات حتف أنفه . أى خرجت روحه من أنفه دون معركة .

(٦) دفعا .

(٧) عاريه بالتشديد شىء معار .

(٨) يفنى .

(٩) المتكبر الفرح .

(١٠) الأحمق .

الحجاج حين نعى إليه أخوه وابنه تجد تقاربًا فى المنحى ، وكلتا الخطبتين تقوم على فكرة سياسية ، واحتياط من الخطيب للمستقبل ، غير أن الحجاج كان يهدد ويشتم لأنه مالك ، أما ابن الزبير فلاين مستمعيه ليستعين بهم فى المعارك المقبلة ، وقد أظهر التجلد ، واعتذر عن بكائه بأنه للعاطفة التى يجدها كل حبيب لفراق حبيبه ، ولكنه يعلم أن أخاه مات فى سبيل الله شهيدًا ، وفى هذا ما يشجع الآخرين على الحرب وعلى نيل هذه الشهادة .

آل الزبير :

أما أبوه فهو الزبير رضى الله عنه ، انصرف من موقعة الجمل فتبعه ابن جرموز فقتله وهو قائم يصلى فى مكان يسمى وادى السباع ، وأما عمه فهو عبد الرحمن بن العوام ـ أخو الزبير ـ قتل يوم اليرموك ، كما قتل ابنه عبد الله من قبل . «فقد قتل أبوه وعمه وابن عمه وأخوه» فابن عمه هو عبد الله بن عبد الرحمن قتل يوم الدار دفاعًا عن عثمان ، وأما أخوه فهو المنذر ، كان قد شهد موقعة الحرة ، ثم انحاز إلى أخيه بمكة ، فلما سار إليهم جيش يزيد إلى مكة خرج إليه المنذر فقاتلهم ساعة قتالاً شديدًا ، ثم دعاه رجل من أهل الشام إلى المبارزة ، فخرج إليه فضرب كل صاحبه ضربة مات منها ، فماتا معًا .

هذا وخطب ابن الزبير كثيرة ولكن مناظراته مع معاوية وأتباعه أكثر ونورد بعضًا منها ، وله أيضًا مناظرات مع عمرو ومع بعض الهاشميين .

أما ولاته فنهم أخوه مصعب ، وكان شجاعًا ذكيًّا وخطيبًا قويًّا ومنهم عبد الله بن يزيد الأنصارى . وابراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع .

خطبة لمصعب بن الزبير :

ولمصعب خطبة أول ما ولى العراق ليست إلا آيات من أول سورة القصص . هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِين ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إن فِرْعَوْن عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَل أَهْلَها شِيَعًا ، يَسْتَضْعف طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ

أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ـ [وأشار بيده نحو الشام] .

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الأَرْضِ ونَجْعَلَهُم أَئِمةً ونَجْعَلَهم الْوَارِثِينَ [وأشار بيده نحو الحجاز] .

وَنُمكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ [وأشار بيده نحو العراق] .

صورة من محاورات ابن الزبير والأمويين

هذه المحاورات كانت كثيرة متكررة ، ونكتفى بعرض هذه الصورة ، وهى جميعا تدور على محور واحد ، ابن الزبير يذكر صلة أبيه وجدته صفية برسول الله ، وقرابتهم من السيدة خديجة ، وما كان لهم فى الإسلام من سابقة وجهاد ، مع قرن ذلك بما كان لبنى أمية من عداء لرسول الله (ﷺ) وشنهم الحروب ضده ، ومحاربتهم الإسلام ، أما معاوية فكان يلجأ إلى أن الرياسة فى الجاهلية والإسلام كانت لبنى عبد مناف ، ذلك ليجمع بنى أمية مع بنى هاشم تحت جدٍّ واحد ، وان بنى زهرة لم يكن لهم من الأمر شىء ، وكل ما لهم من مفاخر إنما جاء بسبب صلتهم برسول الله (ﷺ) وهو من بنى عبد مناف . ـ فكان يقول له مثلا :

«عمتك أم المؤمنين ـ يعنى خديجة ـ فبنا شرفت وسميت أم المؤمنين ، وخالتك عائشة مثل ذلك ، وأما صفية فهى أدنتك من الظل ، ولولاها لكنت ضاحيا . ـ يريد ان زواج العوام والد الزبير من صفية قربه من بنى هاشم ، وهكذا كانت طريقهما .[1]

وإليك هذه الصورة .

قدم عبد الله بن الزبير على معاوية فرحب به وأدناه حتى أجلسه على سريره ثم قال :

ـ حاجتك أبا خبيب ـ [وهى كنية عبد الله لأن خبيبا أكبر ولده)

ـ ترد على المهاجرين والأنصار فيئهم ، وتحفظ وصية نبى الله فيهم تقبل من محسنهم ، وتتجاوز عن مسيئهم .

---

(١) راجع العقد الفريد ٩٥/٤ وما بعدها .

ـ هيهات ، هيهات . لا والله ما تأمن النعجة الذئب وقد أكل أليتها[١]

ـ مهلا معاوية ، فإن الشاة لتدر للحالب وإن المدية فى يده ، وإن الرجل الأريب ليصانع ولده الذى خرج من صلبه ، وما تدور الرحاء الا بقطبها[٢] ، ولا تصلح القوس إلا بعجبها[٣] .

ـ ياأبا خبيب ، لقد أجررت الطروقة قبل هباب الفحل[٤] ، هيهات هيهات ، وهى لا تصطك لحيائها اصطكاك القروم السوامى[٥] .

ـ العطن بعد العل ، والعل بعد النهل ، ولابد للرحا . من الثفال[٦] .. ثم نهض ابن الزبير ، فلما كان العشاء ، وأخذت قريش مجالسها .

وكان بينهم عمرو بن العاص ، قال لهم معاوية : أفيكم من يكفينى ابن الزبير ؟

قال عمرو : أنا ياأمير المؤمنين ، قال ما أظنك تفعل ، قال : بلى والله لأربدن[٧] وجهه ، والأخرسن لسانه ، ولأردنه ألين من خميلة[٨] .

قال دونك فاعرض له حين يدخل .

وبلغ هذا الحديث عبد الله ، فذهب لمجلس معاوية وجلس نصب عينى عمرو ، ومر الحديث ساعة . ثم قال عمرو :

وإنى لنار ما يطاق اصطلاؤها   لَدَىَّ كلام معضل متفاقم[٩]

---

(١) ما نسميه نحن لية ـ ذنب الشاة أو عجزها .

(٢) قطب الرحا عمود صغير يكون فى وسطها ، والرحا يمد ويقصر .

(٣) مؤخرها ـ وهو يريد أنه لا يصلح الإ بهؤلاء .

(٤) الطروقة : الناقة استحقت أن يطرقها الفحل ، وأجرها جذبها من رسنها وهباب الفحل وهيبيه قيامه للطرق .

(٥) يقال سما الفحل سماوة إذا اندفع الى أنثاه فهو سام وجمعه سوام ـ والقروم جمع قرم وهو الفحل . وتصطك تضطرب وتتحرك يريد أنك تعجلت أمورا قبل موعدها وجرأت الناس .

(٦) العطن مبرك الابل ، والعل أو العلل ، هو الشرب الثانى للإبل ، والنهل هو الشرب أول مرة ، والابل تشرب ثم تعود للشرب ثانيا ، فاذا ارتوت ذهبت إلى مبركها ، والثفال ما يفرش تحت الرحاء ليقع عليه الطحين . يريد أن معاوية لم يؤد لهؤلاء أوليات الأمور التى يطمئنون بها ويأنسون إليه .

(٧) لأجعلن وجهه أربد مغبرا .

(٨) الخميلة القطيفة .

(٩) عظيم منتشر .

فاطرق ابن الزبير ساعة ثم رفع رأسه وقال :

وإنى لبحر ما يسامى عبابه[١] متى يلق بحرى حرَّ نارك تخمُد

فقال عمرو أولاً وأجابه عبد الله على هذا النحو

ـ والله يا ابن الزبير إنك ما علمت لمتجلبب[٢] جلابيب الفتنة ، متأزر بوصائل[٣] التيه ، تتعاطى الذرى الشاهقة ، والمعالى الباسقة ، وما أنت من قريش فى لباب جوهرها ، ولا مونق حسبها[٤]

ـ أما ما ذكرت من تعاطى الذرى ، فانه طال بى إليها وسما ما لا يطول بك مثله . أنف جمى[٥] ، وقلب ذكى ، وصارم مشرفى[٦] فى تليد فارع[٧] وطريف مانع ، إذا قعد بك انتفاخ سحرك[٨] ووجيب قلبك . وأما ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جوهرها ، ومونق حسبها ، فقد حضرتنى وإياك الأكفاء العالمون بى وبك ، فاجعلهم بينى وبينك .

فقال القوم قد أنصفك ياعمرو

قال عمرو قد فعلت ، قال ابن الزبير

ـ أما إذا أمكننى الله منك فلأربدن وجهك ، ولأخرسن لسانك ، ولترجعن فى هذه الليلة وكأن الذى بين منكبيك مشدود إلى عروق أخدعيك[٩] . ثم قال :

أقسمت عليكم يامعاشر قريش : أنا أفضل فى دين الاسلام أم عمرو ؟

---

(١) عباب البحر معظم موجه .

(٢) ملتف بالفتنة كالجلباب الذى يحيط بالجسد .

(٣) جمع وصيلة وهى ثوب يمان مخطط ، والتيه العجب .

(٤) المونق المعجب من آنقه الشىء بمعنى أعجبه .

(٥) يريد أنه غيور يأبى الضيم .

(٦) الصارم السيف القاطع والمشرفى المنسوب إلى مشارف اليمن .

(٧) التليد القديم والفارع العالى ـ يريد أنه ذو أصل ونسب .

(٨) السحر الرئة أو أعلى الصدر . يقال انتفخ سحر فلان إذا عدا طوره .

(٩) يريد ذليلا مطأطئ الرأس ، والذى بين منكبيه رأسه أو عنقه ، والأخدعان عرقان على جانبى العنق . وإذا شد رأسه إلى أخدعيه انخفض وانكمش .

فقالوا : اللهم أنت ، قال فأبى أفضل أم أبوه ، قالوا : أبوك حوارى رسول الله (ﷺ) ، وآله وابن عمته .

قال : فأمى أفضل أم أمّه ؟ قالوا أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق وذات النطاقين . قال فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمتك سلمى بنت العوام ، صاحبة رسول الله (ﷺ) وآله أفضل من عمته ، قال : فخالتى أفضل أم خالته ؟ قالوا خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال فجدتى أفضل أم جدته ؟ قالوا جدتك صفية بنت عبد المطب عمة رسول الله (ﷺ) ، قال فجدى أم جده ؟ قالوا جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله (ﷺ) فقال :

قضت الغطارف من قريش بيننا ... فاصبر لفضل خصامها وقضائها[1]

واذا جـــريت فلا تجار مبرزا ... بَذَّ الجياد على احتفال جرائها[2]

أما والله ياابن العاص : لو أن الذى أمرك بهذا واجهنى بمثله ، لقصرت إليه من سامي بصره[3] ، ولتركته يتلجلج لسانه ، وتضطرم النار فى جوفه ، ولقد استعان منك بغير واف ، ولجأ إلى غير كاف .

بين ابن الزبير وبنى هاشم

يردد بعض المؤرخين أن عبد الله بن الزبير هو الذى دفع بالحسين إلى الخروج على يزيد . وأنه هو الذى زين له الخروج إلى العراق ، وكان يدرك عاقبة الحسين ولكنه غرر به كي يخلو له وحده الجو ويكون أولى الناس بها ، فإن الناس لا يقدمونه على الحسين ، ويستأنس بعضهم لهذا بالجفوة التى كانت بينه وبين بنى هاشم ، وامتناع بعضهم عن مبايعته بالخلافة ، ولسنا ندرى حقيقة هذا الموقف ولكن من المعروف حقا أن بعض بنى هاشم أظهروا الطعن على ابن الزبير وأبوا مبايعته ، وكان هو يشتمهم ويسبهم من فوق المنبر حتى إنه أسقط ذكر النبى (ﷺ) من خطبته ، وعاتبه الناس على هذا فقال : إنى

---

(١) الغطاريف جمع غطريف .

(٢) المبرز الذى يفوق أقرانه . وبذ فاز وغلب . والاحتفال الاجتماع . والجراء المجاراة . أى يفوق من يسابقه رغم استعداده وجمعه قواه للمسابقة .

(٣) أذللته حتى يغض بصره .

أذكره سرا وأصلى عليه ، ولكنى رأيت هذا الحى من بنى هاشم اذا سمعوا ذكره اشرأبت قلوبهم وأبغض الاشياء إلى ما يسرهم . وكان عبد الله بن عباس ، ومحمد ابن الحنفية على رأس معارضية وكان معهم جماعة من بنى هاشم ، فجمعهم ابن الزبير وهددهم إن لم يبايعوه أن يحرقهم بالنار ، فلم يبايعوه ، فسجن محمد ابن الحنفية وخمسة عشر من بنى هاشم فى سجن كان يسمى سجن عارم . فظلوا أياما غير أن المختار بن أبى عبيد عبأ حملة من الشيعة سرا استطاعوا أن يكسروا السجن وأن يخرجوهم منه .

وهذا الموقف من المواقف السيئة فى حياة ابن الزبير ، وهى ذات دلالة واضحة على ضيق أفقه السياسى ، وكان أولى به أن يسلك معهم مسلك معاوية وأن يعطيهم أعطياتهم ويقربهم إليه ، ثم يحول بينهم وبين الانسياح فى البلاد حتى لا يكونوا جبهة ضده ، وكان مخطئا كل الخطا بقطعه ذكر رسول الله (ﷺ) أو إسرار ذكره فى خطبته ، وقد زاد ذلك أعداءه . وأغضب أتباعه عليه وهذا موقف له مع عبد الله بن عباس .

خطب مرة أمام الناس وعبد الله بن عباس بينهم ، وكان قد كف بصره ـ فقال ابن الزبير :

أيها الناس إن فيكم رجلا قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره ، قاتل أم المؤمنين وحوارى رسول الله (ﷺ) ، وأفتى بتزويج المتعة !

فقام ابن عباس ، وقال لعكرمة : أقم وجهى نحوه ثم قال :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ‏ ‏ ‏ ‏ فنى فؤادى وعقلى منهما نور

وأما قولك ياابن الزبير : إنى قاتلت أم المؤمنين ، فانت أخرجتها وأبوك وخالك[1] ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خير بنين ، فتجاوز الله عنها[2] . وقاتلت أنت وأبوك عليا ، فان كان علىّ مؤمنا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافرا فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف ، وأما المتعة فإنى سمعت على بن أبى طالب يقول : سمعت رسول الله (ﷺ) رخص فيها ، فأفتيت بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ، وأول مجمر سطع فى المتعة مجمر آل الزبير .

---

(١) يريد عبد الرحمن بن أبى بكر .
(٢) يريد أن عليا بعد الظفر بها أعادها معززة مكرمة .

وبهذا ترى أن ابن عباس أفحمه وتغلب عليه ، وكان أجدر به إذ لم يستطع ضمه إليه أن يعرض عنه ويتقى رده عليه .

وقد جاءت هذه المحاورة فى الطبرى برواية مطولة ، واكتفينا برواية العقد الفريد .

مواقف للولاة الزبيريين

بعد قتل المختار الثقفى ، ولى ابن الزبير عبد الله بن يزيد الأنصارى أميرا على الكوفة . وجعل معه إبراهيم بن محمد بن طلحة أميرا على خراجها ، فقدما إليها ، وقد علم بن يزيد أن الشيعة يريدون أن يخرجوا بها ـ وكانت قيادتهم حينئذ لسليمان بن صرد . فارتقى ابن يزيد المنبر وألقى هذه الخطبة :

خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ... أما بعد . فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ما هو ، فقيل لى : زعموا أنهم يطلبون دم الحسين ابن على ، فرحم الله هؤلاء القوم[1] ، قد ـ والله ـ دللت على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ، ابدأهم قبل أن يبدأوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إن قاتلونى قاتلتهم ، وإن تركونى لم أطلبهم ، وعلام يقاتلوننى ؟ . فوالله ما أنا قتلت حسينًا[2] ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله ـ رحمة الله عليه ـ فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ، ولينتشروا ظاهرين ، ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم وأنا لهم على قاتله ظهير[3] .

---

(١) يرثى لهم ولخطأ تصرفهم .

(٢) قتله غيرى .

(٣) معين ومساعد .

هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه اليكم عهد العاهد به [١] ، على مسيرة ليلة من جسر منبج [٢] ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ـ فيقتل بعضكم بعضا ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رققتم [٣] ، وتلك ـ والله ـ أمنية عدوكم ـ وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين لا يقلعان عن قتل أهل العفاف ، والدين ، وهو الذى قتلكم ومن قبله أتيتم [٤] ، والذى قتل من تثأرون بدمه [٥] قد جاءكم ، فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم [٦] ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم [٧] ، انى لم آلكم [٨] نصحا ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة

كان ابرهيم هذا من الشجعان حتى سمى أسد قريش ، ومات سنة ١١٠ هـ فى العام الذى مات فيه ابن سيرين والحسن البصرى . أما أبوه محمد بن طلحة فقد قتل يوم الجمل .

قام ابرهيم فى هذا الموقف فقال : بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على نبيه :

« ... أيها الناس ، لا يغرنكم من السيف والغشم [٩] مقالة هذا المداهن [١٠] الموادع [١١] ، والله إن خرج علينا خارج لنقتلنه ، ولئن اسْتَيْقَنَّا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لنأخذن الوالد بولده والمولود بوالده . ولنأخذن الحميم [١٢] ، والعريف [١٣] بما فى عرافته ، حتى يدينوا [١٤] للحق ويذلوا للطاعة .

---

(١) كان ابن زياد بعد موت معاويه الثانى ذهب إلى الشام ، وصد مروان عن التسليم لابن الزبير ، فلما استقر له الأمر وجه عبيد الله إلى العراق وأمره بنهب الكوفة ، وكان ابن زياد فى طريقه إليهم ،

(٢) بلد بين حلب والفرات .

(٣) ضعفتم .

(٤) من جهته جاءتكم الذلة .

(٥) الذى قتل الحسين .

(٦) بقوتكم كاملة .

(٧) اجعلوا الواقعه تنزل به لابكم .

(٨) لم أقصر فى نصحكم ،

(٩) الغشم الظلم والأخذ بالقوة والعنف .

(١٠) المنافق .

(١١) الذى يميل إلى الموادعة وعدم الحرب .

(١٢) نعاقب الشخص بذنب صديقه .

(١٣) العريف رئيس القوم ، لأنه معروف وبارز فيهم .

(١٤) يخضعوا .

رد المسيب بن نجبه

وثب المسيب بن نجبه فقطع على ابرهيم منطقه ، فقال :

يابن الناكثين[١] ، أنت تهددنا بسيفك وغشمك ؟

أنت والله أذل من ذلك ، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك . والله إنى لأرجو ألا يخرجك الله من بين ظهرانى أهل المصر ، حتى يثلثوا بك جدك وأباك .[٢] وأما أنت أيها الأمير فقد قلت قولا سديدا ، إنى والله لأظن من يريد هذا الأمر مستنصحا لك . وقابلا قولك .

فقال إبرهيم : «إى والله ليقتلن ، وقد أدهن ثم أعلن»[٣] .

رد عبد الله بن وال التيمى

قام عبد الله بن وال فقال :

ما اعتراضك ياأخا بنى تيم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا ، فوالله ما أنت علينا بأمير ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك . فلعمر الله لئن كنت مفسدا ، ما أفسد أمر هذه الأمة إلا والدك وجدك الناكثان فكانت بهما اليدان[٤] . وكانت عليهما دائرة السوء» .

أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا لنرجو أن تكون به عند العامة محمودًا وأن تكون عند الذى عنيت واعتريت مقبولا .

* * *

وفى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ قام سليمان بن صرد يدعو الشيعة إلى حرب ابن زياد فعسكر بالنخيلة[٥] ، ولكن تخلف عنه الكثيرون ، فخطب هذه الخطبة .

---

(١) الذين ينقضون العهد ـ وهو يشير الى أن طلحة بايع عليا بالمدينة ثم نكث وقال : بايعت والسيف على عنق .
(٢) حتى تكون ثالثهم فى القتل .
(٣) اتبع المداهنة والمداراة أولا ثم جهر بما كان يكنه .
(٤) من تعبيرات العرب كانت به اليدان أى أصابه الشر الذى بيته لغيره .
(٥) ضاحية من ضواحى الكوفة تجمع بها الخوارج من قبل .

خطبة سليمان بن صرد

«... أيها الناس . من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحن منه ، فرحمة الله عليه حيا وميتا ، ومن كان إنما يريد الدنيا ، وحرثها [1] ، فوالله ما نأتى فيئا نستفيئه ، ولا غنيمة نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولاخز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا فى عواتقنا ، ورماحنا فى أكفنا ، وزاد قدر البلغة [2] إلى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا» .

خطبة صخير بن حذيفة

ثم قام صخير بن حذيفة بن هلال المزنى ، فرد على سليمان بهذه الخطبة :

«... آتاك الله رشدك ولقاك حجتك . والله الذى لا إله غيره ما لنا خير فى صحبة من الدنيا همته ونيته .

«أيها الناس . انما أخرجتنا التوبة من ذنبنا ، والطلب بدم ابن ابنة نبينا ، (ﷺ) ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما نقدم على حد السيوف ، وأطراف الرماح» .

فتنادى الذين حولهم من كل جانب : «إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا» .

من تتمة هذا الحديث أن نذكر أنه بينما يتهيأ القوم لمقابلة ابن زياد قام عبد الله بن سعد فطلب أن يهجموا على الكوفة لأن بها قتلة الحسين بينما لا يوجد فى الجيش القادم من الشام من قتلته غير ابن زياد ، لكن سليمان بن صرد ، أصر على وجهته ، وقال إننا إن قتلنا الذين بالكوفة «ما عدم رجل أن يلقى رجلا قد قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلا لم يكن يريد قتله» ، إن الذى قتل صاحبكم هو هذا الفاسق ابن الفاسق ابن مرجانة ، عبيد الله بن زياد ، فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه» ، وكان هؤلاء يسمون التوابين ، لانهم تابوا من إثم الحسين .

وانضم إليهم عبد الله بن يزيد ، وابرهيم بن محمد بن طلحة فى جماعة من أصحابهما .

---

(١) متاعها .

(٢) ما يتبلغ به الشخص من الطعام ، أى ما يمسك حياته فقط .

وتلاقوا مع جيش الشام فى عين الوردة . فى وسط الجزيرة فأصاب هؤلاء الأحلاف من جيش ابن زياد مقتلة عظيمة ، ولكن قتل سليمان بن صرد ، والمسيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نفيل ، وعبد الله ابن وال . ورأى من بقى من التوابين أن لا طاقة لهم بجيش الشام فارتحلوا تحت إمارة رفاعة بن شداد البجلى ، فلما وصلت هذه البشرى عبد الملك صعد المنبر وألقى هذه الخطبة .

خطبة عبد الملك

حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« ... أما بعد فإن الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح[1] فتنة ، ورأس ضلالة ، سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاريف[2] ، ألا وقد قتلنا[3] من رءوسهم رأسين ضالين مضلين ، عبد الله بن سعد أخا الأزد ، وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل . فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفاع ولا امتناع .

المهلب بن أبى صفرة وأبناؤه

المهلب بن أبى صفرة من الأزد ، وبيته وبنوه من البيوت والأسر الشريفة التى ينتمى إليها كثيرون من ذوى الأمجاد والشجاعة والكرم . وأبو صفرة اسمه ظالم بن سراق ولكنه كنى بابنة له كانت تدعى صفرة . كانوا من قرية يمنية تسمى « دبا » أسلم أهلها عام الوفود قبيل وفاة رسول الله (ﷺ) ، ثم ارتدوا ضمن المرتدين أول خلافة أبى بكر ، وقد حاربهم عكرمة بن أبى جهل وأرسل أسراهم إلى الخليفة ، فأطلق سراحهم وقال اذهبوا حيث شئتم فنزل أبو صفرة البصرة ، وكان يقال بصرة المهلب .

---

(١) مثير ومنشئ . من ألقح النخلة . وألقح الفحل الناقة . وبدون اللقاح لا تثمر الشجرة ولا تنتج الناقة .

(٢) جمع خذروف ــ وهو شىء كالنحلة التى يلعب بها الصبيان . يريد هشم رأسه وتركه قطعا صغيرة .

(٣) فى الأصل قتل ــ والضمير يرجع لله ــ فى قوله فإن الله قد أهلك ولا يجوز قراءته بالبناء للمفعول .

وقيل هذا الحديث غير جيد وإن أبا صفرة لم يرد على أبي بكر ولكن ورد على عمر وهو شيخ أشيب[١] .

ولد المهلب ـ وهو أصغر أبناء أبيه قبل وفاة رسول الله (ﷺ) بعامين ، ونشأ شجاعا كريما ذا بأس وبصر بالحروب ، اتصل بعبد الله بن الزبير أيام خلافته فخلابه وحادثه ، ثم جعله واليا له على خراسان ، ولما اشتد قتال الخوارج وأهل العراق بعد موت يزيد كتب أهل البصرة إلى ابن الزبير أن يعين عليهم واليا من قبله ، فولى عليهم المهلب وتولى ابنه يزيد خراسان ، وقد استطاع المهلب أن يقهر الخوارج فى مواقع متعددة ، وقتل نافع بن الأزرق وخلقا كثيرا من الخوارج ، ولما انتصر عبد الملك على عبد الله بن الزبير ولى أخاه بشر بن مروان الكوفة ، وولى البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد[٢] فلم يفلحا فى حرب الخوارج ، وعهد عبد الملك للمهلب من جديد بحربهم ، وكان بشر مات وتولى الحجاج العراق كله . وتولى المهلب خراسان وظل بها حتى مات بها سنه ٨٢ هـ ، فتولاها ابنه يزيد .

وعلى الرغم من أن الحجاج كان يرسل الوفود المحاربة من العراق لتعمل تحت إمرة المهلب ـ على نحو ما مر فى خطبته ـ وعلى الرغم من أنه تزوج هند بنت المهلب ، كان يكره يزيد ويحقد عليه ، لأنه كان يخشى أن يتولى العراق ، ومما ذكر فى هذا أن الحجاج نزل مرة بدَيْرٍ به شيخ من أهل الكتب ومن المنجمين فسأله الحجاج عمن يلى العراق بعده فقال له شخصٍ يسمى يزيد ، فاقتنع الحجاج بنبوءته ولم يجد من يصلح لهذا غير يزيد بن المهلب ، فوشى بالمهلبيين إلى عبد الملك ومازال به حتى عزل يزيد سنة ٨٥ وولى مكانه قتيبة بن مسلم . وحبس الحجاجُ يزيدَ واخوتَه وعذبهم عذابا شديدا ، وأغرمهم مغارم ثقيلة ولكن يزيد كان يتحمل كل ذلك بصبر وشجاعة نادرة ، فيزيد الحجاج غيظا منه .

ثم تمكن يزيد واخوته من الهرب فلحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به من الحجاج ومن أخيه الوليد فأجارهم ، وما لبث الوليد أن مات وأفضت الخلافة إلى سليمان سنة ٩٦ هـ فولى يزيد العراق مكان الحجاج فحقق نبوءة الكاهن ، وفتح يزيد جرجان وطبرستان ، وكتب إلى الخليفة بالفىء الذى تحت يده وكان عظيما يبلغ ستة آلاف ألف ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز ـ ولم يكن يحب المهالبة لشدتهم ويقول إنهم جبابرة ، طلب

---

(١) انظر ابن خلكان ٥/٣٥٠ وما بعدها . وارجع إلى الفصل الذى عقده المبرد فى كامله للحديث عن الخوارج .

(٢) ليس هذا هو خالد بن عبد الله القسرى .

المال من يزيد فقال إن الغنيمه كانت دون ما كتب به إلى سليمان ، وأنه ذكر الستة الملايين للشهرة والمباهاة فلم يصدقه عمر وسجنه وقال له : اتق الله وأدّ ما لديك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها . فبقى فى سجنه حتى مرض عمر مرض موته ، فهرب يزيد ثانيا إلى البصرة ، فلما مات عمر سنة ١٠١ هـ وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ، استولى ابن المهلب على البصرة . ذلك أنه كان بينهما عداء أيضا ، وكان ابن عبد الملك قد نذر لئن ظفر بابن المهلب ليقطعن من جسمه عضوا ، ثم جرد حملة هزمت ابن المهلب وقتل سنة ١٠٢ هـ .

هذه هى الخطوط الرئيسية لهذه الأسرة . وكان المهلب كثير النسل حتى قيل إنه نسل ثلاثمائة ولد . وكان له أبناء وحفدة ذوو شجاعة وكرم وذوو عقل وأدب ، وقد ذكرنا من قبل أنهم ذوو فضل على بنى أمية بكفايتهم إياهم حرب الخوارج .

وفى ضوء هذه اللمحة نذكر بعض خطبهم :

١ ـ خطبة يزيد بن المهلب بين يدى الوليد

«حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه (ﷺ) ثم قال :

«... يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفره فلسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم ، والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام ، فى المشارق والمغارب ، ما إن المنة علينا فيها عظيمة» .

وهذه الخطبة تبين مدى ما نال هذا القائد من مهانة السجن والخوف منه ، وقد كان الوليد حين استأمنه سليمان ليزيد طلب أن يُرْسَلَ إليه ، فكان يزيد يخشى هذه المقابلة ، لهذا عد بلاء أهل البيت من أجل بنى أمية منةً لهم عليه وليست منة له عليهم» وإذا قرئت الكلمة المنة ـ بضم الميم ـ كان المعنى أنهم تحملوا فى ذلك مشقة كبيرة .

٢ ـ خطبة له يحرض أهل العراق على حرب يزيد

جرد يزيد بن عبد الملك حملة لحرب ابن المهلب تحت قيادة أخيه مسلمه والعباس ابن أخيه الوليد ، وخطبة ابن المهلب تحريض على مواجهة هذه الحملة .

«.. إن هؤلاء القوم لن يردهم عن غيهم إلا الطعن فى عيونهم والضرب بالمشرفية [١] على هامهم .

.. إنه قد ذكر لى أن هذه الجرادة الصفراء ـ يعنى مسلمة [٢] ـ وعاقر ناقة ثمود ـ يعنى العباس [٣] ـ والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه [٤] حتى كلمته فيه فأقره على نسبه ، فبلغنى أنه [٥] ليس همهما إلا الالتماس فى الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعا ـ وليس إلا أنا ـ ما برحت العرصة [٦] حتى تكون لى أولهم .

قالوا [٧] : نخاف أن تُعنّينا [٨] كما عنّانا عبد الرحمن بن محمد [٩] ، قال [١٠] : ان عبد الرحمن فضح الذمار [١١] ، وفضح حسبه ، وهل كان يعدو أجله .

ومن هذه الخطبة يتبين لنا أن أهل العراق كانوا يتقاعدون عن الحرب معه ، وهذا شأنهم مع الكثيرين إلا أن يساقوا سوقا . وبجانب ذلك كان الحسن البصرى يثبط الناس عن النهوض مع المهلب ، ويقول لهم : الزموا رحالكم ، وكفوا أيديكم ، لا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ...» وقد قتل يزيد فى هذه الموقعة .

---

(١) المشرفية . السيوف المنسوبة إلى مشارف الشام ـ قرى عربية كانت تصنع بها السيوف ـ والهام جمع هامة وهى الرأس ـ يريد نقتلهم بسيوفنا .

(٢) كان نحيفا أصفر .

(٣) كانت أم العباس رومية وكان أزرق العينين أحمر الوجه ، وهو يريد أنه ليس عربيا وأنه مشئوم كعاقر ناقة ثمود ـ ويقال أيضا أشأم من أحمر عاد والمراد بها ثمود . لأنها تسمى أيضا عادا الآخرة ، وأما قوم هود فهم عاد الأولى .

(٤) ينفى نسبه .

(٥) هذا هو خبر إن فى قوله : «إنه قد ذكر لى» .

(٦) الباحة والفسحة بين المساكن ـ يريد ما تركت هذه الأرض .

(٧) العراقيون .

(٨) تحملنا المشقة .

(٩) هو عبد الرحمن الأشعث .

(١٠) يزيد بن المهلب .

(١١) ما تجب حمايته من الأهل والوطن .

٣ ـ مروان بن المهلب يرد على الحسن البصرى

وقف مروان يخطب أهل البصرة ليحرضهم على الذهاب مع أخيه ويرد كلام الحسن البصرى ، وكان بينهما أخذ ورد .

قال مروان :

« ... لقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى [١] يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه [٢] ، أينكر علينا وعلى أهل مصرنا أن نطلب خيرنا ، وأن ننكر مظلمتنا ؟ أما والله ليكفَّنَّ عن ذكرنا ، وعن جمعه إلينا سقاط الأُبُلَّة ، وعلوج فرات البصرة ـ قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا ممن جرت عليه النعمة من أحد منا ، أو لأنحينّ عليه مبردا خشنا [٣] .

فلما بلغت هذه المهانة الحسن قال : والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه لى ، فقال بعض أصحابه : لو أرادك وشئت لمنعناك فقال لهم : آمركم ألا يقتل بعضكم بعضا مع غيرى ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضا دونى ؟ وبلغ ذلك مروان فاشتد عليهم فتفرقوا . ولكن الحسن ظل فى تثبيطه الناس عن بنى المهلب ، وانقطع مروان عن شتمه .

واشتهر المهلب وبنوه بالسخاء المفرط ، وكان يزيد يجود حتى وهو فى محنته وسجنه ، وكان يزيد يدفع للحجاج كل يوم مائة ألف درهم يشترى نفسه من عذابه ، فإن لم يجدها عذبه ، وكان الناس يعاونون يزيد فى الحصول عليها فدخل عليه مرة بعض الشعراء قيل الفرزدق ، وقيل الأخطل فمدحه بقوله :

أبا خالد بادت [٤] خراسان بعدكم ... وصاح ذوو الحاجات أين يزيد
فلا مطر المرْوَان بعدك مطرة ... ولا اخضر بالمروين بعدك عود [٥]
فما لسرير الملك بعدك بهجة ... ولا لجواد بعد جودك جود

---

(١) لم يذكر اسمه .

(٢) يسيل الدم منه .

(٣) أعامله بشدة .

(٤) خربت .

(٥) المروان : مرو العظمى ، ومرو الصغرى ، كلتاهما بخراسان وكانت الكبرى منذ عهد معاوية مسلحة للمسلمين ومعسكرا .

فأعطاه يزيد مائة الألف التي أعدها ليفتدى بها من العذاب ، فلما بلغ الحجاج ذلك ، قال : أكل هذا الكرم وأنت بالسجن ، وهبت لك عذاب اليوم ويوما بعده .

ومدحه شاعر آخر فقال :

فلم أر محبوسا من الناس ماجدا   حبا زائرا فى السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه   بخمسين ألفا عجلت لسعيد

وهو سعيد بن عمرو بن العاص ، كان صديقه وأراد أن يزوره وهو فى سجن عمر بن عبد العزيز . ادعى أن يزيد مدين له بخمسين ألف درهم ويريد أن يطالبه بها . فأذن له بالدخول عليه ، فلما عرفه بما احتال به ، أقسمَ ليدفعن له هذا المبلغ ودفعه .

كان المهالبة مخلصين فى عملهم ، ولم يدبروا خروجا على الدولة بخراسان ، ويبدو أنهم لو فعلوا لنجحوا كما نجح أبو مسلم بعد . لأن الخراسانيين يكرهون بنى أميه .

الخــوارج

كان الخوارج من أشد أصحاب على اختلافا عليه ، كما أنهم من أقواهم أثرا فى هزيمته وفشله أمام معاوية ، طلعوا عليه بآراء مضطربة وبدا فى كلامهم التهديد والشدة من أول موقف لهم ، فاستنفدوا جزءا كبيرا من طاقته الحربية ، ثم آخذوه بما أشاروا به عليه ، وكان أمر على كما قال معاوية : كنت فى أصلح جند وأطوعه وكان على فى أخبث جند وأعصاه .

وأول ما بدأ هذا العصيان يوم صفين كان من جماعة منهم الأشعث بن قيس الكندى ومسعر بن فدكى التيمى ، وزيد بن حصين الطائى ، .. قالوا القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف ، وكان الأشتر النخعى يحمل على معاوية وقومه بقوة وإقدام فقال هؤلاء : لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين وإلا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان ، فاضطر

---

(١) راجع أخبار الخوارج فى الكامل حـ ١٠٥/٢ الباب ٤٩ . وانظر العقد الفريد . والملل والنحل للشهرستانى ١١٥/١ .

الإمام إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وما بقى منهم إلا شرذمة قليلة ، فامتثل الأشتر ورجع . ثم حين قبل على التحكيم اختار عبد الله بن عباس حكما من قبله ، فأبى الخوارج وقالوا هومنك ، واختاروا أبا موسى الأشعرى ، فلما خدعه عمرو عاد هؤلاء على على يقولون لم حكمت الرجال ؟ لا حُكْمَ إلاَّ لله .

وأول الخارجين بعد التحكيم هم جماعة الحرورية ، اكتسبوا هذا الاسم من المكان الذى تجمعوا به ، وهو حروراء ـ قرية قريبة من الكوفة ، وكان على رأسهم عبد الله بن الكواء ، وعبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير البجلى الّذى كان يعرف بذى الثدية ، وكان جمع هؤلاء اثنى عشر ألف رجل كلهم أهل صلاة وصيام .

والخوارج فى جملتهم من البدو الأعراب ذوى الخشونة والصراحة التى لا تعرف شيئا من اللين والتهذيب . ويذكر المبرد فى كامله أن رسول الله (ﷺ) عندما قسم غنائم خيبر وكان قد جعلها لمن شهد الحديبية فقط . وقف عليه رجل مضطرب الخلق غائر العينين فقال لقد رأيت قسمة ما أريد بها وجه الله ، وفى رواية أنه قال : ما عدلت منذ اليوم ، فغضب رسول الله (ﷺ) وقال ومن يعدل إذا أنا لم أعدل ، فأراد عمر بن الخطاب قتله فقال له النبي دعه إنه سيكون لهذا وأصحابه شأن ، وقيل أمر رسول الله أبا بكر بقتله فمضى وعاد يقول رأيته راكعا ، وكذلك فعل عمر وعلى ، وهى رواية لا تطمئن إليها النفس ، ورويت فى هؤلاء أحاديث منها قوله (ﷺ) : «سيخرج من ضيضئ هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميَّة ، تحقُر صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى جنب صيامهم ، ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم ، وهذا الرجل هو ذو الخويصرة . أو هو حرقوص بن زهير المعروف بذى الثدية ، فقد كان له ثدية بارزة كثدى الأنثى .

وخرج إليهم على بنفسه فناظر ابن الكواء حول موضوع التحكيم مناظرة قطع فيها ابن الكواء ، وكان يقول لعلى : انظرنا فى هذه المسألة حتى نفكر ، ثم يقول وانظرنا فى هذه أيضا ، ثم أسلس القوم ورجعوا إلى الكوفة فصلوا بها العصر خلف على . ولكنهم رجعوا ثانيا فأرسل اليهم عبد الله بن عباس فقهرهم فى جداله أيضا ، فقالوا إنه من قوم يقول الله فيهم : بل هم قوم خصمون .

وأول أمير عليهم كان عبد الله بن وهب الراسبي من الأزد . وكان ذا رأى ونجدة ، ولم يكن راغبا أول أمره فى هذه الإمارة ولكنهم أصروا على اختياره ، فتبرَّأ من الحكمين

ومن رضى بقولها ، وحكم بكفر على بن أبى طالب ، وسمى هؤلاء المحكمة لأنهم قالوا : لا حكم إلا لله ، واضطر على أن يحاربهم فافنى معظمهم فى موقعة النهروان حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا تفرقوا فى البلاد ، وكونوا فرقا جديدة[1] ، وكبار فرقهم هم : المحكمة والأزارقة والنجدات والبيهسية والعجاردة والأباضية ، والثعالبة ، والصفرية ، وهى الفرق الأصلية التى انشعبت منها فروع أخرى .

ورأى الخوارج عامة أن الإمامة لا يشترط أن تكون فى قريش بل يجوز أن يولاها كل من تتوافر فيه شروطها ، وكفروا عليًّا ، وقبلوا حكم عثمان ستة أعوام فقط ، أما أبو بكر وعمر فقالوا بصحة خلافتهما .

ومن رؤوس المحكمين عروة بن أدية ، وهى أمه ، ويقال أيضا عروة بن حُدَير ــ وهو أبوه ، وهو أول من حمل السيف ، وجرأته وصراحته تمثل منهج الخوارج وطريقهم ، حمل على الأشعث بن قيس الكندى ، وقال له : ما هذه الدنية ، أَشَرْطٌ أوثق من شرط الله ، وحمل عليه بالسيف فولى فضرب به عجز بغلته .

وكان عروة ممن نجا من موقعة النهروان وبقى حتى قتله زياد ابن أبيه صبرا ، فقد سأله زياد عن أبى بكر وعمر وعثمان ، فأثنى على الأوّلين وقال : كنت أوالى عثمان على أحواله ست سنين ، ثم تبرأت منه وشهد عليه بالكفر ، وقال كنت أتولى عليا حتى حكّم ثم تبرأت منه وشهد عليه بالكفر ، وأما مُعاويةُ فسبه سبا قبيحا ، وسأله زياد عن نفسه فقال له عروة أَوَّلُكَ لِزِنْية وآخرك لِدعْوَة وأنت فيما بينهما عاص ربك فأمر به فضرب عنقه ، وكان معه مولى له فقال له زياد : صف لى أمره واصدق ، فقال : ما أتيته بطعام فى نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط[2] .

وليس هذا نادرا فى الخوارج فإن القوم كانوا ذوى إخلاص وعبادة ، وتشبث بما يعتقدون وقد مر بك وصف أبى حمزة الشارى أصحابه فى خطبته ، وليس هذا الوصف مبالغا فيه ولا خاصا بصحبه ، وقد وجه على بن أبى طالب ابن عباس إليهم أول أمرهم ليفاوضهم فرأى منهم جباها قرحة لطول السجود ، وأيديا كثفنات الإبل عليهم قمص مرحضة[3] ومر مرداس بن حدير ــ برجل يهنأ[4] بعيره فخر مغشيا عليه ، فظن الأعرابى

---

(١) كان فى الكوفة إذ ذاك نحو ألفين آخرين لم يدخلوا معركة النهروان .
(٢) أسند المبرد هذا الحديث مرة إلى زياد وأخرى إلى ابنه عبيد .
(٣) بللها العرق .
(٤) يضع القطران على جروحه .

أنه صرع ، فلما أفاق قال له : ليس بى ما خفته على ولكنى رأيت بعيرك هَرِجَ[1] من القطران ، فذكرت به قطران جهنم .

بهذا الإخلاص للدين ، وبالشجاعة البدوية الجريئة ، واللسان العربى الفصيح ، وصفاء القريحة والذهن ، قامت فرق الخوارج ، وظلت تناضل فى سبيل فكرتها كلما قتل رئيس طائفة ومن معه قامت طائفة أخرى برئيسها ، ولم يقتصر مقامهم على العراق والأقاليم العربية ، بل انتقلوا إلى بلاد فارس فكان لهم بها شأن كبير ، ولكن المهلب بن أبى صفرة وبنيه ظلوا يناوئونهم وينالون منهم فى المعارك العديدة حتى أضعفوهم وفلّوا شوكتهم فهان حربهم على الذين جاءوا بعد المهلب ثم قضى عليهم نهائيا فى أوائل الدولة العباسية .

ومع اتفاقهم فى آداب وآراء دينية عامة كانوا على خلاف فيما بينهم على آراء أخرى ، ولهذا تعددت فرقهم ، وأبرز ما كان من الخلافات بينهم أن جماعة منهم آثروا القُعودَ عن الحرب ، وسموا القعَدَة ، ومن أشهرهم الصفرية ، وكان عمران بن حطان رأسا فيهم ، فقد أشفق على بناته من اليتم إذا هو قتل ، ولكن ظل متنكرا يتنقل بين القبائل ويتسمى بأسماء مختلفة وينتسب إلى قبائل مختلفة حتى انتهى إلى جماعة من الأزد باليمن فبقى معهم حتى مات ، وله أقاصيص طريفة وشعر جميل[2] ، وكان قطرى بن الفجاءة المازنى ـ وهو من شجعان الخوارج وشعرائهم ـ يقرع القعَدَةَ ويلومهم ، وكان مَعْدِنُ الأيادى رئيس الصفرية أو بصدد أن يكون رئيسا ، فقال شعرا جاء فيه :

سلام على من بايع الله شاريا   وليس على الحزب المقيم سلام[3]

فبرئت منه الصفرية ، وقالوا خالفت لأنك برئت من القعد ، يعنون خالف مذهب الخوارج فى الصّدْق والصراحة ، وقتل على بن أبى طالب رجلا منهم فقال : حبذا الروحة إلى الجنة فقال عبد الله بن وهب : ما أدرى إلى الجنة أم إلى النار ؟ فقال جماعة نرى الرجل قد شك ، وقد جئنا مغترين به ، فمال ألف منهم أو نحوهم إلى أبى أيوب الأنصارى ، وكان على ميمنة على ، ولا ندْرى لم قال ابن وهب هذه الكلمة ولا ما أراد بها ، فإنه من الغالين فى الحروب .

---

(١) يقال هرج البعير ـ كفرح ـ إذ سدر من شدة الحر والطلاء بالقطران .

(٢) انظر الكامل ٢/١٤٦ .

(٣) الشارى الذى باع نفسه لله ، والحزب المقيم هم القعدة .

والخوارج بكل فرقهم يأنفون من الكذب ، ومن ارتكاب الكبائر والمعاصى الظاهرة ، وهم أكثر ميلا إلى الأخذ بظواهر النصوص ، وهم يمثلون الإيمان الصادق العميق الذى لا يعرف تهاونا ولا تأويلا ، ويرون من الدين أن يبذل الشخص النّصيحة لكل من يحتاجها ولو كان عَدُوًّا له ، لأن كتمان النصيحة من الكذب ومن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو كتمان الحق ، ووصفوا من يتستر منهم وينكر أنه من الخوارج بالرّدِى أى الهالك .

وأورد كل من المبرد وابن عبد ربه قصة طريفة فى هذا لا نرى بأسا من سردها ولكن ابن عبد ربه أوردها موجزة ونسبها للوليد . وهى تذكر فى معرض فصاحة الخوارج وثباتهم معا .

وخلاصة ما جاء بها أن أحد الخوارج قدم إلى الخليفة ليعاقبه ويقتص منه . فرأى قبل أن يأمر بقتله أن يحادثه فأعجبه فهمه وعلمه وأدبه وذكاؤه ... فرغب فيه . واستدعاه إلى الرجوع عن مذهبه فحاجه ببصيرة ورأى . فألح فى استدعائه فقال الخارجى : لتغنك الأولى عن الثانية . وقد قلتَ فسمعتُ فاسمعْ أقل . ثم أخذ يتحدث عن مذهبهم وحجتهم حتى ظن عبد الملك كما قال : أن الجنة خلقت لهم . وأنه أولى بالجهاد منهم . ـ فرجع إلى نفسه وقال : لست تجيب بالقول والله لأقتلنك . وقبل أن يصدر أمره بقتله دخل عليه ابنه مروان باكيًا . وكان غُلامًا أبيًّا عزيز النفس . فشق مرآه على أبيه وأخذ يهدئه فقاله له الخارجى : دعه يبك . فإنه أرحب لشدقه . وأصح لدماغه ، وأذهب لصوته . وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها .. فعجب عبد الملك أنه وهو موقوف للقتل لا يشغله شىء عن دعوته . فقال الخارجى : ما ينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء . فصفح عن قتله ولكنه أمر بحبسه . وقال له أَخْشى أن تفسدَ على بألفاظك أكثرَ رَعِيَّتِى . من شككنى ووَهّمنِى حتى مالت بى عصمة الله فغير بعيد أن يستهوى من بعدى .

أما أمثلة شجاعتهم واستهانتهم بالموت فى سبيل مبدئهم فقد يطول بنا القول إذا ذهبنا نذكر الأمثلة العديدة لمواقفهم . وقد اختلفت حالهم عن حال الشيعة كثيرًا . لأن الشيعة أخذوا بمبدأ التقية والتظاهر بما ليسوا عليه . أما الخوارج فآثروا الصراحة والجهد بمبادئهم . ونذكر مثالين من شجاعتهم وإصرارهم وإيثارهم التضحية فى سبيل مبدئهم .

١ ـ حوثرة الأسدى .

كان منتحيا بفارس . فلما علم بقتل على كتب إلى حابس الطائى أن يتولى أمر الخوارج ريثما يصل إليه بجمع حتى يتعاضدا ضد معاوية . واجتمع جيشاهما مع أصحاب النخيلة بجانب الكوفة وهى المكان الذى فاوض فيه على الخوارج من قبل ـ وكان معاوية إذ ذاك قد دخل الكوفة وتمت بيعته . ورهب معاوية هذا الجمع وأراد الحسنَ بن على أن يحاربهم فأبى . فاستدعى والدَحَوْثَرة وقال : اكفنى ابنك . فذهب إليه أبوه ودعاه إلى الرجوع فلم يستجب له . وألح الوالد وأصر الابن . فقال : سأجيئك بابنك لعلك تراه فتحن إليه فقال : يا أبت أنا والله إلى طعْنَةٍ نافذةٍ اتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى إلى ابنى . فرجع الرجل يائسًا .

وأعد معاوية جيشًا من أهل الكوفة . لأنهم أعداؤه وأنصار على . ولم يسلموا له إلا كرهًا بتسليم الحسن . وفى قتالهم كسب له . وفى نصرهم كسب أيضًا . فلما واجههم حوثرة قال لهم : يا أعداء الله . أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه . واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه ! ! . فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال : يا أبت . لك فى غيرى مندوحة . ولى فى غيرك عنك مذهب . فحمل عليه رجل من طيىء فقتله . فلما رأى أثر السجود قد لوح جبهته ندم على قتله . لما علم أنه من ذوى العبادة وقيام الليل .

ويملك الإنسان العجب والإعجاب . من إصرار حوثرة على رأيه . كما يقدر نبله وحسن مسلكه من رفضه مبارزة والده .

٢ ـ مرداس بن أُدَيَّة أخو عـروة

وأُدَيَّة أُمُّه وأبوه حُدَيْر . وهو أبو بلال من بنى ربيعة . ومن رءوس الخوارج . وكانوا يعظمونه . وكان مجتهدًا كثير الصواب فى لفظه . وكان لا يرى بأسًا من الأخذ بالتقية . ولما علم ـ أن عبيد الله بن زياد يتوعد البلجاء امرأة تميمية من رهط سجاح المتنبئة ومن نساء الخوارج ـ ذهب إليها وأمرها أن تستتر فلم تقبل . وقطع عبيد الله يديها ورجليها ورمى بها فى السوق . فمر أبو بلال والنساء مجتمعون حولها . فلام نفسه أن تكون امرأة أزهد فى الدنيا وأطيب نفسًا عنها منه . وأعلن عداءه . لعبيد الله وليزيد . وكان الخليفة فى ذلك الوقت . فلما حبس عبيد الله عددًا منهم وبينهم مرداس . رأى السجان

اجتهاده فى العبادة وحلاوة منطقه . فعرض عليه أن يطلقه كل ليلة على أن يعود إلى السجن قبل الفجر . فمكث على ذلك مدة . ثم أعلن عبيد عزمه على قتل مسجونيه جميعًا . فإذا مرداس عائد فى موعده . وأبى أن يهرب وقال لا ألقى الله غادرًا . ولكنه نجا ولم يقتل . فلما رأى جد ابن زياد فى تعقب الخوارج عزم على الخروج إلى فنز آسك ـ بين رامَهُرْمُز وأَرّجان ـ فأقام بمن معه فكانوا لا يقاتلون إلا من قاتلهم . ونما عددهم حتى كان أربعين رجلاً . فمرت به قافلة تحمل مالاً لابن زياد . فحط ذلك المال وأخذ منه وقومُه أعطياتهم وترك الباقى وقال قولوا لصاحبكم إنما قبضنا أعطياتنا .

ووجه إلى أبو بلال أسلم بن زرعة فى ألفين فلم يقدر ورجع خشية الموت وقال : لئن يذمنى ابن زياد حيًّا خير من أن يمدحنى ميتًا . وكان الصِّبْيةُ فى الأسواق والشوارع يصيحون به إذا مر : «أبو بلال وراءك» ـ وانتدب ابن زياد إليه جمعًا أمر عليهم رجلاً يسمى عباد بن أخضر ـ وهو عباد بن علقمة المازنى[1] . فصادف وصوله وصول القعقاع ابن عطية الباهلى من خراسان يريد الحج . فانضم بمن معه إلى عباد . فوقع القعقاع أسيرًا . فقال لمرداس : لست من أعدائك إنما قدمت للحج فأطلقه فانضم ثانيًا لعباد . وكان الجيش يزيد على أربعة آلاف . فلم ينالوا من الخوارج شيئًا . بل قتل القعقاع ـ فلما كان وقت صلاة الجمعة نادى أبو بلال بالموادعة حتى يصلوا . فرمى القوم جميعًا أسلحتهم . ولكن الحرورية أطالوا الصلاة على عادتهم وفرغ عباد وصحبه قبلهم فمالوا عليهم فقتلوهم وَأُتِى برأس مرداس إلى ابن زياد حيث أرسله إلى يزيد . وكان ذلك فى سنة ٦١هـ السنة التى قتل فيها الحسين بن على .

فهذا مثل آخر من وفائهم وشجاعتهم حتى إن ما يقرب من خمسة آلاف شخص لا ينتصرون على أربعين إلاّ بالغدر والخيانة . وهذا على عكس ما كان يفعل نجدة بن عويمر وعبد الله بن الزبير إذ كانا يصليان معًا بالحرم يوم الجمعة . ويمسكان عن القتال من أجل الحرم .

---

(١) الأخضر زوج أمه فنسب إليه . ولكن علقمة أبوه .

قطـرى بن الفجـاءة

هو قطرى بن الفجاءة المازنى من الخوارج الأزارقة . خرج زمن مصعب بن الزبير عندما تولى العراق نيابة عن أخيه عبد الله . وظل بعد مصعب يحارب عبد الملك والحجاج عشرين سنة . كانت أتباعه خلالها يسلمون عليه بالخلافة ويسمونه أمير المؤمنين . وكان الحجاج يُسَيِّرُ إِلَيْه الجيوش متتالية وهو يستظهر عليهم . وله مواقف بطولية كثيرة . وكان مهيبًا أمام خصومه حتى إن بعضهم خرج لمبارزته فما إن حسر قطرى عن وجهه حتى ولى الرجل . وهو يقول : لا يستحيي إنسان أن يفر منك .

وفى سنة ثمان وسبعين توجه إليه جيش كثيف بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى فظهر عليه وقتله . وقطع رأسه وأرسل إلى الحجاج . ولم يعقب قطرى . وبقدر ما كان شجاعًا مقدامًا كثير الحروب كان شاعرًا عذب الألفاظ جيد المعانى . وكان خطيبًا مفوها ذا قدرة بالغة على التأثير . ونورد شيئًا من شعره وخطبه . فمن شعره :

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال : ويحك لن تراعى[1]

فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى

سبيل الموت غاية كل حىٍّ ... وداعيه لأهل الأرض داع

وما للمرء خير فى حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع[2] .

قال ابن خلكان عن هذه الأبيات إنها تشجع أجبن خلق الله . وما أعرف فى هذا الباب مثلها . وما صدرت إلا عن أبيه وشهامة عربية .

ومن شعره أيضًا :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش مالم ألق أم حكيم[3]

لعمرك إنى يوم أُلْطِمُ وَجْهها ... على نائبات الدهر جدلئيم[4]

---

(١) الشعاع كسحاب التفريق ـ يريد أن الخوف جعل خواطره متفرقه .

(٢) سقط المتاع الذى لا قيمة له .

(٣) أم حكيم زوجه .

(٤) نائبات الدهر كوارثه ـ يريد أنه لو ضربها لكان لئيما جدًّا لا يساعدها على نكبات الدهر .

ولو أبصرتني يوم دولاب أبصرت — طعان فتى فى الحرب غير ذميم[١]
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا — تبيح من الكفار كل حريم[٢]
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم — بجنات عدن عنده ونعيم

ومن خطبه :

حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال :

..... أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة . حفت بالشهوات وراقت بالقليل[٣] . وتحببت بالعاجلة . وحليت بالآمال . وتزينت بالغرور . لا تدوم حَبْرتُها[٤] ولا تؤمن فجعتها . غرارة ضرارة خوانة غدارة . حائلة[٥] زائلة . ونافذة بائدة . أكالة غوالة . لا تعدو إذا هى تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالى : «كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تذروه الرِّيَاحُ[٦] . وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ مُقْتَدِرًا» . مع أن امرأً لم يكن منها فى حبرة[٧] إلا أعقبته بعدها عَبْرَة[٨] . ولم يلق من سرائها بَطنًا إلا منحته من ضرائها ظهرًا[٩] . ولم تُطِلَّه[١٠] فيها غيثةُ رَخَاء إلا هطلت عليه مزنة بلاء .. وحَرِىّ[١١] إذا أصبحتْ له منتصرة أن تمسى له خاذلة متنكرة . وإن جانب منها اعذوذب واحلولى[١٢] . أمر[١٣] عليه جانب وأوبى[١٤] . وإن آتت امرأً من غَضَارتها[١٥] ورفاهتها نِعمًا أرهقته[١٦] من نوائبها نقما .

---

(١) دولاب بلدة بالأهواز وكان بها المعركة التى قتل بها نافع بن الأزرق .
(٢) يريد بالكفار جيش المسلمين الذين ليسوا من الخوارج .
(٣) تزينت وجملت فى نظر الناس بالقليل .
(٤) نعمتها وجمالها .
(٥) متحولة متغيرة
(٦) الآية من سورة الكهف . والهشيم الحشيش الجاف .
(٧) الحبرة السرور والبهجة .
(٨) العبرة الدمعة ، يريد أن سرور الدنيا يعقبه حزن .
(٩) تلتفت بوجهها عنه .
(١٠) تطله : ينزل عليه منها بلل قليل كالطل . يريد لاتنيل الإنسان منها خيرًا قليلاً إلا أعقبته بشر كثير .
(١١) الدنيا خليقة بذلك ، أى هو أمر متوقع منها .
(١٢) عذب وحلا .
(١٣) ساق المرارة جانب آخر .
(١٤) صار ذا وباء .
(١٥) الغضارة . نضارة الزرع وخضرته .
(١٦) أكثرت عليه وأكدته .

ولم يمس امرؤٌ منها فى جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم [١] خوف . غَرَّارَةٌ غَرُورٌ [٢] ما فيها . فان ما عليها . لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى . من أَقَلَّ منها استكثر مما يُؤَمِّنه [٣] . ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه [٤] ويطيل حزنه ويبكى عينيه . كم واثق بها قد فجعته ، وذى طمأنينةٍ إليها قد صرعته . وذى احتيال قد خدعته . وكم من ذى أبهة [٥] بها قد صيرته حقيرًا ، وذى نخوه [٦] قد ردته ذليلاً ، وذى تاج قد كبته [٧] لليدين وللفم [٨] . سلطانها دُوَل [٩] ، وعيشها رنق [١٠] ، وعذبها أجاج [١١] ، وحلوها مُرٌّ وغذاؤها سِمام [١٢] . وأسبابها رمام [١٣] . وقطاعها سُلَع [١٤] ، حيُّها بعرض مَوْتٍ . وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها [١٥] بَعَرض اهتضام [١٦] ، مليكها مسلوب . وعزيزها مغلوب ، وضعيفها منكوب ، وجارها وجامعها محروب [١٧] . مع أن من وراء ذلك سكرات الموت وزفراته ، وهولُ المُطَّلع [١٨] ، والوقوف بين يدى الحكم العدل . ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

ألستم فى مساكن من كان أطول منكم أعمارًا . وأوضح آثارًا . وأعد عديدًا . وأكثف جنودًا ، واعتد عتادًا [١٩] . وأطول عمادًا ، تَعَبَّدُوا الدنيا أى تعبُّد . وآثروها أى

---

(١) القوادم جمع قادمة ، وهى الريش الذى فى أطراف الجناح ، والريش الصغير تحته يسمى الخوافى .

(٢) غرور صيغة مبالغة من غر ، كغرارة ، والشيطان يسمى الغرور لأنه يغر كثيرًا ويخدع . يريد كل شىء فى الدنيا يغر ويخدع .

(٣) من أخذ من الدنيا قليلا . وقنع ولم يطمع توفرت له أسباب الأمان فى الآخرة ، لأنه أحرى أن يكون بعيدا عن الحرام .

(٤) يوقعه فى الحرام ويهلكه.
(٥) عظمة ونعمة .

(٦) يقال : نخا ينخو نخوة إذا افتخر وتعظم كنُخِىَ ، أى أن الدنيا ردت كثيرين من ذوى العظمة إلى الحقارة والذلة .

(٧) ألقته على وجهه . يقال : كبَّه فأكب . كنسل الطائر ريشة فانسل . من أفعال تتعدى بدون الهمزة ، وتلزم مع الهمزة ، وفى القرآن : أفمن يمشى مكبا على وجهه .

(٨) يداه وفمه على التراب ـ كقوله : فخرت صريعا لليدين وللفم ،

(٩) يتحول فلكل حظ وحرمان .

(١٠) مكدر .
(١١) ملح .
(١٢) جمع سم .

(١٣) حبالها مقطعة ـ أى لا تؤمن .

(١٤) القطاع الصرام والحصاد ، والسلع شجر مر أوسام أو نبتة خبيثة .

(١٥) الحصين .
(١٦) ظلم .
(١٧) مصاب بالحرب وهو الويل والدمار .

(١٨) ما يطلع عليه ـ يريد من شئون الآخرة .
(١٩) أقوى عدة .

إيثار، وظعنوا عنها بالكره والصغار. فهل بلغكم أن الدنيا أسمحت لهم نفسًا بفدية[1]. أو أغنت عنهم فيما أهلكتهم به بخطب بجيلة[2]. بل أرهقتهم بالفوادح[3]. وضعضعتهم بالنوائب. وعفرتهم للمناخر. وأعانت عليهم ريب المنون، وعفّرتهم بالمصائب. وقد رأيتم تنكرها لمن دان لها. وآثرها وأخلد إليها. حتى ظعنوا عنها لفراق الأبد إلى آخر الأمد. هل زوّدتهم إلا السّغبُ[4]. أو أحلتهم إلا الضنك[5]. أو نورّت لهم إلا الظلمة أو أعقبتهم إلا الندامة؟ أفهذه تؤثرون. أم عليها تحرصون أم إليها تطمئنون؟

يقول الله تبارك وتعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَها نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فيها، وَهُمْ فِيها لاَ يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيها، وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»[6]. فبئست الدار لمن نُهِمَ بها. ولم يكن فيها على وجل منها. اعملوا وأنتم تعلمون أنكم تاركوها لاَ بُدَّ. فإنما هي كما نعت الله عز وجل: «لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد.»[7]. فاتعظوا فيها بالذين يبنون لكل ريع آية يعبثون. ويتخذون مصانع لعلهم يخلدون[8]. وبالذين قالوا من أشد منا قوة[9]. واتعظوا بمن رأيتم من إخوانكم كيف حُملوا إلى قُبُورِهم فلا يُدْعَوْنَ ركبانًا[10]. وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانًا[11]. وجعل لهم من الضريح أكنان[12]. ومن التراب أكفان. ومن الرفات[13] جيران. فهم جيرة

---

(١) هل سمحت نفس الدنيا التى آثروها بشيء يفتدون به أنفسهم.

(٢) لم نعطهم حتى ما يحتالون به لإنقاذ أنفسهم.

(٣) الخطوب التى تثقل ولا يطاق حملها.

(٤) الجوع.

(٥) المكان الضيق.

(٦) سورة هود آية ١٦.

(٧) سورة الحديد.

(٨) مقتبس من الآية ١٢٩ من سورة الشعراء.

(٩) من سورة فصلت الآية: «فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، وكانوا بآياتنا يجحدون، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات»

(١٠) ليس الذى فى النعش يسمى راكبا.

(١١) جمع ضيف.

(١٢) الضريح القبر، والأكنان جمع كن، مايستتر به الإنسان ويستكن فيه.

(١٣) حطام وبقايا الاجسام البالية.

لا يجيبون داعيًا . ولا يمنعون ضيمًا[1] . إنْ أخصبوا لم يفرحوا . وأن قحطوا لم يقنطوا . جمع وهم آحاد[2] . جيرة وهم أبعاد . متناءون وهم يزارون ولا يستزيرون . حلماء قد ذهبت أضغانهم . وجهلاء قد ماتت أحقادهم . لا يخشى فجعهم . ولا يرجى دفعهم . وهم كمن لم يكن . قال الله تعالى : « فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَليلاً . وَكنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ »[3] . استبدلوا بظهر الأرض بطنًا . وبالسعة ضيقاً . وبالآل[4] عربة . وبالنور ظلمةً . فجاءوها[5] كما دخلوها . حفاة عراةً فُرادَى . غير أن ظَعَنُوا[6] بأعمالهم إلى الحياة الدائمة . إلى خلود الأبد . يقول الله تبارك وتعالى : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نعيده . وعدا علينا إنَّا كنَّا فَاعِلينَ[7] » .

فاحْذَرُوا ما حذركم اللهَ . وانتفعوا بمواعظه . واعتصموا بحبله . عَصَمنا الله وإياكم بطاعته . ورزقنا وإياكم أداء حقِّه .

شبيـب بن يزيـد

هو أبو الضحاك شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى من ذهل بن شيبان . من مشهورى الخوارج خطابة وشجاعة . وكانت أمه جهيزة وزوجته غزالة من ذوات الشجاعة النادرة . تخوضان الحروب ببسالة وجراءة . وكان ادعى الخلافة وتسمى أمير المؤمنين .

ظهر شَبِيبٌ فى خلافة عبد الملك وحينما كان الحجاج واليًا على العراق . وظهر بالموصل فبعث إليه الحجاج حملات متتالية فهزمها جميعًا . وكانت خمسًا قتل فيها خمسة قواد . ثم خرج من الموصل يريد الكوفة . وخرج إليها الحجاج من البصرة . ولكن الحجاج أغذ السير ولقرب مكانه دخلها قبل شبيب . وكان شبيب يريد أن يقابله قبل أن يدخلها . وتحصن الحجاج بقصر الإمارة وأغلق أبوابه . ودخل شبيب وأمه وزوجه صبحا . فلم ينزل الحجاج إليه . وقتل شبيب حرس القصر . ولكنه لم يستطع اقتحام القصر لإحكام أبوابه . وأعياه . وأصحابه فتحه . ولكنه ضربه بعمود كان بيده فنقبه فقط ولم يكسره . ويقال إن هذا النقب ظل بالباب حتى خرب القصر . ودخلت

---

(١) ظلما واعتداء .

(٢) مجتمعون فى مكان واحد ولكن لا صلة بينهم .

(٣) سورة القصص الآية ٥٨ .

(٤) الأهل والأقارب .

(٥) جاءا إلى الأرض .

(٦) رحلوا وانتقلوا .

(٧) سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

غزالة مسجد الكوفة فصلت به ركعتين قرأت فى الأولى سورة البقرة وفى الثانية سورة آل عمران . وذلك وفاء بنذر كان لها ، وصلى معها سبعون رجلاً . كل هذا والحجاج معتصم بالقصر لم يجرؤ على النزول إليهم ، وقد عيره بهذا عمران بن حطان ـ وكان الحجاج يطارده فقال :

أسد على وفى الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصَّافِرِ
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى   بل كان قلبك فى جناحى طائر

وإزاء عجز الحجاج أرسل عبد الملك جيشًا كثيفًا من الشام عليه سفيان بن الأبرد الكلبى ، فلما وصل الكوفة خرج الحجاج أيضًا . وتكاثر المحاربون على شبيب فانهزم وقتلت أمه وزوجه ، ففر مع فوارس من جيشه . فلما كان على جسر جبيل . وهو نهر بالأهواز نفر به جواده فألقاه فى الماء فغاص فيه ولم يستطع النجاة بنفسه لثقل الحديد الذى كان عليه ، وبعد أيام طفا وقذفت به المياه إلى الشاطىء . فحمل على البريد إلى الحجاج ، ويقال إن الحجاج شق بطنه وأخرج قلبه فوجده صلبًا كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها ، فشقه فكان بداخله قلب صغير كالكرة . فشق أيضًا فوجد به علقة الدم بداخله . وكان غرقه سنة سبع وسبعين .

ومن العجيب أن الحجاج كان إذا سمع عن غزالة يمتلىء قلبه رعبًا . وفى هذه المعركة اختلط عليه أمره ، وخلع فؤاده الفزع ، وكان أثناء هربه يخلط فى كلامه . وقد كانت غزالة تتناوب قيادة الجيش هى وزوجها شبيب . وكانت باسلة تخوض صدور الجيش فتفرقهم وتمزقهم . وهى فى هذه المعركة لم تقتل مهزومة . بل قتلت خدعة وغدرًا . غافلها بعض جنود الحجاج ورموها من خلف بينما كانت تهجم على جيش الحجاج ويفر منها . وبعد موت غزالة قوض جند شبيب ، ولحقته الهزيمة .

هذا طرف من أخبار الخوارج . وهم فرقة إسلامية ذات شأن فى تاريخ الإسلام لا يجمل بالداعية المسلم ألاّ يكون ملمًّا بطرف من أخبارهم . وفى أخبار زهدهم وورعهم مدد كبير للدعاة . أما خطباؤهم فهم كثر أيضًا نذكر بعضًا منهم فيما بعد . ولم يكن الخوارج كلهم فرقة واحدة . ولا مبادئهم كلها متحدة . بل اختلف اجتهادهم اختلافًا واسعًا . ومرجعهم آيات القرآن . وقد اختلفت نظرتهم إليها واتسع تأويلهم . حتى قال فيهم أبو أمامة الصحابى الجليل من قتلوه فهو فى الجنة ومن قتلهم فهو فى الجنة . وتلا الآية الكريمة : فَأَمَّا الَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فيتّبعون مَا تَشَابَه مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وابْتِغَاء

تأويله .. » يريد أنهم أولوا القرآن فزاغوا فى تأويلهم . وفى المكاتبة التى دارت بين نافع الأزرق ونجدة بن عويمر مثل واضح لهذا التباعد فى التأويل . ومع كل هذا كانوا صادقى الإيمان والإصرار على عقائدهم . حتى إنهم يرون أن قتل الإمام علىٍّ قربانٌ يثاب عليه فاعله . ويقول عمران بن حطان فى عبد الرحمن بن ملجم :

يـا ضـربةً من تقى مـا أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى أفـكـر فـيـه ثم أحسبـه أوفى البريـة عـنـد الله ميـزانـا

ولم يكن من السهل أن يناظروا ويقنعوا . بل كان استمساكهم بعقيدتهم بالغ الحد . على أن كثيرين منهم نفروا من ابن نافع لِمَا أحل وحرم ولِمَا استباح من قتل النساء والأطفال . ولكنهم كانوا على غير طريقة الشيعة المتسترة المخادعة تمسكًا بمبدأ التقية . والذين أخذوا بالتقية سموا القعدة . وكان عمران بن حطان منهم . وقد أشرنا إلى حياته . وأدب الخوارج فى جملته يمثل الأدب العربى الصريح . وبلاغتهم قوية . ذلك لأنهم من البدو الخلص . الأصلاء فى اللغة . وقد أفرد ابن عبد ربه مكانًا فى عقده لدعاء الأعراب . وكلامُهم وخطُبهم . وأساليبُهم فيها جميعًا تهز النفوس وتأخذ بمجامع القلوب .

ويكفى فى مقام الحديث عن الخطابة أن نتحدث عن الأزارقة وعن بعض رجال الخوارج عدا من ذكرنا .

١ ـ الأزارقـــة

هم أصحاب نافع بن الأزرق . بايعوه أميرا عليهم وسموه أمير المؤمنين . وخرجوا معه من البصرة إلى الأهواز . وانضم إليهم خوارج عمان واليمامة فصاروا أكثر من عشرين ألفا . استولوا على الأهواز وما وراءها من أرض فارس وكِرْمَان وجبوا خراجها . وكان ذلك فى أيام عبد الله بن الزبير فقتلوا عماله بهذه النواحى . وهذه الفرقة أشد فرق الخوارج شوكة وأكثرها عددا . وكان بها عدد كبير من أمراء الخوارج ومشهوريهم ـ منهم قطرى بن الفجاءة المازنى . وعمر بن عمير العنبرى .. كانوا كما قال الشهرستانى زهاء ثلاثين ألف فارس . وكان والى البصرة من قبل الزبير هو عبد الله بن الحرث بن نوفل . فأرسل إليهم صاحب جيشه مسلم بن عبيس فقتلوه وهزموا أصحابه . فأرسل اليهم آخر فقتلوه فأرسل ثالثا فقتلوه . حتى خشى أهل البصرة على أنفسهم وبلدهم . فندب إليهم المهلب

ابن أبي صفرة - فظل يناضلهم وأولاده تسعة عشر عاما - حتى فرغ من أمرهم فى أيام الحجاج - وقتل نافع نفسه فى حروب المهلب سنة ستين هجرية - فبايعوا بعده قطرى بن الفجاءة المازنى - وتسمى أيضا أمير المؤمنين . كان هذا الحزب كله يكفر على بن أبى طالب - ويقولون إن الآية القرآنية «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُه فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ[1] » نزلت فى شأنه . كما كانوا يزكون عبد الرحمن بن ملجم - ويقولون : إن الله أنزل فى شأنه : « وَمِنَ النَّاسِ من يشرى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله » - ثم كفروا أيضا عثمان وطلحة والزبير - والسيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وعبد الله بن عباس - وفى الواقع حكموا على سائر المسلمين بالكفر وتخليدهم فى النار . وكفروا أيضا قعدة الخوارج عن القتال - وأوجبوا هجرة الخوارج إليهم وكفروا من قعد عنها .

وأسوأ ما دعا إليه الأزارقة أنهم أباحوا قتل أطفال المخالفين ونسائهم - وأسقطوا رجم الزانى المحصن لأن هذا الحد لم يذكر فى القرآن - وأسقطوا حد القذف فى رمى الرجال المحصنين دون قذف النساء المحصنات - وقالوا إن أطفال المشركين فى النار مع آبائهم - وإن التقية لا تجوز فى القول ولا فى العمل .

هذه أهم مبادئهم ولسنا بصدد درسها - ولكننا فى مقام الحديث عن الخطابة يعنينا ذكر الحجج التى دافعوا بها عن آرائهم .

٢ ـ النجـدات

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفى - ويسمون أيضا العاذريّة لأنهم يرون أن الجهالة بأحكام الفروع عذر يرفع العقوبة - وهم على عكس الأزارقة يجيزون التقية فى الأقوال والأفعال - ويرون أن لا حاجة إلى إمام قط - ولكن على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم - فإذا رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام فأقاموا إماما لهم جاز لهم ذلك .

كان نجدة قد خرج مع عسكره من اليمامة يريد اللحاق بنافع بن الأزرق - فقابله جماعة أخبروه بما أحدث نافع من الخلافات - وبايعوه هو أميرا وسموه أمير المؤمنين لكنه أحدث أيضا أشياء لم يرض عنها أصحابه فقتلوه سنة ٦٩ هـ . استتابه أكثر أتباعه من أحداثه - فخرج إلى المسجد وأعلن توبته - لكنهم عادوا فخطأوا أنفسهم وندموا -

---

(١) سورة البقرة آية ٢٠٧ .

وقالوا إنه إمام له أن يجتهد - وتوبته كانت إثما منه - فطلب منه جماعة منهم أن يتوب من توبته - وأن يستتيب الذين طلبوا التوبة منه وإلا نابذوه .

وخرج عليه اثنان من الزعماء هما راشد الطويل وأبو فديك - وكان قد وزع جيشه إلى الشام وجهات أخرى - فاستولى أبو فديك على اليمامة ورأى أن يعجل بقتل نجدة قبل عودة جيشه - فاختفى نجدة عند بعض القبائل - ونادى منادى أبي فديك من دل على نجدة فله عشرة آلاف - وأى مملوك دل عليه فهو حر - فدلت عليه أمة كانت عند الذين اختفى نجدة لديهم فقتلوه .

بين نافع ونجدة

نذكر هذه المجادلة بين هذين الزعيمين من الخوارج حول مبادئهما .

كتب نجدة إلى نافع :

«... أما بعد - فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم - وللضعيف كالأخ البر - ... لا تأخذك فى الله لومة لائم - ولا ترى معونة ظالم .

فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء مرضاته وأصبت من الحق فصه[1] . وصبرت على مره - تجرد لك الشيطان ولم يكن أحدٌ أثقل عليه وطأة منك - .. أكفرت الذين عذرهم الله تعالى فى كتابه - من قعدة المسلمين وضعفهم - قال الله تعالى ـ وقوله الحق - ووعده الصدق : «لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ»[2] ثم سماهم تعالى ـ أحْسَنَ الأسماء فقال : «ما على المحسنين من سبيل» . ثم استحللت قتل الأطفال ـ وقد نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ عن قتلهم - وقال جل ثناؤه : «وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى»[3] - وقال سبحانه فى القعدة خيرا - فقال : «وَفَضَّلَ الله المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ أجرًا عَظِيمًا»[4] . فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين - أو ما سمعت قوله تعالى : «لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى

---

(١) حقيقته وعينه .

(٢) سورة التوبة الآية ٩١ .

(٣) سورة الإسراء /١٥ .

(٤) سورة النساء /٩٥ .

الضَّررِ»(١) - فجعلهم من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم».

ثم إنك لا تؤدى أمانة لمن خالفك - والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها - فاتق الله فى نفسك - واتق يوما لا يجزى فيه والد عن ولده - ولا مولود هو جاز عن والده شيئا - فإن الله بالمرصاد وحكمه العدل وقوله الفصل والسلام.

فكتب إليه نافع:

... أما بعد -

أتانى كتابك تعظنى فيه - وتذكرنى - وتنصح لى وتزجرنى - وتصف ما كنت عليه من الحق - وما كنتُ أوثره من الصواب - وأنا أسأل الله أن يجعلنى من القوم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

عبت على ما دنتهُ به من إكفار القعده وقتل الأطفال - واستحلال الأمانة من المخالفين - وسأفسر لك إن شاء الله ...

أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله (ﷺ) لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا - ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا - وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرأوا القرآن. والطريق لهم نهج[٢] واضح - وقد عرفت ما قال الله تعالى فيمن كان مثلهم إذْ قالوا: كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأَرْضِ - فقال: «أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهاَ»[٣] وقال: فَرِحَ المخَلَّفُون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ[٤] - وقال: وَجَاءَ الْمعذِّرُونَ مِنَ الأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ[٥]. فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله. ثم قال: سَيُصِيبُ الذين كَفَروا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»[٦] - فانظر إلى أسمائهم وسماتهم.

وأما الأطفال - فان نوحا نبى الله - كان أعلم بالله منى ومنك - وقد قال: «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا - إنك إنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلدوُا إلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا»[٧]. فسماهم بالكفر وهم أطفال - وقبل أن يولدوا. فكيف كان ذلك فى قوم

---

(١) الآية ٩٥ سورة النساء.

(٢) النهج الطريق الواضح - فذكر الوضوح بعده لزيادة الإبانة والتوكيد.

(٣) سورة النساء ٩٧. (٥)، (٦) التوبة /٩٠.

(٤) سورة التوبة ٨١. (٧) سورة نوح ٢٦، ٢٧.

نوح ولا تقوله في قومنا ؟ والله تعالى يقول : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ . .

وهؤلاء كمشركي العرب لا تقبل منهم جزية - وليس بيننا وبينهم إلا السيف - أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا فان الله تعالى أحل لنا أموالهم - كما أحل دمَاءَهُمْ لنا - فدماؤهم حَلَالٌ طِلْقٌ (١) وأموالهم فى المسلمين - فاتق الله ورَاجِعْ نَفْسكَ - فانه لا عذر لك إلاَّ بالتَّوْبَةِ - ولن يَسعَكَ خذلاننا والقعود عنا - وترك ما نهجناه لك من مقَالتنَا .

والسلام على من أقر بالحق وعمل به (٢) .

هذان الخطابان يبينان وجهة النظر المختلفة بين هاتين الفرقتين - وحسبنا ذلك ولمن أراد مزيدا أن يرجع إلى كتب التاريخ .

من شهـيرات النسـاء وَخَطيبـاتِهِنَّ

من تمام الحديث عن الخطابة والخطباء أن نذكر بعض الشهيرات والخطيبات من النساء - ومكان الخطيبات دون مكان الخطباء من الرجال - وعددهن نادر - وهذا أمر طبيعى - فالخطيب إما مُدْلٍ بنصيحة - أو مُحَرّض على حرب أو داعية إلى صلح - أو ما أشبه ذلك - وحظ المرأة من هذا كله ضئيل . وقد كانت المرأة العربية فى العهد الجاهلى مهضومة الحق مكبوتة الصوت مجحودة النصيب من الميراث - لهذا لم يكن لها بروز فى مجالس الشورى وتبادل الرأى - وهناك سيدات قليلات برزن بكلمات حكيمة أو رأى صائب - وكان الجاهليون يعظمون المرأة المنجبة - ومن أشهرهن - فاطمة بنت الخرشب : وهى أم الكملة وزوج زياد العبسى - وأبناؤها هم : ربيع الكامل - وقيس الحفاظ - وعمارة الوهاب - وأنس الفوارس - وسئلت عنهم فقالت هذا بل هذا ... عدمتهم جميعا إن كنت أعرف فيهم واحدا دون إخوته هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها . ومنهن أم البنين ابنة عامر بن عمر - وزوج مالك بن جعفر - وأبناؤها خمسة

---

(١) حلال خالص .

(٢) راجع كتاب الكامل للمبرد باب ٤٩ .

هم - ملاعب الأسنة - وطفيل الخيل - وربيع المقترين[1] - ونزال المضيف - ومعوذ الحكماء - وفيها قال لبيد بن ربيعة :

نحن بنو أم البنين الأربعة .

لأنها جدته أم أبيه ـ وهم في الواقع خمسة وليسوا أربعة - ومنهن أسماء بنت دريم . من المنجبات والحكيمات - كان أبناؤها يرعون فيما حولها فمر بها وائل بن قاسط - فنظر إليها نظرة مريبة - وخافته على نفسها - فقالت : اذهب والا استصرخت عليك أسبعى ثم نادت : يا كلب - يا ذئب - يا فهد - يا دُبّ - يا سِرْحَانُ - يا أسَدُ ـ وهذه اسماء بنيها الستة - فحضروا إليها جميعا - فقالت لهم : هذا ضيفكم أكرموه - ولم تر أن تفضح نفسها أو تخزى الرجل - ولو أنها تركتهم يفتكون به لفتحت للناس مجال القول فيها - وقد سمى هذا الوادى وادى السباع - وهو الذى قتل فيه الزبير بن العوام . وسمى بهذا الاسم منذ هذا الحادث .

وكان العرب يفخرون أيضا بالمنجبات من نسائهم - وبمن أنجبن من جَدَّاتِهم - وقد قال رسول الله (ﷺ) يوم حنين : «أنا ابن العواتك من سليم» ـ وهؤلاء العواتك ثلاث كل واحدة عمة للتى بعدها - وهن : عاتكة بنت هلال بن عبد مناف بن قصى - وعاتكة بنت مرة بن هلال - وعاتكة بنت الأوقص بن مره بن هلال . وكانوا يتحدثون عنهن وعن الفواطم من قريش - وهن : فاطمة بنت عبد الله بن عمر بن عمران - جدة رسول الله - (ﷺ) وفاطمة بنت أسد زوج أبى طالب عم رسول الله (ﷺ) ثم سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) هؤلاء هن الفواطم من قريش - وكان الحسن والحسين يسميان ابنى الفواطم . ولما خطب الأشعث بن قيس[1] إلى على بن أبى طالب ابنته رده قائلا : أغرك أن ابن أبى قحافة أعطاك أخته .

وأكثر من هذا أننا نجد بين العربيات الجاهليات ملكات - منهن بلقيس - ومنهن زينب أو زينوبيا ملكة تدمر .

وفى الإسلام اشتهر أيضا بعض من النساء برأيهن وحسن تصرفهن - نذكر بعضا منهن وإن كن غير خطيبات . وهن :

---

(١) كان الأشعث الكندى ممن ارتدوا بعد وفاة رسول الله (ﷺ) ثم جيء به إلى أبى بكر أسيرا ، فتاب فعفا عنه ، ثم خطب أخته فرة فزوجه منها - ويقال إن أبا بكر ندم بعد ذلك على مسامحته ، وقال إنه لا يرى شرا إلا أعان عليه ـ وكان وابنه وحفيده ـ ذوى أثر فى الفتن التى نجمت عهد على وبنى أمية .

١ ـ أمية بنت أبى قيس الغفارية

غامر قلبها الإسلام وهى صبية لم تعد طور الحداثة . فجاءت على بعد الشقة تبايع رسول الله (ﷺ) . وكانت فى الرابعة عشرة من عمرها . وخرجت إلى خيبر زعيمة النساء اللاتى خرجن لمواساة الجرحى وسقى الماء . وكان عمرها يوم خيبر سبعة عشر عاما . جاءت إلى رسول الله (ﷺ) فى نسوة من غفار . فقلن : قد أردنا الخروج معك إلى وجهك هذا . فنداوى الجرحى . ونعين المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله . وقد أحسنت أمية القيام بعملها فقلدها رسول الله (ﷺ) قلادة . لم تفارق صدرها طيلة حياتها . وأوصت أن تدفن معها .

٢ ـ أم سنان الأسلمية

من أسلم . وأسلم بطن من خزاعة . قدمت إلى المدينة حين قدم إليها رسول الله (ﷺ) مهاجرا فبايعته . ثم جاءته وهو خارج إلى خيبر . فقالت : يا رسول الله اخرج معك فى وجهك هذا . أخرز السقاء . وأداوى المرضى والجرحى . إن كان ثم جرحى ولا يكون . وأبصر الرحل . فقال : اخرجى على بركة الله فإن لك صواحب قد كلمننى . وأذنت لَهُنَّ من قومك ومن غير قومك . فان شئت فمع قومك . وإن شئت فمعنا . قالت فمعك . فجعلها مع زوجه أم سلمة . فكانت معها . وهى التى مشطت صفية بنت حيى وألبستها حين زفت إلى رسول الله .

روت أم سنان أحاديث كثيرة . وابنتها بثينة من فضليات الثقات من رواة الحديث .

٣ ـ حَمْنة بنت جحش

أمها أميمة بنت عبد المطلب ـ فهى بنت عمة رسول الله . وأخت زينب بنت جحش أم المؤمنين . تزوجها مصعب بن عمير أول داعية إسلامى بالمدينة . وحضرت غزوة أحد . وكانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح من بين القتلى . وتخرج به إلى المكان الملائم فتأسو جراحه . وتهيىء له ما يريحه . وكان عملها مما تزل دونه أقدام الرجال . ولما عاد رسول الله (ﷺ) والمسلمون من أحد . قام النساء يسألن عن أهليهن فلا يخبرهن الصحابة إشفاقا على من فقدن ذويهن . فلما انتهين إلى رسول الله (ﷺ) جعل يجيبهن . لا تسأله واحدة إلا أجابها . فجاءته حمنة . فقال : يا حمنة . احتسبى أخاك عبد الله بن جحش . قالت : إنا لله وإنا إليه راجعون رحمه الله وغفر له . قال :

احتسبي خالك حمزة . قالت إنا لله . وإنا اليه راجعون . رحمه الله . ثم قال : يا حمنة احتسبي زوجك مصعب بن عمير . فقالت :

واحرباه : فقال النبي (ﷺ) : إن للمرأة لشعبة من الرجل ما هي له في شيء .

وتزوجها بعد مصعب طلحة بن عبيد الله الصحابي الجليل المبشر بالجنة . والذي قتل في موقعة الجمل . فولدت له محمدا . وعمرا . ومحمد هو التقي العابد المعروف بالسجاد . وقد مر حديث له مع الخوارج .

٤ ـ أسماء بنت يزيد الأنصارية

ذكرها ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب . باسم أسماء بنت زيد . بن السكن بايعت النبي (ﷺ) عند مقدمه المدينة . وتلقت عنه كثيرا من الأحاديث . وتخرج عليها كثير من التابعين . وقد عمرت بعد رسول الله (ﷺ) . وحضرت موقعة اليرموك . وكانت أول المعركة تسقي الظماء . وتداوي الجرحى . فلما اشتدت المعركة وحمي وطيسها . اقتلعت عمود خيمتها وغامرت بين صفوف الرجال تضرب من يقابلها من جنود الروم . فصرعت بعمودها هذا تسعة منهم .

وتمتاز هذه عن الأخريات بمقدرتها الكلامية . فهي خطيبة نساء العرب . ورسولهن إلى رسول الله (ﷺ) جاءت إليه وهو بين أصحابه فقالت : بأبي أنت وأمي . وافدة النساء إليك . وإني رسول من ورائي من نساء المسلمين . كلهن يقلن بقولي . وعلى مثل رأيي . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة . فآمنا بك واتبعناك . ونحن معشر النساء محصورات مقصورات مخدرات قواعد بيوت . ومواضع شهوات الرجال . وحاملات أولادهم . وإن الرجال فضلوا علينا بالجمعات . وشهود الجنائز . وعيادة المرضى . والحج بعد الحج . وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله . وإن أحدكم إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم وربينا أولادكم . وغزلنا أثوابكم . أفنشارككم في هذا الأجر والخير ؟

فالتفت رسول الله (ﷺ) بوجهه إلى أصحابه فقال : هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هذه ؟ قالوا ما ظننا أن امرأه تهتدى إلى مثل هذا ! فقال : انصرفي يا أسماء وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها . وطلبها لمرضاته . واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال . فانصرفت وهي تهلل وتكبر

استبشارا بما قال لها . حتى وصلت إلى نساء قومها من العرب . وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله (ﷺ) ففرحن وآمن جميعا .

هذا حديث عابر عن أربعة من النسوة ، واذا رجعت إلى كتاب بلاغات النساء لابن طيفو . والقسم الذى خصصه ابن حجر للنساء فى كتاب الإصابة . وابن عبد البر فى كتاب الاستيعاب وإلى كتب الأدب الأخرى تجد كثيرا من الأحاديث والطرف الشائقة عن المرأة العربية .

شهيرات النساء فى معركة على ومعاوية

أبرزت هذه المعركة عددا من خطيبات النساء وذوات الشجاعة والجرأة النادرة . ولكنَّ هؤلاء كن من أنصار على ومن الخوارج . ولا نجد فى حزب معاوية من فعلن مثل ذلك ، وبعد استقرار الأمر لمعاوية ظل هؤلاء النسوة على مبدئهن ، ورحل عديدات منهن إلى معاوية لنيل عطاء منه أو لغير ذلك . فكان معاوية يذكرهن بما فعلن يوم صفين ، من خوضهن المعركة تارة وتحريضهن عليه تارة أخرى . فلا يأسفن ولا يتراجعن . وكان معاوية لدهائه وسياسته لا يردهن بدون عطاء ولا ينتهرهن . ولم يكن ثم ما يدعو لذلك وقد أصبحن قليلات الخطر . وقد أفرد صاحب العقد الفريد بابا للوافدات على معاوية فذكر منهن ثمانى وافدات . ونحن ذكرنا من قبل من الخوارج غزالة الحرورية زوجة شبيب ، وبينا ما كان لها وله من بطولة وإقدام ، ويشبهها فى هذا ليلى بنت طريف الشيبانية ، وأخوها الوليد بن طريف . وكلاهما من بقايا أبطال الخوارج ، ولكنهما كانا فى عهد الرشيد العباسى . وكان الذى يحاربهما من قواده هو يزيد بن مزيد الشيبانى . ونكتفى بذكر ثلاثة ممن وفدن على معاوية .

١ ـ الزرقاء بنت عدى

وهى الزرقاء بنت قيس بن عدى الهمدانية . من الخطيبات الشهيرات . أبرز مواقفها يوم صفين ، كانت بين الصفوف على جمل تحض الناس على قتال معاوية وقومه .

وتدفعهم إلى الثبات والهجوم ، ومن كلامها فى هذا الموقف :

« .. أيها الناس . ارْعَوُوا وارجعوا . إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء صماء بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تنساق لقائدها ، إن المصباح لا يضىء فى الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد .

ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس . إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها ، فصبرا يا معاشر المهاجرين على الغصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمة ، فلا يجهلن أحد فيقول : كيف وأنى .. ؟ . ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدّماء ، ولهذا اليوم ما بعده ، و « الصبر خيرٌ فى الأمور عواقبا » ، إيها فى الحرب قدما غير ناكصين ولا متشاكسين ... » .

وقد غاظ موقفها هذا مُعَاويةَ وقومَه ، وكان معاوية وبعض أعوانه يحفظون خطبتها هذه . وأشاروا عليه مرة أن يقتلها فلم يقبل ، وقال : بئس الرأى أشرتم به .

وكان من سياسة معاوية أن كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها عليه مع بعض محارمها وفرسان قومها ، وأن يوسع عليهم فى النفقة ، وأن يحسن جهازها ويهئ لها سفرا مريحا ، ولكنها لم تكن راغبة فى الوفود على معاوية ، فقالت لعامله : ان كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلىّ ، فانى لا آتيه ، وان كان قد حتم ذلك فالطاعة أولى .

وقد أحسن معاوية استقبالها ، وأكرم وفادتها ، ولما سألها عن موقفها يوم صفين ، فقالت :

« يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، ولم يعد ما ذهب ، والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر

وقال لها : لقد شركت عليا فى كل دم سفكه ! ، قالت أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسرَّ جليسه .

قال : أو يسرك ذلك ؟

قالت : نعم والله ، لقد سررت بالخبر ، فأنى لى بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : والله لوفاؤكم لعلى بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته ، اذكرى حاجتك ، قالت : لا أسأل أميرا أعنت عليه .

٢ ـ عكرشة بنت الأطرش

هى عكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، كانت أيضا ذات شجاعة وبلاغة . خاضت بنفسها معركة صفين . تقلدت السيف ووقفت تخطب المحاربين من جند على فتقول :
« .. أيها الناس . عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ . لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ، إن الجنة لا يرحل من أُوطِنَها ، ولا يهرم من سكنها . ولا يموت من دخلها . فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها . ولا تنصرم همومها . وكونوا قوما مستبصرين فى دينكم . مستظهرين بالصبر على طلب حقهم .

إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب . لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه . فالله الله عباد الله فى دينكم .

إياكم والتواكل . فإن ذلك ينقض عرا الإسلام . ويطفئ نور الحق . هذه بدر الصغرى . والعقبة الأخرى .

يا معاشر المهاجرين والأنصار . امضوا على بصيرتكم . واصبروا على عزيمتكم . فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تقصع قصع البعير » .

وفدت على معاوية فسلمت عليه بالخلافة . فقال لها : الآن صرت أمير المؤمنين ؟ قالت نعم . إذ لا علىٌّ حى .

وكانت تتوكأ على عكاز لها ، فقال لها معاوية : لكأنى أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش .. فان كدت لتغلبن أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وكانت قد وفدت عليه تطلب أن يرد على أهل العراق صدقاتهم . فلما حاورته أعيته حجة ، فأمر برد صدقاتهم .

٣ ـ أم الخير بنت حُرَيْش

هى أم الخير بنت الحريش بن سراقة البارقى ، كانت من أنصار على ، وقد أثارها مقتل عمار بن ياسر ، فوقفت تخطب القوم ، وترغبهم فى الجهاد بخطبة طويلة منها :

«يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شىءٌ عَظِيم» !

إن الله قد أوضح لكم الحق وأبان الدليل ، وبين السبيل ورفع القَلَم ، ولم يدعكم فى عَماءٍ مدلهمة ، فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير المؤمنين ، أم فرارا من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : وَلَنَبْلُوَنّكُمْ حَتىَّ نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابِرِيَن وَنَبْلُوَ أخبارَكُمْ» .

هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضىّ التّقِىّ ، والصديق الأكبر ، إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، وضغائن أحديه ، وثب بها واثب حين الغفلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس .

... قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، صبرا يا معاشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . فكأنى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كحمر مستنفرة فرت من قسورة ، لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض . باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ، وعما قليل ليصبحن نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الإقالة ولات حين مناص .

فالله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان . فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ... مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ... قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب وقتل الله به أهل خيبر ، وفرق بين جمع هوازن . فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقا ، وردة وشقاقا ، وزادت المؤمنين إيمانا .

طلب معاوية من واليه على الكوفة أن يوفدها عليه ، وسألها عن هذه الخطبة فقالت إنه كلام لم أكن زورته قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نفثها لسانى عند الصدمة . ووصفها بعض أعوانه أنها كانت كالفحل يهدر فى شقشقته .

قال معاوية : ما أردت بهذا إلاّ قتلى ، ولو قتلتك ما حرجت فى ذلك ، فقالت :

والله ما يسوءنى أن يجرى قتلى على يدى من يسعدنى الله بشقائه . قال : هيهات يا كثيرة الفضول .

هؤلاء ثلاث من الخطيبات أنصار على . وهناك أخريات من غير حزبه ومن غير الخوارج اشتهرن بذكائهن وحسن تفكيرهن وكلماتهن الحكيمة . وكان الناس يسألوهن فى مشكلات الأمور . ومعضلات المواقف . ويذكرن عادة مع الخطباء لهذه الأسباب .

نذكر منهن أشهرهن هند بنت الخس[1] بن حابس من قبيلة إياد ، كانت ذات فصاحة وحكمة . وكانت ترد سوق عكاظ . فيسمع الناس منها ويسألونها ، وربما حاولوا إعجازها أو إحراجها ، وكان لها أخت تسمى «جمعة» على شاكلتها فى ذكائها وحكمتها ولكنها دونها شهرة ، وصف الجاحظ هند بأنها من أهل الدهاء والنكراء ، ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب ، والكلام الفصيح . والأمثال السائرة ، والمخارج العجيبة . وتسمى الزرقاء ، وقال يونس لا يقال الا بنت الأَخَسّ ، وقال عمرو بن العلاء : داهيتا نساء العرب هند الزرقاء . وعنز الزرقاء وهى زرقاء اليمامة . وكلام هند لبداوتها ملىء بالألفاظ الغريبة .

قيل لها : ألاتنزوجين ؟ فقالت بلى : لا أريده أخا فلان ولا ابن فلان[2] ولا الظريف المتظرف ، ولا السمين الألحم ، ولكن أريده كسوبا إذا غدا ، ضحوكا إذا أتى[3] . وأتت سوق عكاظ فجاء اليها رجل يمتحن عقلها ويمتحن جوابها ، فقال لها : إنى أريد أن أسألك قالت هات .

قال : كاد . فقالت المتنقل يكون راكبا
قال : كاد . فقالت الفقر يكون كفرا
قال : كاد . فقالت العروس تكون ملكا
قال : كاد . فقالت النعامة تكون طائرا
قال : كاد . فقالت السرار يكون سمرًا

ثم قالت له هى أسألك ، قال هاتى :

قالت : عجبت قال للسباخ لا ينبت كلؤها ولا يجف ثراها

---

(١) بضم الخاء . ويقال الخص . وأكثر ما تحدث عنها بابنة الخس .

(٢) تريد أنها لا تريده لنسبه .

(٣) عيون الأخبار ٦/١١ ــ نفسه ٢/٢١٤ .

قالت : عجبت قال للحجارة لا يكبر صغيرها ولا يهرم كبيرها
قالت : عجبت قال لشفرك لا يدرك قعره ولا يدرك حفره

وكان هذا إيذانا بعجزه وانقطاعه . فأراد أن ينهى حديثها بما يجرح حياءها وقيل لها ما ألذ الأشياء : قالت قبلة فتاةٍ فتىً ووالله ما ذقتها وأسوأ ما كان من هند أن واقعها مولى لها . وقيل لها فى ذلك فقالت إنه لطول الإلف وقرب الوسائد .

نفحــة أندلســية

لا نودع العصر الأموى من غير أن نذكر خطبة طارق بن زياد . لبلاغتها وروحها الحربى . وفى الوقائع التى حدثت فى عهد الأمويين . وفى الحروب التى قامت بينهم وبين أعدائهم من المسلمين وغيرهم وجدت خطب تصور أدب الحروب . وقد أوردنا بعضا منها . كما أوردنا أمثلة من خطب الخوارج .

أما خطبة طارق فقد قيلت فى وقت مبكر من العهد الأموى أيضا . ففى سنة (٩٢ هـ - ٧١١ م) أرسل موسى بن نصير جيشا كثيفا بقيادة طارق بن زياد هذا . فعبر المضيق الذى عرف فيما بعد باسمه . وكان جيش طارق نحو سبعة آلاف جندى . لاقى بهم جيشا يبلغ مائة ألف فانتصر على عدوه انتصارا عجيبا . ثم أغراه انتصاره بإن يتابع جولته فى تلك البلاد وهى تتهاوى أمامه مدينة بعد أخرى وإقليما بعد إقليم .

ويحيط فتح العرب الأندلس أساطير كثيرة هى أدنى إلى طرف الأدب وأقرب أن تكون من نسج الخيال . ومما قيل فى هذا أن طارقا أول ما استقر بأرض الأندلس أحرق أسطوله - وخطب قومه بأنهم أصبحوا محصورين بين البحر والعدو ولاينجيهم إلا سيوفهم .

والذى يغنينا من الخطبة هو بلاغتها ومنهجها فى تحميس الجيش . وتخويفه إياهم عاقبة الهزيمة تارة . وتمنيتهم الظفر والتمتع بخيرات الأندلس تارة أخرى .

ومؤرخو الأدب يبدون شكوكا كثيرة وقوية حول هذه الخطبة ونسبتها إلى طارق . لأنه لم يكن دخل الإسلام إلا منذ أربعة أعوام تقريبا . وهى مدة لا تكفى لإجادته العربية . وكان جيشه أيضا من البربر الحديثى العهد بالإسلام . إلى أسباب أخرى لا يعنينا هنا أن نقف لديها . نترك لقرائنا تقسيم الخطبة وتمييز أجزائها . وتفحص ما فيها

من عبارات قوية - بليغة - ومقدرة الخطيب فى الملاءمة بين كلامه وموقفه - وقد بر طارق بما وعد به جيشه إذ هجم هو بوصفه قائدا على قائد أعدائه فقتله كما وعد . وحسبنا فقط أن ندرس الخطبة من حيث هى ولا يعنينا البحوث الأدبية الأخرى .

خطبة طارق بن زياد

طارق هذا كان مولى لموسى بن نصير - قيل إنه من بربر إفريقية - وقيل من أصل فارسى - ولهذا يتشكك الكثيرون فى نسبة هذه الخطبة إليه لأنه لم يدخل الاسلام ويعرف اللغة العربية إلا بعد اتصاله بمولاه موسى - وموسى تولى قيادة المغرب سنة ٨٩ هـ فى خلافة الوليد - ثم أرسل طارقا لفتح الأندلس سنة ٩٢ هـ فهذه السنوات القليلة لا تكفى لتكوين خطيب يؤلف مثل هذا الكلام - وهناك أسباب أخرى غير هذا السبب لسنا بصدد عرضها - لأن الذى يعنينا هو عرض خطبة فنية تصلح أن تكون نموذجا يحتذيه الخطيب - وهناك شىء آخر لا يكاد يصدق - وهو أن طارقا حين وصل إلى أرض الأندلس أحرق سفنه حتى يرى الجيش نفسه محصورا بين البحر والعدو فيستبسل فى الدفاع والحرب - ويظهر أن الفكرة أخذت من مطلع الخطبة - ونصها نقلا عن نفح الطيب هو :

« .. أيها الناس أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم - وليس لكم والله إلا الصدق[١] والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام - ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم - وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا[٢] . ذهب ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم - فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية - فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة - وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت - وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة[٣] - ولأحملنكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس أبرأ منها بنفسى - واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا

(١) الصدق : الشدة .

(٢) اذا طال الزمن وأنتم على ما أنتم عليه من الفقر ولم تتقدموا فى فتوحكم استهان بكم الأعداء .

(٣) لست ناجيا منه - والنجوة ماارتفع من الأرض - وهو بنجوة من هذه الأمور أى هو بعيد عنها .

استمتعتم بالأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي بما حظكم فيه أوفر من حظى (١) .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان . من بنات الرومان (٢) الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان . (٣) المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . (٤) .

وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا (٥) . ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا (٦) . ثقة منه بارتيا حكم للطعان . واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته . وإظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون فتحها (٧) خالصا لكم من دونه . ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجادكم (٨) على ما يكون لكم ذخرا فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه . وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى . فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره . ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه . وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه (٩) . واحملوا بأنفسكم عليه . واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون .

---

(١) ليس نصيبكم من هذا الجهاد أكبر من حظى .

(٢) يروى اليونان ، وربما خلط العرب فيهما .

(٣) الذهب ينبت نباتا ، ويدخل فى نسيج الملابس للزينة وإظهار الثراء والعظمة .

(٤) يريد محجبات فى قصور الملوك ولسن ممن يعملن أو يمتهن .

(٥) يروى عزبانا بالزاى ، جمع أعزب كأعمى وعميان ، وليست رواية جيدة إذ لا نظن أن المحاربين كانوا عزابا ، ويروى عربانا بالراء . وهو الأكثر ، واعترض عليه بأنهم بربر وليسوا عربانا ، ويمكن أن تحمل على المجاز والتشبيه ، أى اختاركم شجعانا كالعربان .

(٦) جمع ختن بالتحريك . أقارب الزوجة .

(٧) يروى أيضا وليكون مغنمها ، فعلى الأول يكون المعنى ليكون لكم شرف فتحها ، وعلى الثانى : ليكون لكم غنائمها .

(٨) إرشادكم وهدايتكم .

(٩) فى الهجوم على لذريق .

من اشتهروا بالخطابة وجودة الكلام

هناك قبائل اشتهرت بالفصاحة واللسن ، وإجادة الخطب وطولها ، كما أن هناك أفرادا اشتهروا بذلك أيضا . وأوردت كتب الأدب والتاريخ كثيرًا لهؤلاء ، ونذكر بعضا منهم للتعرف عليهم وللاستئناس بكلامهم وبحسن تصرفهم فيما عرض لهم من مواقف . فنذكر هؤلاء الأفراد ومع بعضهم ذكر أسرهم .

١ ـ إياس بن معاوية المزنى

وهو إياس بن معاوية بن قرة ، مضرى من مزينة ، كان لأم ولد ، وكان ذكيا نجيبا حسن التأتى للأمور التى تعرض له ، عرف بجودة الفراسة وصدق الحدس[1] تولى قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز ، وظل بها حتى مات سنة ١٢٢ هـ ، كان فصيحا يعجبه كلامه فيطيل ، وكان يجالس عبد الله بن شبرمه الضبى من القضاة أيضا ، فقال له مرة : نحن لا نتفق ، أنت لا تشتهى أن تسكت وأنا لا أشتهى أن أسمع . وأخذ عليه الجاحظ هذا المذهب ، لأن للكلام غاية ولأن نشاط السامع له نهاية ، فإذا زاد الكلام عن هذا مع جماله صار ثقيلا مملولا ، وقد وصف إياس مرة نفسه بالعى ، ولم يكن يعنى ما يقول ، وإنما أراد التخلص من منصب القضاء الذى عرضه عليه عمر بن هبيرة ، فقال : لا أصلح لأنى عيى ، ولأنى دميم ، ولأنى حديد[2] ، فأجابه قائلا : أما الحدة فان السوط يقومك ، وأما الدمامة فانى لا أريد ان أحاسن بك أحدًا ، وأما العى فقد عبرت عما تريد .

وكان إياس ذا عقل فاضل حتى قال عقبة بن عبد الرحمن بن الحرث : رأيت عقول الناس قريب بعضها من بعض إلا ما كان من الحجاج بن يوسف ، وإياس بن معاوية فإن عقولها كانت ترجح على عقول الناس كثيرا .

وقد بدت نجابته منذ حداثته ، إذ خاصم شيخا كبيرا لدى بعض القضاة فى عهد عبد الملك فتقدم خصمه ، فأنكر عليه القاضى ذلك ، وقال أتتقدم شيخا كبيرًا ؟ فقال

---

(١) الحدس : التخمين والظن .

(٢) ذو حدة .

إياس الحق أكبر منه . قال القاضي : اسكت . قال فمن يقوم بحجتي . قال : لا أظنك تقول حقا حتى تقوم . قال : لا إله إلا الله . أحق هذه أم باطل ! فقام القاضي من ساعته فدخل على عبد الملك فخبره الخبر . فقال . اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام . لا يفسده علي .

٢ ـ الفضل الرقاشي

هو الفضل بن عيسى الرقاشي ، من أخطب الناس ومن القاصين المجيدين ومن المتكلمين على مذهب المعتزلة . وهو رئيس طائفة منهم سميت الفضلية نسبة إليه (١) . وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد أحد رءوس المعتزلة وعدد من الفقهاء وكان يمزج قصصه بالعظات والتأملات فيقول مثلا : «سل الأرض فقل : من شق أنهارك وغرس أشجارك . وجنى ثمارك فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا .

والرقاشيون أسرة اشتهرت بالخطابة كلها . وقصة ثبات الخطابة فيهم إلى زمن معين تدل على أثر الوراثة . وانتقال صفات الآباء للأبناء . لأنهم أعاجم كانوا خطباء الأكاسرة . فلما سبوا تعلموا العربية وبقيت لهم صفة الخطابة فى الإسلام . نزحهم ذلك العرق فكانوا وأولادهم الذين ولدوا فى الجزيرة العربية خطباء أيضا ممتازين . وظلوا كذلك حتى أصهر إليهم الغرباء ففسد ذلك العرق فيهم وضعفت خطابتهم .

كان للفضل ابن عم يسمى يزيد بن أبّان الرقاشي . من أخطب الناس وأبان أيضا عم الفضل كان خطيبا . وكان يزيد من أصحاب أنس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله (ﷺ) وكان يجالس الحسن البصرى . وكان يجلس مجلسه ويتكلم ويعظ فى حضوره وكان مع جودة كلامه وتفوقه فى الخطابة والقصص زاهدا عابدا غزير العلم .

وكان للفضل ابن يدعى عبد الصمد أغزر من أبيه مادة وأبين كلاما وأجود خطابة . جلس مرة يتحدث عن البعوضة ودقيق خلقها وعامة شئونها فاستغرق هذا الحديث ثلاثة مجالس .

---

(١) فى الخوارج طائفة أيضا تسمى الفضلية منسوبة إلى الفضل بن عبد الله وليس إلى الفضل بن عيسى .

وكان للفضل ابنة تسمى سوادة تزوجها سليمان بن طرخان أحد حفاظ البصرة الثلاثة . فولدت له المعتمر بن طرخان ، وكان ثلاثتهم من الفصحاء ومن رجال الكلام إلا أن سليمان لم يكن على مذهب الفصل ولا من الطائفة الفضلية ولما ماتت سوادة شهد ثلاثتهم جنازتها ، فاقتضى الأدب أن يقدما الفضل للصلاة عليها .

فهذا خطيب من أسرة خطيبة .



رابعًا : الخطـابة فى العصـر العبـاسى

قدمنا أن العصر الأموى هو أزهى عصور الخطابة العربية . وذكرنا الأسباب التى هيأت للخطابة فيه هذا الرقى والازدهار . والواقع أنه منذ مقتل عثمان . ونشوب الخلاف بين على ومعاوية نشطت الخطابة نشاطا كبيرا ولم تهدأ باستقرار الحكم لبنى حرب أو بنى مروان . لأن الفتن والثورات ظلت تتوالى الى واحدة بعد أخرى . وظل كل يوم يظهر منافسون وطلاب للحكم . وكان أقرب هذه الأصوات خمودا أصوات الزبيريين وأتباع ابن الأشعث . أما العلويون فسكتت خطابتهم ولكن تحولت مناهضتهم إلى دعوة سرية ظلت تعمل فى خفاء وتكتم جهد المستطاع حتى أتت أخيرا على الدولة الأموية نهائيا . وأما الخوارج فظلوا يعملون فى جهد لا يعرف السرية وصراحة لا تعرف المواربة . فكان فى نضالهم المستمر حياة للخطبة العربية وشريان دافق لاستبقائها حتى آخر الدولة .

فترت الخطابة أواخر الدولة الأموية بعض الفتور لا ستقرار الحكم ولتولى أمر الدولة أحداث انصرفوا إلى اللهو والترف . حتى الخوارج الذين ظل لهم صوت كان شأنهم قد قل وشوكتهم قد فلت بحروب المهلب ابن أبى صفرة وأولاده . فلما جاءت الدولة العباسية انبعثت فى جسم الخطابة الواهن حركة حياة . بسبب الخصومات التى كان لابد أن تواجهها أول قيامها . ولكن ما لبثت الدولة أن قضت على هذه الخصومة فعادت الخطابة إلى همود أبلغ وركود أشد .

وقد اعتاد مؤرخو الأدب أن يقسموا العصر العباسى إلى قسمين العصر العباسى الأول . والعصر العباسى الثانى . ذلك لأن طول العصر وتغير أحداثه جعل للأدب والفكر ألوانا خاصة تختلف فى أحدهما عن الآخر . والأمر كذلك فى الخطابة وإن لم يحدث لها تغير واسع كالذى حدث فى الشعر وجوانب الفكر الأخرى ولا يعنينا أن نفيض فى ذلك بعد الذى قدمنا .

النشاط الوقتى

كان نضال الحزب المعارض لبنى أمية ـ بعد انتهاء الزبيريين ـ يعمل لإعادة الخلافة

لبنى على أولئك الذين أخذت الخلافة منهم قسرًا وكانواهم أحق بها وأهلها فيما يرى المعارضون . كان بنو العباس يعملون مع بنى على يدا واحدة ضد بنى أمية ـ وكانت البيعة السرية تؤخذ لإمام الرضا من آل البيت من غير أن يعين اسمه ونسبه ، فلما انتهت الدولة الأموية وأفضى الحكم لبنى العباس دون بنى على أصبح امام العباسيين خصوم جدد من بنى عمومتهم العلويين ـ وغضب الدعاة لهذه النهاية فقاوموا أول الأمر ولكن لم يطيقوا الصمود أمام قوى العباسيين فقتل منهم من قتل وسجن من سجن وعذب من عذب ـ وتحولت دعوتهم ثانيا إلى دعوة سرية ظلت تناضل نحو ثلاثة قرون حتى قامت لهم دولة تنتمى إلى على بوجه ما وهى الدولة الفاطمية التى نشأت بالمغرب ثم ظلت تزحف نحو الشرق حتى قضت نهائيا على بنى العباسى .

قامت الثورة ضد بنى أمية فى خراسان أولا ـ وكان الأعاجم هم الداعين لها والمتفانين فى قيامها ـ نقمة على بنى أمية بسبب تعصبهم للعرب ضد الموالى من جهة ـ وحبا لعلى وأولاده آل البيت من جهة أخرى ـ فلما صدموا باستئثار العباسيين بالحكم دون العلويين أعلنوا عداوتهم لها وأراد بعض القواد أمثال أبى سلمة الخلال ـ وأبى مسلم الخراسانى أن يستقلوا بما تحت أيديهم ـ فكانت الدولة مضطرة إذ ذاك ـ أن تثبت حقها الشرعى فى هذا الحكم ـ وكانت الخطابة أولى الوسائل لهذا الإثبات ـ وكان السيف والمال يعملان عملهما بجانبها ـ وما لبث العباسيون أن قضوا سريعا على هؤلاء المعارضين ـ أعجاما وأمويين ـ فلم يكن ثمت ما يدعو إلى الخطابة فانقطعت بانقطاع أسبابها .

كانت هناك حروب أخرى لم تنقطع ـ وهى حروب الروم ـ وحروب أخرى أقل شأنا فى الشرق ـ ولكن لم تكن هذه ولا تلك مما يدعو إلى قيام خطابة ـ ذلك أن نظام الجند كان قد استقر وأصبح هناك محاربون موكول إليهم حماية الدولة ومد حدودها ـ ولهم من بيت المال حظ مقسوم ـ فلم يعد الأمر كما كان أمام حروب الأمويين وخصومهم ـ كل يدعو الناس أن يقفوا بجانبه وينفرهم من عدوه ـ بل كانت الخطب لتبشير الشعوب بالنصر أحيانا ، وتهدئة نفوسهم أحيانا أخرى ـ وكلا الموقفين لا هو كثير التكرر ولا هو ذو فعالة خطابية وقد ناب الشعر عن الخطابة فى هذه المواقف ـ وهو أليق بحال الدولة المترفة ـ وكان المتشيعون من الشعراء والكتاب يخفون تشيعهم فلا يظهرونه إلا فى ظروف مناسبة .

وكان العصر عصر علم غرست بذوره من قبل وأورق وأثمر فى هذا العهد . واستفاد الشعر من هذه الوثبة العلمية كثيرا . واستفادت أيضا الخطابة فى بعض جوانبها دون بعض . وتنفس النهج الخطابي ـ وهو أسلوب الإقناع والاستمالة فى جوانب أخرى أهمها المناظرات فاستفادت الخطابة أيضا من حركة العلم التى ظهرت فى هذا العصر .





أقسام الخطابة

قدمنا من قبل أن الخطابة أنواع منها السياسية ومنها الدينية ومنها خطب المحافل .... ويلحق بالخطابة المناظرات والأجوبة ، ومنها وعظ النساك وكلام الزهاد والمتصوفة . وما قدمناه عن الخطابة إنما هو حكم عام يصف الخطابة السياسية أكثر من غيرها . ويحسن أن نعرض هذه الأقسام عرضا تفصيليا يتناول فى إيجاز كل قسم على حدة .

(أ) الخطبة السياسية

من ناحية النشاط والكثرة راجت الخطبة السياسية أول قيام الدولة على ما سبق أن ذكرنا ، وكان هذا النشاط محدود الزمن جدًّا ، حتى يمكن أن نقول إنه بعد أبى جعفر المنصور – ثانى خلفاء هذه الدولة وقتله أبا مسلم الخراسانى لم يبق مجال واسع للخطبة السياسية . وشغل كل من المهتدى والهادى بالقضاء على الزنادقة والخوارج . وبدرت بعض الثورات من جانب الأمويين الباقين بعد كل الذى نالهم من القتل والإفناء ، ولكنها كانت حركة طفيفة قضى عليها بسرعة ، ولم يكن فى كل هذه المواقف ما يدعو إلى تنشيط الخطابة أو استمرار نشاطها ، وظلت هناك عوامل انشقاق داخلى فى البيت العباسى حول تولى الخلافة ، ولكنها لم تثر حركة خطابية أيضًا .

أما عناصر الخطبة السياسية فى هذه المدة القصيرة ، فكانت تدور حول حق العباسيين فى الخلافة دون سواهم . وكانت تبالغ فى النيل من بنى أمية وتجسم مساويهم ، وتوضح أنهم كانوا عبئًا ثقيلاً على عاتق الأمة ، وأنهم خرجوا عن حدود الدين وهدموا قواعده ، وأساءوا حكم الرعية ، ومن هنا يثبت لبنى العباس فضل استنقاذ الأمة من هذا البلاء وتخليصها من ظلم الأمويين وأطال العباسيون الضرب على نغمة خاصة هى قرابتهم من رسول الله (ﷺ) وأحقيتهم بوراثته فى إقامة الدين ودعوة الناس إليه ، وأن بنى أمية ليس لهم فضل فى الذود عن الإسلام ، بل هم كانوا أعداءه ومحاربى رسول الله (ﷺ) والمحرضين على قتله ، وقد ظلموا فى الجاهلية وظلموا فى الإسلام ، وكان توليهم الخلافة ظلمًا لا حجة له وهى الآن عادت إلى ذويها ومن هى حق ثابت لهم .

وإزاء العلويين وأنصارهم نفى العباسيون عنهم هذا الحق لأنهم يمتون إلى النبى بصلة ليست قوية كصلتهم به – فهم ينتمون إما إلى ابنته فاطمة وهى فى الميراث من ذوات

الأرحام والعباس عمه من ذوى العصبة . وإما إلى على بن أبى طالب وهو ابن عم يحجبه العم عن الميراث . وهذه الحجة أطال فيها الشعراء الذين ينتمون إلى البيت الحاكم ، وكان الخلفاء يستريحون لهذا النهج ويعجبون به .

ولم يفعل العلويون أن يردوا على ذلك بأن الدعوة قامت بجهاد على وأنه كان من أوائل المسلمين . وأن من أبناء الحسن والحسين من ينتمى إلى رسول الله مِنْ قِبَلِ أبيه ومِنْ قِبَل أمه معًا . فقد ولده رسول الله (ﷺ) مرتين . وهناك مكاتبات بين محمد بن عبد الله بن الحسن المسمى بالنفس الزكية . وبين أبى جعفر المنصور تصور وجهة نظرهما وحجة كل منهما على صاحبه وفرّع العباسيون من فكرتهم عنصرًا آخر . وهو أن الخلافة قد أصبحت لهم حقًّا إلهيًّا ، وأن من نازعهم هذا الحق فقد خرج عن قانون الدين وحارب الله ورسوله . وبذلك يستحق القتل ويهدر دمه ، وقد قدمنا خطبة أبى جعفر بعد أن قتل أبا مسلم[1] وفيها تأكيد هذا الحق . وفيها أن الله ينصرهم بإطلاعهم على ما يدبر لهم لأنهم حماة دينه ورافعو كلمته .

أما عبارة الخطبة فإنها كانت على ما هى عليه من القوة والفصاحة وكانت تكثر الاقتباس والاستشهاد بآى القرآن الكريم حتى لتجد الخطبة أحيانًا آيات قرآنية ليس بها من كلام الخطيب إلا ما يربط بين هذه الآيات .

وكان من الطبيعى أن تتنوع هذه الخطب وتختلف باختلاف القوم الذين تلقى عليهم . فخطب أهل العراق دون خطب أهل الشام فى وعيدها وتهديدها ، لأن أهل العراق وإن كانوا قد قاموا بالدعوة لعلى . كانوا ساخطين على بنى أمية كارهين حكمهم . وهم قد حصلوا على جانب مما كانوا يريدون وإن لم يحصلوا على كل ما كانوا يريدونه .

أما أهل الشام ــ وخصوصًا أهل دمشق ــ فهم عيبة بنى أمية وأنصارهم المخصلون ، فهؤلاء لا تجدى فيهم الاستمالة ، ومهما ذكر الخطيب من أخطاء الأمويين وعيوبهم فلن يلفت قلوب هؤلاء عنهم . لذلك كان لا بد من التهديد والإرهاب وللعباسيين خطبٌ فيهم لا تكاد تختلف عن خطب الحجاج وزياد فى أهل العراق .

❋❋❋❋❋❋

(١) انظر ص ٢٦ .

وأول خطبة لخلفاء العباسيين خطبة **أبي العباس السفاح** بالكوفة عقب مبايعته بالخلافة ، صعد المنبر إلى أعلاه وصعد معه عمه داود بن علي وجلس دونه . فألقى السفاح خطبة طويلة جاء فيها :

.... الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمة [1] . وشرفه وعظمه . واختاره لنا [2] . وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه . والقُوَّامَ به والذَّابِّينَ عنه . والناصرين له . وألزمنا كلمة التقوى . وجعلنا أحق بها وأهلها [3] . وخصنا برحم رسول الله وقرابته . أنشأنا من آبائه . وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته [4] . جعله من أنفسنا عزيزًا عليه ما عنتنا . حريصًا علينا بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا . ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع . وأنزل بذلك [5] على أهل الإسلام كتابًا يتلى . فقال عز من قائل : فيما أنزل من محكم القرآن : «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا » [6] . وقال لا أسالكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى [7] » وقال : «وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى » [8] . وقال واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى » [9] . فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفىء والغنيمة نصيبنا . تكرمة لنا وفضلاً علينا . والله ذو الفضل العظيم .

وزعمت السبئية [10] الضلال أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا . فشاهت وجوههم ! بِمَ وَلِمَ أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبَصَّرهم بعد جهالتهم وَأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ودحض بنا الباطل . وأصلح بنا منهم

(١) كرم الله الإسلام بارتضائه دينا باقيا للناس .
(٢) هذا وما بعده تعريض ببنى أمية .
(٣) تلويح أيضا بأهليتهم للخلافة واستحقاقها دون غيرهم .
(٤) تعريض بالعلويين .
(٥) انزل بوضعهم الموضع الرفيع هذه الآيات الآتية .
(٦) سورة الأحزاب /٣٣ .
(٧) الشورى آية ٢٣ .
(٨) الحشر ٧ .
(٩) الأنفال ٤١ .
(١٠) يريد أنصار العلويين ، ويروى أيضا الشامية أى أنصار بنى أمية .

ما كان فاسداً ، ورفع بنا الحنسيسة الدنيئة[1] وأتم بنا النقيصة وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومواساة فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم .

فتح الله ذلك منةً ومنحة لمحمد (ﷺ) . فلما قبضه الله إليه قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم فحووا مواريث الأمم[2] . فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها وخرجوا خمَاصا منها ، ثمَّ وَثَبَ بنوحرب ومروان ، فابتزوها وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها واستأثروا بها وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حينًا حتى آسفوه[3] ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا وولى نصرنا والقيام بأمرنا ، لِيَمُنَّ بنا على الذين استُضْعِفُوا فى الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا .

وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا ـ أهل البيت ـ إلا بالله .

يا أهل الكوفة : أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير .

وكان موعوكًا فجلس .

تحليل هذه الخطبة

أطال أبو العباس فى مقدمة خطبته ولكن المقدمة ليست بعيدة عن غرض الخطبة ، فقد حرص فيها على إدماج نفسه وأسرته فى رسول الله (ﷺ) وأكد أنهم آل بيته ، وأنهم حماة الإسلام والمدافعون عنه ، وهذا يعنى أن حربهم بنى أمية إنما هو دفاع عن رسالة رسول الله والدين الإسلامى ، ثم جعل كل ثناء على رسول الله (ﷺ) إنما هو ثناء عليهم لأنهم «نبت من شجرته واشتقاق من نبعته» ـ وكل هذا يوحى بوجوب طاعتهم والوقوف فى صفهم ضد أعدائهم أيًا كانوا .

---

(١) الأعمال والخلال الساقطة .

(٢) استولوا على تراثهم .

(٣) أغضبوه .

وانتقل بعد المقدمة فناقش السبئية ـ أنصار عبد الله بن سبأ ـ الذى دعا لنصر الإمام على وخلع عليه صفات الألوهية ، وجعل بنيه يحملون شيئًا من هذه الصفات . والسبئية معروفة لم يذكر هو مذهبهم ولكنه ناقشهم وبين أن ماجاء به رسول الله من إصلاحات لهم وحدهم شرفه والفخر به ، وذكر أن الخلفاء الراشدين قاموا على شريعته من بعده حتى عهد معاوية ، ـ وفى ذكر قيام الصحابة بعد رسول الله (ﷺ) على شريعته إيحاء بأن بنى العباس ارتضوا حكومتهم لهذه الاستقامة وأنهم غضبوا على بنى أمية لخروجهم عن طريقته (ﷺ) .

وفى حديثه عن بنى أمية بيَّن أنهم أغضبوا الله بعصيانهم فانتقم منهم ببنى العباس وجعلهم ناصرى الحق وعاملين على إعادة حقوق الأمة التى سلبت . فقيامهم إذن لأجل الأمة ونصر لها .

وختم الخطبة بتأكيد المودة بينهم وبين أهل الكوفة ـ الذين تلق فيهم الخطبة ومناهم بالسعادة على أيديهم . وأعلن زيادته عطاءهم .

وهى خطبة متكاملة الأجزاء متلائمة مع الغرض الذى سيقت له .

أما كلمة السفاح المبيح التى جاءت فى ختام الخطبة . فقيل هى من سفح الدماء وإباحة المحرمات أو المصونات . وجاء فى بعض رواياتها ـ المنيح ـ بدل المبيح . أى الذى يجعل الناس ينوحون . وقيل هى من سفح الماء بمعنى كثرة الجودة والعطاء الذى يبيح ماله للطالبين وقيل تسميته السفاح لهذا من العطاء لا من سفك الدماء . ـ أما الثائر المبير ـ أى المهلك ـ فهى تهديد خفيف وليس موجهًا إلى أهل الكوفة وإنما هو مشجع لهم ..

وانظر هذه الخطبة فى الطبرى ٧/٤٢٥ ط بيروت .

خطبة داود بن على

كان السفاح يشكو وعكة فلم يستطع أن يطيل خطبته السابقة أكثر مما جاء فيها . إذ اشتدت عليه وعكته فجلس . وقام عمه داود فألقى هذه الخطبة :

الحمد لله ـ شكرًا شكرًا شكرًا . الذى أهلك عدونا . وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد (ﷺ) .

أيها الناس :

الآن أقشعت[١] حنادس[٢] الدنيا وانكشف غطاؤها . وأشرقت أرضها وسماؤها . وطلعت الشمس من مطلعها[٣] . وبزغ القمر من مبزغه . وأخذ القوس باريها[٤] . وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه فى أهل بيت نبيكم أهل الرأفة والرحمة والعطف عليكم .

أيها الناس : إنا والله ماخرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجينا ولا عقيانا[٥] . ولا نحفر نهرًا ولا نبنى قصرًا . وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا . والغضب لبنى عمنا . وما كَرَبنا[٦] من أموركم . وبهظنا من شئونكم . ولقد كانت أموركم ترمضنا[٧] ونحن على فرشنا . ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم . وخرقهم بكم واستذلالهم لكم . واستئثارهم بفيئكم . وصدقاتكم ومغانمكم عليكم .

لكم ذمة الله تبارك وتعالى وذمة رسول الله ـ (ﷺ) ـ وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله . ونعمل فيكم بكتاب الله . ونسير فى العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله ـ (ﷺ) .

تبًا تبًا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان . آثروا فى مُدَّتِهم وعصرهم العاجلة على الآجلة . والدار الفانية على الدار الباقية . فركبوا الآثام . وظلموا الأنام . وانتهكوا المحارم ...... ومرحوا فى أعنة المعاصر ، وركضو فى ميادين الغى ..... فأتاهم بأس الله بياتًا وهم نائمون : فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ....

أيها الناس

إن أمير المؤمنين ـ نصره الله نصرًا عزيزًا ـ إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة . إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره . وإنما قطعه عن الكلام بعد أن اسحنفر فيه[٨] شدة الوعك . فادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية . فقد أبْدلكم الله بمروان عدوِّ الرحمن

---

(١) ذهبت وتجلت . (٢) ظلمات .

(٣) يريد بذلك : استقرت الأمور وصار كل شىء فى وضعه .

(٤) برى القوس : إعدادها وإصلاحها . ومن لا يحسن بريها يتلفلها ـ والجملة مثل لوضع الشىء بيد الخبير به .

(٥) اللجين الفضة والعقيان الذهب .

(٦) أحزننا وأنزل الكرب علينا .

(٧) تحرقنا . (٨) اتسع فيه .

وخليفة الشيطان ... الشاب المتكهل (١) المتمهل المقتدى بسلفه الأبرار.

«فعج الناس له بالدعاء»

يا أهل الكوفة! إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا وأفلح حجتنا، ...... فأظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيَّض به وجوهكم وأدالكم على أهل الشام.. ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة وأعطاه حسن الإيالة (٢). فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا ولا تُخْدعُوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم. فإن لكل أهل بيت مصرا، وإنكم مصرُنا، ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله (ﷺ) إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد (وأشار بيده إلى أبي العباس، فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم (ﷺ).

الحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولادنا (٣).

هذه الخطبة كما ترى تجرى على نسق الخطبة الأولى من الإزراء على بنى أمية والتنديد بسوء سيرتهم، وقد نفى أن يكونوا قاموا بهذه الحركة لمنفعة لهم، وإنما طالبوا بحق مسلوب وغضبوا لظلم ساد فى الأمة. وقد استمال أهل الكوفة بذكره ماكان يساور بنى العباس من حزن إزاء ظلم الأمويين لهم، وأكد أن ثورتهم ليست إلا لإنصافهم ورفع الظلم عنهم، فهى ثورتهم، ووعد بأن حكومتهم ستكون حكومة إسلامية، ولهذا يجب عليهم طاعتها، وأكد قوة الصلة بينهم، وخلال الخطبة كلها شاع تأكيد أنهم من آل البيت وأنهم أبناء رسول الله (ﷺ) وعشيرته. وختم خطبته بتأكيد أن الأمر مستقر لهم إلى قيام الساعة.

خطبة للسفاح فى أهل الشام

حمد الله تعالى وأثنى عليه، وصلى على نبيه، ثم ذكر قتل مروان بن محمد ثم قال:

«... ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار، جهنم يصلونها

---

(١) الذى له رأى الكهول وأناتهم. (٢) المآل والعاقبة.

(٣) نحمده على البلاء الذى عانيناه فصبرنا، وعلى ما منحنا من أمر الخلافة.

وبئس القرار[١] . نكص بكم يا أهل الشام آل حرب وآل مروان ، يتسكعون بكم الظلم[٢] ، ويتهورون بكم مداحض الزلق[٣] ، يطأون بكم حرم الله وحرم رسوله[٤] ، . ماذا يقول زعماؤكم غدًا ؟ ... يقولون : « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابًا ضعفًا من النار إذًا يقول الله عز وجل : لكل ضعف ولكن لا تعلمون[٥] .

أما أمير المؤمنين[٦] فقد ائتنف[٧] بكم التوبة ، واغتفر لكم الزلة ، وبسط لكم الإقالة[٨] ، وعاد بفضله على نقصكم[٩] ، وبحلمه على جهلكم ، فليفرخ رُوعكم[١٠] ولتطمئن به داركم ، ولتعظكم مصارع أوائلكم[١١] ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا[١٢] .

ألقى السفاح هذه الخطبة فى أهل الشام بعد مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، وهذا الجزء على قصره يوضح سياسته . ذكر أولا ضلال هذه الدولة من أول حاكم فيها ـ فذكر آل حرب وآل مروان ، وبدأ حديثه باختيار آية تدل على أنهم ضلوا وأضلوا معهم قومهم ، ثم أتبعها بما يؤكد معناها ، ثم ذكر آية أخرى تفيد أن أتباع الضالين لا ينجون من العذاب ، لأنهم انقادوا لهم فى ارتكاب الضلال ، وبهذا أثبت أنهم يستحقون العقوبة ، وهو بهذا أخافهم وأشعرهم بأنهم قد ينزل بهم مثل ما نزل بقادتهم من العذاب أو القتل ، ولكنه انتقل من هذا إلى أنه سامحهم ويريد أن يبدأ معهم عهدًا جديدًا يتناسى فيه كل ما كان منهم ـ وختم حديثه بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل ببنى أمية ، وطلب أن يكون لهم من ذهابهم عظة ، فإنهم ما أصابهم الهلاك إلا بسبب ظلمهم ـ واقتبس آية دالة على ذلك .

---

(١) آل حرب معاوية ويزيد لأنهما من أبى سفيان بن حرب ، وبعد معاوية الثانى تحولت الخلافة إلى مروان بن الحكم وبنيه وظلت فيهم إلى نهاية الدولة فهؤلاء آل مروان .

(٢) التسكع التمادى فى الباطل ، ويتسكعون بكم الظلم ـ يتمادون فى قيادتكم إلى خوضه .

(٣) يرقعونكم فى الأماكن التى تزل فيها الأقدام ـ من تهور بمعنى وقع وسقط ، ودحض بمعنى زلق .

(٤) يخوضون بكم ما حرمه الله عليكم .

(٥) سورة الاعراف الآية ٣٨ فى وصف أهل النار ـ وأول الاية « قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الجِنِ والإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخلَتْ أُمَّة لعنتْ أُخْتَها حَتىَّ إذَا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهُمْ لأُولاهُمْ رَبنا ... » .

(٦) يعنى نفسه .

(٧) استأنفها وجددها .

(٨) العفو والمسامحة .

(٩) تفضل عليكم بالعفو فيما كان منكم .

(١٠) يقال أفرخ روعه : بمعنى ذهب خوفه وهدأت نفسه .

(١١) يريد مصارع بنى أمية .

(١٢) الآية ٥٢ سورة النمل .

خطب لأبي جعفر المنصور

١ - خطبة بعد قتل الأمويين :

أحرز لسانٌ رأسه . انتبه امرؤ لحظه . نظر امرؤ فى يومه لغده . فمشى القصد[١] . وقال الفَصل . وجانب الهُجْر[٢] .

[ثم أخذ بقائم سيفه وقال]

أيها الناس : إن بكم داءً هذا دواؤه . وأنا زعيم[٣] لكم بشفائه . فليعتبر عبد قبل أن يعتبر به . فإنما بعد الوعيد الإيقاع[٤] . وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله[٥] .

هذا جزء من خطبة . وخطب المنصور فى جملتها قصيرة . وهذه الخطبة كلها تهديد وتحذير للناس أن يتناقلوا بينهم كلمات السوء . إن الدولة فى أول قيامها تحتاج إلى دعاية حسنة . ويضيرها أن يشيع عنها أى سوء . وهى مع ذلك عرضة للتقول وتجسيم المساوىء الضئيلة من أعدائها . وهو يوضح أن هذه الأراجيف قد تكون كذبًا . وأن من مشى بقالة السوء عنهم فسيقتل . ولهذا أشار بسيفه مبالغة فى الإرهاب والإخافة .

٢ - خطبة له بالشام :

شنشنة أعرفها من أخزم[٦] .

من يلق أبطال الرجال يكلم[٧] .

---

(١) هذه كلها صيغ خبرية يفهم منها الأمر . أى ليحرز كل لسان رأس صاحبه . فرب كلمة تسبب قتله . ولينتبه كل شخص لمصيره . والجد الحظ . وجملة فمشى القصد خبرية مترتبه على ما قبلها . أى من فعل ذلك فقد مشى القصد . والقصد الاستقامة .

(٢) الفحش .

(٣) كفيل وضامن .

(٤) إنزال العذاب .

(٥) الآية ١٠٥ من سورة النحل .

(٦) مثل عربى . جاء على لسان شيخ كان ابنه أخزم يعقه . ثم مات وترك أولادا عقوا جدهم فقال لهم هذا المثل .

(٧) يجرح .

مهلاً مهلاً روايا الأرجاف[1] وكهوف النفاق . عن[2] الخوض فيما كفيتم . والتخطى إلى ما حذرتم . قبل أن تتلف نفوس . ويقل عدد ويدول عز . وما أنتم وذاك؟ ألم تجدوا ما وعد ربكم من إيراث المستضعفين مشارق الأرض ومغاربها حقًّا[3] . والجحد الجحد . . ولكن خبٌّ كامنٌ . وحسدٌ مكْمدٌ . فبعدا للقوم الظالمين .

٣ ــ من خطبة له بمكة

..... أيها الناس .

إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده . وحارسه على ماله ! أعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلا . إذا شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم . وقسم أرزاقكم . وإذا شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى . فارغبوا إلى الله وسلوه فى هذا اليوم الشريف الذى وهب لكم من فضله ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » أن يوفقنى للرشاد والصواب . وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وهذه الخطبة ــ كما هو واضح ــ تختلف عن الخطبتين السابقتين . فهى لا تهدد ولا تتوعد . لأن أهل مكة لم يكونوا أمويين . بل لعلهم فرحوا بذهابهم . ولكنه مناهم بأن يعطيهم . وسوغ هذا العطاء بأنه سلطان الله فى أرضه . وأنه يعمل بهديه وتوفيقه فإذا أعطاهم فإنما هو عطاء من الله . وسمى يوم انتصارهم يوما شريفا . لأنه أزيل فيه باطل وقام حق وتمت نعمة من الله عليهم . ومن أول الخطبة أثبت حقه الإلهى وأن سلطانه سلطان الله فى أرضه .

---

(١) الاشاعات الكاذبة .

(٢) متعلق بكلمة مهلا . أى أمهلوا وكفوا عن الخوض .

(٣) إن الله صدق وعده فأورث بنى العباس هذا الملك بعد استيلاء بنى أمية عليه. ومن خرج عليهم فسيذله الله كما أذل أعداء العباسيين الآخرين .

من خطبة لسليمان بن على

.... «ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين»[١] ـ قضاء مبرم[٢] . وقول فصل ما هو بالهزل .[٣]

الحمد لله صدق عبده ، وأنجز وعده ، وبعدا[٤] للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضًا[٥] . والفىء إرثا . والدين هزؤا . وجعلوا القرآن عضين . لقد حاق[٦] بهم ما كانوا به يستهزئون . فكأين[٧] ترى من بئر معطلة وقصر مشيد . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد[٨] . أمهلوا حتى نبذوا الكتاب . واضطهدوا العترة[٩] . ونبذوا السنة . واعتدوا واستكبروا . وخاب كل جبار عنيد[١٠] . ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزًا[١١] .

مقاومة العلويين

ظل العلويون يقاومون سرًّا وجهرا أحيانا أخرى ، وقد أذاقهم العباسيون ألوانا عنيفة من العذاب . وقتلوا بعضا منهم بطرق بشعة وقد وضحت ذلك كتب التاريخ . ويكفى أن نشير الى محمد بن عبد الله بن الحسن النفس الزكية وأخيه إبرهيم . وقد قتلهما المنصور سنة ١٤٥ هـ ، ثم الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ، وقد قتل بفخ سنة ١٦٩ هـ ،

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ .

(٢) يريد ما جاء فى الآية من توريث الأرض للصالحين أمر ثابت .

(٣) اقتباس من آخر سورة الطارق .

(٤) هلاكا ـ وهو يريد بنى أمية .

(٥) يعرض برميهم الكعبة بالمجانيق حين حصارهم ابن الزبير .

(٦) أهلكهم وذهب بهم ـ وهو اقتباس قرآنى .

(٧) كثير ما نرى . وهو اقتباس من سورة الحج/٤٥ .

(٨) من سورة آل عمران/ ١٨٢ .

(٩) عترة الرجل نسله وأهله الأدنون ـ يريد آل رسول الله ﷺ .

(١٠) من سورة إبرهيم/١٥ .

(١١) من سورة مريم ٩٨ والركز الصوت الخفى .

ثم يحيى بن عبد الله وأخيه إدريس . وكان يحيى قد تحصن بالديلم فمازال الرشيد يستميله وكتب له أمانا حتى أمن وقدم بغداد فاستقبله الرشيد بكثير من الحفاوة ثم نقض عهده وقتله . وأما إدريس ففر إلى المغرب وكون حزبا أرهب الرشيد . ولم يجد مجالا لحربه ولا لخديعته بعد خيانة أخيه . فدس له رجلا سقاه السم ومات ١٧٧ هـ . ولم يكن له عقب ولكن كانت له أمة بها حمل فأنجبت غلاما سمى ادريس . وتريث به أتباع أبيه حتى نما فاتخذوه إماما . وقامت حوله ثانيا دولة الأدارسة فى عهد الرشيد نفسه .

ولم يكن هذا كل ما بقى للعلويين . فقد كان هناك فرع آخر من أولاد وأتباع جعفر الصادق وله تاريخه المعروف . وكان الناس على تتابع السنين يرون أن بنى على قد ظلموا من الحكومات ومن الأتباع على السواء . وكان ذلك يزيدهم تعلقا بهم والتفافا حول من بقى منهم . وقد دفعهم هذا التعلق إلى إضافة صفات لهم وكرامات وأيضا وضع أحاديث ، ورغم ما كان بيد العباسيين من قوة ومال كان للشيعة شعراؤهم الذين يطالبون بحقهم . ومن أشهر هؤلاء دعبل الخزاعى . والسيد الحميرى . وكان ابن الرومى الشاعر البائس الحر يتشيع ويكتم تشيعه حتى نم عن مذهبه ببعض قصائده .

هذا النهج يوضح أن الدولة كانت دولة شعر ولم تكن دولة خطابة وأن الشعراء فى هذا الموقف هم الذين قاموا بما كانت تقوم به الخطابة فى عهد على بن أبى طالب وعهد الأمويين .

فإذا رجعنا إلى عهد المنصور . ومقاومته محمدًا وإبرهيم ابنى عبد الله نجد الخطابة ليست ذات مظهر بارز . ونجد الكتابة شاركت الخطابة .

ندب المنصور عمه عيسى بن موسى ، ـ وكان أيضا ولى عهده ـ إلى حرب محمد بن عبد الله النفس الزكية . وكان قد تغلب على مكة والمدينة وأقام بالمدينة . فلا نجد أيًّا منهما يعتمد على الخطابة . أما عيسى فقد أرسل إلى أهل المدينة كتبا يمنيهم فيها الأمانى الطيبة فخدعهم وفرق الكثيرين منهم عن خصمه . وأما محمد فألقى فى قومه خطبة لم يكن الغرض الأساسى منها تحميسهم ولا دفعهم للقتال وإنما كان يختبرهم بها . وكان من أثرها أن تسلل أكثرهم وبقى أقلهم . وكانوا اختلفوا فيما بينهم أيقيمون بالمدينة أم يخرجون لعدوهم خارجها . وجاء فى هذه الخطبة :

يا أيها الناس

إنا قد جمعناكم للقتال . وأخذنا عليكم المناقب . وإن هذا العدو منكم قريب .

وهو عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده ، وإنه قد بدا لى أن آذن لكم وأفرج عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن .. » .

والخطبة ـ كما ترى ـ ليست تشجيعا على الحرب ، وإنما هى استشارة واستطلاع رأى ، وكان هذا التهافت فيها خليقا أن يفرق الناس عنه ،

وقد حاول المنصور استمالة محمد هذا فبعث إليه برسالة لم تدع لها فى نفسه أثرا . وتبادلا الرسائل فى غير طائل ، وهى توضح وجهة نظر كل منهما فى استحقاق الخلافة .

(أ) من أبى جعفر إلى محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله .

«إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلّبوا ، أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم[1] » ولك على عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم إن تبت ورجعت أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم ومال[2] ، وأعطيك ألف ألف درهم ، وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأن أطلق من فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاء معك وبايعك واتبعك أو دخل معك فى شىء من أمرك .

فان أردت ان تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ماتثق به ..

---

(١) سورة المائدة ٣٣ .

(٢) أسامحك وأدع لك ما أخذت .

(ب) من محمد النفس الزكية إلى أبي جعفر

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله . إلى عبد الله بن محمد .

« طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم . يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين [١] » . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض . ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون » . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على .

ان هذا الحق حقنا . وانما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا [٢] . وحظيتم بفضلنا . وإن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا ، وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء . ولا الطلقاء [٣] . وليس يمت أحد من بنى هاشم مثل الذى نمت من القرابة والسابقة والفضل . وأنا بنو أم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية [٤] .

وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختار لنا . فوالدنا من النبيين محمد (صلى الله عليه وسلم) ومن السلف أولهم إسلاما على ومن الأزواج أفضلهم خديجة الطاهرة . وأول من صلى القبلة . ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة . ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشما ولد عليا مرتين [٥] . وإن عبد المطلب ولد حسنا [٦] مرتين . وإن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولدنى مرتين من قبل الحسن والحسين . وإنى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا . لم تعرق فى العجم . ولم تنازع فى أمهات الأولاد . [٧] فمازال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام حتى اختار لى فى النار . فأنا ابن أرفع الناس درجة فى

---

(١) سورة القصص/ ٣ .

(٢) يريد الخراسانيين .

(٣) يريد باللعين الطريد الحكم ، وبالطليق أبا سفيان .

(٤) أم على بن أبي طالب .

(٥) من قبل أبيه ومن قبل أمه .

(٦) خص الحسن بالذكر لأنه جده الأعلى .

(٧) يشير إلى أن أبا جعفر من أولاد الإماء الأعاجم .

الجنة . وأهونهم عذابا فى النار [١] . وأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار . وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار .

ولك على عهد الله إن دخلت فى طاعتى . وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك . وعلى كل امر أحدثته إلا حدًّا من حدود الله . أو حقا لمسلم أو معاهد فقد علمت ما يلزمك من ذلك . وأنا أولى بالأمر منك . وأوفى بالعهد . لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى . فأى الأمان تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة . أم أمان عمك عبد الله بن على . أم أمان أبى مسلم ؟ [٢] .

(جـ) من أبى جعفر المنصور إلى محمد النفس الزكية

بسم الله الرحمن الرحيم

..... اما بعد فقد بلغنى كلامك . وقرأت كتابك . فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء . ولا كالعصبة والأولياء . لأن الله جعل العم أبا وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا . ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن . كانت آمنة أقربهن رحما . وأعظمهن حقا . وأول من يدخل الجنة غدا . ولكن اختيار الله لخلقه على علمه لما مضى منهم . واصطفائه لهم .

أما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها . فإن الله لم يرزق أحدا من ولدها الإسلام لا بنتا ولا ابنا . ولو أن أحدا رزق الإسلام بالقرابة رزقه الله عبد الله . أو لاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة . ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء . قال الله عز وجل : «إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» .

ولقد بعث الله تعالى محمدا وله عمومة أربعة . فأنزل الله ــ عز وجل ــ : وانذر عشيرتك الأقربين» فأنذرهم ودعاهم فأجاب اثنان أحدهما أبى . وأبى اثنان أحدهما أبوك . فقطع الله ولايتهما منه . ولم يجعل بينه وبينهما إلاًّ ولا ذمة ولا ميراثا . وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا وابن خير الأشرار . وليس فى الشر خيار . ولا ينبغى

---

(١) يشير إلى أبى طالب .

(٢) معروف أن هؤلاء جميعا غدر بهم وقتلوا .

لمؤمن بالله أن يفخر بالنار ، وسترد لنعلم : وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

وأما ما فخرت من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب الا مرة ، وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أمًّا وأبًا ، وأنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا .....

فخرت على من هو خير منك نفسا وأبا وأولا وآخرا ابرهيم ابن رسول الله (ﷺ) ... وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد .

وما ولد فيكم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أفضل من على بن الحسين ، وهو لأم ولده ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وماكان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن على وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل أبيه جعفر ، وجدته أم ولد ، ولهو خير منك .

وأما قولك انكم بنو رسول الله (ﷺ) فإن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه : ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ولا يجوز لها ، الإمامة ، فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهارًا ، ومرَّضها سرا ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس الا الشيخين وتفضيلها ولقد جاء فى السنة التى لا خلاف فيها بين المسلمين ، ان الجد أبا الأم والخال والخالة ، لا يرثونه .

وأما ما فخرت به من على وسابقته ، فقد حضرت رسول الله (ﷺ) الوفاة فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ، ولم يروا له حقا فيها ، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ...... ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ... فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه .

ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبي ـ (ﷺ) غيره ، فكان وارثه من عمومته ، ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم يرضوا إلا ولده ،

فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافه فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه .

أما ما ذكرت من أهل بدر فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، .... ولولا أن العباس أخرج الى بدر كرها لمات طالب وعقيل جوعا ، وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه (العباس) كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسغبة ، وكفاكم النفقة والمؤنة ، ثم فدى عقيلا يوم بدر...

قد أعناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدركوا لأنفسكم .

ويتضح من هذه الأحاديث رجوع القوم إلى عصبيات حرمها الإسلام وفخر بالآباء للاحتجاج به ، وإذا رجعت إلى المحاورات التى دارت بين على بن أبى طالب ومعاوية وجدت حديثا لكل منهما عن أبيه وقبيلته وأدركت الفرق بين الحوارين .



الخطـابة الدينيـة

لم ينل الخطبة الدينية ما نال الخَطبة السياسية من تدهور وفتور ، ولكن طرأ عليها تغير واسع من حيث طولها ومن حيث الأفكار التى تحويها ، أما بقاؤها واستمرار العناية بها فلأنها كانت حجة الحكام وسبيل سيادتهم وتثبيت أقدامهم فى الحكم ، فخلفاء بنى العباس يعتمدون دائمًا على أنهم ورثة رسول الله (ﷺ) ، ودعاة الإسلام ، ولهذا كان لابد أن يقوم الخليفة فى مقره والولاة فى الأقاليم بخطب الجمع والأعياد وغيرها من المناسبات الدينية ، وهو أمر كان جاريًا من قبل فلا سبيل إلى تركه ، وقد كانت الخطبة تتعرض للأحداث الجارية ولأعمال الحكام فتسبغ عليها لباسا دينيا ، وتذكر لها مسوغات من القرآن والسنة ، كما تتعرض لأعمال الأعداء بالزراية وتذكر من الشواهد ما يبين فسادها وخروجها عن الإسلام ، ونظرًا لقلة الأحداث وهدوء الأحوال السياسية أصبحت الخطبة دينية بحتة تعنى بالدعوة إلى استقامة السلوك والترغيب فى الجنة والترهيب من النار ، ومن ناحية الأسلوب طالت مقدماتها من صيغ التحميد لله تعالى والصلاة على نبيه . كما طالت الخطبة أيضًا عما كانت عليه فى صدر الإسلام .

وكان هناك ـ عدا الخلفاء والولاة ـ خطباء متطوعون يدعون إلى الاستقامة على الدين ويحذرون من ارتكاب المحرمات ، واشتهر من هؤلاء عدد من النساك الذين عزفوا عن متع الحياة وملذاتها وكانوا بسيرتهم وترفعهم عن دنايا الأمور ، واحتقارهم للمال وعاظا عمليين ، وكان هؤلاء ربما تطوعوا بالمواعظ يلقونها على الحكام ويجبهونهم بأخطائهم وما يؤخذ عليهم من تجاف عن روح الإسلام ، وقد رأينا مثلاً من هذا فى العهد الأموى ، وكان معاوية واسع الصدر لتقبل هذه العظات وخصوصًا ما يتصل بذكر الإمام على وعبادته وتقواه ، وكان الخلفاء ربما دعوا هؤلاء النساك ليعظوهم ، وربما أبكاهم وعظهم ، وربما كافأوهم ببعض المال ولكن هؤلاء لم يكونوا يرجون مالاً وكان الواحد منهم يتصدق بما يأخذه ولا يستبقى لنفسه شيئًا أو يستبقى ما يسد به حاجته .

وبهذا نرى الخطبة الدينية جرت فى تيارين مختلفين ـ تيار يجرى على ألسنة الرسميين وهو تقليدى غالبًا ، وتيار يجرى على ألسنة الوعاظ وأكثره يدور حول الزهد وتهوين الدنيا

وتحقير شأنها ، ولكنه كان يختلف باختلاف الوعاظ أنفسهم ودرجات ثقافتهم ومقدرتهم على صوغ الكلام ، وما يختلج فى نفس كل واحد من معان وتجارب وانفعالات .

وكان لهؤلاء مجالس وعظ يحضرها الكثيرون ، وكان لكل واحد أتباع وعشاق . ولكن حديث هؤلاء يدخل فى مجالس الوعظ والقصص .

ومنذ فجر الدولة العباسية ، وبعد الرشيد والمأمون لم يكن الخلفاء يخطبون الجمعة ويؤمون الناس كما كان يفعل الخلفاء من قبل أو حتى هؤلاء لم يكونوا يخطبون الجمع باستمرار ، ففت هذا فى نشاط الخطابة الدينية ، ولكن الوعاظ المتطوعين كانوا ذوى تأثير وبلاغة ، لأنهم كانوا مدفوعين بعامل الإخلاص وحب الدين والرغبة فى نيل المثوبة من الله .

وكان لتغلب الأتراك واستبدادهم أثر فى تنشيط النزعة الصوفية والدعوة إلى الزهد والتنفير من ماديات الحياة الدنيا ، وللصوفية آثار خطابية وعبارات زاهدة بليغة ، كما لهم أخبار وأقاصيص تكفلت بها كتب التصوف ، وإذا رجعت إلى الرسالة القشيرية وكتب التصوف الأخرى وجدت فيضًا من هذه وتلك .

ومنذ القرن الرابع نال الخطابة الدينية ركود وضعف ، ووجدت كتب أو دواوين خطب يستعملها خطباء المساجد ، واشتهر منها ديوان ابن نباته الذى ظل يحاكى بإخراج دواوين على نسقه حتى العهد الحديث وهى خطب تنظم على حسب الشهور لكل شهر أربع خطب أو خمس ، ففقدت الخطبة تأثيرها ، إذ أصبحت بعيدة عن حياة الناس .

وشعرت الخطبة الدينية بانتعاش ضئيل أيام الحروب الصليبية ولكن أسلوب الكتابة فى هذا الوقت كان مقيدا بالسجع ، ولم يكن ثم معارضة من الجانب الآخر ، فلم تظفر الخطابة الدينية بما يبعث فيها قوة كافية .

وظلت الخطبة معتمدة على الدواوين خصوصًا عهد المماليك والعهد التركى ، فلما جاء العصر الحديث انتعشت الخطابة السياسية والاجتماعية وظلت الدينية على جمودها ، ولكن ترقى أسلوبها ومنهجها بترقى الدراسة فى الأزهر ، ثم قام عدد من الجمعيات الإسلامية مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية والإخوان المسلمين ، فجعلوا للخطبة الدينية هدفًا خاصًا ومنهجًا ، ودارت كل جماعة منها فى محيطها ، فاستيقظت على أيديهم ونالها كثير من التجديد واتساع الأفق ، وإدخال جوانب اجتماعية كثيرة فيها ، ثم عادت

ثانيًا إلى الركود ، والخطبة فى الوقت الحاضر ليست على ما كان ينبغى أن تكون عليه من القوة ،

وحسبنا هذا الاستعراض العابر . ونرجع بالنماذج التى نريدها إلى العصر العباسى .

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله نحمده على نعمه . ونستعينه على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقًّا . ونتوكل عليه مفوضين إليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل . ودروس من العلم . وإدبار من الدنيا وإقبال من الآخره . بشيرًا بالنعيم المقيم ، ونذيرًا بين يدى عذاب أليم ، فبلغ الرسالة ونصح الأمة . وجاهد فى الله . فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين . فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، فإن فى التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات . وفوزًا بالجنة ونجاة من النار . وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار . وتبلى فيه الأسرار . يوم البعث ويوم التغابن . ويوم التلاقِ . ويوم التناد[1] . يوم لا يستعتب[2] من سيئة ولا يزداد من حسنة «يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور»[3] . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون[4] .

عباد الله .

إنكم لم تخلقوا عبثا ، ولن تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع[5] وصلاتكم بالزكاة . فقد جاء فى الخبر أن النبى (ﷺ) قال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له . ولا صلاة لمن لا زكاة له . إنكم سَفر[6]

---

(١) كل هذه أسماء ليوم القيامة جاءت فى القرآن الكريم .

(٢) يقال عاتبت فلانا فأعتبنى أى قبل ما عاتبته عليه وأزال ما اشكوه منه . واستعتبته طلبت أن يقبل اعتذارى له .

(٣) من سورة غافر/ ١٨ - ١٩ .

(٤) من سورة البقرة/ ٢٨١ .

(٥) التنزه عن الآثام .

(٦) مسافرون .

مجتازون وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء ، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالإنابة [1] ، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ، ومغفرته للتائبين ، وهداه للمؤمنين ـ قال الله عز وجل ـ وقوله الحق ـ «ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة» [2] ـ وقال : وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى» [3] .

وإياكم والأماني ، فقد غرت وأردت وأوبقت كثيرًا [4] ، حتى أكذبتهم مناياهم [5] فتناوشوا [6] التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون ، فأخبركم ربكم عن المثلات [7] فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال ، فرغب بالوعد وقدم إليكم الوعيد ، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالى جيلا فجيلا ، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أظهركم ، لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب ، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله ، يقول الله عز وجل : وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون [8] .

أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ـ آمركم بما أمركم الله به ، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه وأستغفر الله لى ولكم .

هذا نموذج للخطبة الدينية فى هذا العصر ، وستجد خطب الآخرين لا تخرج عن هذا النمط ـ وكلها تدور حول التذكير بالموت والحساب فى الدار الآخرة ، والتحذير من الانغماس فى الدنيا . وليس ثمت فكرة خاصة تتركز فيها الخطبة ، أو إلحاح على مبدأ معين أو عمل خاص من زكاة أو صلاة ليل .

---

(١) الخشوع والرجوع إلى الله .

(٢) من سورة الأعراف /١٥٦ . (٣) سورة طه/ ٨٢ .

(٤) أردت أوقعت فى الردى الهلاك . وأوبقت أوقعت فى الأعمال الموبقة المهلكة .

(٥) جاءهم الموت وأمانيهم لم تحقق .

(٦) تعلقوا بها وحاولوها ـ والتناوش التناول والتعاطى ، اى لم يجدوا مجالا للتوبة . وهو اقتباس من آخر سورة سبأ .

(٧) صاروا أمثالا يعتبر بها .

(٨) سورة الأعراف /٢٠٤ .

وقد كان هناك المعلمون والوعاظ فى المساجد وغيرها يدعون لمثل هذا الزهد والورع . كما كان هناك الفقهاء ومفسرو القرآن والمحدثون يتناولون الموضوعات الخاصة . وبذا أصبحت الخطبة الدينية من الخلفاء عملاً تقليديًّا قل فيه الخلاف بين خطيب وآخر .

ويلاحظ أن صيغة الحمد والشهادة فى أول الخطبة قد طالت وهى ظاهرة بدأت فجأة فى هذا الوقت ، ويوجد فى نهج البلاغة مثل هذا ولكنه مما لا يطمأن إليه ولا يقطع بنسبته للإمام على .

خطب للمأمون

١ ـ خطبة فى يوم جمعة :

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه . ومستوجبه على خلقه . أحمده وأستعينه . وأومن به . وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله وحده . والعمل لما عنده والتنجز لوعده[1] . والخوف لوعيده . فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه . وعمل له وأرضاه . فاتقوا الله عباد الله . وبادروا آجالكم بأعمالكم . وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى . وترحلوا عن الدنيا فقد جد بكم[2] . واستعدوا للموت فقد أظلكم . وكونوا كقوم صيح فيهم فانتبهوا . وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار . فاستَبْدَلُوا[3] . فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثا . ولم يتركركم سدى . وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به . وإن غاية تنقصها اللحظة . وتهدِمُها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة . وإن غائبا يحدوه الجديدان ـ الليل والنهار ـ لجدير بسرعة الأوبة[4] . وإن قادما يَحُلُّ[5] بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة . فاتقى عبد ربه . ونصح نفسه وقدم توبته . وغلب

---

(١) تنجز الوعد طلب قضاءه ـ يريد اعملوا صالحا يقض الله لكم ما وعد به من رحمة للصالحين .

(٢) جد به الأمر أو العمر بمعنى أسرع . (٣) طلبوا دارا أخرى بدلا منها .

(٤) الرجوع ـ يريد أن الناس غائبون عن دارهم الأصلية وهى الآخرة .

(٥) أى سينزل بمكان شقوة أو فوز ـ فيجب أن يهئ نفسه لمكان الفوز .

شهوته[١] . فإن أجله مستور عنه . وأمله خادع له . والشيطان موكل به . يزين له المعصية ليركبها . ويمنيه التوبة ليسوفها [٢] . حتى تهجم عليه منيته . أغفل ما يكون عنها . فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة [٣] . أو تؤدِّيه منيته إلى شقوة .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة [٤] » ولا تقصر به عن طاعة ربه غفلة . ولا تحل به بعد الموت فزعة . إنه سميع الدعاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

٢ ــ خطبة له فى عيد الفطر :

ألَا وإنَّ يوْمَكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة . يوم ختم الله به صيام شهر رمضان . وافتتح به حج بيته الحرام . فجعله أول أيام شهور الحج . وجعله معقبا لمفروض صيامكم . ومتنقل قيامكم . أحل الله لكم فيه الطعام . وحرم عليكم فيه الصيام . فاطلبوا إلى الله حوائجكم . واستغفروه لتفريطكم فإنه يقال : لا كثير مع ندم واستغفار . ولا قليل مع تماد وإصرار .

اتقوا الله عباد الله . وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم . ولم يحضر الشك فيه أحدًا منكم . وهو الموت المكتوب عليكم . فإنه لا تستقال بعده عثرة [٥] . ولا تحظر قبله توبة . واعلموا أنه لا شىء قبله إلا دونه . ولا شىء بعده إلا فوقه . ولا يعين على جزعه وعلزه[٦] وكربه . وعلى القبر وظلمته . وضيقه ووحشته . وهول مطلعه . ومسألة ملكيه[٧] . إلا العمل الصالح الذى أمر الله به . فمن زلت عند الموت قدمه . فقد ظهرت ندامته . وفاتته استقالته . ودعا من الرجعة إلى ما لا يجاب إليه . وبذل من الفدية ما لا يقبل منه .

---

(١) من فعل ذلك فقد وقى نفسه من عذاب الله . وهو ماض بمعنى الأمر . اى ليتق الله .
(٢) يرجئها ويؤجلها . (٣) الأيام التى عاشها لم يعمل فيها صالحا فأصبحت حجة عليه .
(٤) لا تحمله نعمة الله على البطر وعدم الشكر .
(٥) إقالة العثرة إصلاح خطأ سبق .
(٦) ما يصيب المحتضر من حشرجة الموت . (٧) يريد حساب الملكين فى القبر .

فالله الله عباد الله ، كونوا قوما سألوا الرجعة فأُعْطُوهَا إذ مُنِعَها الذين طلبوها . فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم ، فاحذروا ما حذركم الله . واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم ، فلينظر عبد ما يضع فى ميزانه مما يثقل به . وما يملى فى صحيفته الحافظة لما عليه وله ..

ولست أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها ، فإن كل ما بها يحذر منها . وينهى عنها . وكل ما فيها يدعو إلى غيرها . وأعظم مما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم كتاب الله لها ، والنهى عنها ، فإنه يقول : تبارك وتعالى : « فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور »[1] وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد »[2] فانتفعوا بمعرفتكم بها ..

واعلموا أن قومًا من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذرُوا مصارعها . وجانبوا خدائعها . وآثروا طاعة الله فيها . وأدركوا الجنة بما يتركون منها .

٣ ـ خطبة له فى عيد الأضحى :

إن يومكم هذا يوم أبان الله فضلَه . وأوجب تشريفه وعظم حرمته . ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله . وفدى فيه بالذبح[3] العظيم نبيه . وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر . ومقدم الأيام المعدودات من النفر[4] . يوم حرام من أيام عظام . فى شهر حرام . يوم الحج الأكبر . يوم دعا الله فيه إلى مشهده . ونزل القرآن العظيم بتعظيمه ، قال الله عز وجل : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا . وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »[5] ـ فتقربوا إلى الله فى هذا اليوم بذبائحكم . وعظموا شعائر الله . واجعلوها من طيب أموالكم . وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم[6] » .

---

(١) سورة لقمان ٣٣ .

(٢) سورة الحديد ٢٠ .

(٣) الذبح بمعنى المذبوح ، وهو مقتبس من الآية : وفديناه بذبح عظيم .

(٤) خاتم الأيام العشر الأولى من ذى الحجة وأول أيام النفر من منى .

(٥) سورة الحج/٢٧ .

(٦) الحج آية ٣٧ .

الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب ـ والحق لا الكذب . وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب . فمن نجا يومئذ فقد فاز . ومن هوى يومئذ فقد خاب . الخير كله فى الجنة . والشر كله فى النار .

هذه ثلاث خطب للمأمون . والمأمون من ذوى الثقافة والمقدرة الخطابية ولكننا نجد الخطب الثلاثة تدور حول التذكير بالآخرة والتخويف من الموت لا يميز خطبة الجمعة عن خطبة العيد إلا ما أشار به من نوع العيد . وأنه خاتم صوم أو يوم ضحية ثم يعود للتذكير بالآخرة والحساب .

وفى خطبتى العيدين جاء افتتاح بالتكبير كما جاء تكبير أثناء الخطبة وهذه ميزة تقليدية .

وخطبة الرشيد وخطب المأمون قريبة الشبه فى الأسلوب والمعانى وهذا يحدد مستوى الخطبة الدينية . وليس للذين جاءوا بعد ذلك خطب خير من هذا . وقد كان المعتصم أقرب إلى الأمية لا ثقافة له . ولم يكن الواثق أيضًا واسع الثقافة ولهذا ظلت الخطبة الدينية خطبة تقليدية .

ومن الخطب التى تبين منهج الخطبة الدينية وأسلوبها فى القرن السادس خطبة شهيرة خطبها القاضى محيى الدين بن زكى الدين [1] فى أول جمعة صليت فى بيت المقدس بعد أن فتحه صلاح الدين . وحضرها السلطان وأعيان دولته . وهى خطبة طويلة أكثر فيها الاقتباس من القرآن الكريم وعلى منهج عصره حرص فيها على السجع ما استطاع واستعمل كثيرًا من المحسنات البديعية . وقد جاء فى وصف خطبته أنه بدأها بقراءة سورة الفاتحة كلها . ثم اقتبس آيات قرآنية أولها « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين» ثم قرأ : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » ثم

---

(١) اسمه محمد بن أبى الحسن ويكنى أبا المعالى وتلقب محيى الدين . وتلقب أبوه زكى الدين . من فقهاء الشافعية المعروفين بدمشق فى عهد صلاح الدين . ومن أسرة علم وقضاء . آباؤه وأولاده من العلماء . وكان له منزلة عند السلطان . وكان له شعر جيد وخطب ورسائل . ولما ملك صلاح الدين حلب جعل له الحكم والقضاء بها . ولما فتح بيت المقدس تطاول العلماء إلى خطبة يوم الجمعة ولكن السلطان صلاح الدين جعلها إليه . وكان يوم فتحه حلب قد مدحه بقصيده جاء فيها .

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر ... مبشر بفتوح القدس فى رجب

ففتحت القدس فى رجب وكان الناس يتغنون بهذا البيت .

(انظر وفيات الأعيان حـ ٤/ ٢٢٩ وما بعدها . وحـ ٢/٣٣٢ .

«وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا» ، ثم أول سورة الكهف ثم الآية : «قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أم ما يشركون» .

فاختار آيات تبدأ بالحمد وتنفى أن يكون لله ولد ، كأنه تعرض بالصليبية المسيحية التى تجعل عيسى ابن الله ، ثم بدأ خطبته : فقال :

الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله . القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما شاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على إظهاره وإظفاره ، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره . حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربَّه . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، رافع الشك وداحض الشرك وراحض الإفك ، الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به منه إلى السموات العلا إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ، مازاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم باحسان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبًا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع ويذكر فيه اسمه ، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه وشيد بنيانه بالتمجيد ، فإنه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم ابرهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ،

ومقصد الأولياء ، ومدفن الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل به ينزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدسة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الأقصى الذى صلى فيه رسول الله (ﷺ) بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذى كرمه الله برسالته وشرفه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته ، فقال تعالى : لن يستنكف المسيح أن يكونَ عبدًا لله ولا الملائكة المقربون» . كذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيدًا : «ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون » لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم .

وهو أولى القبلتين ، وثانى المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، فلولا أنكم ممن اختاره الله ، واصطفاه من سكان بلاده لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فيها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على يديه المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه محمد (ﷺ) أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء فقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله تعالى المنة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا الأنبياء والمرسلين .

فماذا لله عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح على يديه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذين تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان فيوشك أن يفتح الله على أيديكم أمثاله ، وأن تكون التهانى لأهل الخضراء أكثر من التهانى لأهل الغبراء . أليس هو البيت الذى ذكره فى كتابه ، ونص عليه فى محكم خطابه ، ؟ فقال تعالى : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، أليس هو البيت الذى عظمته الملل وأثنت عليه الرسل وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الله

عز وجل . أليس هو البيت الذى أمسك الله تعالى لأجله الشمس على يوشع أن تغرب ؟ وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب .

فاحذروا عباد الله ، ـ بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ـ أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيمًا من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، وكالذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم ، انصروا الله ينصركم ، احفظوا الله يحفظكم .

جدوا فى حسم الداء وقلع شأفة الأعداء ، وطهروا بقية الأرض من هذه الأنجاس التى أغضبت الله ورسوله .

وتمضى الخطبة طويلة على هذا النسق ـ ترديد لهذه المعانى واقتباس من القرآن ثم ختم بهذه العبارات :

آمركم وإياى بما أمر الله به من حسن الطاعة فأطيعوه ، وأنهاكم وإياى عما نهاكم عنه من قبح المعصية فلا تعصوه ، واستغفر الله العظيم لى ولكم ولجميع المسلمين فاستغفروه .

وفى الخطبة الثانية ـ وكانت مختصرة على ما هو مألوف ـ دعا للإمام الناصر خليفة العصر ، ثم قال :

اللَّهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع والذاب عن حرمك الممانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر بيت المقدس أبى المظفر يوسف ابن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين .

ثم استمر يدعو لصلاح الدين ويثنى عليه ، ويقتبس دعوات من القرآن ، ثم دعا كما قال ابن خلكان بما جرت به العادة .

هذه الخطبة تمثل الخطابة الناضجة فى هذا العصر ، لأن صلاح الدين اختار من يراه أنبغ العلماء المتطلعين للخطابة .

كان أسلوب هذا العصر يعتمد على السجع حتى فى الكتب ، وكتاب « الفتح القسى »

يمثل مدى الحرص على هذا الالتزام ، وهذه الطريقة كما ترى فى هذه الخطبة تفقد تأثيرها فى نفوس السامعين . ثم إن الخطيب فقير جدّا فى معانيه وقد أطال فى مقدمته طولاً مملاً . وتدور الخطبة كلها على أن فتح بيت المقدس نعمة من الله وشرف لمن افتتحوه ، وزراية بالصليبية وعقيدة الصلب ، وكان يمكن أن يكون هذا الكلام فى حجم أقل من هذا . وفى عبارات دارجة وأسلوب مرسل . لكنك تشعر أن الخطيب مجهود فى بحثه عن عبارات ملائمة ، وبحثه عن نص يقتبسه أو يستشهد به ـ ثم نجد مبالغة فى مدح صلاح الدين وإطالته كان يغنى عنها بعض من العبارات المتسقة . فى إشارة أو إيجاز .





الوصايا والمفاخرات والأجوبة

الوصايا

تلحق الوصايا بالخطب لأنها إرشاد وتوجيه ، وقد تشتمل على إقناع واستمالة ، وأكثر ما تكون الوصايا من شيخ لأولاده عندما يدنو أجله ، أو من حكيم لقومه أو من والديه لابنة لهما زوجت وهمت بفراق بيت والدها إلى بيت زوجها وأكثر الوصايا فى هذه الحالة من الأم لتجربتها ، ولأن النساء أخبر بحالات النساء . ونظرًا لأن الوصية من شخص مؤتمن موثوق به لا يحتاج الموصى إلى مقدمة وتمهيد لما يقول ، كما أن الأدلة التى يسوقها لتأييد رأيه تكون غالبًا موجزة ، إذ يكفى مع هذه الثقة أن توجه الذّهن إلى سببها ، ولا داعى للإلحاح على تعميق البراهين . وأكثر الوصايا تسرد فيه صبغ الأمر سردًا متواليًا ، مع ذكر سبب موجز لاختيارها .

هذه الوصايا قديمة جدًا ، وقدمها أمر واضح ، لأن كل كبير ومجرب يعلم من دونه ممن يعنيه شأنه ، وهى فى الواقع لون من التربية والتعليم لهذا كان وجودها مع وجود كل جماعة ، وكل أسرة ، وأحيانًا تأخذ صورة الخطبة إذا كان صاحبها يلقيها على جمع من الناس .

ونورد بعضًا من هذه الوصايا جاهلية وإسلامية لنرى منها عادات القوم وأخلاقهم ، والصفات التى كانوا يرونها ضرورية أو هامة لديهم والأخرى التى يتحاشونها ويحذرون فيها . ثم نرى طريقتهم فى صوغها ووجهة نظرهم فى سوقها .

وَصَايا جَاهلية

١ ـ وصية ذى الأصبع العدوانى . وهو حرثان بن محرث سمى ذا الأصبع لأن حية نهشت إصبعه . دعا عند احتضاره ابنه أُسَيْدًا فألقى عليه هذه الوصية :

يا بنى : إن أباك قد فنى وهو حى[١] . وعاش حتى سئم العيش[٢] . وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغتُه[٣] فاحفظ عنى :

ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشىء يودوك[٤] . وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم . يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك[٥] ، وأعزز جارك . وأعن من استعان بك . وأكرم ضيفك . وأسرع النهضة فى الصريخ[٦] ، فإن لك أجلاً لا يعدوك[٧] ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئًا ، فبذلك يتم سؤددك[٨]

٢ ـ وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى .

خطب عمرو بن حجر جد امرئ القيس الشاعر بنت عوف بن مُحَلِّم ، وهو من أشراف بنى شيبان ، وكان يقال فيه : لاَحُرَّ بوادى عوف ، كناية عن شرفه وتساميه على الناس جميعًا . وابنته هذه هى التى كانت تسمى أم إياس ، فلما كان بناؤه بها . وهمت

---

(١) كبر وأدركه وهن كالموت .

(٢) مل الحياة لطولها .

(٣) صرت فى مثل منزلتى .

(٤) يجعلوك سيدا .

(٥) الحريم ما حرم فلا يمس . ويريد به هنا النساء .

(٦) الصريخ والاستصراخ الاستغاثه . ويقال أصرخه أى أجاب صراخه فأغاثه يقول : كن سريعا مهتما بمن استغاث بك .

(٧) يريد : لا تكن متهيبا خائفا من القتل . فان لك مدة معينة يوافيك فيها الموت ولا يخطئك .

(٨) السؤدد . والسُّودد : المجد .

أن ترحل معه أوصتها أمها هذه الوصية الجامعة :

أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت[١] وعشك الذى فيه درجت[٢] ، إلى رجل لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبدًا[٣] واحفظى له خصالاً عشرا ، يكن لك[٤] ذخرًا . أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة[٥] ، وحسن السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لموضع عينه وأنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلاّ أطيب ريح[٦] ، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن تواتر الجوع ملهبة[٧] ، وتنغيص النوم مغضبة[٨] . وأما السابعة والثامنة ، فالاحتراس بماله[٩] والإرعاء[١٠] على حشمه وعياله ، وملاك[١١] الأمر فى المال حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير[١٢] . وأما التاسعة والعاشرة ، فلا تعصين[١٣] له أمرًا ، ولا تفشين له سرًّا ، فإنك إن عصيت أمره أو غرت[١٤] صدره ، وإن أفشيت سره لم تأمنى غدره[١٥] ، ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتمًّا ، والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا .

---

(١) نشأت ونبت فيه .

(٢) نموت وترعرعت . تريد الذى لها به ألفة .

(٣) عامليه معاملة بها تواضع ولين يعاملك معاملة مثلها .

(٤) تكن هذه الخصال ذخيرة لك عنده . يذكرك بها وتحفظ مكانتك فى نفسه .

(٥) تريد بالخشوع الرضا والطاعة . أى أن تقنع بما يقدمه لها . ولا تطالبه بما تشمئز منه نفسه ويثقل عليه طلبه .

(٦) تأمرها بالتزين له والطيب .

(٧) تريد أنه يثير كاللهب الذى يؤلم الجسر بإحراقه .

(٨) باعث للغضب .

(٩) المحافظة على ما له وعدم التبذير فيه .

(١٠) الرعاية والمحافظة . والحشم اتباع الرجل .

(١١) ملاك الشىء روحه وصميم حياته وبقائه . وحسن التقدير وضع الشىء فى موضعه .

(١٢) حسن التصرف والتعليم .

(١٣) جملة خبرية أى أنك لا تخالفينه فيما يأمر به .

(١٤) أغضبته .

(١٥) تذهب مكانتك من نفسه . فلا يبقى على مودتك . وهذا ما أرادت بالغدر .

(١٦) إذا كان مهموما . تريد أن تشاركه فى حالاته النفسية . فتأنس نفسه إليها . وتقر محبتها فى قلبه . ــ والخطبة خلاصة تجربة امرأة عاقلة . وقد جمعت بين وصايا مادية وأخرى معنوية ولا يوصى علم النفس والتربية الحديثة بأكثر من هذا . ومن جمعت هذه الخصال العشر كانت خليقة أن تنال محبة زوجها . وكانت له نعم القرين .

وصية عامر بن الظرب[1] ابنته

زوج عامر بن الظرب ابنته من ابن أخيه ، فلما أراد تحويلها قال لأمها :

«مرى ابنتك ألا تنزل مفازة[2] إلا ومعها ماء ، فإنه للأعلى جلاء وللأسفل نقاء[3] ، ولا تكثرن مضاجعته ، فإنه إذا مل البدن مل القلب ، ولا تمنعه شهوته ، فإن الحظوة فى الموافقة[4] » .

ولم تلبث إلا شهرًا حتى عادت إليه مشجوجة .. فرد على ابن أخيه صداقه ، وخلعها ، وهى أول خلع فى العرب .

وصية أكثم بن صيفى لبنيه وقومه

.... يا بنى تميم . لا يفوتنكم وعظى إن فاتكم الدهر بنفسى ، إن بين حيزومى[5] ، وصدرى لكلامًا لا أجد له مواقع إلا أسماعكم ، ولا مقارّ إلا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية تحمدوا مغبته :

الهوى يقظان والعقل راقد[6] ، والشهوات مطلقة والحزم معقول ، والنفس مهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التوانى وترك الروية يتلف الحزم[7] ، ولن يعدم المشاور مرشدًا ،

---

(١) هو عامر بن الظرب العدوانى ــ من المعمرين يقال إنه عمر مائتى سنة ومن حكماء العرب المشهورين ، وكان يحتكم إليه ، وفيه يقول ذو الإصبع :

ومنا حكم يقضى فلا ينقض ما يقضى

ومن أقواله : « الرأى نائم والهوى يقظان فمن هناك يغلب الهوى الرأى . إن العصا قرعت لذى الحلم (انظر أمثال الميدانى فى هذا المثل .

(٢) صحراء . (٣) جمال لما ظهر من الجسم ونظافة لما استتر منه .

(٤) انظر عيون الأخبار ٧٦/١٠ وفمنا الأغانى ٥٧/٨ .

(٥) وسط الصدر وما يلف عليه الحزام .

(٦) دواعى الهوى ، وبواعث الشر تأتى تلقائيا ، ولكن التدبر والحكمة إنما تكون بعد تفكير ومحاولة .

(٧) الحزم الحكمة ، وهى تذهب بطول التباطؤ وبالإسراع وعدم التفكر .

والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل[١] . ومن سمَّع سمِّعَ به[٢] . ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ، ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا فى مقاتل الكرم[٣] . وعلى الاعتبار طريق الرشاد . ومن سلك الجدد[٤] أمن العثار ، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره . ويؤرث[٥] غيظه . ولا يجاوز مضرته نفسه .

يا بنى تميم . الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة[٦] . ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، كلم[٧] اللسام أنكى من كلم السنان . والكلمة مرهونة[٨] مالم تنجم من الفم ، فإذا نجمت فهى أسد محرَّب[٩] . أو نار تلهب ، ورأى الناصح اللبيب دليل لا يجور[١٠] ، ونفاذ الرأى فى الحرب أجدى من الطعن والضرب .

---

(١) مداحض جمع مدحض اسم مكان من دحض بمعنى زل وسقط او انحرف عن الصواب . يريد أن من يتمسك برأيه ولا يصغى للشورى ، يكون على حافة الخطأ معرضا للوقوع فيه .

(٢) من شهر بالناس وأذاع فضائحهم .

(٣) لو تدبرنا أين تكون المحنة ما وجدناها إلا فيما يمس الكرم ، وما عدا ذلك لا يستحق أن يسمى محنة .

(٤) الأرض المستوية .

(٥) يشعله كالنار .

(٦) عندما يتحلم الشخص على سفيه أو معتد يجد ذلك شيئا مرا ، ولكن تجرع هذه المرارة أهون من التسرع إلى الانتقام ثم الندم بعد ذلك .

(٧) جرح .

(٨) محبوسة .

(٩) متوثب مستعد للوثوب ، من التحريب وهو التحريش .

(١٠) هو بالزاى ، أى لا يتجاوز الحد والعدل ، وبالراء لا يظلم .

وصايا إسلامية

قدمنا أمثلة لوصايا الجاهليين فى مواقف مختلفة ، وفى العصر الإسلامى نجد وصايا كثيرة أيضًا ، ونجد الفرق واضحًا بين النوعين ، لأن وصايا الجاهليين كانت تعتمد على التجربة والفكر الشخصى بينما وصايا الإسلاميين ـ وهى لا تخلو من التجربة والخبرة . تعتمد على وصايا الإسلام وتعاليم الدين ، ولهذا تقتبس أحيانًا من القرآن الكريم والسنة النبوية ، ويكسو هياكلها روح الزهد والدعوة إلى العمل للآخرة ، وبعض هذه الوصايا مما ألقى من والد لولده أو من سابق للاحق أيًا كان ، وبعضها مكاتبات جرت بين صديقين أو غير صديقين ، وإليك نماذج منها .

١ ـ وصية أبى بكر الصديق لعمر بن الخطاب

عندما عهد أبو بكر بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب ، وهو فى مرض موته أوصاهُ وصية يبدو فيها الروح الإسلامى كأبرز ما يكون فى الوصايا . وقد جاء فيها :

.... أوصيك بتقوى الله .

إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفرائض ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة ، باتباعهم الحق مع ثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحُقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا . وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا سمعت بهم قلت إنى أخاف ألا أكون من هؤلاء . وذكر أهل النار بأقبح أعمالهم ، وأمسك عن حسناتهم ، فإذا سمعت بهم قلت أنا خير من هؤلاء . وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ، ليكون العبد راغبًا راهبًا لا يتمنى على الله غير الحق . فإذا حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من الموت ، وهو آتيك ، وإن ضَيّعت وصيتى فلا يكوننّ غائب أبغض إليك من الموت ، ولن تعجزه .

٢ ـ من علي بن أبي طالب لابنه الحسن

جاء في نهج البلاغة وصية مطولة من الإمام علي لابنه الحسن . وقد قسمها صاحب العقد الفريد ، فاقتطع منها جزءًا جعله موجهًا إلى محمد بن الحنفية . وحيث أن كتاب نهج البلاغة كله بمدرجة الشك ، وليس من السهل أن يميز فيه ما دس عليه مستقلاً أو مدسوسًا بين كلام الإمام ، فإنا نورد الوصية على ما جاء في العقد . لأنها لو جعلت جزءًا واحدًا لكانت طويلة جدًا . ولم يكن هذا العصر مما يقبل الطول في الخطب أو الوصايا ، على أن طول المقدمة في أول هذه الوصية مما لا يناسب عصر الإمام أيضًا ، ولكننا لسنا في مقام تحقيق الآثار الأدبية . وإنما يعنينا أن نقدم للخطيب مادة خطابية في تفكيرها وتعبيرها ، وهي رسالة مكتوبة لا نصيحة ملقاة :

أ ـ إلى الحسن

من علي أمير المؤمنين ... الوالد الفاني ، المقر للزمان ، المستسلم للحدثان المدبر العمر المؤمل ما لا يدرك ، السالك سبيل من هلك ، غرض الأسقام ورهينة الأيام ، وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وأسير المنايا ، وقرين الرزايا ، وصريع الشهوات ، ونصب الآفات ، وخليفة الأموات .

أما بعد يا بُني

فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني ، وإقبال الآخرة إلي ، وجموح الدهر عليّ ... ما يرغبني عن ذكر سواي . والاهتمام بما ورائي ، غير أنه حين تفرّد بي هم نفسي دون هم الناس ، فصدقني رأيي ، وصرفني عن هواي ، وصرح بي محض أمري فأفضى بي إلى جدٍّ لا يزرى به لعب ، وصدق لا يشوبه كذب ، ووجدتك يا بني بعضي ، بل وجدتك كلي ، حتى كأن شيئًا لو أصابك لأصابني ، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني ، فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي .

كتبت إليك هذا يا بني مستظهرًا به إن أنا بقيت لك أو فنيت ،

فإني موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، فإن الله تعالى يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعًا ولاتفرقوا » .

وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى إن أنت أخذت به .

أخْيِ قلبك بالموعظة ، ونوره بالحكمة ، وأمنه بالزهد ، وذلِّله بالموت ، وقوه بالغنى عن الناس ، وحَذِّره صولة الدهر ، وتقلب الأيام والليالى ، وأعرض عليه أخبار الصالحين ، وسر فى ديارهم وآثارهم ، فانظر ما فعلوا ، وأين حلوا ، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن دار الأحبة ، ونزلوا دار الغُربة ، وكأنك عن قليل يا بنى قد صرت كأحدهم ، فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع آخرتك بدنياك . ودع القوْل فيما لا تكلف ، وأمر بالمعروف بيدك ولسانك ، وانه عن المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله ، وخض الغمرات للحق ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، واحفظ وصيتى ولا تذهب عنك صفحًا ، فلا خير فى علم لا ينفع .

واعلم أن أمامك طريقًا ذا مسافة بعيدة ، أو مشقة شديدة وأنه لا غنى لك فيه عن حسن الارتياد ، مع بلاغك من الزاد ، فإن أصبت من أهل الفاقة من يحمل عنك زادك فيوافيك به فى معادك فاغتنمه ، فإن أمامك عقبة كؤودا لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً ... وإنما المحروب من حرب دينه ، والمسلوب من سلب يقينه ، واعلم أنه لا غنى يعدل الجنة ، ولا فقر يعدل النار .

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ب ـ إلى محمد بن الحنفية

...... تفقه فى الدين ، وعود نفسك الصبر على المكروه ، وكل نفسك فى أمورك كلها إلى الله عز وجل ، فإنك تكلها إلى كاف ، واخلص المسألة لربك فإن بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة له واعلم أن من كانت مطيته الليل والنهار ، فإنه يسار به وإن كان لا يسير ، فإن الله تعالى قد أبى إلا خراب الدنيا وعمارة الآخرة ، فإن قدرت أن تزهد فيها زهدك كله فافعل ..

إنك لَن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وإنك فى سبيل من كان قبلك ، فأكرم نفسك عن كل دنية ، وإن ساقتك إلى الرغائب ، فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضًا ، وإياك أن توجف بك مطايا الطمع ...... وأمسك عليك لسانك ، فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك . واحفظ ما فى الوعاء بشد الوكاء ، فحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير مع الفساد ، والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور .

اذك قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب . واعلم أن كفر النعمة لؤم وصحبة الأحمق شؤم . ومن الكرم منع الحرم . ومن حلم ساد . ومن تفهم ازداد .....

لم يهلك من اقتصد . ولم يفتقر من زهد . من ائتمن الزمان خانه . ومن تعظم عليه أهانه . رأس الدين اليقين . وتمام الإخلاص اجتناب المعاصى . وخير المقال ما صدقته الفعال ....

اقبل عذر من اعتذر إليك . وأخر الشر ما استطعت فإنك إذا شئت تعجلته . لا يكن أخوك على قطيعتك أقوى منك على صلته . وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان . لا تملكن المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها . فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة . وإن ذلك أدوم لحالها وأرخى لبالها .

أسأل الله أن يلهمك الشكر والرشد ويقويك على العمل بكل خير . ويصرف عنك كل محذور برحمته ـ والسلام عليك ورحمة الله .

٣ ـ وصية الفرافصة لابنته نائلة

وهو الفرافصة بن الأحوص بن عمرو الكلبى . كان سعيد بن العاص ـ وهو وال على الكوفة من قبل عثمان بن عفان ـ قد تزوج هند بنت الفرافصة هذا وكان نصرانيا لم يدخل الإسلام بينما أسلم أولاده . ولهذا كان ابنه ضب هو الذى يتولى تزويج بناته . فلما علم عثمان بزواج سعيد كتب إليه : بلغنى أنك تزوجت امرأة من كلب . فاكتب إلى بنسبها وجمالها . فكتب إليه : أما بعد فان نسبها أنها بنت الفرافصة بن الأحوص . وأما جمالها فإنها بيضاء مديدة » فخطب عثمان أختها نائلة . وهى التى نشرت عليه شعرها واتقت عنه ضربة السيف بيدها يوم الدار . وحين أرادوا حملها إلى عثمان أوصاها أبوها فقال : [١] .

« يابنية انك تقدمين على نساء قريش . وهن أقدر على الطيب منك . فلا تغلبى على خصلتين : الكحل والماء . تطهرى حتى يكون ريحك ريح شن أصابه المطر[٢] »

وكانت نائلة أحظى نساء عثمان عنده . وأرضاهم له .

---

(١) انظر عيون الأخبار الجزء العاشر ص ٧٦ ، وأخبار نائلة فى مختار الأغانى ٨/٥٧ .

(٢) الشّن القربة الخلق . يريد أن تكون مغتسلة دائما ، كالقربة البالية التى تنضح بالماء . فإذا أصابها مطر كانت أكثر بللا .

٤ ـ وصية العباس بن عبد المطلب لابنه عبد الله

كان عمر بن الخطاب يجل عبد الله بن عباس ، ويجلسه على صغر سنه مع كبار الصحابة ، حتى شكوا مرة من ذلك . فسألهم عمر عن سورة إذا جاء نصر الله والفتح ... « فقالوا إنها تعنى فتح مكة ، فسأل عبد الله فقال : كانت نعيا لرسول الله (ﷺ) ـ فنظر عمر إليهم ، وقال هذا ما تعني السورة ، فأصبحوا يقدرونه أيضا ، ولهذا أراد أبوه له أن يحتفظ بمكانته لدى الخليفة فأوصاه هذه الوصية ، وقد قدرها عبد الله ، وما نحسبها الا تذكرة له ، وبغير هذه الوصية ما كان يفعل شيئا غير ما أوصى به :

قال العباس لابنه :

.. يابنى ، انى أرى أمير المؤمنين قد اختصك دون من ترى من المهاجرين والأنصار ، فاحفظ عنى ثلاثا :

لا يجربن عليك كذبا ، ولا تغتب عنده مسلما ، ولا تفشين له سرًّا ، قال عبد الله : قلت يا أبة . كل واحدة منها خير من ألف ، فقال ، كل واحدة منها خير من عشرة آلاف .

٥ ـ وصية عمير بن حبيب لبنيه

عمير بن حبيب صحابي جليل ممن بايعوا تحت الشجرة ، وكان صبيا قد بلغ الحلم وأشار ابن حجر إلى هذه الوصية وذكر أولها : وهى :

« إياكم ومخالطة السفهاء فإن مجالستهم داء ، وإن من يحلم عن السفيه يسر بحلمه ، ومن يجبه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتى به السفيه ، يقر بالكثير . وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف ، أو ينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله عز وجل لا يجد مس الأذى » .

٦ - وصية قيس بن عاصم لبنيه

وهو قيس بن عاصم بن سنان المنقرى ، قيل يكنى أبا على ، وقيل يكنى أيضا أبا طلحة وأبا قبيصة . ومن حكماء العرب وممن حرم الخمر فى الجاهلية ، وفد على رسول الله (ﷺ) فى وفد تميم فأسلم ، وقال عنه رسول الله (ﷺ) : هذا سيد أهل الوبر[1] ، وكان الأحنف بن قيس يقول تعلمت الحلم من قيس بن عاصم ، وقد سكن البصرة ومات بها ، وكان له ثلاثة وثلاثون ولدا . وذكرا بن حجر كلمات من وصيته هذه وقال إنها نافعة . وهى :

«يابنى : خذوا عنى فلا أحد أصلح لكم منى . إذا دفنتمونى فانصرفوا إلى رحالكم فسودوا أكبركم . فإن القوم إذا سودوا أكبرهم خلفوا أباهم ، وإذا سودوا أصغرهم أزرى ذلك بهم فى أكفائهم ، وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرحم ، وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فإنهم من رفعوا ارتفع ومن وضعوا اتضع ، وعليكم بهذا المال فأصلحوه فإنه منبهة للكريم وجنة لعرض اللئيم ، وإياكم والمسألة فإنها آخر[2] كسب الرجل ...

وخذوا عنى ثلاث خصال : إياكم وكل عرق لئيم أن تلابسوه ، فإنه إن يسركم اليوم يسؤكم غدًا . واكظموا الغيظ . واحذروا بَنِى أعداء آبائكم ، فإنهم على منهاج آبائهم ، ثم قال :

أحيا الضغائن آباء لنا سلفوا ... فلن تبيد وللآباء أبناء .

٧ - وصية أبى طالب لوجوه قريش

أبو طالب بن عبد المطلب عم رسول الله (ﷺ) كان يحميه من أعدائه . ولكنه لم يسلم وتدل هذه الوصية على أنه كان يؤمن بدعوته وبأنها ستلقى نجاحا . وهو عندما مات دعا كبار قريش وأوصاهم هذه الوصية . وهذه تشبه الخطبة ، وقد قدم لها بما يلين قلوب القوم ويقربها لما يريد ، قال أبو طالب :

---

(١) البدو .

(٢) أخر - بهمزة غير ممدودة - كشرس ونهم - بمعنى أدنى وأرذل .

يامعشر قريش .

أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب ، فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدام الشجاع ، الواسع الباع[١] ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيبا الا أحرزتموه ، ولا شرفا إلا أدركتموه ، فلكم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به[٢] إليكم الوسيلة ، والناس لكم حرب ، وعلى حربكم ألب[٣] ، وإنى أوصيكم بتعظيم هذه البنية[٤] ، فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش وثباتا للوطأة ، صلوا أرحامكم ، فإن فى صلة الرحم منسأة فى الأجل[٥] ، وزيادة فى العدد . اتركوا البغى والعقوق ففيها هلكت القرون قبلكم ، أجيبوا الداعى[٦] ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والممات ، وعليكم بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة فى الخاص ومكرمة فى العام[٧] .

وإنى أوصيكم بمحمد خيرا ، فإنه الأمين فى قريش ، والصديق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن[٨] . وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الأطراف المستضعفين[٩] من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدقوا كلمته ، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت[١٠] وصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم[١١] إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده ، قد محضته[١٢] العرب ودادها ، وأصفت له بلادها[١٣] ، وأعطته قيادها .

يامعشر قريش كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة ، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد ،

---

(١) الكريم المعطاء .

(٢) بهذا الذى ذكرت من احراز الشرف والمآثر .

(٣) بفتح الهمزة ــ أى يؤلبون عليكم ويحرضون .

(٤) بوزن فعيلة كرمية : يعنى الكعبة المبنية .

(٥) سعة وامتدادا ، بسبب ما ينشأ من التعاون والبركة فى الأيام .

(٦) المتسغيث المستنجد .

(٧) الخاص هو الذى صدقته وأديته الأمانة والعام البعيد الذى يعلم ذلك فيحترم الأمين الصادق ويقدره .

(٨) الشنآن البغض والكراهة يريد أنهم صدقوا بقلوبهم ، ولم يقروا بلسانهم خوف اثارة العداوة بين الذين عارضوه .

(٩) الذين ليسوا بمكة ولا من قريش .

(١٠) جمع غمرة ، معظم الماء ومعظم الأمر وشدته ، خاضوا شدائد الحروب .

(١١) أعظمهم عليه ، أشد العرب مناوأة له يصير ضعيفا أمامه محتاجا لرحمته .

(١٢) أخلصت له الود .

(١٣) أخلصتها لحكمه وتخلت عن رياستها له

ولا يأخذ بهديه أحد إلا سعد . ولوكان لنفسى مدة . وفى أجلى تأخير . لكففت عنه الهزاهز[1] . ولدافعت عنه الدواهى .

٨ ـ وصية هند وأبى سفيان ولدهما معاوية

ولى عمر بن الخطاب معاوية مكة ، فلما قدم إليها دخل على أمه فقالت له :

يابنى إنه قلما ولدت حرة مثلك . وقد استعملك[2] هذا الرجل . فاعمل بما وافقه ، أحببت ذلك أم كرهته .

ثم دخل على أبيه أبى سفيان فقال له :

يابنى إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا . فرفعهم سبقهم ، وقصرنا تأخرنا فصرنا أتباعا ، وصاروا قادة . وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن رأيهم . فإنك تجرى إلى أمدٍ لم تبلغه[3] . ولو قد بلغته لتنفست فيه[4] ! قال معاوية : فعجبت من اتفاقهما فى المعنى على اختلافهما فى اللفظ .

(١) تحريك البلايا والحروب وإثارة الاضطرابات ضده .

(٢) ولاك عملا له .

(٣) يريد أن له مستقبلا لا ينبغى أن يقطعه بمخالفة الخليفة .

(٤) يريد لو بلغت المنصب الذى ينتظرك لجاز لك أن تتبع رأيك .

المفاخرة والمنافرة

المفاخرة ـ مفاعلة من فاخر فلان فلانا ، أى باراه فى الفخر بأمر ما . وكل من المتفاخرين يذكر من مزاياه وصفاته ما يفوق به صاحبه . والمنافرة كذلك أيضا . ولكنها تقوم على رهان بين الشخصين ، كأن يدفع المغلوب للغالب مالا ، أو يخرج من الحى أو نحو ذلك ، ثم يذهبان إلى حكم من الناس يرتضيانه ، فإذا حكم لأحدهما على الآخر سقط المحكوم عليه ، وقد تسقط القبيلة كلها إذا كانت المنافرة بين قبيلتين ، وقد ظلت المفاخرات جارية حتى جاء الإسلام فنهى عنها وسوى بين الناس ، وجعل التفاضل بين الناس بالتقوى والعمل الصالح ، وهو عمل خالص لله تعالى وحده ، وهو مطلع عليه ويعلمه ، فلا يجوز التباهى به ، والتباهى به يفسده ويذهب بثوابه ، ولكن للرجل المسلم أن يباهى الكفار بمفاخر الإسلام ومزاياه ، فهذا لا يرجع إلى شخصه ، وقد يكتسب الإسلام به عزة ونصرا ، وقد نادى وفد تميم رسول الله (ﷺ) من وراء حجراته ، ففاخروه بشاعر منهم وخطيب فرد عليهم ثابت بن قيس بخطبة[1] ، وحسان بن ثابت بقصيدة وكلا الرجلين اعتز بالإسلام ، فقال التميميون : إن هذا الرجل لمؤتى له[2] . خطيبه أخطب ، وشاعره أشعر ، ثم كان ذلك سببا فى إسلامهم ، وقد ماتت نعرة العصبية والتفاخر بالأحساب والأنساب عصر النبوة والخلافة الراشدة ، فلما جاء العصر الأموى انبعثت من جديد ، وحميت بين الشعراء وخصوصا بين جرير من جانب والفرزدق والأخطل من الجانب الآخر ، وانضم لكل طرف مؤيدون حتى ليقول جرير إنه هاجى ثمانين شاعرا ، ولكن لم يتنافروا إلى حكم ، لأن جريرا كان يعلم خسة نسبه ووضاعة بيته .

---

(١) هو ثابت بن قيس الانصارى الخزرجى ـ خطيب الأنصار ـ خطب أمام رسول الله (ﷺ) أول مقدمه المدينة . وقال : نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا وبشره رسول الله بالجنة . وقتل يوم اليمامة فأخذ رجل درعه . فرأى أحد المسلمين ثابتا فى منامه يخبره بمكان درعه . وقال أخبروا أبا بكر أن علىّ لفلانٍ دينا قدره كذا . وعبدى فلان عتيق . فلما وجدوا الدرع بالمكان الذى وصفه . نفذوا وصيته . الإصابه ٩٠٤ .

(٢) ميسر له .

والمنافرة تتصل بالخطابة من جانبين . جانب الحوار الذى يقع من المتنافسين . وهو لون من الخطابة ، وجانب الخطبة التى يلقيها الحكم ليرجح أحد الجانبين أو يسوى بينهما .

ومن المنافرات الشهيرة تلك المنافرة التى حدثت بين حرب بن أمية ، وبين عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله (ﷺ) . وهى إلى جانب شهرتها ذات أثر فى التاريخ ،

وسبب هذه المنافرة أنه كان لعبد المطلب جار يهودى يدعى أذينه ، وكان تاجرا ميسوراً اذا نشاط تجارى شأن اليهود فى كل زمان ومكان ، وقد حقد عليه حرب ، فأراد قتله خفية كيلا يغضب عبد المطلب . وكان عبد المطلب وحرب نديمين فأغرى حرب فتيانا من قريش ليقتلوه ، فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار ، وصخر بن عمرو التيمى جد أبى بكر الصديق ، غيلة ، ولم يعرف عبد المطلب من قتل جاره ، وظل يسأل مدة حتى عرف القاتلين ، وإذا هما قد استجارا بحرب وأخفاهما ، ولما طلبهما عبد المطلب لم يقبل حرب أن يظهرهما ، ولم يتحمل تقريع عبد المطلب ولومه ، فتغالظا فى القول واشتد بينهما النزاع حتى أدى إلى المنافرة فتنافرا إلى النجاشى فلم يشأ أن يحكم بينهما ، فتحاكما إلى نفيل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، فنفر عبد المطلب على حرب ، وحكم ان يدفع مائة ناقة ، وأن يغترب عن مكة عشرة أعوام ، ويقال إنه حكم بأربعمائة من الإبل فعف عنها عبد المطلب ، ولكن من الثابت أنه أخذ منه مائة ناقة دفعهادية للقتيل ، ومن ذلك الحادث، انقطعت المنادمة بينهما ، ونادم عبد المطلب بدلا من حرب عبد الله بن جدعان التيمى .

وجاء فى خطبة نفيل التى نفر بها عبد المطلب[1] .

«... ياأبا عمرو»

أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك ملامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل صفدا[2] ، وأطول منك مذودا[3] . ؟ وأنى

---

(١) نفره على خصمه : قضى له بالغلبة . ومن هذه الصفات التى ذكرها نفيل نجد أن الصفات الجسدية مما كان ينفر به إلى جانب الصفات الخلقية .

(٢) عطاء .

(٣) المذود : اللسان ، ومعتلف الدابة ، فالجملة إما بمعنى أطول منك لسانا أى أفصح وأبلغ ، أو أكثر منك إبلا أى أثرى منك .

لأقول هذا ، وإنك لبعيد الغضب رفيع الصوت فى العرب (١) جد المريرة (٢) ، جليل العشيرة (٣) ، ولكنك نافرت منفرا » .

وغضب حرب لهذا الحكم ، وقال لنفيل : ان من انتكاس الزمان أن جعلت حكما .

وقد عف عبد المطلب عن أخذ الإبل عدا دية القتيل ، واغترب حرب ، فأقام بالشام ، وكان ذلك مما ربط بين الأمويين والشاميين .

ومن المنافرات الشهيرة تلك المنافرة التى كانت بين عامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وقد هاجها سبب هين جدا ولكنها نمت حتى شملت القبيلتين ، ودخل فيها من الشعراء لبيد بن ربيعة ، وأعشى قيس :

روى صاحب الأغانى أن علقمة كان قاعدا ذات يوم يبول ، فبصر به عامر فقال : لم أر كاليوم عورة رجل أقبح ، فقال علقمة ، أما والله لا تثب على جاراتها ولا تنازل كناتها (٤) ـ فتطاول الكلام بينهما حتى قال علقمة : إن شئت نافرتك فقال قد شئت : والله لأنا أكرم منك حسبًا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول منك قصبا .

فقال علقمة : لأنا خير منك ليلا ونهارا

.. عامر : لأنا أحب إلى نسائك أن أصبح فيهن منك .

.. علقمة : على ماذا تنافرنى ياعامر ؟

.. عامر : أنافرك على أنى أنحر منك للقاح (٥) ، وخير منك فى الصياح (٦) ، وأطعم منك فى السنة الشياح (٧) .

فقال علقمة : أنافرك أنى خير منك أثرا ، وأحد منك بصرا ، وأعز منك نفرا ، وأسرح (٨) منك ذكرا ،

.. عامر : أنافرك على أنى أنشر منك أمة ، وأطول منك قمة (٩) ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همة .

---

(١) مسموع الكلمة .

(٢) المريرة : عزة النفس والعزيمة فهو وصف بالقوة والاعتزاز بالنفس ،

(٣) الأهل والمخالطون .

(٤) الكنة زوجة الابن والأخ وهو يعرض بصاحبه .

(٥) جمع لقحة ، واللقاح الإبل .

(٦) عند الغارة على العدو .

(٧) القحط المجدبة .

(٨) أبعد ، ويروى أشرف .

(٩) أعلى منك مقاما .

.. علقمة : والله إنى أعز منك . إنى لبر وإنك لفاجر . وإنى لو فى وإنك لغادر . ففيم تفاخرنى ياعامر ؟

.. عامر : عير وتيس . وتيس وعنز فذهبت مثلا . فتنافرا على مائة من الإبل إلى مائة يعطاها الحكم . أيهما نفر على صاحبه يخرجها . ففعلوا ذلك ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على يدى رجل من بنى الوحيد .

وكانت العرب تتحاكم إلى قريش فذهبا إلى أبى سفيان بن حرب . ثم إلى أبى جهل فلم يحكم واحد منهم بينهما فذهبا إلى عيينة بن حصن ورجال آخرين حتى انتهيا إلى هرم ابن قطبة بن سنان الفزارى . فاستوثق أولا أن يقبلا حكمه . وكانا يسوقان الإبل معهما . فأمرهما أن يتمهلا عاما حتى يعمل رأيه . فانصرفا ثم رجعا إليه فى الموعد المحدد . فأقاموا أياما لديه . ثم استدعى عامرا سرا . فقال له : قد كنت أرى لك رأيا وأن فيك خيرا . وما حبستك هذه الأيام الا لتنصرف عن صاحبك .... فما الذى أنت به خير منه . فأشفق عامر . ورجاه أن يسوى بينهما . ثم استدعى علقمة ففعل معه مثل ذلك . ثم جمع الناس فخطبهم قائلا :

«يابنى جعفر . قد تحاكمتما عندى . وأنتما كركبتى البعير الأدرم[1] تقعان إلى الأرض معا . وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس فى صاحبه . وكلاكما سيد كريم فرضيا بحكمه .

ومما يذكر أن هرما أدرك الإسلام . وأدرك خلافة عمر . وأن عمر سأله مرة : أى الرجلين كنت مفضلا لو فضلت ؟ فأجاب لو قلت ذلك لعادت جذعة ولبلغت شعاف هجر . فقال عمر : نعم مستودع السر ومسند الأمر إليه أنت ![2]

---

(١) الكثير اللحم حتى لا تتميز عظامه . وقد قال لهم من قبل أبو سفيان ذلك أيضا .

(٢) يحسن أن نعرف بهؤلاء الثلاثة . علقمه ، وعامر ، وهرم .

أما علقمة فإنه أدرك الإسلام . وأسلم ثم ارتد فى عهد رسول الله (ﷺ) ـ ثم دخل الاسلام ثانيا بعد حروب الردة ، ومن مآثره فى الجاهلية أن رد على أبى سفيان حين عاب رسول الله أمام هرقل ، وكان الأعشى هجاه وفضل عليه عامرا بقصيدة طويلة فنهى رسول (ﷺ) عن روايتها . وهى التى فيها :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر .

وأما عامر بن الطفيل فكان قد قدم على رسول الله (ﷺ) شيخا ، فقال أبايعك على أن لك الوبر ولى المدر ، وكان معه أربد بن ربيعة ، وقف خلف رسول الله (ﷺ) ليقتله ، وقصته معروفة ، ومات كافرا ، إذا أصابته غدة كغدة البعير ومات فى بيت امرأه سلولية .

وأما هرم فهو ابن قطبة بن سنان فزارى ـ وهو غير هرم بن سنان صاحب زهير أسلم وكان حسن الإسلام سيدا فى قومه .

المواعظ

المواعظ باب لصيق بالخطب ، لأن الموعظة هى الهدف الأول للخطيب الدينى وهى المادة التى تقوم عليها خطبته أو هى على الأقل أهم ما فيها من المواد . والخطيب السياسى أو القضائى أو الحربى يجد من الموعظة ومن ضرب الأمثال ما يستهوى به قلوب سامعيه . ويرد جماح معارضيه ، ويجمع به الأهواء الشتيتة والآراء المتضاربة . وهكذا نجد الموعظة ضرورية للخطيب أيا كان نوعه . وكثيرا ما استعملها غير الخطباء فى مجالس الصلح والتوفيق بين الناس . وكثيرا ما استعملها الزهاد والنساك ودعاة الإصلاح أمام الخلفاء فألانوا قلوبهم واكتسبوا بها العفو منهم . وحولوا آراءهم واتجاهاتهم من جانب إلى جانب . وكثيرا أيضا ـ ما كانت الموعظة سببا فى حياة أشخاص كانوا بصدد أن يلاقوا حتفهم وتذهب السيوف برقابهم . وهكذا وهكذا .

ولكى يجيد الخطيب الموعظة عليه أن يتشبع بمحفوظات ودراسة لما قال الوعاظ والزهاد فى المقامات المختلفة ، وليست مهمته أن يعيد ما قال السابقون . ولكن هذه المأثورات تهيئ له الاجترار منها وتمكنه من الاستعانة بها . أو من محاكاتها وتوليد معان تناسب الموقف الذى هو فيه ـ فهى سبيل من سبل الدربة . ووسيلة من وسائل تكوين الخطبة والنهوض بها .

وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم تجده جاء بعديد من المواعظ وقصّ كثيرا من أحوال الأمم التى ذهبت جزاء عصيانها . والأخرى التى أطاعت واعتصمت بتعاليم دينه . فكتب لها نصرا فى الأولين وجعل لها لسان صدق فى الآخرين[1]. والسنة النبوية تجرى مجرى القرآن الكريم فى هذا . بل وتزيد عليه فى ذلك زيادات كثيرة . ثم تروى لنا كتب التاريخ والأدب أمثلة من كلام الحكماء ومواقف الوعاظ والزهاد من أمم قديمة كثيرة . ويوجد فى كتبنا العربية مذخور من حكم الهند والصين والفرس . ومن كلام موسى عليه السلام . وأنبياء بنى اسرائيل . وكلام عيسى وحوارييه وألوان مختلفة من

---

(١) جعل لهم ذكرا حسنا .

العظات وزواجر النفس عن الحرام وتوجيهها إلى الله تعالى . ونجد هذه المواقف فى عصور الحكم الإسلامى المختلفة . ونجدها متشابهة لا تختلف إلا باختلاف المقام الذى تقال فيه . أمام العامة غيرها أمام الولاة والخلفاء . إذ يختلف حينئذ موضوعها . ففى أكثر مواقفها عند الحكام تدعو إلى العدل وتحذر من الظلم . وتذكر بمواقف رسول الله (ﷺ) حاكما وقائدًا . وقد تكون كما تكون أمام العامة لمجرد الزجر والتذكير بالحياة الآخرة . والدفع إلى الإكثار من العبادة والأعمال الصالحة .

وهناك رجال اشتهروا بهذه العظات وتناقل الناس كلامهم . كما اشتهروا بشدّة الورع . والتنزه عن الدنايا . والعزوف عن متع الدنيا . فكانوا قدوة حسنة بسلوكهم وسيرهم . كما كانت مواعظهم بليغة ذات تأثير على النفوس . وتناقل الناس سيرهم وأحاديثهم على مر العصور . وإذا استثنينا مقام رسول الله (ﷺ) الذى لا يجاريه فيه أحد . وجدنا للخلفاء الراشدين مواقف ومقامات احتذت تصرفات رسول الله (ﷺ) وحافظت جهدها على محاكاته واتباعه . ولا يغيب عنا موقف أبى بكر يوم الردة أو موقف عمر يوم المجاعة . وتجهيز عثمان غزوة تبوك . وخطب على العديدة وسنياته . ـ وبعد عصر الخلفاء وجد من غير الحكام فى كل عصر رجال اشتهروا بالزهد والورع . وظلت لهم أقوال وأعمال ترد الناس عن المعصية وتدفعهم إلى صالح الأعمال . ولا يزال الناس يجدون فى عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والحسن البصرى وابن سيرين والإمام أحمد بن حنبل والكثيرين من أمثالهم مثلا عليا ومبادئ سامية . وفى ذكر هؤلاء واستعادة مواقفهم النبيله وانتصارهم للحق وتحملهم الأذى فى سبيله . ما يستريح الناس لسماعه . وما يساعدهم على كبح غرائزهم الجامحة . ويطفئ نزعات الشر فى نفوسهم . ولا يستغنى الواعظ عن معرفة هؤلاء ودرس حياتهم وأقوالهم ليكون له من ذلك مدد فى خطابه . وحسن استشهاد على ما يوجهه للناس من تربية وتعليم .

عظات العباد والنساك .

كان للعباد والنساك مواعظ وزواجر كثيرة . بعضها يلقى فى المساجد على نحو ما كان يفعل القصاص منذ العهد الأموى . وعلى نحو ما كانت تأتى مواعظهم ممتزجة بدروس التفسير القرآنى وشرح الأحاديث فى حلقات المساجد من مثل الحسن البصرى . أو نصائح تقدم للخلفاء كما فعل أبو حازم مع سليمان بن عبد الملك . فقد ظل هذا التيار بكل فروعه

بل زاد ونما كثيرا . وكانت زيادته ونموه فى هذا العهد رد فعل لما فشا فى الدولة من مجون وتكشف وشاع بين الأثرياء وخصوصا الخلفاء والقواد من ترف وانغماس فى الملذات . فقد كانت قصور هؤلاء تتمتع بنعيم طائل من فراش وجوار ومغنين ومغنيات . كما شاع الشراب . وكثر الشعر الماجن الذى يتحدث عن كل هذه المظاهر وعن مظاهر الجوارى وزينتهم الفاتنة وما يستهوين به قلوب الرجال . وهكذا نجد طائفه خاصة قد انغمست فى النعيم والترف وملذات الجسد . بينما كانت هناك طوائف كثيرة تعانى الحرمان والذلة . وترمق ما يتمتع به الآخرون بكثير من الحقد والغيظ . واذ لم يجدوا سبيلا إلى الانتقام أو الحصول على ما حرموا منه لجأوا إلى العبادة والزهد ووجدوا فى هذا الاتجاه متعة معنوية دفعت بهم إلى ازدراء هذا النعيم الزائل ومتعته الموقوته . وكان الفرق واسعا بين العامة السذج الذين ألجأهم الحرمان والظلم إلى الزهد والعبادة وبين المثقفين الذين عزفوا عن متع الحياة . وربأوا بأنفسهم أن تنسيهم العاجلة عن الآجلة . ويشغلهم نعيم الحياة الزائل الموقوت عن نعيم باق لا يزول . ورأوا أن كل هذه المظاهر لا تستحق ولا تستأهل قطرة من نعيم الآخرة فضلا عن أن نعيم الدنيا يثقل أصحابه بالأوزار ويقفهم يوم القيامة أمام حساب شديد . لهذا آثروا السلامة وحثوا الناس عليها . ووجدوا لهم مستمعين ومحبين . ووجد مستمعوهم منهم ما يبرد غيظهم ويشفى نفوسهم من هؤلاء المترفين . بل ربما وجدوا فيه حظا من التعويض لهم والانتقام من خصومهم جميعا . وكان الحكام يجدون فى وعظ هؤلاء صمام أمن ينفس عن الرغبات المكبوتة فى نفوس الشعب . وكان الخفاء كثيرا ما يستدعون هؤلاء الوعاظ الزهاد ليعظوهم . ولكنهم فى أحيان أخرى كانوا يكرهونهم لما فى وعظهم من تحريض الشعب عليهم . ولأن منهم من كان يرى أن كل شىء يتصل بالحكومة حرام . حتى وظائفها وقبول منحها . وقد رفض ذو النون المصرى الصوفى الشهيد أن يأكل من طعام العباسيين . فكان أخوه يعمل ويشترى له من كسبه طعاما . وكان عبد الله بن المبارك عالم الحديث المعروف ينهى عن تولى وظيفة القضاء . ويجاريه فى هذا كثيرون .

ورفض الإمام أحمد بن حنبل أن يأكل خبزا خبزته زوجه فى بيت ابنه لأنه قبل وظيفة القضاء .

وهكذا بدأ نوع من التشدد فى المعاملات والعبادات . وكان لهؤلاء العباد مواقف خطابية أو قريبة من الخطابية استفاد منها معاصروهم والذين جاءوا بعدهم . وأروع ما فيها جرأتهم على مجابهة الحكام بأخطائهم ثم ما يبدو فى كلامهم من حرارة الإخلاص

وصدق النية . وكانوا إلى جانب ذلك ذوى مقدرة على صوغ الكلام فى عبارة وجيزة مؤثرة . وقد سبق كثير من هذا مما وجه إلى معاوية بن أبى سفيان . وكان يمتاز عن كل أولئك بأنه يتقبل عظات الواعظين وهجومهم عليه فى حلم وأناة . وقد رأينا فيما سبق ضجر سليمان بن عبد الملك من أعرابى عاب بعض تصرفاته . أما العباسيون فلعل أبا جعفر المنصور كان أفسحهم صدرا لذلك بل كان يطلب العلماء والنساك ليعظوه . وكان يبكى من عظاتهم ، وأبو المنصور كان عالما دارسا للسنة . حتى إنه قال للإمام مالك إنه لم يبق فى الناس من هو أعرف بالسنة منى ومنك . وقد شغلتنى شئون الناس . فاجمع لهم الحديث وأوطئه لهم . فجمع مالك لذلك كتاب الموطأ . وهو بسبب هذه الثقافة كان يستريح لكلام الوعاظ . أما الرشيد فقد كره أن يسمع غلظة من واعظ جاءه/. وقال : أريد أن أعظك بعظة فيها بعض الغلظة فاحتملها . فقال الرشيد : كلا . إن الله أمر من هو خير منك بالإلانة القول لمن هو شر منى . فقال لنبيه موسى إذ أرسله إلى فرعون : فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى . وكان المأمون يستمع لعظات الزهاد أيضا .

وليس كل كلام للزهاد تظهر فيه الجرأة . بل تجد فيه أحيانا شيئا من المداهنة والترضى مما يدل على تهيب الواعظ وتخوفه . وانظر مقالة شبيب بن شيبة للمهدى إذ يقول له :

«إن الله إذ قسم الأقسام فى الدنيا جعل لك أسناها وأعلاها . فلا ترضى لنفسك فى الآخرة إلا مثل ما رضى لك به من الدنيا . فأوصيك بتقوى الله فعليكم نزلت . ومنكم أخذت . واليكم ترد» .

تجد الموعظه كلها وصية بتقوى الله . وبقية الحديث ثناء عليه . وشتان بين هذا الموقف ومواقف الوعاظ الآخرين أمام الحكام .

مجالس القصص والوعظ

هذا القسم فرع من الخطب الدينية . والقاص واعظ يفسر آيات القرآن الكريم والحديث الشريف . ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ولكنه فى كل ذلك يذكر أخبار الأولين من الأمم والسابقين من الأنبياء . وعدت هذه المجالس من الخطب الدينية لأنها كانت تلقى على جمع من الناس . وكانت غالبا فى المسجد . وربما ألقيت فى مجالس الخلفاء فى قصورهم . وكان القاص يلقيها غالبا وهو جالس لطولها .

ومجالس القصص وذكر السابقين موجودة منذ العصر الجاهلي . وكانت موجودة بصورة ما في عصر النبوة والخلافة الراشدة . والذى جد فى عهد بنى أمية هو نشاطها واعتماد الحكومة عليها . وكان معاوية نفسه يقص على الناس ويستمع للقصاص .

والقصاص من الخطباء . وقد أفرد الجاحظ لمشهوريهم فصلا فى كتابه «البيان والتبيين» ذكر فيه أسماءهم وشيئا من أعمالهم . وقال إن جعفر بن الحسن أول من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة . وأقرأ القرآن فى مسجد البصرة .[1] ـ وكان مسلم بن جندب يقص فى مسجد رسول الله (ﷺ) بالمدينة . وسمى قاص مسجد النبى . وهو هذلى قارىء كان إمام أهل المدينة وقاضيهم . وكان الناس يحبون قراءته . وكان عمر ابن عبد العزيز يقول فيه : من سره أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب . وهو معلم عمر بن عبد العزيز . وكان يقضى بالمدينة ولا يأخذ على قضائه أجرا[2] .

ومن ذوى الشهرة الواسعة فى هذه الطبقة موسى بن سيار الأسوارى ـ سمى بذلك نسبة إلى نهر الأساورة بالبصرة . كان قاصا يحسن القصص . ومفسرا يمزج تفسيره بالقصص . وقارئا تهز قراءته قلوب سامعيه . قالوا : لم يكن فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى بن سيار . ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ثم يونس النحوى ثم المعلّى ـ فهم أربعة يكفى أن يكون يونس النحوى بينهم . وكان موسى يجيد الفارسية إجادته العربية . وله فيهما فصاحة وبلاغة تعبير . وكان يجلس فى مجلسه ـ فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره . فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية . ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية فلا تدرى بأى لسان هو أبين . قال الجاحظ : واللغتان إذا ألقيتا فى اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها . إلا ما ذكرنا من لسان موسى بن سيار الأسوارى . وكان من أعاجيب الدنيا .

وجلس للقصص فى مسجد موسى ومجلسه بعد موته قاص آخر ذو شهره هو أبو على الأسوارى ، وهو وموسى كانا من ذوى الميول القدرية ، وأبو على هو عمرو بن فائد أخذ عن عمرو بن عبيد الإمام المعتزلى المعروف ، وقد تكون النزعة القدريه سرت إليه منه ، وله معه مناظرات ، وقد ظل يقص فى مسجد موسى ستا وثلاثين سنة ، ولم يتم القرآن

---

(١) هو جعفر بن الحسن البصرى . وكان لأبيه حلقة قبله ولكنها لم تكن خاصة بالوعظ والقصص .

(٢) توفى سنه ١٠٦ هـ . وتوفى الحسن سنة ١١٠ هـ .

تفسيرا حتى مات ، وكان ربما فسر الآية الواحدة فى عدة أسابيع . وكان حافظا للسير ووجوه التأويلات ، وكان يحفظ أحاديث كثيرة يلحقها بتفسيره وقصصه ، وكان فصيح العبارة جيد اللغة ، وكان يونس بن حبيب النحوى يسمع منه كلام العرب ويحتج به .

ونذكر من مشهورى القصاص الذين أوردهم الجاحظ . أبا بشر صالحا المرى ، وهو ـ كصاحبيه السابقين ، وكالحسن البصرى ـ من الموالى ، وهو من معروفى الزهاد ومشهورى العبّاد ورواة الحديث البلغاء ، واشتغل أيضا بالقضاء ، وكان صحيح الكلام حسن التلاوة للقرآن الكريم ، وكانت قصصه ومواعظه تمس قلوب السامعين سمعه سفيان ابن حبيب ، فقال : هذا ليس قاصا ، هذا نذير ، لأنه رأى بيانا لم يحتسبه ، ومذهبا لم يكن يظنه .

هؤلاء قصاص من ذوى الشهرة الذين ذكرهم الجاحظ . وهناك غيرهم كثيرون . والقصاص لم يكونوا حجة ولا موضع ثقة تامة فى كل ما يذكرون ، فقد يتزيدون فى الأخبار ، وقد يذكرون أحاديث ضعيفة وقد يضعون أحاديث . وقصص الأنبياء التى يذكرونها مستقاة من مصادر يهودية أو نصرانية ، وقد كان وهب بن منبه[1] ، وكعب الأحبار[2] ، من مصادر هذه الأخبار ، وظهر هذا النوع منذ عهد رسول الله ، وقد قال (ﷺ) لأصحابه : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ، وكان ذوو العلم لا يميلون إلى سماع أكثرهم . وقد كان سفيان بن حبيب الذى ذكرناه ، قد فر إلى البصرة فتوارى عند مرحوم بن عبد العزيز العطار . فقال له : «هل لك أن تأتى قاصا عندنا ههنا فتتفرج[3] بالخروج والنظر إلى الناس والاستماع منه ؟ فأتاه على تكره ، كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه»[4] .

ومهما يكن من شىء فقد كان القصص شائعا ، وكان لونا من ألوانا الوعظ وأشهر القصاصين على الإطلاق هو عبيد بن شرية . وهو شخصية تحيطها الأساطير حتى اسمه لم

---

(١) هو أبو عبد الله صاحب الأخبار والقصص . كان يقص أخبار الأوائل وقيام الدنيا وأخبار الأنبياء . كان يقول : قرأت من كتب الله اثنين وسبعين كتابا ، اطلع صاحب الوفيات على تصنيف بعنوان الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم توفى سنة ١١٠ بصنعاء .

(٢) يسمى كعبا الربانى من يهود اليمن أيضا ، لم يسلم إلا بعد رسول الله : وعمل لدى معاوية حين كان واليا على الشام من قبل عمر ، وتوفى فى خلافة معاوية بحمص .

(٣) تبعد عنك التأم وتصرفه (٤) البيان والتبين ٣٦٩/١ .

يتفق عليه ، وهو من عرب الجنوب استدعاه معاوية إلى دمشق أو هو وفد على معاوية . وكان يروى له أخبار ملوك العرب الأولين . وأمر معاوية أن يكتب عنه ما يقول وينسب إليه . وقد عاش حتى عهد عبد الملك بن مروان ، وله كتاب الأمثال . وكتاب الملوك وأخبار الماضين ، وكان يحدث أخبار العجم والعرب وأخبار اليمنيين القدامى خاصة . وحدث عن قوم أغرقوا فى القدم مثل الكسير الجرهمى وعبدود الجرهمى . وتنسب إليه أقوال حكيمة وآراء صائبة . ولكن يبدو أنها مصنوعة أضيفت إليه . ونحن نميل إلى أنه شخصية حقيقية وأنه كان قاصا وأن معاوية رأى فى حديثه وقصصه ما يشغل الناس فأكرم مثواه لديه . ثم أضاف الناس إليه بعد ذلك أخباره التى بولغ فيها ، ولا نظن أنه ترك كتبا . والا لدون الناس بعده أحداث التاريخ التى هى لديهم أهم مما ذكر .

وعبيد ليس قاصا واعظا من نوع القصاص الذين ذكرنا ، وإنما كانت تأتى العظات فى كلامه عرضا ، وخلال ما يسأل عنه أو يسرده من أعمال السابقين أو يصوغه حكما . وعمله الأول كان قص التاريخ .

وهؤلاء الثلاثة ذوو آثار ضخمة فى أخبار العرب . والقاصان اليهوديان أدخلا على التفسير الإسلامى ألوانا كثيرة من القصص الإسرائيلى ، وإليهما يرجع ما حشيت به كتب التفسير والحديث والمغازى . وربما أضاف إليها الرواة ما ليس من كلامهما .

والقصص والأقاصيص ذات صلة بالخطب ، من حيث إنها كلام يلقى على الجمهور فى عبارات مؤثرة . وهى ليست خطبا لفقدها عنصر الإقناع . والاستمالة التى تأتى منها تأتى عرضا وبطريق الإيحاء ، والخطيب كثيرا ما يذكر قصة أو حادثا يلائم موضوع خطبته للتأثير على سامعيه .

وعاظ أمام الحكام

يتصل بهذا الباب مجابهة الوعاظ والزهاد حكام المسلمين خلفاء وولاة بأخطائهم . وربما طلب بعضهم أحد الوعاظ الزهاد ليعظه ، وكان هؤلاء الوعاظ فى كلتا الحالتين على غاية من الجرأة ، مما يدل على إخلاصهم لدعوتهم واستعدادهم للتضحية فى سبيلها . ولكن فى أغلب المواقف كان هؤلاء الحكام يحلمون ويتقبلون ما يوجه اليهم من عظات . وكان فى حلم الحاكم وتقبله هذه العظات والزواجر على قسوتها وعنفها تثبيت لهم فى نفوس الرعية ، وإعلان بأنهم يجلون رجال الدين ، ويرغبون فى سماع التوجيه والهداية .

وقد دخل سفيان الثورى على الخليفة المهدى العباسى ، فسلم عليه تسليم العامة ، ثم أغلظ له القول فقال الربيع وزير المهدى : ايذن لى بأن أضرب عنقه ، فقال المهدى : اسكت ويلك ، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم .

ومن هذه المواقف :

١ - دخل أعرابى على سليمان بن عبد الملك فقال : انى مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته فإن وراءه ما تحب إن قبلته .

قال : هات ياأعرابى

قال : انى سأطلق لسانى بماخرست عنه الألسن من موعظتك ، تأدية لحق الله تعالى وحق إمامتك ، : إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، فابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك فى الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم سلم الدنيا حرب الآخرة ، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لا يألونك خبالا والأمانة تضييعا ، والأمة عسفا وخسفا ، وأنت مسئول عما اجترحوا ، وليسوا مسئولين عما اجترحت ، فلا تصلح دنياك بفساد آخرتك ، فإن أخسر الناس صفقة وأعظمهم غبنا ، من باع آخرته بدنيا غيره .

قال سليمان : أما أنت ياأعرابى فقد سللت لسانك وهو أحد سيفيك

قال : أجل ياأمير المؤمنين ، ولكن لك لا عليك .

٢ - قام صالح بن عبد الجليل . وهو الواعظ الزاهد الجرىء بين يدى الخليفة المهدى العباسى فقال له :

إنه لما سهل علينا ما توعر على غيرنا من الوصول إليك ، قمنا مقام الأداء عنهم (١) . وعن رسول الله (ﷺ) بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عند انقطاع عذر الكتمان ، ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع ، ووعدت الله وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص (٢) ، وقد جاء فى الأثر من

---

(١) يريد أن غيره من الوعاظ صعب عليهم أن يقابلوه ، فحمل هو واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نيابة عنهم ، وهى رسالة فى أعناقهم بوصفهم مكلفين ببلاغ رسالة النبى (ﷺ) .

(٢) إحقاق الحق وإظهار الباطل ، والتمحيص التنقية والتصفية .

حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذابا من أقبل إليه العلم فأدبر عنه . فا قبل ياأمير المؤمنين من أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل ، لا قبول سمعة ورياء ، فإنما هو تنبيه من غفلة ، وتذكير من سهو ، وقد وطن الله نبيه على قبولها فقال تعالى : وإما ينزغنّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه سميع عليم .

٣ ـ حج سليمان بن عبد الملك . فلما قدم المدينة استدعى أبا حازم الأعرج ، ثم قال له : تكلم ياأبا حازم .

قال : فيم أتكلم ؟ ياأمير المؤمنين ؟

قال : فى المخرج من هذا الأمر

قال : يسير إن فعلته

قال : وماذاك .

ـ لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولا تضعها إلا فى أهلها .

ـ ومن يقوى على ذلك ؟

ـ من قلده الله من أمر الرعية ما قلدك .

ـ عظنى ياأبا حازم .

ـ اعلم أن هذا الأمر لم يصل إليك الا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يدك بمثل ما صار إليك .

ـ مالك لا تأتينا ياأبا حازم ؟

وما أصنع بإتيانك ياأمير الؤمنين ؟ إن أدنيتنى فتنتنى ، وإن أقصيتنى أخزيتنى ، وليس عندك ما أرجوك له[١] ، وليس عندى ما أخافك عليه[٢] ،

ـ فارفع الينا حاجتك .

ـ قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فا أعطانى منها قبلت ، وما منعنى منها رضيت .

٤ ـ الأوزاعى يعظ المنصور

دخل الأوزاعى على المنصور ، فقال له : بلغنى أن رسول الله (ﷺ) قال : من بلغه عن الله نصيحة فى دينه فهى رحمة من الله سيقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر

---

(١) ليس عندك شىء أريده فأحضر إليك راجيا أن أناله منك .

(٢) ليس لدى شىء أخاف أن تأخذه . فأحضر إليك راجيا ألا تأخذه .

وإلا فهى حجة من الله عليه ليزداد إثما ويزداد الله عليه غضبا .

يا أمير المؤمنين : إنك تحملت أمانة هذه الأمة وقد عرضت على السموات والأرض [والجبال] فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس فى تفسير قول الله ـ عز وجل ـ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . أن الصغيرة التبسم ، والكبيرة : الضحك ، فما ظنك بالقول والعمل ، ؟ أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى قرابتك من رسول الله (ﷺ) تنفعك مع المخالفة لأمره ، فقد قال (ﷺ) : يا صفية عمة محمد ، ويا فاطمة بنت محمد ، استوهبا أنفسكما من الله[1] ، فإنى لا أغنى عنكما من الله شيئا ، وسأل جدك العباس إمارة من النبى (ﷺ) فقال : أى عم نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها ، . [وذلك] نظرا[2] لعمه وشفقة عليه من أن يلى فيحيد عن سنته جناح بعوضة ، فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا ، وقال رسول الله (ﷺ) «ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة» . وحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا ، ولما استطاع من عوراتهم ساترا ، وبالحق فيهم قائما ، فلا يتخوف[3] محسنهم رهقًا ولا مسيئهم عدوانا ، وقد كانت بيد رسول الله (ﷺ) جريدة يستاك بها ويردع عنه المشركين بها ، فأتاه جبريل ، فقال يا محمد : ما هذه الجريدة ؟ اتركها لا تملأ قلوب قومك رعبا . فما ظنك بمن سفك دماءهم ، وقطع أستارهم ، ونهب أموالهم[4] :

يا أمير المؤمنين : إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[5] دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، فقال له جبريل : إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك ،

اعلم يا أمير المؤمنين أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة ، ولا ثمرة من ثمارها ، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لأهلك الناس رائحته ، فكيف بمن يتقمصه ، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الدنيا

---

(١) اسألا الله أن يهبكما أنفسكما ويغفر لكما .

(٢) رحمة به .

(٣) ينتقص ماله .

(٤) يعنى بذلك المنصور نفسه .

(٥) هو رسول الله (ﷺ) .

لأحمه[1] ، فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لأذابته ، فكيف بمن يسلك فيها[2] ، ويرد فضلها[3] على عاتقه ؟

مقامات الوعاظ أمام المنصور

١ ـ عابد لم يعرف

كان المنصور يطوف بالبيت ليلا فسمع قائلا يقول : اللهم إنى اشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فاستدعاه المنصور ، فقال له : لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى ، فطلب أمانا فأمنه فقال :

«يا أمير المؤمنين إن الذى دخله الطمع ، وحال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت ... إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد وحراسا معهم السلاح ، ثم سجنت نفسك عنهم فيها ، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها ... ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهو ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير إليك . ولا أحد الأدلة فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك .. تجبى الأموال وتجمعها ، قالوا : هذا خان فالنا لا نخونه ، فأتمروا ألا يصل إليك من علم أخبار الناس الا ما أرادوا ... فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم ... وكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم ، فامتلأت البلاد بالطمع ظلما وبغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل[4] .

وهى عظة طويلة تصور سوء النظام إذ ذاك وسوء سلوك المقربين من الخليفة وحجبهم إياه عن الناس كما أن بها توبيخا للخليفة وتخويفًا له من سوء حسابه ، وقد تأثر بها

(١) حوله حميا أو حما .

(٢) ينظم ويضم فيها .

(٣) ما بقى منها .

(٤) انظر هذه العظة كاملة فى عيون الأخبار والعقد الفريد ١٥٩/٣ ط لجنة التأليف .

المنصور وبكى وقال ليتني لم أخلق ويحك فكيف أحتال لنفسى ، ولكن عندما قام الخليفة للصلاة اختفى الرجل ولم يجده أعوان الخليفة .

وربما كانت هذه العظة مصنوعة . ولكن صنعتها على هذا الوجه تبدى ما كان يشكوه الناس من احتجاب الحكام عن العامة وإقامة الوسطاء بينهم وبين الناس فهم لذلك لا يشعرون بما يعانيه الناس من ظلم الأعوان والولاة .

٢ – عمرو بن عبيد والمنصور

دخل عمرو بن عبيد على المنصور ، وعنده ابنه المهدى ، فقال له أبو جعفر هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين ورجائى أن تدعو له ، فقال : يا أمير المؤمنين : أراك قد رضيت له أمورا يصير إليها وأنت عنه مشغول . فاستعبر أبو جعفر وقال له عظنى أبا عثمان ! قال :

يا أمير المؤمنين : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها ! هذا الذى أصبح فى يديك لو بقى فى يد من كان قبلك لم يصل إليك ، قال أبا عثمان أعنى بأصحابك ! قال : ارفع علم الحق يتبعك أهله .

ثم خرج فاتبعه أبو جعفر بصرةٍ فلم يقبلها وجعل يقول :

كلكم يمشى رويدا كلكم خاتل صيد

غير عمرو بن عبيد

٣ – مع سفيان الثورى

لقى أبو جعفر سفيان الثورى فى الطواف ، وسفيان لا يعرفه ، فضرب أبو جعفر بيده على عاتق سفيان وقال أتعرفنى ! قال : لا ولكنك قبضت على قبضة جبار – وعرفه ، فقال له الخليفة : عظنى أبا عبد الله قال سفيان : وما عملت فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت : قال : فما يمنعك أن تأتينا ، قال : الله نهى عنكم فقال تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، فمسح أبو جعفر يده به ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارا .

الأجوبة

يراد بالأجوبة ما يأتى منها على البديهة وبدون روية مع إصابة المعنى وإيجاز اللفظ . وهى تذكر مع الخطب وتلحق بها لأن الخطيب كما ذكرنا قد يقاطع من معارض له أو متحد . وقد يكون الموقف مما يحتم أن تكون ثم إجابة . والسكوت عنها يضيع على المتكلم فرصته أو يسقطه من اعتبار سامعيه أو يضيع عليه ما يتطلبه من إقناع من يخطبهم . والإقناع شيء هام فى الخطبة . وأكثر ما يتعرض لهذا خطباء المحاكم . ودعاة الانتخابات وربما يتعرض له رجل الدين أيضًا ولكن ذلك ليس كثيرًا .

وذكر الأجوبة على أى حال فيه تدريب للخطيب وفتق للذهن وتوجيه إلى ما ينبغى أن يقال وما يناسب المواقف المختلفة . ثم هو بما يذكره من أحداث تاريخية ومناسبات ورد فيها هذا الجواب أو ذاك نوع من الثقافة ولون من المتعة والتفكهة . والجواب الحاضر القاطع يتوقف على الذكاء والجرأة جميعًا . ومن فقد الذكاء ارتج عليه ولم يجد ما يقوله . ومن فقد الجرأة تلجلج واضطرب . وإلى جانب هاتين لا بد من المقدرة الكلامية التى تمكن الشخص أن يصوغ كلامه تلقائيًا وبدون معاناة فى عبارة جذابة طلية . وبتعبيره الموجز الرصين يؤثر فى سامعيه ويكتسب ميلهم نحوه . وقد وصف ابن عبد ربه هذه الأجوبة بأنها «أصعب الكلام كله مركبًا . وأعزه مطلبًا . وأغمضه مذهبًا . وأضيقه مسلكًا» . .. والأمر كما ذكر . وقد وضحه بأن المجيب عليه أن ينقض فى لحظة وبكلمات موجزة ما أَعَدَّه له خصْمه . وحبَّر عِبارته . وأطال تفكيره فيه . وهذه الإجابة موقوفة على لحظتها . فإذا لم توات صاحبها فى حينها عدمت فائدتها . والعرب يقولون : شر الرأى الدّبرى[1] . وهو الذى يأتى بعد فوات الفرصة .

وعلى المجيب على أى حال ألا يسرع كل الإسراع ولا يبطئ . ولكن أهم ما يجب له ألاّ يصدم وألا يرتبك أو يظهر كبير اهتمام . فإذا عز عليه الجواب السريع أغضى عنه واستمر فى كلامه ريثما يجد ما يدفعه به . ثم يعرض له بشىء من السخرية والاستخفاف . وهو فى هذه الحالة لا يؤدى ما يؤديه الجواب السريع ولكنه تخلص بوجه ما . والأجوبة الناجحة . ذات الأثر فى موقفها تعين المتدربين على الخطابة لأنها تفيدهم فى بعض مواقفهم أحيانًا للتفكهة وأحيانًا للتدرب على التخلص من المآزق . وكثير منها طرف تتفرج بها النفس . ويستريح لها الخاطر المكدود . والقلب المهموم . وننقل هنا

---

(١) الدبرى بسكون الباء وفتحها .

أطرافًا منها لهذه الأغراض . وبعض هذه الأجوبة تكون إشارة لحادث سبق أو شعر قيل ، أو نكتة لاذعة . أو غفلة مخزية . وفى هذه الحالات لا يفهم سامع الإجابة أو المحاورة مغزاها إلا إذا عرف ما تشير إليه من هذه الأشياء .

قال ابن عبد ربه : وأحسن الجواب ما كان حاضرًا مع إصابة معنى وإيجاز لفظ . وقيمة هذه الأجوبة أنها توضح ما يدحض به المجيب على بديهته ما دبره السائل على رويته . وقد يبهت المتكلم الأول لهذه الإجابة وقد يتماسك ويظهر تبلدًا حتى لا يخجل أو يضحك السامعين منه .

أما إطالة صاحب العقد فى محاورات وأجوبة بنى أمية وبنى هاشم فلأنها صور من التاريخ يجمل بالمتأدبين أن يعرفوها .

واشتهر فى العرب أشخاص مشهورون بالإجابة المفحمة والرد السريع على البديهة . وكانت قريش من القبائل المشهورة بالإجابة . ووصفهم القرآن بأنهم قوم خَصِمُونَ . واشتهر منهم بها أبو الطفيل عامر الكنانى . وعثمانُ بن عفّان . وكان يقال : اتقوا جواب عثمان . واشتهر بالإجابة والفكاهة أبو العيناء ، وبالإجابة الفلسفية أبو الهذيل العلاف .

- ١ -

كان أبو الطفيل عامر بن وائلة الكنانى من المتشيعين إلى على بن أبى طالب وكان من شعراء الصحابة المجيدين . وكان من المعمرين ولد عام أحد ومات بمكة سنة مائة . وهو آخر الصحابة ـ ومن شعره :

وما شاب رأسي من سنين تتابعت على ولكن شيبتني الوقائع

دخل على معاوية مرة فجرى بينهما هذا الحوار .

قال له معاوية :

ـ كيف وجْدُك على خليلك أبى الحسن ؟

ـ كوجد أم موسى على موسى . وأشكو إلى الله التقصير .

ـ أكنت فيمن حاصر عثمان ؟

ـ لا ، ولكنى كنت فيمن حضره .

ـ فما منعك من نصره ؟

ـ وأنت ما منعك من نصره إذ تربصتْ به ريبُ المنُون ؟ - وكنت مع أهل الشام . وكلهم تابع لك فيما تريد ؟

ـ أوما ترى طلبي لدمه نصرة له ؟

ـ بلى ولكنك كما قال الشاعر :

لا أعرفنّك بعد الموت تذكرني وفى حياتى ما بلغتنى زادى

« الاستيعاب »

ـ ٢ ـ

قال معاوية لعمرو بن العاص : ما أعجبُ الأشياء ؟

قال عمرو : غلبة من لاحق له ذا الحق على حقه

قال معاوية : أعجب من ذلك أن يعطى من لاحق له ماليس له بحق من غير غلبة .

وواضح أن عمرًا يُعرِّض بمعاوية أن غلب عليا وعليٌّ صاحبُ حق ومعاوية يعرض بأخذ عمرو مصر طعمة ، وهى ليست حقاله .

ـ ٣ ـ

ولى الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة على مصر ، ثم عزله عنها . فقدم إلى دمشق ومعه إبل محملة وأمتعة كثيرة ، فقال الوليد : أيتها العير إنكم لسارقون ، فقال مسلمة إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل .

ـ ٤ ـ

دخل عقيل بن أبي طالب على معاوية . فقال معاوية لأصحابه :

ـ هذا عقيل ، عمه أبو لهب :

فقال عقيل : وهذا معاوية ، عمته حمالة الحطب ـ (وكانت جميلة زوج أبى لهب أُختَ أبي سفيان بن حرب) ثم قال عقيل له : إذا دَخلت النار فاعدل ذات اليسار . فإنك ستجد عمى أبا لهب مفترشًا عمتك حمَّالة الحطب . فانظر أيهما خير : ألفاعل أم المفعول به .

ـ ٥ ـ

قال معاوية يومًا لعقيل :

أنا خير لك من أخيك على .

فأحاب عقيل : صدقت ، إن أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسه منك .

ـ ٦ ـ

قال رجل لعقيل هذا :

ـ إنك لخائن حيث تركت أخاك ورغبت إلى معاوية .

فأجاب عقيل :

ـ أخون منى ـ والله ـ من سفك دمه بين أخى وابن عمى أن يكون أحدهما أميرًا .

ـ ٧ ـ

دخل عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقال لعمرو : أخبرنى عن الزبرقان ، فقال : شديد العارضة ، مانع لحوزته ، مطاع فى قومه . قال الزبرقان : والله يا رسول الله لقد علم منى أكثر من هذا ولكنه حسدنى . فقال عمرو : أما والله يا رسول إنه لزمن[1] المروءة ، ضيق العطن[2] ، أحمق الوالد لئيم الخال . فرأى الكراهة فى وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما اختلف قوله . فقال يا رسول الله : رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية . فقال النبى (صلى الله عليه وسلم) : إن من البيان لسحرًا .

ـ ٨ ـ

قال ابن الزبير لابن عباس : قاتلت أم المؤمنين وحوارى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . وأفتيت بترويج المتعة . فقال ابن عباس : أما أم المؤمنين فأنت أخرجتها وأبوك وخالك[3] . وبنا سميت أم المؤمنين ، وكنا لها خير بنين فتجاوز الله عنها . وقاتلت أنت

---

(١) الزمن الذى به مرض مزمن لا يصح ، أى هو مريض المروءة لا ينفع الناس بشىء .

(٢) العطن مبرك الابل ، وضيق العطن كناية عن البخل .

(٣) يريد الزبير وعبد الرحمن بن أبى بكر .

وأبوك عليا ، فإن كان مؤمنًا فقد ضللتم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافرًا فقد بؤتم بسخط الله بفراركم من الزحف ، وأما المتعة ، فإن عليًا رضى الله عنه قال : سمعت رسول (ﷺ) رخص فيها فأفتيت بها ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ، وأول مجمر [1] سطع فى المتعة مجمر آل الزبير .

- ٩ -

ذكر الحسين بن على عند معاوية ، وابن الزبير عنده ، فقال معاوية : إن يطلب الحسين هذا الأمر فقد يطمع فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن هو فوقه ، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا تعطفه قرابة ولا ترده مودة ، يسومكم خسفًا ويوردكم تلفًا . [2] [يعرض بابن الزبير] .

قال ابن الزبير : إذا والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور [3] كرجل الجراد حافاتها الأسل [4] ، لها دوى كدوى الريح ، تتبع غطريفًا [5] من قريش لم تكن أمّه براعية ثلة [6] .

قال معاوية : أنا ابن هند أطلقتُ عِقَال الحَرْب ، وشربت عنفوان المكرع [7] وليس للآكل إلا الفلذة [8] ، ولا للشارب إلا الرنق [9] .

- ١٠ -

قال الحسن بن على لحبيب بن مسلمة الفهرى [10] : رب مسير لك فى غير طاعة

---

(١) المجمر الاناء يوضع فيه النار للتدفئه والبخور ونحو ذلك . يريد أنكم أول من عمل بالمتعة .

(٢) تعريض من معاوية بابن الزبير .

(٣) تضطرب .

(٤) الرماح ، ورجل الجراد جماعاته .

(٥) سيدا ماجدا .

(٦) واحدها أثله ـ شجر ترعاه الماشية .

(٧) المكرع اسم مكان من كرع يكرع اذا شرب بفيه من الماء ، ومعاوية يريد شربت كثيرا وعلى سعة .

(٨) القطعة .

(٩) المكدر المخلوط بالطين . يريد تمتعت بالنعم الواسعة حين كان غيرى محروما . ـ وانظر هذه الحادثة فى العقد الفريد ١٠٤/٥ . والبيان والتبيين ٩٢/٢ ـ فهناك اختلاف يسير بينهما .

(١٠) هو أبو عبد الرحمن حبيب بن مسلمة بن مالك ، كان شجاعا له جهاد كثير ضد الروم حتى سمى حبيب الروم مات فى خلافة معاوية سنة ٤٢ هـ . الإصابة ت ١٥٩٥ .

الله ، قال حبيب : أما مسيرى إلى أبيك فلا ، قال : بلى ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة ، فلئن كان قام بك فى دنياك لقد قعد بك فى آخرتك ، ولوكنت إذ فعلت شرًّا قلت خيرًا كنت كما قال الله عز وجل : « خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا » ، ولكنك كما قال الله : بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كَانُوا يَكْسِبُونَ .

- ١١ -

قدم عبد الله بن جعفر[١] ، على عبد الملك بن مروان ، فقال له يحى بن الحكم : ما فعلت خُبْثَة[٢] ؟ فقال : سبحان الله ! سماها رسول الله (ﷺ) طيبة ، وتسميها أنت خبثة ! لقد اختلفتما فى الدنيا وستختلفان فى الآخرة ، قال يحى : لأن أموت بالشام أحب إلى من أن أموت بها . قال عبد الله : اخترت جوار النصارى على جوار رسول الله (ص) . قال يحى : ما تقول فى على وعثمان ، قال : أقول ما قاله من هو خير منى[٣] فيمن هو شر منهما : «إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنهم عِبَادُك ، وَإِنْ تغْفِرِ لَهُمْ فإنَّك أَنْتَ العَزِيزُ الحَكيمُ .

- ١٢ -

قال معاوية لابن الزبير : تنازعنى هذا الأمر كأنك أحق به منى ، قال : لم لا أكون أحق به منك وقد اتبع أبى رسول الله (ﷺ) على الإيمان ، واتبع الناسُ أباك على الكفر .

قال معاوية غلطت يا ابن الزبير ، بعث الله ابن عمى نبيًا فدعا أباك فأجابه فما أنت إلا تابع لى ضالاً كنت أو مهديًا[٤] .

---

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبى طالب .

(٢) يريد طيبه ، وهو اسم المدينة المنورة .

(٣) يريد نبى الله عيسى عليه السلام .

(٤) كان هذا هو الاسلوب الذى يحارب معاوية ابن الزبير به ، إذ يقول له : إنهم ليسوا من صميم قريش ، واكتسبوا المجد باتصالهم ببنى هاشم ، السيدة خديجة صارت أم المؤمنين بزواجها من رسول الله ، والزبير شرف بأنه ابن عمته . وهكذا له معه محاورات كثيرة كلها تدور على هذا المحور .

- ١٣ -

جلس جماعة من الأمويين عند هشام ، وكان فيهم العباس بن الوليد . فذكروا الوليد بن يزيد[١] ووصفوه بالحمق . وكان هشام يكرهه . فلما دخل الوليد قال له : كيف حبك للروميات ؟ قال إن أباك كان بهن شغوفا . قال : إنى لا أحِبُّهن قال : كيف لا يحببن وهن يلدن مثلك[٢] ؟ قال العباس : اسكت فلست بالفحل يأتى عسبه[٣] مثلى . !

قال له هشام : ما شرابك يا وليد . قال : شرابك يا أمير المؤمنين . ثم خرج فقال هشام لجلسائه : هذا الذى تزعمون أنه أحمق . !

- ١٤ -

قال ثابت بن عبد الله بن الزبير إنى لأبغض أهل الشام ، فقال له سعيد بن عمر بن عثمان : تبغضهم لأنهم قتلوا أباك ، قال صدقت . لكن المهاجرين والأنصار قتلوا أباك .

- ١٥ -

أُتِىَ الحجاجُ بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه : ما ترون فيها ؟ قالوا : اقتلها . فقالت له : كان وزراء صاحبك خيرًا من وزرائك ! قال الحجاج : ومن صاحبى ؟ قالت فرعون : استشار وزراءه فى موسى فقالوا : أَرْجِهْ وأَخاه .

- ١٦ -

أتى زياد برجل من الخوارج فقال له : ما تقول فىَّ وفى أمير المؤمنين ؟ قال : أما الذى تسميه أمير المؤمنين فهو أمير المشركين . وأما أنت فما أقول فى رجل أوله لزنية وآخره لدعوه[٤] .

---

(١) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك تولى الخلافة بعد هشام سنة ١٢٥ . وأمه من ثقيف بنت محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج بن يوسف . وكانت تدعى أم الحجاج . وكان هو يكره آل المهلب . وكان ما جنا محبا للهو والطرب والشراب وسماع القيان .

(٢) كانت أم العباس رومية .

(٣) العسب ماء الفحل .

(٤) أوله اتصال أبى سفيان بسمية حراما . وآخره ادعاء معاوية أنه أخوه .

– ١٧ –

لقى عثمان بن عفان على بن أبى طالب . فأخذ يُعاتبه فى شىء بلغه عنه . فسكت على ولم يقل شيئا . فقال له عثمان : مالك لا تجيب ؟ قال على : ليس لك عندى إلا ما تحب . وليس جوابك إلا ما تكره .

– ١٨ –

قال معاوية مرة : أيها الناس . إن الله فضل قريشا بثلاث . قال لنبيه (ﷺ) : وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . فنحنُ عشيرتُه . وقال : وَإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ . فنحن قومه . وقال : «لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وآمَنَهُم منْ خَوْفٍ . ونحن قريش ! فأجابه رجل من الأنصار قائلا على رسلك : إن الله يقول : وَكَذَّبَ به قَوْمُكَ وَهُو الحَقُّ . وأنتم قومه . ويقول : ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وأنتم قومه . وقال الرسول (ﷺ) : يَارَبِّ إنَّ قَوْمِى اتخذوا هذا القرآن مهجورا . وأنتم قومه : ثلاثٌ بثلاث . ولو زدتم زدنا» .



خاتمة

أخى الداعية الإسلامى

جمعت لك هذه المعلومات على عجل . وألفت بينها ورتبتها ترتيبا آمل أن تجد فيه عونا وسهولة لدرس ما كتبت لك .

وضعت لك أول الكتاب أطرافا من قواعد الخطابة وأسس تكوينها . وبصرتك بطريقة تأليف الخطبة وطريق إلقائها . ووضعت لك فى هذا من الأمثلة وعرضت من المواقف ما أرجو أن تجد فيه عونًا كبيرًا على النجاح فى خطبتك ثم النجاح فى مهمتك . وهى الدعوة الاسلامية . إن مهمتك مهمة شاقة ولا ريب . ومشقتها تحتم عليك أن تستعد لها عدة كافية . وألا تغشى ميدانها إلا وأنت مسلح بكل الأسلحة التى تخوض بها مثل هذه المعركة . وأهم أسلحتك طلاقة لسانك . وحسن تعبيرك . وإصابتك قلب الموضوع الذى تتعرض له . وما قدمته لك من هذا خليق أن يدربك ويخرجك حتى تكون خطيبًا ناجحًا ـ إن شاء الله تعالى .

سئم الناس من زمن بعيد هذه العبارات المكرورة . والموضوعات المعادة وأصبحوا يطلبون من الخطيب الدينى شيئًا جديدًا . يمس حياتهم ولا ينقطع عن ماضيهم . يردهم إلى قواعد الدين فى رفق . ويعرفهم مزايا هذا الرد فى الآخرة والأولى . جميعًا . وأنت تعلم أن حياة الناس رغم تجدد مظاهرها ومستحدات آلاتها . هى صورة واحدة من تصارع الغرائز . واضطراب النفوس وغليان الأحقاد . وأنت تواجه هذا الأتون المضطرم . لكى تطفىء ناره المتقدة وتعيدها بردًا وسلامًا . وسواء فى هذا كسر العصا أو تحطيم المدفع . أو خلع أنياب الأسد وقص أظافره . كل ذلك يرجع إلى شىء واحد أساسى . هو إطفاء ثورة الغريزة . وتخفيف حدة الأحقاد . وإشاعة روح المودة والإخلاص .

أنت ـ يا خطيب المسجد ـ أشد فاعلية فى نفوس الجماهير من رجل البوليس الحاكم . ورجل المباحث المستطلع . والوزير الآمر.. دع عنك رجل المحاماة ووكيل النيابة ومن إليهما.

رجل البوليس فى كثير من الأحيان لا يزيد على شن حرب داخلية بينه وبين المجرمين . والناس فى أكثر مواقفهم يهابونه ولا يحبونه . أما أنت فإنك تقتلع جذور الشر من نفس المجرم . وتبعث فى نفسه خشية الله وحب الحق والعدل ومعاونة الناس والتخلى عن شىء من حقوقه مرضاة للآخرين . فأنت توفر على رجل البوليس والقائم على أمن الدولة جهدًا كبيرًا . وأعمالاً شاقة وإن كانوا لا يشعرون . إن الناس لا يخافونك ولكنهم يجلونك ويحبونك . إن ميدان عملك هو إصلاح الضمائر وإيقاظ العواطف النبيلة فى نفوس الناس . فعملك هو نفخ الروح فى الأجساد . وبث الحياة فى الرمم . وكيف يكون الإنسان إنسانًا متميزًا عن عجم الحيوانات إلا بروحه وضميره . وسمو نفسه واستقامة سلوكه ؟

وجهادك فى هذا الميدان يكسوك من البهاء والشرف ما يرفعك فوق الحكام وغير الحكام . أنت تحاول بناء الضمائر الحية والنفوس الغالية . فتبنى بذلك أمتك وترفع مستوى مواطنيك . فاجعل عملك فى هذا لله وحده وارج منه وحده مثوبتك وجزاءك . والله لا يضيع أجر المحسنين.

ما أردت بهذا إطراءك وإنما أردت أن أنبهك إلى مشقة عملك وثقل رسالتك . وما تتطلبه منك من تكوين وحسن استعداد . إن رسالتك هى رسالة الأنبياء والقديسين . وما قام أحد بشىء من هذا إلا أوذى وعودى . ولكن حسبك أن تكون مقبولاً عند القلة ومرضيًا عنك من الله رب العالمين . وبقدر ما تحصل من علم . وتتدبر ما تقرؤه من قواعد وأحداث تسمو نفسك أولا . وتنجح رسالتك ثانيا . فاحرص بقدر ما تستطيع على سمو النفس ونجاح الرسالة جميعًا . وسبيلك إلى هذا هو نيل العلم من شتى معادنه وبكل وسائله . وأذكرك بالحكمة الغربية «الجهل لعنة الله أما العلم فهو الأجنحة التى تسمو بها إليه».

جمعت لك فى هذا الكتاب ـ بعد درس الخطابة ـ فنونًا مما يتصل بها ويعين عليها ـ وصايا ومناظرات وأجوبة ومجالس وعظ ... وليس شىء منها بعيدًا عن الخطابة

ولا ضئيل الأثر فى العون عليها . واقتطفت لك لمعا من أحداث التاريخ الإسلامى تجد فيها لك مددًا وتبصرة وعبرا :

قلت لك إن حياة الناس صورة معادة ، فإن أحداث اليوم هى أحداث الأمس . وإنسان الغابة هو إنسان المدينة ، غير أن أحدهما يحارب بحجر والثانى يرمى قنبلة ، والأول يقتل شخصًا أو اثنين والثانى يقتل مئات من الناس ، والشخص القوى فى الغابة يستولى على مرعى أو بئر ماء أما الشخص القوى الممدن فإنه يستولى على قطر بأكمله ، ويأكل طعام شعب أو عدد من الشعوب ، ولو نجح الدعاة المصلحون فى تهذيب الغرائز والتسامى بها كما نجح الماديون فى التسامى بالمبانى واختراع المهلكات لتحولت حياة الناس إلى شىء آخر غير ما هم عليه الآن .

وأنت إذا رجعت إلى تاريخنا الإسلامى ، وتموجات أحداثه ، وتقدم المسلمين مرة وتراجعهم مرة أخرى وجدت هناك عنصرًا واحدًا يكاد يكون عاملاً مشتركًا فى كل هذه الأحداث وبين كل شعوبنا فى مختلف العصور . ذلك العامل هو صلاح الضمائر تارة وفسادها تارة أخرى ، ودستورنا القرآنى إنما يعنى باصلاح الضمائر والقلوب ، وأنت حين تقولها كلمة عابرة إنما فسد المسلمون حين تخلوا عن القرآن يعتبرها سامعوك كلمة معادة ، أو عبارة مبتذلة ، لكنك إذا أيدتها بأحداث التاريخ وواقع الشعوب وجدت ووجد سامعوك دليلاً مقنعًا وحجة لا تحتمل الجدال .

هذا الكتاب صديقك وسميرك ، ليس من الحتم أن يقرأ كله فى عام دراسى ، ولكن أرى من الحتم أن تقرأه أنت كله ، وستجدك بعد قراءته فى حاجة إلى قراءة المراجع التى اعتمدت أنا عليها واقتبست منها . وحسبى أن أوقظ فى نفسك رغبة القراءة والمزيد من الاطلاع . وليست قراءة النماذج التى قدمت لك هينة الأثر فى رفع أسلوبك الأدبى وتفكيرك العقلى ، وإمدادك بالرأى والتعبير ، ولكنك بقدر ما تقرأ وتدرس منها تجدك بحاجة إلى المزيد من الدرس والقراءة ، أو بعبارة أخرى تجدك قد تساميت فى نفسك وأسلوبك وتفكيرك . فإذا انبعث أفراد من قرائى إلى هذا الحد فحسبى أن أكون قدمت شيئًا ما أتقرب به إلى الله تعالى .

اللهم اجعل هذا العمل خالصًا لوجهك الكريم ، فإن كان به ما يشوبه من حب الدنيا فتجاوز عنى بفضلك وكرمك ، وكل مثوبة منك ـ يا ربى ـ وإن قلت هى فيض وبر ورحمة وسعة عطاء .

اللهم عاملنا بفضلك ورحمتك ، واعف عنا فيما نرتكبه من خطايا وأخطاء .

ربنا عليك توكلت وإليك أنبت وأنت حسبي منك العون وإليك المصير .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي خير من دعا إلى الله وخير من هدى إلى صراط الله المستقيم .

والحمد لله رب العالمين

العبد الضعيف

عبد الجليل شلبي

الفهرس